د. جمال حمدان

٦ أكتوبر في الإستراتيجية العالمية

ع. العزّل



KITAB
AL-HILAL

الاصدار الاول
يونيـو ١٩٥١

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكـرم محمـد أحمـد رئيس مجلس الإدارة

عبدالحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٦٢ - جماد آخر - أكتوبر ١٩٩٧ No: 562-OC-1997

فاكس FAX-3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

عادل عبدالصمد سكرتير التحرير

أسعار بيع العدد فئة ٨٠٠ قرش

سوريا ٣٠٠ ليرة - لبنان ١٦٠٠٠ ليرة - الأردن ٦٥٠٠ فلس - الكويت ٣٥٠٠ فلس - السعودية ٢٠ ريالا - البحرين ٢ دينار - قطر ٣٠ ريالا - دبي / أبوظبي ٢٠ درهما - سلطنة عمان ٢ ريال

٦ أكتوبر
فى الاستراتيجية
العالمية

دكتور جمال حمدان

دار الهلال

الغلاف للفنان

حلمي التوني

مقدمة

مخطيء جدا من ينظر إلى معركة سيناء والجولان المظفرة ، التى عاشها ولازال يعيشها اليوم كل عربى بكل خلجة وخلية من أعصابه ووجدانه ، وبكل نبضة وومضة في قلبه وكيانه ، نقول مخطيء هو جدا حين ينظر إليها فى إطارها الضيق وفى أبعادها المحلية كمجرد النقيض الموضوعى المباشر لمعركة يونيو ١٩٦٧ .

مخطيء جدا من يظن عبورنا المقدس إلى قدس الأقداس سيناء أمرا ستقتصر دلالته في النهاية على «إزالة آثار العدوان» ، أو أن العودة إلي سيناء والجولان تعني مجرد العودة إلى ما قبل ٥ يونيو ، أي إلى حدود وأوضاع وتوازنات ٤ يونيو .

كلا ، ليست حرب أكتوبر التحريرية العظمى والماجدة مجرد المكافيء الموضوعي أو الرد الاستراتيجى على نكسة يونيو ، وليس ٦ أكتوبر الخالد مجرد نسخ أو ناسخ ليوم ٥ يونيو الحزين . ففى يقين هذا الكاتب أن التاريخ سوف يسجل ٦ أكتوبر كأخطر وأفعل ، مثلما هو أعظم وأروع ، تحول مؤثر فى تاريخ الصراع العربى - الاسرائيلى

المفعم ، وبالتالى فى تاريخ العرب جميعا ، ومن ثم ودون إفراط فى المبالغة فى تاريخ العالم المرئى كله .

ان هذه اللحظة التاريخية وهذه الأيام الفاصلة المشحونة بالانفعالات المتوقدة والتوتر المضطرم والترقب المتلهف ، قد لا تترك مجالا للرؤية المستأنية ولا للفكر المتروى ، وقد تغلب فيها شحنة العاطفة الدافقة والحماس المتأجج على طاقة العقل والروية وعلى بعد النظر ووضوح الرؤية . ولكننا مع ذلك نزعم أن هذا ليس وقتا للحماس فقط بل هو وقت للفكر أيضا ، بل ليس وقتا للانفعال بقدر ما هو وقت للفعل . كما نرى أن صورة المستقبل ، على الأقل فى بروفيله العريض ، قد فرضت منذ العبور نفسها ، وأصبح علينا أن نمد بصرنا وبصيرتنا عبر سيناء والجولان إلى ما وراء الجولان وسيناء ، وعبر المعركة إلى ما بعد النصر .

فى مثل هذا الاطار التاريخى والاستراتيجى الشامل وحده ، نحن نجادل ، ينبغى أن ننظر إلى المعركة الوطنية العظمى التى دارت رحاها أخيرا على أرض سيناء والجولان ، بوابة مصر وعتبة سوريا اللتين تحولتا اليوم إلى قبلة مصر وسوريا ، واليهما تحول قلب البلدين ، واللتين ستتحولان يوما إلى كماشة العرب حول عنق العدو فى عقر داره - دارنا السليبة فلسطين .

ليس من السابق لأوانه اذن أن نحاول تقييما شاملا محيطا للمعركة بكل أبعادها وفي أوسع أطرها ، ابتداء من تطوراتها الموضعية الميدانية إلي موقعها من الاستراتيجية العالمية برمتها ، مرورا بكل أصدائها وإشعاعاتها وانعكاساتها العسكرية والسياسية وكذلك نتائجها ومحمولاتها واحتمالاتها الجيوستراتيجية والجيوبوليتيكية .

حقا قد يكون الوقت مبكرا نوعا للوصول إلى أحكام نهائية وانتهاءات قاطعة يقينية ، ولكن هذا لا يمنع من المحاولة الاجتهادية . ولقد نشرت الصحافة العالمية بالفعل فيضا غزيرا من الكتابات السريعة أو الدقيقة والمخففة أو المعمقة ، كما توفرت فورا مراكز الدراسات السياسية والاستراتيجية واكاديميات الأبحاث العسكرية فى كل أركان الدنيا على تحليل المعركة وتشريحها بطريقة علمية منهجية ، ولن يمضى وقت طويل حتى تتكون لدينا مكتبة كاملة وحافلة في هذا المجال .

وما نود أن نقدمه اليوم فى هذه الدراسة هو عرض منهجى علمى (لا إعلامى) بقدر الامكان ومسح عام ولكنه شامل في حدود الممكن والمتاح ، لتلك المعركة المجيدة ، لا يضعها هى وحدها فقط فى البؤرة وتحت المجهر ، وانما كذلك يضع الصراع المصيرى كله فى اطارها .

نريد ، بعبارة أخرى ، أن نرصد القضية نفسها وبأسرها من خلال منظور المعركة ومنظارها ، كأنها المنشور الذى تمر منه كل أشعتها وخيوطها لتنصب فى حزمة ضوئية واحدة نهائية أو تتحلل إلى عواملها وطيوفها الأولية . المطلوب هو ألا نحلل خيوط هذه المعركة وكفى ، وانما كذلك أن ننسجها فى شبكة الصراع كله .

وليس أقل أهمية وضرورة بعد هذا أن نضع المعركة كلها فى المنظور العالمى الواسع ، بحيث نحدد مكانها من الاستراتيجية الكوكبية ، وقعا وموقعا ، ودورا ووظيفة . هدف طموح وشاق لا شك ، وربما شائك أيضا ، ولكنه وحده المنهج الصحيح فى دراسة معارك المصير ، وهو بدوره الجدير بمثلها وحدها .

على هذا الأساس تتحدد خطة الكتاب . فنبدأ أولا بفصل مطول عن سيناء ، قدس أقداس مصر .

الفصل الثاني وما بعده يدور حول المعركة : مقدماتها وخططها ، ثم مراحلها العسكرية البارزة ابتداء من العبور التاريخى إلى اقتحام الخط العدو فتحرير القاعدة الأرضية العريضة في غرب سيناء وأخيرا عملية التسلل أو الثغرة . وتأكيدا لوحدة المعركة على الجبهتين المصرية والسورية ، نستكمل العرض مباشرة ودون انقطاع بتحليل مركز للمعركة السورية ، يصور المسرح الطبيعي ثم يحدد تطوراتها ومراحلها هى الأخرى .

وفى تحديد وتصنيف هذه المراحل ، تحاول الدراسة أن تعيد تركيب «سيناريو» المعركة ، ان صح التعبير ، فى تسلسله المنطقى وتداعى أحداثه الطبيعى ، بحيث تخرج الصورة النهائية واضحة فى الذهن كما هى خفيفة الحمل فى الذاكرة . فإذا ما فرغنا من هذا الاستعراض الشريطى ، جاز لنا أن ننظر إلى المعركة ، على جبهتيها وبشتى مراحلها ، ككل وكوحدة واحدة نظرة تحليلية وتركيبية معا ، جامعة وشاملة . فنحاول أولا التعرف على خصائصها الأساسية العامة ، ثم نضعها بعد ذلك فى الميزان : ما نتيجتها الصافية ، ولمن كان النصر فيها .

ثم يلى بعد ذلك الفصل السادس ، وهو عن السادس من أكتوبر فى الاستراتيجية العسكرية . فليست معركة أكتوبر من الناحية العسكرية بالمعركة البسيطة أو المحدودة ، ولا هى بالمعركة التقليدية الرتيبة أو الروتينية كذلك . ومن ثم يحاول الفصل أن يحدد أصالتها وأوجه تفردها وريادتها ثم يشخص مقوماتها وملامحها الأساسية : فى السلاح وأنواعه ونوعيته واستخدامه ، فى القوة البشرية ودورها ، فى طبيعتها ومدتها وتوقيتها ، وفى كل ما أحدثته من انقلابات فى الفكر الاستراتيجى وفى النظريات العسكرية .. الخ .

واستكمالا للموضوع ، ننتقل إلى دراسة مقارنة للسادس من أكتوبر في الاستراتيجية الاقليمية . فنعقد أولا مقارنة بين معركة اكتوبر وحرب الهند - الباكستان ، أخر حرب محلية سبقتها وأقربها شبها بها في كثير من النواحى العسكرية والسياسية بل والصراعية العامة . ثم نمضى إلى مقارنة أكثر تفصيلا بين معركة أكتوبر ونقيضتها غير الأثيرة على الاطلاق والبغيضة جدا معركة يونيو ، لنجدهما على طرفى نقيض بالفعل كالشىء وصورته مقلوبة معكوسة فى مرآة . وأخيرا نضع المعركة موضع المقارنة مع المعارك الكبرى فى الحرب العالمية الثانية ، باعتبار أن الصراع العربى - الصهيونى هو إلى حد أو آخر تصغير أو تقريب للصراع الأوربى - النازى من حيث ان العنصرية والتوسعية والعسكرية قاسم مشترك بين الطرفين العدوانيين فى كل منهما .

بعد هذا يبدأ باب جديد مداره اكتوبر فى استراتيجية السياسة العالمية . لقد انتقلنا من الضيق إلى الواسع ، ومن الاطار المحلى والاقليمى إلى الاطار الدولى العريض . النظرة هنا كوكبية والأبعاد عالمية ، فأصداء ٦ اكتوبر وأضواؤه ، اشعاعاته وانعكاساته ، تملأ الدنيا وتلف حول الكرة الأرضية وتتردد فى كل آرجائها لا أقل . إنها

ليست مجرد حدث عسكرى مدو أو فرقعة محلية مبهرة . وعلينا اذن أن «نركب» المعركة فى منحنيات الاستراتيجية العالمية وفى معادلة القوة الدولية .

فنبدأ أولا بفصل عن العرب والمعركة : أين كانوا قبلها وكيف ، تأثيرات يونيو السياسية وطنيا وقوميا ودوليا ، ثم الانقلاب الذى أحدثه ٦ اكتوبر فى دنيا العرب على المستويات الثلاثة نفسها ، مغزاه ومداه ، مستقبله ومستقبلهم .. الخ . ولما كانت معركة البترول هى الوجه الآخر لمعركة الميدان وصنوا لها ، وكانت معركة البترول معركة عالمية الأبعاد بالدرجة الأولى ، فقد أفردنا فى نهاية الفصل جزءا خاصا عن حرب البترول وتطوراتها ومدى فاعليتها ووقعها على العالم ، واضعين الضغط دائما على الجوانب السياسية الواسعة جنبا إلى جنب مع الجوانب الاقتصادية المباشرة .

وما دمنا قد عقدنا فصلا مستقلا عن العرب والمعركة ، فلا بد من فصل مناظر عن العدو والمعركة . انه طلبتها وضحيتها ، وهو أولى بدروسها وعبرها . وهكذا عرضنا أولا لموقف العدو المتغطرس والمفتون قبل اكتوبر ، خططه ومشاريعه ونواياه وتصريحاته ، عربدته واعتداءاته ... الخ . حتى إذا انقلبت الصورة وانعكست المرآة فى اكتوبر ، أصبح علينا أن نحدد نتائجها ونحلل آثارها الانقلابية عليه : الانهيار النفسى ، اختلال التوازن الاستراتيجى ، سقوط استراتيجيته الاقليمية ، وأخيرا وليس آخرا تصدع نظرية الأمن الاسرائيلى .

وعند كل واحدة من هذه النقاط نتوقف قليلا أو كثيرا بالدراسة والتشريح .

العالم والمعركة هو موضوع الفصل التالى . فلقد كان العالم دائما الطرف الثالث فى الصراع العربى - الاسرائيلى ، ضابطا وضاغطا ، شريكا أو متطفلا ، عدوا أو صديقا ... الخ . وكان الصراع بدوره عالمى الأبعاد منذ البداية بقدر ما هو صراع محلي فى النهاية . من هنا نتتبع دور العالم فى القضية وموقفه منها ، قبل وأثناء وبعد يونيو ، حالة اللاحرب واللاسلم ، دور الأمم المتحدة ، دور القوتين الأعظم والوفاق ، دور المتغيرات الدولية ... الخ . ثم أخيرا نرى كيف انقلب المفعول به فاعلا ، فأصبح اكتوبر آخر وأخطر المتغيرات الدولية ، فرض نفسه على الجميع وترك بصمته على كل تلك الأطراف . وهنا نحلل تباعا وعلى الترتيب أثر المعركة على الوفاق ، على أوربا الغربية ، على افريقيا ، ثم أخيرا على الولايات ، المتحدة مع العدو الاسرائيلى .

وإذا كانت الدراسة قد انتهت إلي أن الرحلة أمام التحرير العربى والاسترداد المقدس ما تزال طويلة ومريرة وشاقة ، وإذا كان اكتوبر هو مجرد الخطوه الاولى فى رحلة الآلف ميل ، فإن روح السادس قد قضت مرة واحدة والى الابد بعودة الروح وفتحت إلى النهاية باب الامل وطريق العودة . ومن هنا نبدأ .

الباب الأول

الأرض والمعركة

الفصل الأول

قدس أقداس مصر

سيناء – ٦١ ألف كيلو متر مربع ، حوالى ٦٪ أو $\frac{١}{١٦}$ من مساحة مصر ، أو نحو ٣ أمثال مساحة الدلتا – تبدو على الخريطة كمثلث منتظم بدرجة أو بأخرى ، ارتفاعه من رأس برون (البردويل) حتى رأس محمد نحو ٣٨٠ – ٣٩٠ كم ، وأقصى عرضه بين السويس والعقبة نحو ٢١٠ كم . أى أن طوله نحو ضعف عرضه إلا قليلا ، قل بالأرقام المستديرة ٤٠٠ ، ٢٠٠ كم على الترتيب ، ولعل الأدق لهذا أن نقول مثلثا مائلا قليلا فى الجنوب ، يرتكز على قاعدة عريضة كالمستطيل تقريبا فى الشمال . المستطيل الشمالى ، أو «شمال سيناء» ، أضلاعه قناة السويس غربا ، والحدود السياسية مع فلسطين شرقا ، ثم ساحل البحر المتوسط شمالا ، وأخيرا الخط المائل بين رأسى خليجي السويس والعقبة جنوبا ، أو قل تجاوزا خط عرض ٣٠ درجة . ومتوسط طول هذا المستطيل نحو ٢٠٠ – ٢١٠ كم ، وعرضه ثلثا ذلك تقريبا أى نحو ١٥٠ كم . أما المثلث الجنوبى ، أو «جنوب سيناء» ، فرأسه عند رأس

محمد جنوب خط عرض ٢٨ درجة بقليل ، وارتفاعه نحو ٢٣٠ كم . أما ضلعاه فخليجا السويس والعقبة ، الأول طوله ٢٧٥ كم ، والثانى ١٨٠ كم .

هذا عن الشكل الخارجى . أما من الداخل فسيناء على الخريطة وفى الحقيقة ثلاثية فى مثلث . فهى تنقسم إلى ثلاثة أقاليم طبيعية أو فيزيوغرافية تتوالى من الشمال إلى الجنوب : سهول واسعة تعرف اصطلاحا بسهول العريش وأحيانا بالصحراء ، هضبة وسطى يطلق عليها تعميما هضبة التيه ، ثم أخيرا كتلة جبلية تسمى عموما جبل الطور .

هذا وبكل المقاييس المناخية ، تعد سيناء منطقة صحراوية أو شبه صحراوية . فالأمطار الشتوية قليلة نادرة ، تتخلف أحيانا وأحيانا تتحول إلى سيول فجائية عنيفة جارفة . والأمطار بعامة تقل نحو الجنوب ، تصرف الأودية أكثرها إلى البحر ، ولكن الرمال خاصة فى الشمال تحتفظ بجزء منها فى باطن التربة . ومن هنا تصبح الأودية أولا ، والآبار الجوفية ثانيا ، أهم موارد المياه . وهذه بدورها تكتسب قيمة حيوية كبرى فى هذه البيئة الفقيرة ، وتصبح هى أهم ضوابط الانتاج الاقتصادى وبالتالى توزيع العمران .

وبحكم مورفولوجية سيناء العامة ، فإن نمط التصريف الذى يسود سيناء برمتها هو النمط الدائري المشع radial ، فكل أوديتها تنبع من قلب المرتفعات أو من ضلوعها متجهة إلى سواحلها الثلاثة ، ولذلك ترسم شبكة الصرف الهيدرولوجى ، ومعها شبكة الطرق والمسالك الطبيعية ، وفى النهاية الامكانيات الاقتصادية ونمط العمران ، ترسم حلقة هامشية تحف بأطراف شبه الجزيرة .

السهول الشمالية

وفى الشرق نوعا متوسط اتساعها يتراوح حول ٥٠ كم ، ولكنها تزيد عن ذلك فى الغرب كثيرا . وهى تتدرج بطبيعة الحال فى الارتفاع ، فتعلو باطراد من الشمال إلى الجنوب . ولذا يختلف شمالها عن جنوبها فى المستوى وفى التضريس . ويمكن بالتقريب أن نحددها بين مستوى سطح البحر وخط كنتور ٢٠٠ متر ، فهى منخفضة وفسيحة بعامة ، تحف سواحلها المستنقعات والسبخات والأراضى الملحية وأهمها سبخة البردويل الطولية وامتدادها بحيرة الزرانيق وسبخة سهل الطينة فى مواجهة بحيرة المنزلة . ولكن أبرز ما يميز هذه السهول الشمالية هى الكثبان الرملية البليستوسينية الحديثة التى تغطى الجزء الأكبر منها ، والتى قد يصل ارتفاعها إلى ١٠٠ متر ، والتى أعطتها اسمها

العربى القديم ، اقليم الجفار ، كما تعطى اللاندسكيب أخص ملامحه وتلعب دورا خاصا فى الحياة الاقتصادية وتعين حدود الحركة والمواصلات .

والمطر على الشريط الساحلى أغزر ما فى سيناء ، ولكنه يقل بسرعة نحو الجنوب . وهو على الساحل يزداد كلما اتجهنا شرقا ، حيث امكانيات الحياة والزراعة وموارد المياه أغنى والعمران أكثف ، خاصة فى قطاع العريش - رفح . وإذ تسقط هذه الأمطار على نطاق الكثبان ، تتحول هذه الأخيرة إلى خزانات طبيعية ثمينة جدا للمياه ، فتصبح المياه الجوفية والآبار عماد الاستقرار والحركة ، أى الزراعة والعمران من ناحية وحركة المواصلات والجيوش من الناحية الأخرى على الترتيب .

وللفتحات التى تفصل بينها قيمة كبرى كطرق الحركة والمواصلات الطبيعية ، ومن هنا تستمد أهميتها الاستراتيجية الخاصة .

ورغم أن هذه الجبال تنتشر على صفحة السهول الجنوبية عموما بلا تحديد أو نظام صارم ، وأحيانا تتجاوزها إلى أطراف السهول الشمالية ، فانها تؤلف فى مجموعها خطا واضحا إلى حد بعيد أشبه بالقاطع الذى يختط المستطيل القاعدى الشمالى بعامة من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، أى من قرب منطقة السويس إلى قرب

منطقة أبو عجيلة (أبو عويقلة) والأودية والفتحات والممرات التى تفصل بين حلقات هذا الخط تقدم مفاتيح الحركة الحرجة .

فإذا بدأنا من الجنوب الغربى وجدنا أولا كتلة جبلية طولية تنقسم بعدد من الأودية والممزات العرضية إلى عدة جبال منفصلة . فهناك جبل الراحة الذى يحده جنوبا وادى سدر فاصلا إياه عن كتلة الهضبة الوسطى ، بينما يحده شمالا ممر متلا الذى يقع إلى الشمال منه جبل حيطان . ويمتد ممر متلا بضع عشرات من الكيلو مترات ، ولكنه يضيق حتى يصل أحيانا إلى عدة عشرات من الأمتار فقط . ثم يلى إلى الشمال جبل أم خشيب ، ويفصله عن جبل حيطان وادى وممر الجدى . وأخيرا فى أقصى الشمال نجد جبل الختمية الذى يفصله عن جبل أم خشيب ممر آخر هو ممر الختمية .

فإذا ما عدنا مع القاطع الأساسى وجدنا إلى الشمال الشرقى فى قلب الوسط جبل يلق (يلج) ، ثم بعيدا أكثر وفى الاتجاه نفسه جبل حلال الذى تتمه تلال أقل ارتفاعا تصل بنا فى النهاية إلى منطقة أبو عجيلة وثمة إلى الشمال كثيرا من جبل يلق وبعيدا عنه جبل صغير هو جبل المغارة ، يناظره إلى الشمال من جبل حلال جبل صغير آخر هو جبل لبنى . وكلا الجبلين الصغيرين يمثلان بعض مقدمات أو طلائع القاطع الجبلى .

بعد مقدم الهضبة هذا تبدأ كتلتها الحقيقية بنواتها الصلبة وصلبها المتماسك . ومعظم مناجم سيناء المعدنية ، خاصة مناجم المنجنيز والفوسفات ، تقع على الضلوع والمنحدرات الغربية لهذه الكتلة الهضبية ، أي التي تطل منها على خليج السويس . وإذا كانت التسمية الشائعة لها هي هضبة التيه ، فإنها في الحقيقة تتألف من هضبتين تكاد أيضا تتنصف بينهما عمقا : هضبة التيه في الشمال ، والعجمة في الجنوب . وكلتا الهضبتين مائدية السطح ، تتكون من الصخور الجيرية ، وتنحدر في الشمال بحافة حادة تحددها بوضوح .

فهضبة التيه ، التي تغلب عليها الصخور الطباشيرية ، ترتفع عن السهول الشمالية بجرف كبير ، ويتراوح ارتفاعها بين ٥٠٠ ، ١٠٠٠ متر . وهي بطبيعة الحال الأكثر عرضا واتساعا وبالتالي مساحة (نحو الضعف) ، كما أنها مقطعة بروافد وادي العريش العليا ، الذي يصرفها وتقع هي في حوضه .

أما هضبة العجمة فأقل عرضا ومساحتها نحو نصف مساحة هضبة التيه . غير أنها أشد ارتفاعا ، بين ١٠٠٠ ، ١٥٠٠ متر . يفصلها عن هضبة التيه في الشمال جرف منحدر آخر ، وهذه الحافة تكاد تحدد خط تقسيم روافد وادي العريش ، بحيث لا تدخل هضبة

العجمة نفسها فيه ، بل يصرفها عدد محدود من الأودية الصغيرة التى تنصب في خليجي العقبة والسويس .

هذه بصورة عامة مورفولوجية الهضبة الوسطى من سيناء بأقسامها المختلفة ، ولا تكتمل إلا باضافة ذلك الوادى الكبير الذى يمنحها وحدتها العامة - وادي العريش . فوادى العريش ليس فقط أكبر الأودية الصحراوية طولا وتشعبا ومساحة حوض فى سيناء وحدها ، ولكنه من أكبر ما فى مصر كلها ، فلعله يتفوق على كل أودية جنوب الصحراء الشرقية فى هذه الأبعاد ربما باستثناء العلاقى وحده . وهو على أية حال أكثر أودية مصر الصحراوية شمالية واعتدالا وأقلها مدارية . ولا غرابة بعد هذا أنه كان يسمى منذ أقدم العصور «بنهر مصر» .

طوله نحو ٢٥٠ كم ، وحوض صرفه يكاد يضم نصف مساحة سيناء ، ويجمع ثلثى مياهها جميعا . أما تركيبه المورفولوجى فشجرى مثالى dendritic ، يتألف من عدد كبير جدا من الروافد التى تنتظم كالمروحة أو العنقود أو الحزمة . تنبع روافد الوادى العليا من جنوب هضبة التيه على ارتفاع ١٠٠٠ متر ويكاد خط تقسيم مياهه أن يحدد جبهة التقسيم بين هذه الهضبة فى الشمال وهضبة العجمة إلى الجنوب منها . وبعد أن تقطع روافده العديدة هضبة التيه وتقطعها ، تتجمع فى

مجمعين أساسيين هما وادى العقبة من الجنوب الشرقى ووادى البروك من الجنوب الغربى .

والمهم هنا أن نلاحظ أن كثيراً جدا من مواقع وسط وشمال سيناء المعروفة ، على الحدود السياسية كما فى القلب الداخلى ، تقع على واحد أو أكثر من هذه الروافد . مثال ذلك : نخل ، بير جبل الحصن ، بير التمادة ، الثمد ، فى الداخل ، ثم الكونتيلا ، القصيمة ، العوجة على الحدود ، بينما تقع أبو عجيلة عليه قرب مصبه ، ثم بعدها بير لحفن قبل أن ينتهى أخيرا عند مدينة العريش .

الكتلة الجبلية

أو كتلة جبل الطور ، تحتل الثلث الجنوبى الأقصى والأضيق من مثلث شبه الجزيرة المحد بالخليجين . لذا فمساحتها رقعة محدودة نسبيا ، ولكنها متميزة إلى أقصى حد . يفصلها عن نهاية الهضبة الوسطى (قطاع العجمة) مجموعة من الأودية الجبلية المعقدة العميقة التى تنتهى إلى الخليجين شرقا وغربا ، والتى تحدد طريق المواصلات الأساسى عبر شبه الجزيرة فى هذا الجزء الوعر منها . ويمكن تحديد هذا الفاصل أساسا بواديى نصب شرقا وفيران غربا .

فيما عدا هذا ، فالكتلة نفسها نواة معقدة إلى أقصى حد من الصخور النارية والمتحولة القديمة ، يسودها الجرانيت بألوانه المختلفة ، فإن الأمطار هنا وبفضل هذا الارتفاع أغزر مما هى عليه فى الهضبة الوسطى ، وموارد المياه فى الأودية أعذب ، لكن اللاندسكيب فقير عار والجبال جرداء كما هى وعرة وقاسية .

وعلى امتداد مثلث شبه الجزيرة فى مجموعه ، هناك فارق هام بين السهول الساحلية ، كما بين الخليجين ، شرقا وغربا . فعلى الغرب تترك الهضبة والجبال سهلا ساحليا متسعا نسبيا يصل إلى أقصى مداه فى نصفه الجنوبى حيث يعرف بسهل القاع الذى تتوسطه مدينة الطور . كذلك تكثر الأودية الجبلية الطويلة مثل سدر وسدرى ، ولكن بالأخص وادى فيران أطولها وأغناها بالنبات والواحات . أما على خليج العقبة فلا تكاد المرتفعات تترك سهلا ساحليا بمعنى الكلمة ، وقد يختنق تماما ، مما ينعكس على المواصلات . كذلك فإن الأودية الجبلية قصيرة منحدرة قليلة العدد والأهمية وأهمها هو وادى نصب التى تقع على مصبه ميناء دهب .

كذلك يختلف الخليجان اختلافا جذريا . فخليج السويس أعرض كما هو أطول ، ولكنه أساساً رصيفى متوسط العمق ، أقل كثيرا من ١٠٠ متر . أما خليج العقبة فأضيق كثيرا كما هو أقصر . ولكن الفارق

الأكبر أنه أعمق بكثير جدا من خليج السويس ، أخدودى جدا ، نحو ١٠٠٠ متر عمقا ، أى أكثر من عشرة أمثال خليج السويس . أما سبب هذا الاختلاف فهو العمر الجيولوجي . فخليج السويس أقدم جدا ، ومن ثم رفعت قاعة الارسابات المتراكمة ، أما العقبة فخليج حديث النشأة للغاية . وأخيرا فإن السويس خليج مدخله أكثر انفتاحا واتساعا ، إلا من جزر الشعاب المرجانية التي من أهمها شدوان (شاكر) . أما خليج العقبة فبحر شبه مغلق يختنق مدخله بعنق ضيق هو مضيق تيران الذى تتوسطه جزيرتا تيران وصنافير .

فعلى الساحل الشمالى شريط من الأراضي الصالحة للزراعة التى لا تنقصها موارد المياه المعقولة . وتتركز الزراعة خاصة فى القطاع الشرقى منه ، حيث تقوم زراعات الفواكه والأشجار المثمرة والخضروات إلى جانب آجام النخيل الكثيفة . وفى القطاع الغربى ، خاصة سهل الطينة ، رقع من التربة من أصل أرسابات فروع دلتا النيل القديمة ، تمثل امكانيات جيدة للاستصلاح والاستزراع .

ولكن رغم أهمية الزراعة والاستقرار فى الساحل الشمالى ، فإن الرعى والبداوة تسود الرقعة الكبرى من سيناء وتمثل الحرفة الأساسية للجزء الأكبر من سكانها ، نحو الثلثين ربما . كذلك فرغم أهمية التعدين منذ القدم ، وخاصة فى العصر الحديث ، والأخص منذ البترول ، فإنه

يقتصر أساسا على نطاق ساحل خليج السويس وما وراءه من منحدرات ، فهنا كانت تتركز مناجم المعادن والأحجار الكريمة خاصة الذهب والفيروز ومحاجر الفراعنة القديمة ، وهنا تتركز مناجم الفوسفات والمنجنيز والحديد الحديثة ، وأهم منها حقول البترول التى كانت فى وقت ما تقدم نحو ثلثى انتاج مصر . وفيما عدا هذا ، فإن الصيد يتوزع على السواحل ، وخاصة فى بحيرات الشمال .

على هذه القاعدة الاقتصادية المخلخلة يقوم الهيكل العمرانى وبها يتحدد . فمجموع السكان محدود جدا بالنسبة إلى المساحة الشاسعة . وتتفاوت تقديرات السكان بشدة ، ما بين ١٠٠ ألف ، ٢٠٠ ألف قبل الاحتلال الاسرائيلى (الذى فرغ المنطقة من نحو نصف سكانها فيما يقدر بالتهجير الاجبارى والطرد والارهاب) . وهذا يعادل بالكاد سكان مدينة متوسطة الحجم فى وادى النيل . ولهذا فإن متوسط الكثافة العام منخفض جدا ، ١ -٢ نسمة فى الكيلو متر المربع .

ولكن التوزيع الفعلى للسكان مركز أساسا فى مواطن الانتاج والمياه التى ترتبط بأطراف المنطقة وهوامشها ، بينما تخلو رقع كثيرة وشاسعة فى الداخل الهضبى والجبلى من السكان تقريبا وتكاد تعد من اللامعمور . ولهذا يأخذ العمران بصورة تقريبية نمطا حلقيا

حـــول «القلب الميت» . وهذه صـــورة مألوفة في الجغرافيا البشرية ، ولكنها هنا تبدو أشـــد غرابـة لأن المنطقة جميعا ضعيفة السكان للغاية .

وتأخذ حلقة العمران شكل الشريط المتصل نوعا على الساحل الشمالي الشرقي من رفح حتى البروديل ، تتوجه مدينة العريش ، كبرى مدن سيناء ، نحو ٥٠ ألفا ، تمثل وحدها نحو ربع إلى ثلث سكان شبه الجزيرة . ويتقطع هذا الشريط في امتداده غربا ، ثم يتحول إلى عقد من النقط المأهولة على الضفة الشرقية لقناة السويس حيث مدن القناة الصغيرة ، وكبراها القنطرة شرق التي تعد ثاني أكبر مدينة في سيناء ، وعلى ساحل خليج السويس ينتثر عقد مدن التعدين مثل أبو زنيمة ، ومستعمرات البترول الحديثة التي أبرزها أبو رديس . وعلى ساحل خليج العقبة تزداد نقط العمران تباعدا وتضاؤلا ، وأغلبها مواني الصيد أو الموانى الحربية . وتكمل الحلقة على طول الحدود الشرقية مجموعة من نقط المخافر والمراكز العسكرية ابتداء من رأس النقب وطابا والكونتيلا إلى القصيمة والعوجة وأبو عجيلة . وفيما عدا هذا ، فهناك شتيت منثور من الواحات ومراكز الاستقرار الصغيرة في قلب الداخل أشبه بالجزر المنعزلة وأغلبها مرتبط بالأودية الرئيسية وخاصة على نقط تقاطعها .

الفصل الثانى

معركة التحرير الكبرى

معركة العودة

لقد عدنا يا دايان ! نعم ، عدنا إلى سيناء لا بشروط صهيون المهينة والحلول الاستسلامية ، كما ظل سنوات يتبجح بكل غرور الحقود وصلف المتحكم القميء ، ولكن على اشلائه وفوق جثته عدنا . عدنا بقوة الحديد والنار بعد أن أنفق العدو ست سنوات يصور وجوده فى سيناء المحتلة قلعة صماء غير منفذة للغزو مستحيل اقتحامها . والواقع أن العدو - وهو خبيث اكثر مما هو ذكى ، وحاقد أكثر منه قادرا كما كان يظنه البعض - انما أنفق تلك السنوات فى محاولة عظمى لكى يكسب المعركة المنتظرة بغير رصاصة على الاطلاق أو قبل اطلاق الرصاصة الأولى .

والاشارة هى بالطبع إلى الحرب النفسية الضارية المخططة التى شنها . فكل ما كان العدو يقوله ويفعله طوال السنوات الأخيرة كان

موجها إلى المعركة الرابعة ، أو بالأحرى إلى ألا تكون معركة رابعة على الاطلاق . فبكل طريقة موجبة وسالبة كان يحاول أن يستغل انتصاره السابق وآن يستثمر هزيمتنا ليهزمنا ثانيا . بحملات التشكيك العاتية فى قدراتنا وامكانياتنا ومعنوياتنا ، بل حتى فى طبيعتنا وشخصيتنا ، ثم فى تسليحنا وأصدقائنا ، حاول أن يتسرب حتى يترسب فى أعماقنا ألا فائدة ولا جدوى . وبالأسطــورة الخرافية التى بناها عن «جيش الدفاع الذى لا يقهر» وقادته «آلهة الحرب الجدد» (كذا) ، والتفوق التكنولوجي والجوى الطاقى ، والحرب الالكترونية ، وباستعراض عضلاته وأسلحته المتطورة والسرية ، بميراجه والفانتوم .. الخ .. بكل هذا حاول بانتظام ارهابنا نفسيا لنرتعد فنرتدع فنتقاعس عن المواجهة .

والجدير بالذكر أن العدو تابع حملته النفسية بانتظام وعن عمد وتخطيط لتحطيم أعصابنا ومعنوياتنا حتى أخر لحظة قبل أن يتلقى صدمة عمره ، بل وحتى بعدها . فكلنا لا شك لازال يذكر صرخة اليعازر الارهابية «سندق لحمهم فى عظامهم» ، وصيحة المعلق العسكرى للاذاعة الاسرائيلية «سنجعلهم يرون النجوم فى وضح النهار» .. وقبل الحرب بيومين فقط ، قال اليعازر فى حديث للتليفزيون البريطانى ما مؤداه أن الجيش المصرى إذا حاول عبور القناة فسيجد أمامه أقوى خط دفاعى

فى العالم ، مما سيسبب له خسارة أكبر مما يظن القادة المصريون . وعلى الرغم من هذه الخسارة ، فلن يتمكن مصرى واحد من العبور إلى سيناء ، كما لن تتمكن دبابة مصرية واحدة من الوصول إليها . ثم أضاف رئيس الأركان الاسرائيلى أن سلاح الطيران سيكون أداة البطش والردع الاسرائيلي ، فلسوف يسود جو المعركة على الفور ، وسوف يتم القضاء على سلاح الطيران المصرى وعلى سلاح الدفاع الجوى أيضا فى الدقائق الأولى من بدء القتال . وختم اليعازر تهديداته بقمة الصلف والغرور : «أنها هذه المرة ستكون حرب الساعات الست ، لا حرب الأيام الستة» ! أما مايير فقد عبرت عن العجرفة بالدهشة بدل التهديد ، قالت ببساطة في حديثها إلى الاسرائيليين فى أول أيام القتال «ان الهجوم العربى يرقى إلى الجنون» ! أما دايان فكان لا يزال يعيش فى ١٩٦٧ ويحلم بتكراره ، قال يوم ٧ أكتوبر «يومان لصد الهجوم المصرى السورى ، ثم يومان يكتمل خلالهما استدعاء الاحتياطى الاسرائيلى ، ثم يومان لإنهاء القتال» !

لقد خلقت اسرائيل الأسطورة بالفعل ، ضخمتها ، نشرتها واشاعتها ، ثم عاشت فيها حتى صدقتها ، وصدقتها حتى ارتدت إلى صدرها فى حركة عكسية «كالبوميرانج» فهزمتها ! - كلا ، بل نحن الذين هزمناها . فثمة الآن فى الغرب نظرية - تبريرية محض - تقول

ان اسرائيل انما هزمت لأنها صدقت اسطورة تفوقها وعاشت فى أوهام استعلائها . وقد عبرت الأوبزيرفر عن هذه النظرية أثناء المعركة حين قالت «ان القادة الاسرائيليين لم يعتدوا إلا أقل القليل بمدى شجاعة خصومهم وقدرتهم التكنيكية ، ولربما وقعوا أيضا ، هؤلاء القادة ، ضحايا لأسطورة أنهم قوم لا يقهرون» .

على أننا نرى فى هذه النظرية من الانحراف أكثر مما فيها من الاعتراف . صحيح لقد كان الغرور الاسرائيلى الوقح وجنون العظمة مقتلا من مقاتلها ولكن الضربة الموجبة القاضية انما أتت من القدرة العربية الذاتية ، المفترى عليها طويلا ، ومن التخطيط والتصميم والارادة العربية . ونحن لم نسرق نصرا سهلا هشا من وراء ظهر العدو ، وانما انتزعناه من بين أسنانه بجدارة واقتدار .

لقد أراد العدو أن تكون المعركة الرابعة نسخة مكررة من معركة يونيو ، فجعلتها اليد العربية الجديدة ، العليا والطولى ، نسخة مقلوبة معكوسة منها . لقد استوعبنا نحن درس يونيو وتجربته المريرة ، وتركنا للعدو أن يمارس بهلوانياته الدعائية فى المباهاة والتفاخر وعبادة الذات وأن يجتر نرجسيته علنا . فكان حتما وحقا أن يدفع ثمن النصر الرخيص الذى سرقه فى غفلة من زمن .

وكما يلخص الهيثم الأيوبى بحذق المختص «يمكن القول هنا ان انتصار اسرائيل السهل فى عام ١٩٦٧ كان أكبر أعدائها ، وأخطر ما تعرضت له فى حياتها ، وأن هزيمة ١٩٦٧ علمت العرب دروسا كثيرة وكانت أفضل حلفائهم فى الحرب الرابعة . وهكذا انطبقت على الصراع العربى - الاسرائيلى قاعدة أثبتها التاريخ العسكرى أكثر من مرة ، وهى أنه يندر أن يتعلم المنتصر الكثير من انتصاره ، أما المهزوم فهو أكبر المتعلمين من الهزيمة» . وفى المعنى نفسه قالت الديلى تلجراف «ان العرب قد استفادوا من هزيمتهم ١٩٦٧ ، بأفضل مما تعلم الاسرائيليون من انتصارهم» .

أركان الخطة

فما هى الآن نقط القوة فى الخطة العربية التى حققت بها القفزة الكبرى على سيناء فحققت لها النصر الميدانى الاستراتيجى والتكتيكى من البداية حتى النهاية تقريبا ؟ فيما عدا العوامل النفسية وحوافز التحرير والوطنية ونوعية المقاتل المصرى الجديد والسلاح والتدريب ... الخ ، أى فيما عدا العوامل المعنوية والمادية ، هى أبعاد استراتيجية أربعة تؤلف أركان الخطة وأعمدة القوة : المبادأة ، المفاجأة ، الحرب الشاملة ، وأخيرا الحرب الطويلة .

المبادأة

فأولا ، بالمبادأة نعنى الهجوم ، وبالدقة والتحديد المبادأة بالهجوم . ولقد كانت استراتيجية العدو دائما هجومية من البداية إلى النهاية ، وكان أبدا حريصا على ألا يترك لنا زمام المبادأة أو المبادرة . ولقد كان دايان دائما يردد متفاخرا «لم يحدث قط أن كان جيش اسرائيل فى وضع دفاعي» . وتلك فى الواقع كانت سياسة «الحرب الوقائية» المكذوبة ملفقة المنطق ، سياسة شل الأعصاب وتدمير قوة الخصم غدرا على الأرض قبل أن يتحـرك ، فيها كان العدو يرى صمام أمنه بل صميم وجوده ذاته ، وحولها خطط كل استراتيجية العظمى ، ونكاد نضيف : وبها كانت تتجسم كل أخلاقياته ..

ومن الضرورى أن ندرك أن هذه الاستراتيجية الهجومية - بل هذه الاستراتيجية العظمي الهجومية ، لأنها المركز المحورى والمنبعى فى كل فلسفة العسكرية الصهيونية - هى جزء لا يتجزأ من الطبيعة الاستفزازية والعدوانية المتأصلة فى الوجود الاسرائيلى من أساسه . انها امتداد طبيعى ومنطقى جدا للاغتصاب الأصلى . ولهذا لم تكن قط خطة مرحلية ، بل سياسة ثابتة ودائمة بدأت مع قيام الدولة ، بل اليشوف ، وسوف تستمر إلى نهايتها .

خذ مثلا ما قاله الجنرال ايجال يادين ، من أوائل رؤساء أركان العدو . « لا شيء - يقول هو فى كتاب له - أخطر على وجود اسرائيل من وجود الروح الهجومية عند العرب . لذلك يجب علينا أن نواجه هذه الروح الهجومية بضربات هجومية أشد وأقوى . ولا يجوز رد الهجوم الا بسبق العرب إليه . أما إذا سبقتنا القوات العربية إلى الهجوم ، فإن الهجوم المضاد يصبح الرد الوحيد والفعال» .

ولقد كان من الواضح تماما منذ يونيو أن ليس هناك قط ما يدعو العدو إلى تغيير استراتيجيته . ومن المؤكد أن هذا ما كان يبيته ويخطط له . وبالفعل ، فلقد اعترفت اسـرائيل أخيرا وعلى لسان رئيسة وزارتها ولأول مرة منذ ٦ أكتوبر بأنها كانت تفكر فى الهجوم على مصر هجوما جويا شاملا فى «حرب وقائية» فى ذلك التاريخ نفسه وبعينه ، لكنها كما زعمت عدلت فى آخر لحظة ، خشية أن تفقد المزيد من الرأى العام العالمى .

غير أننا ، مهما يكن ، كنا أسبق وأسرع ، فكانت الضربة الجوابية الأولى لنا فور بداية عدوانه على خليج السويس ، بحيث اختل توازن العدو فى اللحظة السيكولوجية ووضع على جانب الدفاع منذ اللحظة الأولى . وقد كان الاضطراب الشديد والفوضى الارتجالية البادية وردود الفعل العصبية الطائشة هى أبرز ملامح سلوك العدو فى الأيام الأولى وبالأخص الساعات الأولى من المعركة . وكان هذا كله دليلا ساطعا على

أن «جيش الدفاع الاسرائيلى» ، كما يسمونه ، لم يكن جيشا للدفاع ولا صالحا للدفاع .

كانت كل عقيدته القتالية تدور حول محور الهجوم الخاطف والحرب القصيرة السريعة ، غير معد نفسيا ولا عسكريا للدفاع الجدى . ومن الثابت أن هذا وحده كان عاملا من عوامل اهتزازه واضطرابه حين تعرض لأول حرب هجومية حقيقية فى تاريخه . وما من شك ، فى النتيجة ، أن مبادرتنا بالهجوم كانت مفتاح النصر ، فى حين أن فرض موقف الدفاع على العدو كان بداية هزيمته إن لم يثبت فى النهاية أنه كان نصف الهزيمة بالنسبة له .

ومما يرجح هذا ، بل ويكاد يؤكده ، ردود فعل العدو لضياع المبادرة والمبادأة منه واختطاف العرب لها . فلقد ادعى لحين ما «الفضيلة» ، فلما وجد أنها «فضيلة العجز» كشف عن مكنون حقده بلا خباء . فمثلا قال ياريف «لقد جازفت حكومة اسرائيل عندما منحت العدو فرصة المبادرة دون أن تتخذ مبادرة وقائية ، لأنها أرادت أن تثبت للعالم أنها تريد السلام» .هذا بينما قال بارليف وهو يطفح بروح الانتقام «ان اسرائيل فوجئت مرة ، وأن هذا لن يتكرر ثانية ... ان الجيش الاسرائيلى لن يؤخذ على حين غرة كما حدث هذه المرة» . أما اليعازر فقد أعلن بمزيج من الندم والحذر أن «أمن اسرائيل لا يتوقف على

تحذير أو انذار مسبق فقط ، وانما على جيش نظامى دائم وسلاح جوى قادر على منع وقوع كارثة فى حالة حدوث هجوم دون سابق إنذار كاف» .

وإذا نحن نظرنا إلى الحروب الثلاثة الأولى بين العرب واسرائيل نجدها جميعا «حروبا اسرائيلية» تماما أو تقريبا ، بمعنى أن زمام المبادأة والمبادرة والحركة والهجوم استراتيجيا وتكتيكيا فى يد اسرائيل ، هى التى تحدد الزمان والمكان ، وهى التى تفرض أسلوب القتال بما يلائمها ، وهى التى - فى النتيجة - تجنى ثمار النصر . اما العرب فعلى الدفاع الثابت السلبى ، مجرد رد فعل يحدد العدو ايقاعه ويرقصون هم على أنغامه .

أما فى أكتوبر فإن الاستراتيجية العظمى والروح السائدة والعقيدة القتالية هجومية أساسا ، سواء ذلك على المستوى الاستراتيجى أو التكتيكى ، وابتداء من تحديد الزمان والمكان إلى أساليب القتال الملائمة من حرب خاطفة صاعقة أو مواجهة تصادمية طويلة إلى الاقتراب غير المباشر والاختراق والتطويق ... الخ . ولقد اعترف العدو فعلا بأنه فى وقت ما من المعركة كان «يرقص على أنغام المصريين» (شارون) . حتى الدفاع هو الآخر كان لأول مرة أيضا ، دفاعا هجوميا ، بمعنى الدفاع الدينامى المتحرك لا الثابت ، بما فى ذلك الهجوم المضاد ،

وبمعنى الحجم الهجومي والاستحكامات الحصينة وتكتيك الجذب والضرب ... الخ .

ولما كانت الحرب فى الحقيقة هى الهجوم ، فإن الدفاع مجرد جملة اعتراضية مهما طالت ووسيلة مرحلية لا غاية نهائية لكسب الوقت ريثما يتمكن الجانب الأضعف أو المفاجأ من تطوير قواه إلى الهجوم . وكل دفاع يقف عند حد الدفاع البحت ولا يتعداه إلى الهجوم فى النهاية ، فهو فى أحسن الأحوال دفاع عن الوضع الراهن فقط ولا يمكن أن يخلق وضعا جديدا . الدفاع سلبى بالضرورة ، كما أن الايجابية الفعالة هى الهجوم وحده . ولهذا يمكن القول بحق ، مع كاتب «الشرارة» الثاقب، ان معركة اكتوبر هى «حرب عربية صرفة ، بل وأول حرب عربية منذ بدء الصراع العربى - الاسرائيلى» .

ولا ينبغى أن يكون لدينا شك أن جزءا من انتصارنا يرجع إلى مبادرتنا بالهجوم . فالمهاجم والبادىء بالهجوم ، كقاعدة عامة وأساسية فى كتاب الحرب ، هو الأقدر والأقوى على فرض ارادته ، وهو الأقرب إلى احتمالات النصر ، والأكثر تدميرا للعدو حتى إن لم ينتصر . ولعل هذا فعلا هو المقصود بالشعار القديم «لا يكسب المعارك إلا من يخوضونها» . وعلى أية حال ، فلقد كان من دروس اكتوبر كما استخلصها جاليه وزير الدفاع الفرنسى أن حرب الشرق الأوسط أثبتت

آن فرص الانتصار أكبر للمهاجم ، وأن الدفاع أدعى فى الحرب الحديثة القصيرة إلى الهزيمة ، أو هو على الأصح يرفع فرصها ويقلل فرص النصر . وإذا كان هذا هو درس المعركة ، كما هو درس التاريخ كله من قبل ، فالأهم انه يبقى درس المستقبل وأمل العرب : لا ينبغى للعرب أن يكونوا بعد اليوم على الدفاع ، الهجوم أولا ، الهجوم أولى ، الهجوم وإلا فلا .

إلى هذا المدى فعلا وبلا مغالاة تصل أهمية المبادأة من حيث المبدأ وعلى المستوى العام . ولكنها تصل إلى أبعد منه وبلا حدود تقريبا فى حالة الصراع العربى - الاسرائيلى بالتحديد . ويرجع ذلك إلى أسباب خاصة تتعلق بملابسات الصراع وظروفه وطبيعة العدو وتقاليده العسكرية ، بحيث تضاعف من خطر المبادأة بالهجوم ودوره الحاسم . ونستطيع أن نرصد فى هذا ثلاثة اعتبارات خاصة أو محلية ، ينبغى دائما أن تكون نصب أعين المخطط الاستراتيجى العربى كدروس من اكتوبر وكبوصلة للمستقبل ، وتلك هى : قصر المعارك مع اسرائيل ، نظام التعبئة الاسرائيلى ، تعدد جبهات القتال .

فعن الأولى ، تمتاز معاركنا مع اسرائيل بالقصر مهما طالت ، فالتمييز دائما باليوم أو على الأكثر بالأسبوع . ليس لأن الحرب الحديثة أميل بطبيعتها كما سنرى إلى القصر المطرد فحسب ، ولكن كذلك لأن العدو يضع الحرب الخاطفة القصيرة على رأس إستراتيجيته

العسكرية. والمهم أنه نتيجة لهذا القصر الشديد ، يصبح لعامل المبادأة بالهجوم دور حاسم وأخطر مما يتناسب مع طوله الزمنى ، بحيث يكاد اليوم الواحد فيه يعادل فى انجازاته وتقدماته بضعة أيام من الناحية العملية . وهو بهذا يختزل فجأة وباقتدار جزءا كبيرا من المعركة فى ضربة أولى وعاجلة ، فلا يكاد المدافع يفيق منها حتى تكون أيام المعركة الباقية أمامه قد أصبحت معدودة تقل فيها فرص قلب المائدة على المهاجم . وقد كان هذا واضحـــا بجلاء فى افتتاحية معركة اكتوبر ، حيث قطع الهجوم العربى فى الساعات الأولى شوطا يعادل ما قطعه بعد ذلك فى أيام .

أما مسألة نظام التعبئة الاسرائيلية فقد أوضحت تجربة اكتوبر بما لا يقبل الجدل أو النقض أنه ما وضع ولا جعل الا للهجوم ، ولكنه يمثل نقطة ضـعف خطيرة حين يوضع على الدفـا ع . فنظام التـعبـئة الاســرائيلى لا يقضى بالاحتـفاظ بالجيش كـاملا تحت الســلاح باستمرار ، فهذه النواة العاملة المحترفة انما هى الجزء الظاهر فقط من جبل الجليد الطافى ، كما وضعها بن جوريون ، أما جسم الجبل فيعتمد على وضع كل القادرين على حمل السلاح فى الاحتياطى تحت التدريب الدورى المنتظم وتحت الطلب الفورى فى أية لحظة بحيث تتم تعبـئة نصف الاحتياطى فى ٢٤ ساعة وكل الاحتياطى فى ٤٨ إلى ٧٢ ساعة .

وفيما عدا هذا فإن العدو يعتمد اساسا على جهاز مخابراته كإنذار مبكر وكخط دفاعه الأول .

وهذا النظام - الاقتصادى ماديا والفعال اجتماعيا - يلائم جدا أغراض الهجوم واستراتيجية العدو العدوانية . فحين يبيت المبادأة بالهجوم والمباغتة الفجائية يستدعى احتياطيه سرا حسب خطته الموضوعة ، فلا تطلق الرصاصة الأولى إلا وكل جيشه جاهز تماما في قلب المعركة . على العكس إذا هوجم فجأة : يكاد يجد نفسه عاريا إلا من بعض قوات امامية موزعة ومنتشرة لا يمكن أن تصد هجوما شاملا ضخما . وهذا بالدقة ما حدث فى اكتوبر . فحين فوجىء العدو بهجومنا ، ضغط فترة استدعاء احتياطيه من ٢٤ ساعة ، وفترة ارساله إلى الجبهة من ٤٨ ساعة ، إلى ٦ ساعات فقط . من هنا كان الارتباك والاضطراب العظيم ابتداء من الجنرالات حتى أصغر الرتب . وكما كتب تشرشل الأصغر «لقد ثارت اتهامات قاسية ضد الجيش الاسرائيلى على أساس أن تقديرات المخابرات والسلطات العسكرية لم تكن خاطئة فحسب ، بل أن أجهزة الدفاع الاسرائيلى نفسها كانت مختلة . فلقد كان النظام يقضى بأن تتم التعبئة خلال ٢٤ ساعة ، وأن يرسل المقاتلون إلى جبهات القتال خلال ٤٨ ساعة . ولكن التعبئة تقرر تخفيض أمدها إلى ٦ ساعات فحسب ، نتيجة لنجاح العرب فى تحقيق

المفاجأة الكاملة . فلا عجب اذن أن عمت الفوضى قوات الدفاع الاسرائيلي» . وهذا أيضا ما يفسر لنا قول اليعازر بعد الصدمة ان أمن اسرائيل لا ينبغي أن يعتمد بعد الآن على الانذار المبكر فقط ، وأنما اساسا على وجود جيش كاف قائم ودائم . وهو الذى يفسر كذلك احتفاظ اسرائيل حتى الآن بنسبة عالية من التعبئة العامة حتى بعد أن توقف القتال . وأخيرا فإنه يفسر ما يتوقعه البعض من أن يعدل العدو نظام تعبئته تعديلا جوهريا ليتحاشى تلك الثغرة المهلكة .

أما عن تعدد جبهات القتال ، فإن على العدو الاسرائيلى دائما أن يحارب فى جبهتين على الأقل ، وثلاث على الأغلب . وعلى هذا الاساس خطط استراتيجيته ، استراتيجية الهجوم المتتالى السريع : ينقض بكل قوته وبأسرع ما يستطيع على إحدى الجبهات حتى ينتهى منها ، ثم ينثنى فورا إلى أخرى فثالثة ، هكذا على التوالى ، مرة مع عقارب الساعة أى بادئا بسوريا ثم مثنيا بالأردن فمنتهيا بمصر ، أو مرة عكس عقارب الساعة ، مصر أولا ثم الأردن فسوريا (كما فى ١٩٦٧) . وفى هذا كان العدو يعتمد على ضآلة رقعته الجغرافية وقرب الجبهات الخارجية ثم على شبكة ممتازة من الطرق الداخلية . غير أن حساباته هذه فشلت تماما فى اكتوبر ، ولسببين أساسيين .

أولا ، اتساع جبهات القتال بعد توسع العدو الكبير فى ١٩٦٧ ، ذلك التوسع الذى أطال خطوطه الداخلية جدا بدرجة أرهقت حركته المفردة إلى كل جبهة ذهابا ، فضلا عن حركته بين الجبهات المتعددة جيئة وذهابا ثم ذهابا وايابا . وفى هذا اعترف الاسرائيليون أخيرا فى إحدى ندواتهم العسكرية بأن أحدا من المسئولين فى اسرائيل لم يدر بخلده أن الاستيلاء على الأراضى كعنصر أمن اضافى يمكن أن يضيف عبئا ثقيلا على الدفاع ، كما أن استبعادهم لحدوث تحركات سريعة للقوات العربية على الجبهتين السورية والمصرية فى وقت واحد ساعدها على الهجوم بنجاح .

ثانيا ، التنسيق الدقيق والبارع بين الجبهتين السورية والمصرية ، توقيتا وهجوما وتفاعلا . أو كما علقت بعض الدوائر العسكرية الغربية «لقد نسقت مصر وسوريا جهدهما العسكرى بصورة رائعة لم يسبق لها مثيل من قبل ، كما أنهما استوعبتا كل دروس الجولات السابقة» .

ومحصلة هاتين الحقيقتين أنه كلما توسع العدو توسعت جبهته ، وكلما توسعت جبهته فقد امكانية الهجوم المتتالى السريع ، وكلما انتزع العرب زمام المبادأة والهجوم فقدت استراتيجية الهجوم المتتالى بقية فاعليتها إلى درجة التلاشى . إن انتقال العرب الواعى

والدائم إلى الهجوم لا يربك فقط كل استراتيجية العدو ، بل هو ينسفها في الصميم ، لأنها قائمة أساسا على افتراض وقوف العرب على الدفاع أو فرضه عليهم أساسا وباستمرار .

عنصر المفاجأة

عنصر المفاجأة مكمل وامتداد جوهرى لعنصر المبادأة ، إن لم يكونا جانبين لشىء واحد فى الحقيقة . ولقد كانت فرص المفاجأة الاستراتيجية ، بحكم طبيعة المواجهة عبر القناة ، محدودة بدرجة أو بأخرى ، فأراضينا فى سيناء محتلة ، وأهدافنا فى تحريرها معلنة غير خافية ، والاتجاهات الجغرافية الرئيسية الممكنة للهجوم شبه محددة بالضرورة . فالمفاجأة بمعناها الاستراتيجى الجذرى والجوهرى غير سهلة إن لم تكن شبه مستحيلة . ومع ذلك فقد انتزعت القيادة المصرية المفاجأة النسبية أو التكتيكية بدرجة حققت كل أهدافها المباشرة وغير المباشرة وتركت العدو فى حالة تامة من العمى ثم التخبط فالذهول فاللوعة . ولا زال الجميع يتساءلون فى كل الدنيا عن ذلك السر الغامض والمحير الذى أعمى الاسرائيليين عن كل علامات المعركة ومؤشراتها ونذرها وهى التى كانت «تحملق فى عيونهم بشدة» كما

وضعها أحدهم ، أو كما عبر آخر : أهو عمى الألوان أم عمى الصحراء ؟

فقبل انفجار الموقف بأيام كان يمكن مشاهدة القوات المصرية وهى منهمكة فى اعداد زوارق المطاط والجسور المجزأة على الضفة الغربية ، بينما على جبهة الجولان كان تقدير دايان أن هناك مئات من فوهات المدافع مرئية للعيان ، كما أشار بقدر من الانزعاج إلى أن السوريين قد نشروا الآن شبكة من الصواريخ المضادة للطائرات تقارب فى كثافتها تلك القائمة على قناة السويس (الصنداى تايمز) .

والحق أن المرء كلما ازداد امعانا فى التفكير فى قضية المفاجأة ، لم يملك إلا أن يزداد تعجبا واعجابا : تعجبا من غفلة العدو المتذاكى ، واعجابا ببراعة الخطة العربية الكتوم : جيش بأسره ، بل جيشان عارمان ، بكل المعدات الهائلة وبكل التجهيزات المعقدة الضخمة الكثيفة ، حتى تحت ستار المناورات كان لابد أن تتخذ فى وقت ما أوضاعا هجومية ، كل أولئك على مسرح صحراوى مكشوف تماما ، وتحت سمع العدو وبصره بل تحت أنفه (فاصل ٢٠٠ متر فقط) ، كيف يمكن اخفاء كل هذا ، وكيف يخفى كل هذا ؟

على آية حال ، ليكن سؤالنا نحن عن أركان هذه المفاجأة البارعة : ما العوامل الأولية التى تتحلل إليها ؟ من ناحية أولى كان عامل

السرية المطلقة مكفولا بدرجة فــذة ، كما سارت عملية الخداع الاستراتيجى للعدو حسب تخطيط كفء طويل المدى . فمثلا استغرق تجميــع قواتنا للهجوم فترة ٣ - ٤ شهور ، أى بالتدريج الوئيد والقطاعى ، بينما لم يدفع بالقوات الرئيسية منها من العمق إلى الجبهة إلا قبل ٣ أسابيع فقط من ساعة الصفر وتحت ستار المناورات . وبينما أعدت مكامن السلاح والعتاد ومعدات العبور - التى تم تصنيع جزء كبير منها محليا - مسبقا فى خفاء تام ، لم تنقل الأسلحة والمعدات نفسها إليها بالفعل إلا ليلا فى آخر لحظة ممكنة قبل ساعة الصفر . ومن قبل أيضا كان قد أقيم ساتر رملى على الضفة الغربية يحصن تلك الاستعدادات عن أنظار العدو وعن نيرانه . كذلك فلم تفتح ثغرات المرور لقواتنا عبره إلا فى آخر لحظة ساعة العبور .

وفى تقرير لإحدى لجان الكونجرس الأمريكي عن الشرق الأوسط نشر بعد المعركة واعتمد على زيارة ميدانية واسعة أنه «بالإضافة إلى أن عملية العبور تعد فى ذاتها مظهراً مؤكدا لتحسن القدرة القتالية ، فإن عملية التمويه والخداع التى صاحبت الاستعداد المصرى للقتال والقدرة على كتمان هذه الاستعدادات لفترة طويلة واخفائها عن أعين

الاســـرائيليين أمـر آن يلقـى اهتمـامـا كـبـيـرا » . وهـذا تـعليق غـنـى عن التعليق .

هذا عن السـرية والتـمـويه . أمـا عن التـوقـيت فـقـد اخـتـارت الخطة لساعة الصـفر توقيتا مرنا ذكيا وبارعا شل الجهاز العصبي لقيادة العدو برغـم كل مـخـابراته وادعـاءاته . وهـنـاك عـدة أبـعـاد ومـسـتـويات لهـذا التوقيت .

أولا : أنسب طقس سـيـاسـي دولي ، كان التـأييد العـالمي قد وصل فيـه إلى الذروة واكتملت عزلة العدو ومعسكره دوليا بدرجة لم يسبق لها مثيل . وفي هذا الصـدد بالذات جاء حدث عرضـي بحت وهامشي نوعا ليشغل الرأي العام الاسرائيلي ويبتلع نشاط مخابراتهم ، ونعني به أزمة معسكر شوناو واليهود العابرين بالنمسـا . فهي بالإضافة إلى مشكلة غارات الفلسطينيين الدورية على طائرات العدو وأصدقائه في الجو مع غارات العدو الانتقامية على الدول العربية وانشغاله بمطاردة قيادات المقاومة الفلسطينية داخلها وفي عقر دارها ، كل ذلك ساعد إلى حد معين على صرف انتباه مخابرات العدو بعيدا نوعا عن قضية الحرب الأساسية وتركيزه على قضايا جانبية أو ثانوية نسبيا . هذا عن الطقس السياسي .

ولكن لا ننسى كذلك أنسب طقس مناخي للنشاط البشرى والعمل العسكرى . فخريف اكتوبر المصرى ربيع تقريبا ، وهو أبعد ما يكون عن حرارة الصيف الواقد وبرودة الشتاء القارسة التى تجعل حرب الشتاء حربا قاسية وصعبة قد لا تطيقها بسهولة إلا الدول الغنية . هذا فضلا عن أن هيدروغرافية القناة تختل وتضطرب بالأمواج والأنواء شتاء . كذلك يعد الشتاء موسم ثلوج على الجبهة السورية حيث يبدأ تساقطها فى نوفمبر وديسمبر . وهكذا وجد أن أنسب توقيت هو سبتمبر أو اكتوبر ، مع جنوح الأفضلية للأخير .

ثانيا ، انسب يوم تعطل وبطالة فى دورة حياة العدو اليومية حيث كان منشغلا بنشاطاته ومعاركه الانتخابية ، وكذلك بمناسبات أعياده الطائفية التى تصاب فيها حياته بشلل تام تقريبا . وإذا كان عيد «يوم كيبور» (يوم الغفران أو التكفير) هو قمة هذه الأعياد ، فقد كان الموسم كله تنقطه مناسبات دينية متلاحقة . ومن جانبنا نحن أيضا ، فلقد كان الموعد آخر وقت يتوقع فيه العدو الهجوم ، ونعنى بذلك شهر الصوم الذى يتصوره العدو المتعالى شهر كسل وتواكل . هذا فضلا بالطبع عما فى حرب رمضان من وجهة نظرنا من معنى دينى كبير وحافز للجهاد والفداء ، يرفع الروح المعنوية إلى ذروتها ويقدم سلاحا مضافا للنصر .

ولقد آثار اختيار يوم عيد الغفران حقد العدو ، الذى أصبح يسمى حرب أكتوبر بذلك الاسم . ومع ذلك فقد اختلف العدو نفسه فى تحديد مدى خطورة ونتائج هذا التوقيت . فرغم أن هذا العيد يقضيه الاسرائيليون فى المعابد بعيدا عن العمل وعن بيوتهم وبذلك يشل حركتهم واتصالاتهم بما يكفى ليعرقل التعبئة العاجلة ، إلا أنه فى رأى بعضهم أخف وطأة من سائر الأعياد الدينية الأخرى التى يخرجون فيها إلى الريف والصحراء خارج المدن كلية للتنزه والرحلات طوال اليوم مما يجعل التعبئة العاجلة أكثر استحالة ، وعلى أية حال ، فليس من المحتمل أن اختيارنا السادس من أكتوبر تقرر لأنه يوم العيد بالذات ، فهناك ضوابط توقيت أخرى عديدة وربما أهم ، كما أن أعياد اليهود عديدة على مدار العام ، فضلا عن أن أى سبت يصلح ويكفى تماما .

ثالثا ، أنسب يوم للعبور تقل فيه سرعة تيارات قناة السويس ويصل فيها مدى المد والجزر إلى حده الأدنى فلا يعوق العمليات الهندسية واقامة المعابر أو الملاحة عبر الماء بقدر الإمكان . هذا إلى جانب أنسب ليلة قمرية تسمح بحرية العمل ليلا . وهنا نلاحظ أن ليلة العاشر من رمضان قريبة من منتصف الشهر القمرى ، ليلة ١٤ ، حين يكون القمر بدرا ، كما نلاحظ أن هناك ارتباطا طبيعيا بين دورة القمر

وبين المد والجزر . وهذا كله عدا أن ليل أكتوبر طويل ، ١٢ ساعة ، بما يكفى ليمنح العملية أطول وقت ممكن للحركة المستورة . وعلى ضوء هذا كله تم تحديد السادس من أكتوبر بعد دراسة عملية مفصلة جدا هيدرولوجيا وفلكيا .

رابعا ، آخر ساعة تتوقع للعبور طوال اليوم . فكل العمليات العسكرية تبدأ كقاعدة عامة إما من أول ضوء فى الشروق أو مع آخر ضوء في الغروب ، ولكن الخطة اختارت قلب النهار وفى وضحه ، الثانية بعد الظهر . ورغم أن كل عمليات العبور المائى بالذات ، بما تتطلب من مهمات ومعدات هندسية ونقل قوات وسلاح ، تتم بالليل وتحت جنح الظلام ، فقد كان البدء فى الثانية بعد الظهر لا يخل تماما بهذه القاعدة ولكنه لا يخليها من المفاجأة .

فعدا ما فيه من مفاجأة خداعية كاملة ، فان اختيار هذا الوقت ، الذي يسبق آخر ضوء بنحو ٤ ساعات ، يكفل أيضا الاستفادة بضوء النهار طيلة هذه الساعات الأربع فى مرحلة طلائع العبور الخفيفة ، فيمنح قواتنا الجوية والمدفعية القدرة على دقة التصويب وعلى تصحيح نيرانها فى ضربتها التمهيدية الأولى ، كما يتيح اسقاط معدات العبور الهندسية فى آخر ضوء . وبالمثل على الجبهة السورية حيث يمكن أن يتم

للسوريين عبور الخندق الصناعى الذى حفره العدو على امتدادها ، ثم التعمق بعده فى ضوء كاف .

ومن ناحية أخرى ، لا يكون العدو قد أفاق واستعد بطيرانه ومدفعيته حتى يكون الظلام قد حل وحرمه من العمل الجدى أو المجدى حتى صباح الغد ، بينما نكون نحن قد وصلنا إلى مرحلة نقل المعدات الثقيلة والقوات الرئيسية التى يمكن حينئذ أن تتم فى سلام خلال الليل الطويل ، فلا يظهر أول ضوء فى الغد إلا ويكون جيشنا بكامله رجالا وعتادا قد أصبح بالفعل على الضفة الشرقية .

أخيرا وليس آخرا أنسب ساعة من النهار من حيث حركة الشمس اليومية ومواقعها بالنسبة إلى جبهة العدو وإلى جبهتنا نحن . فقد اختيرت ساعة الصفر بحيث تكون عين العدو فى عين الشمس ، وليس العكس ، فيكتمل له بذلك عمى المعركة . إذ لما كان فى الشرق موقعه ، فإن الشمس التى انتقلت نحو الغرب بعد الظهر تغمر عينيه بأشعتها المواجهة فتغشيها وتعاكس رؤيته ، على العكس من الموقف قبل الظهر . وفى هذا الصدد كان لابد من التنسيق الدقيق بين الجبهتين المصرية والسورية . فرغم أن محور المواجهة الأساسى على الجبهتين واحد تقريبا يتمثل فى مجابهة بين شرق

وغرب ، فالفارق أن الهجوم المصرى يأتي من الغرب والسورى من الشرق .

وعدا هذا فيبدو أيضا أن سياسة التدريبات المصرية المتكررة ، بل والروتينية الرتيبة عبر سنوات طوال ، خاصة أثناء فترة الركود الحربي المطلق في مرحلة اللاحرب واللاسلم ، وتحت أنظار العدو، قد «خدرته» ونمت فيه نوعا من ميكانيكية الانعكاس الشرطى ، حتى وصل في النهاية إلى حد اللامبالاة والاستخفاف المنتظم بها . فكل تحرك للقوات المصرية تدريب ، وكل تدريب مناورة ، وكل مناورة مع الريح . ومن ثم فلا معنى ولا داعٍ كل مرة لاستدعاء الاحتياطي أو للتعبئة العامة بكل صعوباتها وتكاليفها ... إلخ . وكما اعتذر دايان بعد المعركة ، فلم يكن معقولا أن تنفق اسرائيل كل شهر أو شهرين بضع عشرات من الملايين من الدولارات مقابل تحركات عربية دورية تنتهى إلى لا شئ حربيا .

وفي هذا المعنى ، وهو المعنى نفسه ، السلبى بالطبع ، الذى نتحدث به عن «فضل» قرار القبول بوقف إطلاق النار فى أغسطس ١٩٧٠ على اقامة شبكة دفاعنا الصاروخى الفائقة الحيوية ، فى هذا المعنى ربما جاز لنا أن نذكر «فضل» مرحلة اللاحرب واللاسلم

بسنواتها الثلاث والنصف . فرغم سكون الجبهة إلى حد الجمود ، كانت المرحلة أبعد شئ عن الاسترخاء العسكرى أو الموات النضالى ، وانما كانت فترة «بيات شتوى» إن صح التشبيه ، كمون وكمين ، اعداد واستعداد ، صمت وصبر ، وعمل وتصميم ، ومجال رحب لتخدير العدو تماما والتمهيد للمفاجأة الكاملة المطلقة . ولو قد أتت الحرب الشاملة ، كتلك التى اندلعت فجأة فى أكتوبر بالفعل ، بعد حرب الاستنزاف مباشرة وتصاعدا منها بالتدريج الوئيد ، لما كان لعنصر المفاجأة مجال كبير على الأرجح ، ولما كانت للمبادأة بالتالى فرصة مذكورة أو بارزة على الأغلب .

ذلك بالطبع ، وعدا غرور العدو الأكبر والأبقى ، ذلك الذى وصل به إلى حد استبعاد تجاسرنا على العبور . وفى هذا فلقد كانت اسرائيل تعتقد اعتقادا شبه جازم أنه لا خطر من حرب جديدة مع العرب قبل نهاية السبعينات ، وأنهم «لن يحاربوا إلا إذا أصابهم الجنون» (كذا) ، وحتى عند ذلك فلإيقاظ الدول العظمى وليس بهدف تحرير الأرض حقا وفعلا . أما عبور القناة نفسها على نطاق واسع فهو فى نظر العدو ومخابراته والمخابرات الأمريكية «يمثل تحديا يجاوز قدرة الجيش المصرى» . ولاشك أن فى هذه الحسابات المغرورة كانت سقطة أخرى من سقطات العدو وكان جزء من مقتله .

بكل هذا وبغيره تم تحقيق المفاجأة الكاملة للعدو، تلك التى أطارت صوابه ووضعته لفترة ثمينة وحرجة فى حالة من انعدام الوزن عسكريا وسياسيا . ورغم كل ما قيل من أن العدو تنبه لاحتمالات الهجوم العربى أو علم به قبل وقوعه بساعات قليلة ، فقد كان سلوك العدو الميدانى فى الساعات الأولى من الهجوم ، كما أحست به القيادة العربية المسئولة نفسها ، دليلا عمليا على أنه أخذ بالمفاجأة تماما . كذلك فلقد تضاربت أقوال اعدو وأدلته وشهاداته بعد ذلك حول هذه النقطة تضاربا شديدا . ولدينا فى هذا سيل من تصريحات العدو ، نوردها هنا بنصوصها منقولة أغلبها عن كتاب «حرب رمضان . الجولة العربية الاسرائيلية الرابعة . أكتوبر ١٩٧٣» ، تأليف اللواء حسن البدرى واللواء طه المجدوب والعميد أ. ح ضياء الدين زهدى . ومن هذه التصريحات ما يعترف بالمفاجأة صراحة ، ومنها ما ينكرها تماما ، ومنها ما يجمع بين النقيضين !

فمن الأولى قال ياريف ان اسرائيل تعمدت أن تخاطر بترك المصريين والسوريين يتخذون المبادرة بالأعمال العسكرية مع ما يترتب على ذلك من مزايا . وقال دايان «إنه توجد مفاجآت فى هذه الحرب أيضا» ، وان أنكر حدوث أى خطأ فى قوة جيش الدفاع أو

فى تشكيله أو تكوينه . أما اليعازر فقد قال «ان هذه أصعب حرب واجهتها اسرائيل - لقد زحفت علينا بدون سابق إنذار» . وبالمثل قال بارليف ان اسرائيل «فشلت وفوجئت مرة واحدة» مؤكدا أن ذلك لن يتكرر . وأخيرا هناك كلمة جونين فى قواته «أنتم مكلفون بالقيام بمهام فرضت عليكم بصورة مفاجئة» .

ومن الذين ينكرون المفاجأة بطريقة أو بأخرى شارون الذى جزم حين رأى الصور الجوية لمعدات العبور والحشود المصرية بأن «الحرب ستقع فى يوم أو اثنين» . وبالمثل فعل آلون بطريقة أخرى اذ قال «اننى أؤكد شخصيا ، وكذلك رسميا ، أننى أقرر بشرفى الشخصى صحة البيان القائل بأننا لم نبدأ القتال . على العكس ، حتى بعد أن رأينا المجابهات الشاملة لقوات العدو فى أوضاع هجومية ، تجنبنا متعمدين الضرب أولا ، متخلين عن تلك الميزة العسكرية ، ميزة الضرب أولا» .

ولكن الذين يجمعون بين النقيضين أكثر . فبارليف عاد فناقض نفسه حين قال «لم يكن هناك نقص فيما يتعلق بمعرفة نوايا العرب» . كذلك صرح ضابط مخابرات اسرائيلى كبير بأن «كل ما توصلنا إليه وتوقعناه هو أن العرب سوف يشنون الحرب ذات يوم قريب ، ولكننا أخذنا فى الموعد على غرة» . والتناقض

ظاهر كذلك عند مايير نفسها التي قررت أنها «كانت تعلم يقينا بنية هجوم العرب بل وبتوقيته ومراميه ، ولكنها تركت لهم المبادأة طوعا واختيارا لأسباب سياسية واقتصادية ملحة» ، ثم عادت تقول فيما بعد «لو أن مسنولا جاءني واقترح استدعاء الاحتياطي لوافقته على الفور» . غير أن التناقض يصل إلى حد التلاعب أو التخبط الساخر عند هرتزوج : «ان الهجوم الذي شنه العرب أخذ اسرائيل على غرة ، وأن تحريك العرب لقواتهم على طول خطوط المواجهة لم يفاجئ اسرائيل ، ولكن من الواضح أن الهجوم جاء مفاجأة» (!) .

هذه عينة من تصريحات العدو ، التناقض الفاحش بينها غني عن الذكر ، ولكن السؤال الملح هو : لماذا ؟ وما الذي يخفي وراءه ؟ أغلب الظن أنه تضارب مقصود ، أو لعله غموض متخبط . فالعدو ، بعد أن صعقته الضربة العربية ، وانقاذا لسمعته العسكرية التي تحطمت ، راح يبرر النصر العربي بعامل المفاجأة وحده ، وأنه لولاه لما هزم ولانتصر كما تعود ، إلى آخر هذه النغمة الدعائية غير المجدية وغير الصحيحة . وفي الوقت نفسه فقد اكتشف العدو أن منطقه التبريري هذا هو اعتراف ضمني منه على الأقل بعجز وفشل مخابراته التي تمرغت سمعتها في التراب ، وخواء قدراته التجسسية التي

طالما تباهى بها . لقد وجد نفسه خاسرا على الحالين ، كالمستجير من الرمضاء بالنار .

غير أن الواضح فى الحالتين هو التناقض الحاد المدبب فى أقوال العدو ثم التضارب السافر بين أقواله وأفعاله ، سواء ذلك عن عمد أو تلقائيا . ولكن فى الحالة الأولى كذب الاسرائيليون ولو صدقوا ، وفى الحالة الثانية صدقوا ولكن بطريق الخطأ فقط . كيف ؟ لا تفسير لهذا إلا أن فى الأمر شيئا ، أو أشياء أخرى . ثمة حلقة مفقودة يحاول العدو اخفاءها ما بين اعترافاته المبتسرة وادعاءاته المكذوبة . فما هى ؟ اننا إذا أعدنا تركيب الموقف منطقيا لوجدنا فيه ، ليس مرحلة واحدة كما يوهم العدو ، ولكن أكثر من مرحلة من تحول الرأى وتغير القرار ، وان جاءت كلها مضغوطة فى دورة مختزلة وفى فترة زمنية وجيزة جدا . فالعدو يقول : «لقد رأوا ، ولكنهم لم يفهموا» . وقد يكون هذا صحيحا إلى حين أو إلى حد أو آخر ، اذ لاشك أن القيادة المصرية نجحت فى تضليل العدو واخفاء نواياها واستعدادها وتحركاتها ثم خططها إلى آخر لحظة وببراعة فائقة ، بحيث لم يفهم العدو حقيقة ما يدبر وما ينتوى . غير أن هذا نصف الحقيقة ، بل ثلثها فقط .

فالمرجح ، بل المؤكد الآن ، أنهم «رأوا وفهموا ، ولكنهم لم يصدقوا» . وهذه هى المرحلة الثانية فى تقدير الموقف . فالثابت

ان العدو من شواهد وأدلة عديدة توصل إلى احتمالات نشوب حرب حقيقية قبل قيامها بيوم أو يومين (تنبؤات شارون) . غير أنه لفرط غروره وامتلائه بالثقة ولشدة استخفافه بالعرب لم يصدق أن الأمر جد لا هزل ، حتى صفعته الحقائق المجسمة المتوالية بعد ذلك .

وأخيرا ، وهذه هى المرحلة الثالثة فى دورة القرار والحلقة المفقودة في الموقف كله لاشك ، تأكد العدو من قدوم الحرب قبيل وقوعها بعدة ساعات صباح السادس من أكتوبر . وقد صرح هو بذلك كما نعلم ، مثلما صرح بأنه تدارس فكرة السبق بضربة اجهاض جوية ، إلا أنه عدل عنها فى آخر لحظة نظرا لأن الوقت (كما وجد) كان قد أصبح متأخرا جدا لمثلها وأن فرصتها قد ضاعت ، وكذلك حتى لا يتهم (كما ادعى) بأنه المعتدى والبادئ بالهجوم كل مرة فيفقد ما تبقى من الرأى العام العالمى . أى أنه بحكم الضرورة العسكرية ومن أجل الانتهازية السياسية ، قرر أن ينتظر هجوم العرب وأن يترك لهم طوعا زمام المبادأة كما صرح . على أى أساس ؟ - بالطبع على أساس أنه على أية حال قادر بقوته على امتصاص الهجوم ثم تدميره وتدمير الجيوش العربية .

غيـر أن الذى لم يعلـنه العـدو هنا ، والذى توصل إليـه - بحق فيـمـا نرى - الاسـتـاذ أحـمـد بهـاء الدين فى كـتـابه «وتحطمت الاسطورة عند الظهر» (ص ١٢٣ - ١٣٤) ، الذى لم يعلنه العدو هو أنه بعـد أن رأى وفـهـم وصـدق رحب فى قـرارة نفـسـه وفى آخـر لحظة بفـرصـة «حـرب أخـرى وأخـيـرة» كـان «يريدهـا» منذ رفض العـرب الاستسلام لانتصـاره في يونيو حتى يسـحـقـهم نهـائيا ويفـرض عليـهم الاعتـراف بالهـزيمة والتـسـليم له ، حـرب تحـقق له النصـر السياسى بعد أن عقـم نصـر يونيو العسكرى ، حرب كان يريدها وها هى الآن تبدو أمام العـالم «مفـروضـة» عليه . ولقد صـرح كثير من قـادة العـدو بلا مواربة كم يتـمنـون لو أقـدم المصـريون على عبـور القنـاة حتى يسـحـقـوا قـواتهم مرة واحدة وإلى الأبد . دايان على سـبيل المثال ، كـمـا كتب ايف كـو فى الفـيجـارو ، «لم يحاول قط أن يخفى أمنيته أن يقدم الجيـش المصرى على اجتياز قناة السويس ؛ حتى يبدأ انقضـاضه عليه وسـحقه سـحقا ، كما صرح دايان أكثر من مـرة وفي أكثـر من مناسـبة» . انهـا إذن الفـرصـة المثـاليـة ، حتى وإن فـاجأتـهم نوعـا- على غير مـا كـانوا يؤمـلون مـن تأهب فاسـتدراج فتوقيت .. إلخ . ومـا دامت هذه هـى الحـرب يفـرضـهـا العرب ، فلتكن هى الحـرب التى نحتاجها ونريدها لسحـقـهم نهائيا ، ولندعهم يسعون

إلى حتفهم بظلفهم ! ولكن نتيجة الحرب هى التى جاءت عكسية وخيبت كل خططهم وتوقعاتهم . ان هزيمتهم هى «المفاجأة» الحقيقية الصاعقة التى تلقوها فى النهاية ، أكثر منها مفاجأة نجاح خفاء الحرب أو محض قيامها أو واقع توقيتها . «لقد رأوا وفهموا ، ثم صدقوا ، ولكنهم مكروا» - غير أن المكر السيىء حاق بأهله . وتلك على الأرجح هى حقيقة قصة المفاجأة ، التى اعترف العدو بجزء منها وأخفى الجزء الأكبر .

وهناك بالفعل رأيان متعارضان في معسكر العدو بصدد عوامل الهزيمة : رأى مخادع يلقى اللوم والمسئولية كاملة على المخابرات ، ورأى أكثر صراحة يعتبر مسئولية المخابرات جزئية فقط والخطأ أوسع منها وأشمل . ويمثل الاتجاه الأول بارليف الذى قال «ان المصريين والسوريين قد دخلوا هذه الحرب بأسلحة جديدة وبكميات هائلة لم تحسن المخابرات الاسرائيلية تقديرها . ولهذا وقعت المفاجأة ، ونجح المصريون والسوريون في تحقيق انتصاراتهم» .

أما الرأى الثانى فقد عبر عنه عزرا وايزمان حيث قال «انه لا يريد القاء المسئولية كلها على التقديرات الخاطئة لأجهزة المخابرات الاسرائيلية . فقد كان هناك نقص فى الرؤية وفى

الواقعية على جميع المستويات ... ولولا وقوع هذة المجموعة من الأخطاء لما اضطررنا أثناء الحرب إلى الاعتماد بهذه الدرجة على المساعدات الأمريكية ولأصبحنا اليوم بالتالي أقل اعتمادا على الولايات المتحدة . لقد أسأنا تقدير كمية الأسلحة والعتاد التي زود بها أعداؤنا ، ولم نكن بالتالي مستعدين لحرب بمثل هذه الضراوة» .

ومهما يكن ، وعلى أية حال ، فليس صحيحا أن هزيمة العدو ترجع إلى عامل المفاجأة وحده ، كما يحاول هو أن ينظر ليثبت أن الأمر كله كان فلتة ، مجرد صدفة لا تتكرر . فهذه ليست إلا محاولة يائسة كما هي بائسة من جانب العدو لتغطية فشله وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من روحه العسكرية المنهارة شعبا وجيشا . والواقع أن هناك جانبين بالغي الأهمية للقضية . فأولا ، المفاجأة على أهميتها القصوى ليست إلا عنصرا واحدا فقط من مركب القوة والقدرة العربية الذاتية الجديدة والمتعددة الأطراف والأبعاد . وليس من المحتم أننا لم نكن لننتصر لو لم نحقق عنصر المفاجأة ، ربما صارت المجابهة أشق وأطول ولكن النتيجة ما كانت لتتغير أساسا وبالضرورة .

ثانيا ، وكما يلاحظ الأستاذ أحمد بهاء الدين بفكر صاف ونفاذ ، هناك نوعان من المفاجأة ، الفرق بينهما كالفرق بين القتل

دفاعا عن النفس والقتل من أجل السرقة . المفاجأة الغادرة ، ونمطها الكلاسيكي بيرل هاربر ، وآخر نماذجها ضربة صهيون صباح ٥ يونيو . وهذا النوع ليس انجازة عسكرية بارعة بقدر ما هو قطعة من الخسة العسكرية البشعة ، ضربة جبان في الظهر والظلام يمكن أن يمارسها بنجاح كل نذل لا خلاق له من الأعداء .

ثم هناك المفاجأة الشرعية التي يقرها الشرف العسكرى ، المفاجأة الوظيفية أو العضوية التي تمثل جزءا من صميم العمل العسكرى المشروع ، تقع في قلب حالة الحرب القائمة ووجها لوجه في ميدان الصراع تحت سمع العدو وبصره (وأقماره الصناعية ومخابراته وجواسيسه وطائراته الاستطلاعية) وفي وجه استحكاماته وحصونه وفي مرمى مدافعه (وخط بارليفه) . «ولكن براعة التخطيط السياسي والعسكرى ، في تضليل العدو ، وابقائه حتى الأيام الأخيرة حائرا في تفسير معنى تحركات قواتنا» .. هذه قطعة «من صلب القتال وفنونه» بل وجزء حتمي منه . وهذا بحذافيره ما قمنا به في ٦ أكتوبر .

ومعظم الآراء المحايدة والموضوعية تنص بالفعل دائما على تعدد أسباب الهزيمة الاسرائيلية ، فتجمع بين عناصر الخدعة والمفاجأة والأداء العسكرى نفسه . ويمكن أن نورد نموذجا

لهـذا الموقف رأى تشـرشل الحـفـيـد . «لقـد فـوجئ الجنـرالات الاسـرائيليـون» ، يقـول هو فى دراسـة ضـافـيـة ، «وهم غافلون ، ويرجع ذلك أساسـا إلى مـا كـانت تشـعـر به اسرائيل من نشـوة لانتصارها في ١٩٦٧ . كذلك فإن اسـرائيل لم تكن مستعدة لمواجهة هذا النوع من الحـرب الذى خـاضـه العـرب بالأسلحـة الجـديدة . فـإسـرائيل ظلت تعـتمـد فى اسـتـراتيـجـيـتـهـا على انتـصـاراتهـا بالطـائرات والمدرعـات كمـا في ١٩٦٧ ، فى حين أغفـلت المدفعيـة والمشـاة وهمـا السـلاحان اللذان تحمـلا عنف الهجوم» .

الحرب الشاملة

وهى مـا مارسنا بالفعـل ، ومـا كان حتمـا أن نفعل منـذ قـررنا أن نطلق الطلقـة الجـوابيـة الأولى فـى المعـركـة . فلقـد كـانت ضـمـانا شرطيا للنجـاح ومـصـلا مضـادا لأى انتكاس . والمقـصـود بالحـرب الشـاملة أن تبـدأ كـاملة مطلقـة منـذ أول لحظـة ، دون مـرحلة أو منطقـة انتـقـال بين حـالة اللاحـرب والحـرب . وتفسـير ذلك أنه كـانت هناك نظرية شـائعة بعـد يونيـو تقـول بعملية تصـعـيـد «محسوبة» المراحل فى مسـتوى المعركة ، كـأن نبدأ مثلا بحـرب استنزاف من نوع جـديد أو غير جـديد على غـرار مـا شـنته مصـر عبر القناة

حتى وقف إطلاق النار فى ١٩٧٠ ، أى بتراشق المدفعية أو غارات الطيران أو اغارات القوات الخاصة أو البرية أو البحرية .. إلخ .

ولكن كان من الصعب أن نجد أخطأ من هذه الوصفة الساذجة ، التى كفانا القائد العام للقوات المصرية بعد عمليات أكتوبر مئونة تفنيدها . «كان رأيي أن حرب الاستنزاف قد استنفدت أغراضها فى الفترة التى جربناها فيها . ثم ان اسرائيل لن تقبل بالعودة إليها ، وأى محاولة من جانبنا لذلك سوف تواجه من اسرائيل برد فعل أقوى» . ومعنى ذلك أننا كنا ازاء احتمال قيامنا بعمليات صغيرة يقابلها العدو برد فعل كبير يتجاوز أبعادها السياسية والعسكرية . ذلك أنه كان من الواضح أن العدو المتربص الحقود كان يتلمس أدنى ذريعة ميدانية من جانبنا لينتهزها فرصة ليبادر ويشن هجومه المفاجئ اجهاضا وردعا . وهو إن فاتته المباغتة الغادرة مرة لأى اعتبار عسكرى أو سياسى أو دعائى ، فسيجد فى أول رصاصة منا تلك الذريعة ، ليمارس الحرب الشاملة فورا وبصورة كاملة لتدمير قوانا فى أسرع وقت ونحن لم نزل نتوقع ردا محدودا .

ولقد كان ذلك بالدقة مقتلنا في ١٩٦٧ ، وتلك كانت في الحقيقة استراتيجية الحرب كأداة ضغط وتهديد سياسي واستعراض قوة أكثر منها استخدام القوة الجادة . ولكن اللعب السياسي بالحرب لعبة خطرة ، قد يمكن أن يمارسها الأقوى وحده . وقد كان واضحا أن أي بداية للقتال من جانبنا أقل من حرب شاملة منذ أول لحظة تعرضنا لخطر ممكن وكامن ، وأن علينا حين نبدأ الحرب أن نعنيها بكل معانيها : انه ليس ثمة نصف هجوم . وهكذا بالفعل كان . فقد تقرر أن تكون ضربتنا كبيرة شاملة ، بحيث يساوي جهدنا العسكري على الأقل احتمال تعرضنا لرد فعل كبير من جانب العدو ، الذي ستكون ضربته المضادة كبيرة على أية حال .

ولقد تساءل البعض عما إذا كانت خطة المعركة اصلا هي لعملية عسكرية كبيرة ، أكبر من حرب استنزاف مجددة ولكنها أصغر من حرب شاملة . وبعبارة أخرى ، كان السؤال هو ما إذا كانت الخطة قد اقتصرت على تحرير جزئي لسيناء والجولان ، يحطم خطي بارليف وآلون وينتزع رأس جسر عريض ، مع تدمير أكبر قدر ممكن من قوة العدو وكذلك من أسطورة تفوقه ، ولكن دون أن يمضي إلى نهاية الأراضي المحتلة بعد يونيو . ولكن ، كما

أوضحت القيادة العسكرية ، فلقد كانت الخطة شاملة وموضوعة لحرب شاملة ، غير أن تطور الموقف كان متروكا بالضرورة لرد فعل العدو من جهة وللموقف الدولى من جهة أخرى . والواقع أنه إذا كانت المعركة قد انتهت بتحرير جزئى ومحدود فقط ، فذلك وضع مرحلى فرضته ضغوط التوازن الدولى ، ولكن المعركة نفسها كانت - تخطيطا وتنفيذا - جزءا من منطق الحرب الشاملة .

وكما يوضح مؤلفو كتاب حرب رمضان ، حدد الهدف العسكرى للمعركة «بهزيمة تجميع قوات العدو الاسرائيلي فى سيناء والهضبة السورية والاستيلاء على مناطق ذات أهمية استراتيجية تهيئ الظروف المناسبة لاستكمال تحرير الأراضى المحتلة بالقوات المسلحة ، لفرض الحل السياسى العادل للمشكلة . وبناء على هذا الهدف الواضح كان على القيادة العامة المصرية أن تخطط للقيام بعملية هجومية استراتيجية مشتركة ، تنفذ بالتعاون مع القوات المسلحة السورية ، وتقوم فيها مصر بالاقتحام المدبر لقناة السويس وتدمير خط بارليف ، والاستيلاء على رؤوس كبار بعمق ١٠ - ١٥ كيلو مترا على الضفة الشرقية للقناة ، وتكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة ، وصد وتدمير هجمات وضربات العدو المضادة ،

والاستعداد لتنفيذ أى مهام قتالية أخرى تكلف بها فيما بعد . أما سوريا فتشن الهجوم وتخترق دفاعات العدو بالجولان وتجزئ تجميعه وتدمر قواته وتصل إلى الخط - نهر الأردن ، الشاطئ الشرقى لبحيرة طبرية» .

ولعل من المفيد بعد هذا أن نضيف أن الحرب الشاملة التى اتبعناها بنجاح فى أكتوبر تعنى ، من بين ما تعنى ، الاستعمال الشامل والأمثل لكل أسلحة القوات ، هجومية ودفاعية ، برية وبحرية وجوية ، مشاة ومدفعية ومدرعات ، صواريخ وقذائف وقنابل ، نظامية وخاصة وفدائية ... إلخ . وهذا النوع من القتال يعتبر بمعنى من المعانى فصلا جديدا فى كتاب الحرب الحديثة ، يعتمد أساسا على التنسيق الدقيق جدا والمحكم جدا بين كل هذه الأسلحة بحيث تتكامل وتتناغم فى سيمفونية نارية متعددة الحركات ولكنها موحدة الايقاع ، لا تترك ثغرة أو فرصة للعدو ، وتحقق الاستخدام الأمثل لكل امكانيات كل نوع منها بل وبحيث يضاعف كل منها قدرات الآخر . وهكذا ، أيضا ، بالفعل كان .

الحرب الطويلة

يبقى أخيرا من عوامل النصر عنصر الحرب الطويلة ، حرب النفس الطويل ، فهى مقتل حقيقى من مقاتل اسرائيل . ومن

المسلم به أن الحرب الخاطفة ، السريعة القصيرة ، ليست فى صالحنا قطعا ، ولا هى فى طاقتنا ربما . على العكس ، كلما طالت المعركة كانت فى صالحنا ، والأطول الأفضل . أما العدو فكل قوته مركزة فى نفسه الأول ، نفسه القصبر ، وعليه يراهن ببقية حياته .

والحرب الخاطفة هى أساسا استراتيجية المقامرة ، أكثر حتى عما هى استراتيجية المغامرة : تقامر بكل شئ لتكسب كل شئ أو تخسر كل شئ . والحرب الخاطفة ، التى نقلتها الصهيونية عن أستاذتها النازية ، كانت دائما استراتيجية العدو ، إما لأنها تلائم أغراضه وأهدافه ، وإما لأن ظروفه وأوضاعه قد فرضتها عليه فرضا . وقبل أكتوبر كان العدو قد وصل فى اعتماده على الحرب الخاطفة إلى حد أن دايان أعلن صراحة أنه «ينبغى انهاء المعركة خلال ساعات بحيث لا تكلفنا غاليا فى الأرواح والمعدات» (!) .

وقد أوضحت حرب أكتوبر كم فشل العدو فشلا فاحشا فى تحقيق آماله الخرافية وادعاءاته المبتذلة ، وإلى أى مدى نجحنا نحن ، على العكس ، فى توريطه راغما فى أطول حرب حقيقية خاضها منذ نشأته . فرغم أن شكل الحرب ومداها وأمدها لا تتحدد بإرادة طرف واحد ، بل بإرادة الطرفين المتحاربين تتحدد ، ورغم أن الحرب الحديثة أميل

بطبيعتها إلى القصر بحكم الامكانيات التدميرية الهائلة للأسلحة العصرية خاصة منها الجوية والالكترونية ، فقد كان علينا أن نفرض الحرب المطولة إلى أقصى حد ممكن . كان علينا أن نحارب حربا حقيقية من أجل اطالة أمد الحرب ، فكل يوم مضاف إليها هو احتمال مضاف بالنصر ، ذلك أن اقتصاد العدو لا يتحمل إطالة التعبئة العامة إلا أسابيع معدودة ، بعدها تصاب حياته الانتاجية بالشلل الخطير .

وقد كان تقدير الخبراء العالميين دائما أن العدو الاسرائيلى بكيانه المعطى لا يستطيع أن يواصل الحرب لأكثر من شهر أو شهر وبضع شهر كحد أقصى . ولولا التدخل الأمريكى المطلق فى معركة أكتوبر لاصطدم العدو بهذا الحاجز التحديدى الرهيب ولوقف أمامه وجها لوجه، ولسوقف معه جهده الحربى عند طريق مسدود لا يعنى إلا الهزيمة الحتمية والكاملة . ولعل هذا يكون طريق الجولة القادمة .

خطة العبور

اجمع الخبراء العالميون على أن معركة أكتوبر تعد واحدة من أكبر معارك التاريخ العسكرى الحديث ، لا تقل عن كبريات معارك الحرب العالمية الثانية ومعارك الدول الكبرى عموما . كذلك أجمعوا ، حتى

الأعداء منهم ، على أن ملحمة المعركة المصرية فى سيناء جاءت بكل المقاييس قطعة مذهلة من الاستراتيجية الممتازة فى جميع مراحلها : العبور ، اجتياح الخط ، رأس الجسر ، القاعدة الأرضية . وحتى نعيد تركيب «سيناريو» المعركة متسلسلا فى تداعيه المنطقى وفى تتابع أحداثه ، لتكن هذه المراحل نفسها هى أساس تحليلنا للملحمة السينائية الكبرى .

فأما العبور فقد كان بحق بمثابة اقتحام العقبة ، ففى قفزة كبرى واحدة ، وفى مبارزة نارية التحامية بين البر والبحر وبين الأرض والسماء ، تم اكتساح أصعب مانع مائى في العالم – هذا تقدير العسكريين أنفسهم – فى أقل وقت ممكن وبأقل خسائر بشرية متصورة على الإطلاق . وكان العدو يصور العبور إما مستحيلا سيغرقه هو فى القناة إغراقا وإما حمام دم لا يتم إلا بنسبة رهيبة من الخسائر .

غير أن القناة ، عنق الزجاجة التى ظنها العدو عنق مصر الذى يمسك به ومنه يمسك بخناقها ، تحولت إلى مقبرة عائمة له ، فى حين لم تلبث العملية الفائقة النجاح نفسها أن تحولت إلى درس مرجعى ونموذج نمطى ، بل غير نمطى على الإطلاق ، فى كل أكاديميات العالم العسكرية ! لقد كان العبور بالذات قمة أمل العدو فى تحطيم

أمل التحرير ، فجاء قمة هذا الأمل الكبير ، وجاء قمة فشل العدو القمىء .

ولدينا فى هذا شهادة النيويورك تايمز : «ان العبور المصرى لقناة السويس بعدظهر ٦ أكتوبر كان بارع التخطيط والإعداد والتنفيذ . ان القوات التى كانت فى المواقع المحصنة على الضفة الشرقية للممر المائى الضيق واجهت تفوقا عدديا كبيرا ، لكن ذلك لا يقلل من الشجاعة وعنف الهجوم اللذين أظهرهما الجيش المصرى فى اقتحامه أو تجاوزه لهذه المواقع» .

التحدى

ولكن لماذا عدت عملية العبور بالغة الصعوبة والخطر إلى هذا الحد ؟ الواقع أن القناة لم تكن مشكلة العبور الوحيدة وان كانت الكبرى . فالعائق فى الحقيقة كان مثلثا : القناة ، الساتر الترابى ، خط بارليف . وثلاثتها تلتصق مباشرة ببعضها البعض كأنها أضلاع مثلث قائم الزاوية ، القناة ضلعه الأفقى ، والساتر الرأسى ، وخط بارليف هو مجازا وتره الحساس والمسيطر . وكل منها عائق رهيب بما فيه الكفاية وحده ، ولكل مشكلاته الاقتحامية الخاصة . ولكن اجتماعها مع بعضها البعض كان يضاعف صعوبة العملية كلها بمعدل الربح المركب ، لأن كلا

منها كان يدعم ويؤكد فاعلية الآخر ، وبالتالى يزيد من خطره ومناعته ومن ثم من صعوبات اقتحامه .

بل قد نستطيع أن نتكلم عن ثلاثية أخرى ثانوية من الموانع : خط أحواض النابالم ، خط الأسلاك الشائكة ، خط حقول الألغام . والخطوط الثلاثة تتمحور بطبيعة الحال حول خط بارليف ، الذى هو العمود الفقرى فيها كما هو فى الثلاثية الكبرى . وفى النتيجة فلقد كانت العملية كلها أشبه بسباق الحواجز المركب ، إلا أن الحواجز جميعا متراصة متلاصقة دفعة واحدة . ولنفصل .

فأما القناة ، فترجع صعوبة عبورها لعدة أسباب . أولا لأنها مجرى ضيق بالقياس إلى كثير من الأنهار والعوائق المائية المماثلة ، فاتساعها يتراوح بين ٢٢٠ ، ١٨٠ مترا فى بعض المواضع ، مما يسهل للعدو عملية تغطيتها بنيرانه فضلا عن مراصده . ثم هى ثانيا قناة عميقة نسبيا إذا قورنت بالأنهار العادية ، إذ تصل إلى ٢٠ مترا أحيانا والمتوسط ١٦ - ١٧ مترا . كما ينخفض سطح الماء فيها عن الشاطئ نحو المترين ، مما يجعلها صعبة العبور للآليات والدبابات والسيارات المدرعة البرمائية ، بل وتستدعى طرزا خاصة منها وكذلك من الجسور والمعابر .

كذلك فإن القناة ، وهي مجرى صناعي بين بحرين وتجري في صحراء مكشوفة للعواصف الرملية والرياح القوية ، تمتاز سواء على السطح أو في الأعماق بالتيارات المائية السريعة (١,٥ متر في الثانية) ، المتغيرة التي تختلف اتجاهاتها ما بين الشمال والجنوب عدة مرات يوميا (أربعا) ، والتي تتعامد على اتجاه موجات العبور ويمكن أن تعترضها . وهناك أيضا المد والجزر الذي يغير منسوب المياه خلال اليوم ، والذي يصل إلى أقصاه في الجنوب عند السويس حيث يبلغ مداه ١,٥ متر . ويجب أخيرا أن نضيف كذلك شدة انحدار جوانب القناة ، المبطنة فضلا عن ذلك بالحجارة والدبش والتكسيات والستائر الأسمنتية والحديدية ، مما يجعل نزول المركبات البرمائية وصعودها عليها صعبا يستلزم اعدادا هندسيا مسبقا وشاقا .

أما الساتر الترابي فقد نظنه لأول وهلة عائقا ثانويا بل حتى بدائيا ، ولكنه في الحقيقية عقبة من الدرجة الأولى ومثل مشكلة حقيقية جدا وتحديا أساسيا للتكنولوچيا والهندسة العسكرية في أرقى صورها . فهذا الحائط ، الذي يمتد بطول القناة بكاملها ، أقامه العدو من مخلفات حفر القناة قديما وعمليات التوسيع حديثا والتي كانت تؤلف ساترا ترابيا يتراوح بين ٦ . ١٠ أمتار في ارتفاعه ، ومنه فعلا استمد

فكرة حائطه . (لاحظ أن هذه العمليات والمخلفات تتم على ضفة واحدة فقط من القناة ، هى الضفة الشرقية غير المأهولة أو المزروعة) . وهو حائط شديد العرض والاتساع يصل فى المتوسط إلى عشرات الأمتار . ففى قطاعه الجنوبى مثلا وصل عمقه إلى نحو ٢٠٠ متر ، الأمر الذى يجعل نقبه بالوسائل التقليدية بالغ الصعوبة . أما ارتفاعه فيصل إلى نحو ١٠ ، ١٥ ، ٢٠ مترا فى المتوسط ، بل وإلى أكثر من ذلك في بعض المواضع ، يهوي منها إلى خط الماء بجبهة ساقطة شبه عمودية يصعب جدا ارتقاؤها فضلا عن تسلقها . انه أشبه فى مجموعه بكثيب مهيب من نوع «السيف» ، إلا أنه من مقياس اقليمى غير مألوف .

وقد كان هذا الساتر بارتفاعه الكبير برج مراقبة شاسعا أيضا ، يعطى فرصة بلا حدود لرصد الضفة الغربية وكشف تحركاتنا وقواتنا عليها ، وفى الوقت نفسه يخفى وراءه الجزء الأكبر من خط بارليف وتحركات العدو عليه . وفوق هذا كله كان الساتر يعطى العدو ميزة العمل من أرض مرتفعة بالقياس إلى الضفة الغربية المنخفضة .

من هنا كان من الضرورى للعبور فتح ثغرات فى الساتر بعرض عدة أمتار على الأقل ولعمق يقترب من منسوب مياه القناة حتى يمكن

اقامة الجسور وعبور القوات والمعدات البرمائية . والمشكلة أن التجربة أثبتت استحالة فتح هذه الثغرات بالتدمير وقوة التفجير بالمدفعية لأن التراب كاتم يمتص وقع القذائف المنفجرة . كذلك لابد أن نذكر أن المشكلة لم تكن ساتر العدو وحده ، فلقد تضاعفت بساتر مماثل أقمناه نحن أيضا فى سنوات ما قبل المعركة على ضفتنا الغربية ، تحسبا لأى هجوم غادر قد يقدم عليه العدو ، واخفاء لتجهيزاتنا ومعداتنا وتحركات قواتنا عن استطلاع العدو ومخابراته ، وأخيرا رفعا لمستوى أرضنا على الضفة الغربية إلى مناسيب وهيئات عالية حاكمة وتوفير مصاطب دبابات مشرفة تفوق أرض العدو وتتفوق عليه .

غير أن الهندسة العسكرية المصرية وجدت حلا مبتكرا تماما استلهمته من تجربة مدرسة السد العالى الهندسية - علاقة أخرى حميمة دائمة ومتصلة بين معركتي السد والقناة ، تمويلا وتأميما وبناء وتصميما ! هذا الحل يتمثل فى التجريف الهيدروليكى بقوة المياه شديدة الاندفاع تحت ضغط مرتفع . فبمضخات توربينية مائية جبارة كموتورات الطائرات ، أو مدافع المياه كما سميت ، تسلط على قطاع الساتر مياه القناة نفسها ، تتهدل آلاف الأمتار المكعبة من التراب الرملى وتتداعى حتى تسوى بالأرض . (قوة اندفاع الماء من خراطيم هذه المضخات تكفى للاطاحة بأثقل الدبابات !)

وبذلك أيضا فإن القناة - كالأرض - تكــون قــد حاربت مع أبنائها !
ولا يبقى بعد ذلك إلا تهـذيب جوانب القـناة بالنسف والتسوية حتى يمكن تثبيت الكبارى والمعـديات وعبـور المركبات البرمائية (يلاحظ هنا أن العدو لم يقتنـع بأن فتحات السـاتر تمت بقـــوة الميـاه وحدها ، وهو يعتـقد أننا استخدمنا معها مـادة كيمـاوية مـذابة أو مذيبة لم نعلن عنها) .

ولا يظن أحد أن هذه العملية كانت كشـفا أو تطبيقا سهلا . فقد كان لابد من التوصل إلى طلمبة ميـاه صـغيرة الحجم تعمل بالوقود ، خفيفة الوزن فائـقة الضـخ ، يمكن حملها باليد وتحميلها على القوارب ويكفى أقل عدد منها لفتح ثغرة واحدة . وقد وجد أن هذا الحد الأدنى هو ٢ طلمبات ، واقتضى هذا عمل سنين . كذلك لا ينبغى أن نتصور فتح الثـغرة بعد ذلك عملية روتينية هـينة . فالطين اللزج الذى تطيح به خراطيم الماء الجبارة بكميات هائلة وسرعة مخيفة لا يحيل فقط وجوه الرجال إلى السـواد ، ولا ينجرف إلى المجرى المائى فيلزم ازاحته على الفور كذلك فحسب ، ولكنه يبقى على أرضية الثغرة وقاعها وحلا لزجا زلقا بعمق قد يصل إلى المتر مستحيل عبور الدبابات والآليات عليه إلا بعد ازاحته بالجرافات ثم فرشه بمواد جافة صلبة كالخشب أو الحجارة

أو أكياس الرمل أو ألواح الصلب أو الشباك المعدنية أو غيرها بحسب طبيعة التربة .

أما عن ساترنا على الضفة الغربية فقد كان هو الآخر مشكلة لا تقل خطورة . فقد كان لابد من اعداد فتحات فيه كمنازل أو ساحات اسقاط للكباري تتلقى ارساءها وعبرها يتدفق العبور حين يبدأ . وأن يتم هذا تحت بصر العدو ، فمعناه أن نكشف له عن نوايانا واتجاهاتنا . ولهذا فقد حلت المشكلة بإعداد فتحات خداعية علي طول القناة برمتها ، فتحة كل ربع كيلو متر ، بحيث استحال على العدو أن يعرف أو يحدد أين ومتى سنعبر .

هذا عن الساتر الترابى على حدة . أما خط القوة المنيع ، خط بارليف ، الذى يشرف على المسرح كله أرضا وماء ويسيطر عليه من علٍ سيطرة كاملة ، فقصة أو قضية أخرى ، لأنه غير قابل للتدمير بإصابات القنابل المباشرة سواء بالمدفعية الثقيلة أو من الطائرات القاذفة ، ولهذا سنعود إليه بالتفصيل . ولكن علينا هنا أن نذكر على الأقل تلك السلسلة من أحواض النابالم والزيوت الحارقة والوقود التى رصع بها العدو ضلوع وأجناب الخط والساتر ، مخبأة تحت الأرض وممتدة أنابيبها تحت سطح مياه القناة ، تنساب فيها لتندفع فوقها بحسب نظرية الأوانى المستطرقة ، لتشتعل لحظة العبور فتحيل الماء

إلى نار والنار تخرج من الماء وتحـول القنـاة إلى شريط أو شريحة من الجحـيم تحرق كل ما حولها . وقد أثبتت التجربة عدم جدوى طـريقة الإطفـاء ، وتحتم قطع أو سد تلك الأنابيب الحديدية منـها والمطاطية قبيـل العبور مباشـرة . وهـذا ما تم بالفـعل بنجـاح تام ، بحيث أخرج هذا السلاح الحارق من المعركة و«أحرقه» تماما .

وقبـل أن نغـادر هذا المسـرح بعقبـاته الطبيعـية والصناعية ، لعل القارئ قد لاحظ مدى التغييرات التى أحـدثها اعـداده وتجهيزه في اللاندسكيب الطبيـعى للمنطقـة برمتـها ، سـواء على الضـفة الشرقية أو الغـربية . هنـاك على الضـفة الشـرقية ، كما رأينا ، كان خط بارليف وساتره الرملى بكل جرمهما وضخامتهما . وهناك خلفهما سلسلة متتـابعة من الخطوط الدفـاعيـة الثـانوية تتعـاقب بانتظـام ويتباعد محسوب ما بين القنـاة وخط المضـايق الجبلية ، لكل واحد منها تلاله وسواتره الصناعية ومناطـق تجمعـات القوات ومنشـآتها .. إلـخ . وهنـاك بين الكل شـبكة كبيـرة من الطرق الرئيـسيـة والفـرعية ، الطـولية والعـرضية ، طـولها نحو ٧٥٠ كم وعمقها نحو ٣٠ كـم ، أنشـأها العدو على امـتداد تلك الشـقة لتـخـدم تحركاته وقـواته بسـرعة على كل المحاور وخـاصة من محـور طولى إلى محـور آخـر .. إلخ . وبهـذا لم يكن الأمـر مـجرد «خط» دفـاعى أحـادى يطل

على القناة ، ولا حتى «نطاق» دفاعى يوازيها ، بل كانت المنطقة بكل عمقها من القناة إلى المضايق «منطقة» دفاعية كاملة بالمعنى العسكرى المعروف .

بالمثل على ضفتنا الغربية . ثمة كان ساترنا الترابي المناظر بكل ما يضرسه ويشرشر سطحه من عوالى مصاطب وأبراج ومواطئ ثغرات وممرات وساحات اسقاط بالعشرات . ثمة كذلك شبكة الطرق والمدقات الكثيفة بطول وعرض وعمق الجبهة ما بين القناة والوادى ، تؤلف فى مجموعها نحو ٢٠٠٠ كم ، شقتها الهندسة العسكرية خصيصا لخدمة تحركات القوات المسلحة ، وبعضها أقيمت على جانبيه الستائر اخفاء لتحركاتنا عليها ، وبعضها أقيمت عبره الكبارى والجسور .. إلخ . وهناك عدا هذا شبكة ترع الرى والصرف الحيوية بشرايينها ومحاورها الرئيسية وفروعها الثانوية ، تلك الشبكة التى كانت تمثل عقبة في سبيل التحرك شرقا وغربا بصفة خاصة والتى استلزمت من ثم عديدا من الكبارى فوقها ، وأكثر منها من المخاضات عبرها للربط بين شاطئيها (ترعة الاسماعيلية والسويس خاصة) ، كما استلزمت حبس المياه عنها قبيل المعركة مباشرة تسهيلا للعبور . وتلك الشبكة نفسها كانت هدفا خاصا جدا لطيران العدو . قبل المعركة حاول شلها وسدها بالقنابل أو فتح ثغرات كبرى

فيها بحيث تغرق الأراضى المنخفضة حولها بكل ما عليها من منشآت مدنية وعسكرية أو بحيث تتدفق مياه القناة الملحية إليها فتختلط المياه العذبة بالملحية حتى يحرم السكان والقوات من الماء ، كما حاول بالفعل فى منطقة رقبة الأوزة الضيقة النحيلة فى قطاع القنطرة - بورسعيد حيث تختنق أرض اللسان بما تحمله من شرايين طرق المواصلات وطرق الرى . أما أثناء المعركة فقد حاول العدو سد بعضها وحوله إلى كبارٍ ترابية أو حجرية يعبر عليها كما يقتل بها عطشا وغرقا ...

من هذا كله نصل بسهولة إلى أن الحرب ، قبل المعركة وأثناءها وبعدها ، قد خلقت وخلفت وراءها نوعا من اللاندسكيب يختلف عن «اللاندسكيب الطبيعى» بقدر ما يبتعد أيضا عن «اللاندسكيب الحضارى» بمعناه العادى المدنى أو السكنى أو البشرى التقليدى . ذلك هو «اللاندسكيب العسكرى» بالضرورة والامتياز ، military landscape, militaryscape, warscape كما يمكن أن نسميه . فصفحة الاقليم هنا بما أقيم عليها من خطوط دفاع وسواتر تراب هائلة وقلاع مشيدة ومنشآت ومصاطب وقواعد صواريخ ثابتة وأطباق الرادار العظيمة الأقطار والدشم والمطارات والمهاجع وأبراج المراقبة المشرفة وترسانات الأسلحة

الضخمة، وبما بث فيها من حقول ألغام شاسعة ورشق عليها من غابات كثيفة من الأسلاك الشائكة ، ثم بما حفر فيها من آلاف الخنادق الملتوية والمخابئ والملاجئ ودشم وأوكار الدبابات وبطاريات المدفعية ، وكذلك بما أضيف إليها من شبكات طرق شريانية أو هامشية ، رئيسية وفرعية ، بل وبما فرض على شبكة مياهها سواء القنوات أو الترع أو المصارف من تعديلات أو تفريعات أو كبار وسدود أو حتى مخاضات ، نقول : بكل هذا أصبحت صفحة الاقليم مرصعة بآلاف الملامح والمعالم والهيئات العسكرية التى قد تتقارب أحيانا وتتكاثف فى تجمعات كالأسراب الحاشدة أو تتباعد هنا وهناك في كوكبات أو تنقطها فى وحدات منعزلة ، ولكنها تؤلف فى مجموعها أرخبيلا هائلا أشبه بنهر مجرة عسكرى يترامى بين البحرين المتوسط والأحمر بطول القناة وعلى جانبيها بعمق عشرات الكيلو مترات .

لقد أصبح وجه الأرض هناك يحمل بصمة أصابع الإنسان المحارب وخاتم الحرب وطابعها أكثر من أى شئ آخر ، وتحول اللاندسكيب هنا إلى نوع من المعمار الحربى والهندسة العسكرية . لقد خلقت الحرب في هذه المنطقة الاستراتيجية نوعا من الإقليم الجغرافي الخاص ، المؤقت أيضا ربما ، هو «اقليم الحرب» ، وأصبح

اقليم الحرب لاندسكيب حرب أيضا ، أعاد تشكيل اللاندسكيب الطبيعي وأعاد خلق تضاريسه الصغرى بل وهيدرولوجيته ، أحيانا بصورة مقلوبة وأحيانا بصورة مدمرة .. إلخ ، بالاختصار ، لقد خلقت المعركة نوعا جديدا من الاقليم ، فبزغت جغرافية تشكيلية جديدة للمنطقة وتخلق شكل رابع من المادة ، شكل يتراوح ويتارجح باستمرار ما بين البناء والهدم والتعمير والتدمير ، وهو في النهاية إلى زوال أو تقلص حين يعود السلام .

الاستجابة

تلك كانت ثلاثية الموانع الطبيعية والهندسية ، الأرضية والمائية ، كما واجهت معركة التحرير . وقد كان هناك - نظريا - طريقان للتعامل مع هذه العقبة الكؤرد : أما تجاوزها أصلا وتخطيها كلية بهجوم شامل محمول جوا يحقق الاسقاط خلف خطوط العدو ، خلف خط بارليف يعني . وهذا يحل مشكلة العبور المائى الصعبة ومشكلة السد الترابى الذى لا يستجيب للتفجير المدفعى ثم الخط نفسه الذى لا يتأثر بأى ضرب مباشر . ولكن هذا الطريق يتطلب أسطولا جويا من طائرات النقل والهليكوبتر من مقياس مستحيل توفيره فضلا عن تصوره لمعركة بالحجم المتوقع ، بل ربما تقصر دونه

امكانيات الدول الكبرى ، كذلك لم يكن من الممكن ضرب خط الاستحكامات كله بالطيران نظرا لأنه لا يبعد إلا ٢٠٠ متر فقط عن قواتنا نحن .

لذلك لم يكن مفر من الطريق الآخر : العبور الأرضى لا الجوى ، الأفقى لا الرأسى ، والاقتحام المباشر لا الالتفاف الخلفى ، أو قل الإنزال بدل الإبرار . وكان هذا يعنى ويستدعى ، إلى جانب الإعداد والحشد والتسليح بالمستوى والحجم المناسب بطبيعة الحال ، خطة عظمى تقوم على دعامتين اساسيتين هما شجاعة التخطيط العلمى وقدرة الهندسة العسكرية .

بالأولى نقصد المخيلة الجريئة المتحدية التى لا تتردد فى المخاطرة بالاقتحام وابتكار الحلول دون تقليدية وبلا مخاوف ، لا تقامر ولكن لا تخشى أن تغامر ، وفى الوقت نفسه تقدم تصورا كاملا متكاملا للخطة بجميع مراحلها وتفاصيلها . والواقع أن المعركة ، كما سنرى ، أثبتت أن الخطة لم يكن ينقصها لا المخيلة ولا الشجاعة ولا التجديد ، بل جاءت خطة ثورية ، طموحا ، ومخاطرة إلى حد غير عادي . وقد كان هذا سر نجاحها ، مثلما هو سر دهشة العسكريين في العالم حيالها وتلهفهم على دراستها .

أما القدرة الهندسية فقد كانت شرطا جوهريا وضمانا شرطيا لابد منه بحكم طبيعة العملية فى كل مراحلها وعقباتها . بل يمكن

القول بلا مبالغة ان العبور كله ، بجميع حلقاته وإلى أن يكتمل لقواتنا موطئ قدم وثيق على البر السينائى ، انما هو عملية هندسة عسكرية صرف . وبالفعل ، فلقد جاء عبور المعركة فى التطبيق قطعة من العلم والتكنولوچيا العسكرية الممتازة ، محورها ومهندسها الأساسى ولا نقول الوحيد هو سلاح المهندسين ، الذى يمكن أن يعد فى تلك المرحلة بمثابة سلاح رابع للقوات المسلحة جنبا إلى جنب مع القوات البرية والبحرية والجوية (خلال ساعتين فقط من الانطلاق - سنرى - كان حجم قوة المهندسين على الضفة الشرقية وفوق القناة نحو ١٥ ألف رجل ، وفى الموجة الثانية عبرت ٨٠ وحدة هندسية بقواربها الخشبية محملة بكل تجهيزاتها) .

هذا إذن عن الشرطين العامين أو الخارجيين للخطة . غير أن هناك أيضا شرطين داخليين يأتيان بعدهما . فلما كان العبور هو بداية كل شئ ، بداية معركة التحرير جميعا ، ومن ثم كان النقطة الحرجة فى الهجوم ومفتاح النصر أو الهزيمة ، أى فاتحة النصر أو خاتمة الهزيمة ، كان لابد أن يتم فى أقصر وقت ممكن قبل أن يتنبه العدو ويفيق ، وبأقصى حد من النجاح قبل أن يدفع بقواته من العمق . كان المطلوب أساسا هو شغل العدو وشله إلى أقصى

حد ممكن طوال هذه الفترة الحرجة . ومعنى ذلك بعبارة أخرى اخراج كل أسلحته فى كل أنساقه وخطوطه الدفاعية - اخراجه كله مثاليا ان أمكن - من المعركة مؤقتا بطريقة أو بأخرى ريثما تتم العملية . فالعملية إذن سباق مع الزمن أساسا ، حسابها يتم بالدقائق وتتم فى جملتها فى ساعات .

من ثم كان محور النجاح وأساس التخطيط هو ضبط توقيت الضربات والتحركات من جانب جميع أسلحتنا وقواتنا فى ترتيب مسلسل بحيث يتزامن بعضها أو يتعاقب بعضها فى جدول زمنى محسوب ، يمهد لبعضها البعض لكى يتم فى ظلها وبمساعدتها وتحت غطائها ، ثم يسلم هو بدوره المهمة لغيره ، وهكذا . ومن هنا سنلاحظ تزامن عدة عمليات معينة فى ثنائيات كالتوائم «السيامية» الملتصقة أبرزها ثلاث : الطيران مع المدفعية : المشاه مع المهندسين : المدرعات مع المشاه الميكانيكية .

ففى لحظة واحدة ، سنرى ، بدأت معا عمليتان تتعلقان بعمق العدو هما الضربة الجوية الأولى وانطلاقة عملية المدافع الثقيلة . وفى اللحظة نفسها بدأت عملية عبور الزوارق المطاط والعربات البرمائية المدرعة تحمل المهندسين لإقامة الكبارى والمعابر والمشاة لتامين رؤوسها على الضفة الشرقية . وبعد أن

تمت هذه العملية عبرت عليها كل من المدرعات والاسلحة الثقيلة في جانب ومعها المشاة الميكانيكية والمدفعية في الجانب الآخر . وسنرى بالفعل كيف أن هذه العمليات الثنائية تؤلف حلقات مترابطة في سلسلة واحدة تمثل بدورها دائرة مغلقة أحكمت حول العدو .

كل هذا التخطيط الكفء وهذه التكنولوچيا المقتدرة وتلك الحسابات الدقيقة لم تكن ، مع ذلك ، لتكفي . كان لابد لها جميعا قبل التطبيق من تدريب وتجريب يختبرها عمليا ويكشف ثغراتها ويصحح مساراتها ... إلخ . وهنا ثبت أن سنوات ما قبل المعركة ، تلك السنوات القاسية والصبور ، لم تكن سدى . ففي هذه الفترة اتيح لقواتنا وقياداتها المجال لنوعين أساسيين من التدريب والتجريب : تدريب نموذجي معملي ، وتدريب ميداني واقعي .

فبالتخطيط الثاقب الواعي والإرادة المصرة ، جرى التدريب الشاق المثابر العنيد - قيل ٢٠٠ تجربة ! - على «ماكيت» اقليمي من الحجم الطبيعي وفي لاندسكيب طبيعي اختير بعناية وعن عمد ليكون أقرب ما يمكن شبها ببيئة القناة ومسرح القتال سواء تضاريس أرض أو عمق مجرى أو سرعة تيارات . وقد كانت منطقة على قطاع من ترعة الاسماعيلية ، حيث أقيم سد ترابي مشابه

تماما لسد العدو ، هي هذا المسرح التدريبي والتجريبي على العبور والاختراق . كذلك فلقد أجريت عملية التدريب أحيانا على قناة السويس نفسها في قطاع يزدوج فيه مجراها وينشعب شعبتين – قطاع البلاح ، حيث تتوسط المجرى جزيرة البلاح – الغربي منهما كانت تسيطر عليه قواتنا سيطرة كاملة وفي مأمن تام من أنظار العدو وأخطاره .

ولا يظن أحد أن هذه التجارب والتدريبات ، حتى كتجارب وتدريبات ، كانت بالمهمة السهلة . ففضلا عن صعوبات توفير المسرح الملائم بالمواصفات المحددة ، كانت هناك اعتبارات امكان استخدام الذخيرة الحية ، وبإحداث خسائر في الأرواح والممتلكات والمزروعات بل والأرض الزراعية نفسها ، كذلك ضرورة اقامة ثم هدم الساتر الترابي الصناعي عدة مرات في كل تجربة واحدة ، ثم تكريك وتطهير المجرى المائي من رديمها بعد تلك المرات نفسها واعادته إلى مكانه على الأرض من جديد ، كل أولئك مع ما يعني من مضاعفة أحجام مكعبات الحفر والردم والتكوين والتكريك عدة أضعاف الحجم الكلي للعملية الحقيقية الواحدة نفسها في ميدان القتال الفعلي . وكما يذكر كتاب حرب رمضان فإن تدريب وحدة هندسية واحدة (من ٨٠ وحدة مطلوبة) كان يستدعي تحريك حجم من الأتربة والوحل

يعادل ١٢ مرة مثل ما ستقوم بإزاحته فعلا أثناء المعركة ، في حين ترتفع هذه النسبة إلى ١٥ ضعفا بالنسبة لجمل العملية كلها تجريبا وتدريبا .

بهذا كله وبمثله وبغيره كانت العملية قد أصبحت بمثابة «الأمر اليومي» أو حتى «الخبز اليومي» بالنسبة للمهاجم المصري المقتحم ، كل المعدات والأسلحة جاهزة «مشونة» في أماكنها بالضبط لساعة الصفر ، وكل فرد يعرف دوره ومكانه ولحظته المحددة ، مما حقق ساعة التطبيق نتائج قياسية مذهلة من الكفاءة والاقتدار والنجاح فاقت أعرض أحلام التخطيط نفسه وأشد توقعاته تفاؤلا .

وعدا هذا التدريب النموذجي المعملي أو العملي ، كان هناك أيضا التدريب الميداني الواقعي ، ونعني به مواجهة العدو ومناجزته بانتظام والالتحام به دوريا عبر القناة وعلى أرض سيناء منذ ما بعد يونيو وحتى وقف إطلاق النار في أغسطس ١٩٧٠ . فالواقع أن فترة ما بين الحربين (يونيو ٦٧ - أكتوبر ٧٣) ، والتي استمرت نحو ست سنوات ونصف السنة ، كانت فترة كمون وإعداد ثم اختمار فانطلاق نحو القفزة الكبرى . ونحن نستطيع أن نقدر هذه الفترة حق قدرها في سياق الصراع العام إذا نحن حللناها

إلى مراحلها التطورية . فهناك أربع مراحل أساسية : الصمود فالردع فالاستنزاف فوقف النار .

فالصمود (يونيو ٦٧ - أغسطس ٦٨ ، أو سنة وشهران) هى أساسا مرحلة «الدفاع الحذر» ، تنقطها معارك رأس العش والمدمرة إيلات وبعض معارك جوية متحدية . والردع (سبتمبر ٦٨ - فبراير ٦٩ ، أو ستة شهور) هى أساسا مرحلة «الدفاع النشط» ، تلخصها معارك المدفعية التي اتصل فيها التراشق بالنيران عبر القناة ، وكان من نتائجها بناء العدو لخط بارليف الأول . أما مرحلة الاستنزاف (مارس ٦٩ - أغسطس ٧٠ ، أو سنة ونصف السنة) فتعد أساسا مرحلة «الهجوم الحذر» ، ففيها تم تدمير خط بارليف الأول بالمدفعية المكثفة المستمرة طوال شهرين ، مارس وابريل ١٩٦٩ ، ثم توالى عبور الكوماندوز ليلا ثم ليلا ونهارا بقوات متزايدة ثم بلا انقطاع ، كما تكررت غارات الضفادع البشرية على موانىء العدو تحرقها وتغرق سفنه فيها ، هذا فضلا عن الغارات والمعارك الجوية المتصاعدة ، وذلك كله فى وجه غارات العدو المضادة على الجزر المنعزلة والعمق المدنى إلى جانب جبهة القناة . أما المرحلة الرابعة والأخيرة فهى مرحلة وقف إطلاق النار (أغسطس ٧٠ - أكتوبر ٧٣ ، أو ثلاث سنوات وشهران) ، وهى أساسا فترة اللاحرب واللاسلم .

من هذا التصنيف نرى أن فترة ما بين الحربين تكاد أولا تتنصف ما بين مراحل الدفاع بأشكاله ودرجاته المختلفة وما بين مرحلة اللاحرب واللاسلم (ثلاث سنوات وشهران لكل منهما) . والمراحل الدفاعية الأولى تكاد بدورها تتنصف بين الصمود والردع السلبى فى جانب وبين الاستنزاف الايجابى فى الجانب الآخر (حوالى سنة ونصف السنة لكل منهما) . وإذا كان العدو قد تفرغ في مرحلة وقف النار لبناء خط بارليف الثاني وتدعيم وجوده فى سيناء ، فقد تفرغت القوات المصرية للتدريب الداخلى النهائى والحاسم ولإعادة بنائها وتطويرها للمعركة الكبرى . وهكذا ترسم المراحل مجتمعة عملية متنامية متصاعدة تتعاقب وتتكامل فى زحف صاعد نظيم من البناء العسكرى والاختبار الحربى وكانت كلها بخبراتها وتجاربها ونتائجها مدرسة عملية أخرى بالفعل وتدريبات جزئية مجزأة على معركة التحرير الكبرى فى أكتوبر . بل قد يمكننا أن نقول عنها بالنسبة إلى المعركة نفسها انها إلى حد أو آخر «المعركة الظل» ، حيث التدريبات الخلفية على النموذج المجسم هى بدورها «شبه الظل» .

إلى هذا المدى يرتبط اعداد ما قبل المعركة بالمعركة نفسها ، قل ارتباط المقدمات بالحدث أو الطلائع بالوقائع . ونستطيع إذن

أن نقرر باطمئنان أن المعركة لم تكن طفرة فجائية ، أكثر مما كان نجاحها صدفة سعيدة أو اتفاقا . فالصحيح أنها وليدة تطور طويل وزحف بطئ وانبثاق له جذور عميقة ، كما أنها الابنة الشرعية لتخطيط وتدريب وتنفيذ كل منهم ناجح ومحكم إلى أقصى حد .

ويمكن أن نضيف كذلك ولذلك أن المعركة أفادت بلاشك من تجربة الهزيمة الأليمة التي سبقتها في يونيو ، من وقائعها ودروسها ومن أخطائها وخطواتها ، كما من تصريحات العدو نفسه عنها بعد انتهائها . ومن المحقق أن ما أعلنه قادة العدو وكتابه - على سبيل الغرور والتباهي - من تفاصيل وجزئيات وملابسات خطة يونيو كان مادة مفيدة وكاشفة للمخطط المصرى لأكتوبر . ولا أدل على هذا من أن العدو نفسه راح بعد المعركة يندم ويلوم نفسه على ذلك ، من بين أشياء أخرى يأسف ويأسى عليها الآن كثيرا ..

الفصل الثالث

استراتيجية المعركة

الانطلاقة

في ساعة الصفر بدأت الضربة الجوية الكبرى : ٢٤٠ طائرة من القاذفات المقاتلة انطلقت إلى أعماق سيناء لتدك مطارات العدو وقواعده الجوية وطائراته الجاثمة على الأرض بها . وكانت أبرز أهداف هذه الغارة الضاربة هي مطارات المليز وتمادة والسر والجفجافة شرق الحائط الجبلي ، ثم القاعدة الجوية في العريش في أقصى شمال شبه الجزيرة ومطار رأس نصراني في أقصى جنوبها . هذا فضلا عن مراكز الرادار والتشويش في أم خشيب وأم مرجم والطاسة وغيرها على المحور الأوسط ، مما شل الجهاز العصبي للعدو الجوي واضطره إلى نقل قيادته الجوية إلى العريش .

ولقد تمت هذه الضربة كلها - كشرط أساسي ومبدئي - في لحظة واحدة تماما . بمعنى أن كل طائراتنا كانت فوق مواقعها

المستهدفة في تلك اللحظة الواحدة الموحدة ، وذلك حرماننا للعدو من فرصة الانذار وتحقيقا لعنصر المفاجأة الكاملة . وبهذا أخرج طيران العدو من المعركة مؤقتا لساعات ثمينة . وبهذا أيضاً كانت تلك الضربة الساحقة قطعة من الحرب الخاطفة لاشك Blitzkrieg ، ردا عادلا ومشروعا على ضربة العدو الغادرة التى قام بها صباح ٥ يونيو ، مثلما هى مكافئ كفء وند لها .

وفي اللحظة نفسها التي انقضت فيها طائراتنا على أهدافها فى أعماق العدو ، انطلقت المدفعية الثقيلة البعيدة المدى - ٢٠٠٠ مدفع كاملة ، مضافا إليها قوة صواريخ أرض - أرض كاملة - تقصف في قصفات متصلة لا تنقطع نيرانها لساعة كاملة مواقع العدو المختلفة في الشريط الغربى من سيناء : نقط خط بارليف الحصينة ، بطاريات المدفعية ، تجمعات الاحتياطي الأمامية والخلفية ، التكتيكية والتعبوية . وهكذا كان للمدفعية بعشرات آلاف الطلقات دور أساسى فى التمهيد النيراني الجبار للعبور ، وفى تغطيته وتأمين اقامة رؤوس الجسور على الضفة .

فمن ناحية قامت بتدمير واسكات مدافع ورشاشات العدو التى تطل من فتحات ومزاغل خط بارليف ، وألزمت قواته بذلك البقاء داخل نقط الخط تاركة السرد على مدفعيتنا لمدفعيته فى

العمق ، مما أدى إلى ترك ساحة الشاطئ الشرقي مفتوحة للقوات المصرية العابرة . (يلاحظ أن المدفعية الاسرائيلية ضعيفة نسبيا بصورة تقليدية نظرا لتركيز العدو بشدة على سلاح طيرانه .) ومن ناحية أخرى فإنها كانت السلاح الأساسى فى التصدى لدبابات ومدرعات العدو فى المرحلة التى لم يكن لنا فيها على الضفة الشرقية إلا قوات المشاة قبل أن تنتقل إليها المدرعات والأسلحة الثقيلة . ومن ناحية ثالثة فإنها شغلت مدفعية العدو فى عملية سبق مثيلها دون عبور غزو حقيقى ، وبذلك أبعدت أنظاره عن حقيقة الغزو وشتت انتباهه عن عملية العبور إلى حين . وأخيرا فإنها هى المدفعية التى تكفلت بتدمير احتياطياته التكتيكية والتعبوية التى كانت معدة للتعامل مع قواتنا فى حالة أي عبور كامل ، وبذلك حدت من فرص وامكانيات المقاومة فى لحظات النزول الأولى على الضفة الشرقية . وبهذا كله نجحت المدفعية فى «اقتطاع» مقدمة الجبهة مؤقتا من دائرة دفاعات العدو لتنفرد قواتنا بالمسرح حرا خلال ساعات الحسم الثمينة ، تماما مثلما نجحت الضربة الجوية في تعطيل دفاعاته فى العمق فأصيب بالشلل المؤقت .

تحت هذا القوس النارى المحدب الهائل ، وفى حمايته الوثيقة ، وفى اللحظة نفسها التى انطلق فيها ، بدأت أولى مراحل التحرك الأرضى، وهذه المرحلة الأولى كان قوامها المهندسين والمشاة . ففى صمت تام ، ومن مواقعها المحددة والمنتخبة بدقة ، انزلق إلى الماء فى هدوء أسطول من زوارق المطاط ، ١٠٠٠ قارب ، صغيرة كما هى خفيفة ، وكذلك من المركبات البرمائية جنوب البحيرات المرة وشمال بحيرة التمساح ، تحمل عدة آلاف بعضهم من المهندسين لمد الكبارى والمعابر ولفتح ثغرات المرور فى السد الترابى ولإبطال مفعول أنابيب النابالم ، والبعض من المشاة والصاعقة الكوماندوز لتأمين رؤوس تلك الجسور والتعامل المباشر مع طلائع العدو وصد وتصيد دباباته وبث الألغام فى مصاطبها لمنعها من الحركة والتدخل .

ولقد كانت عملية مد الجسور والمعابر عملية حيوية بالغة الدقة والحرج والتعقيد ، اذ لابد لها أن تتم بسرعة وكفاءة حتى تحت نيران المعركة الكثيفة . فبينما كانت الزوارق تعبر بأقصى سرعتها إلى المواضع المحددة لاقامة رؤوس الكبارى على الضفة الشرقية ، كانت مدفعيتنا تركز نيرانها على خطين طولين فى تلك المواضع ، تنقطهما نقطة نقطة تقريبا بقذائفها الثقيلة خلخلة

لأجناب السد الترابى وتمزيقا لشبكة أسلاكه الشائكة وتفجيرا لحقول ألغامها .

وتلك الخطوة البارعة كانت بدورها تمهيدا لعمل مضخات المياه الجبارة أو مدافع الماء التى سلطت عليها فبدأت تنهار رمالها وأتربتها تحت قوة تعريتها حتي تحولت إلى أخاديد وفجوات مفتوحة في عرض حائط الساتر . وهنا ينبغي أن نلاحظ أنه بينما ركزت المدفعية الثقيلة نيرانها وقصفاتها على قطاعات المحاور الاستراتيجية الثلاثة بصفة خاصة ، ركزت مدافع الماء عملها على القطاعات الخالية الفاصلة بين النقط القوية من خط بارليف . هذا ولم تكن عملية فتح الثغرات فى الساتر بالسهلة ، خاصة فى القطاع الجنوبى من القناة حيث الأرض مضرسة مرتفعة وطبيعة تكوينات الساتر الترابى طفلية وصلصالية لا تساعد كثيرا على عمليات التجريف وإنما تتحول تحت الماء إلى كتلة طينية لزجة متماسكة صماء ، زلقة للمشاة وللآليات والمركبات . كذلك كان تراب الساتر يتساقط إلى القناة فيطميها ، فيعوق ارساء الجسور ، فكان لابد من ازالة الاطماء فورا وبسرعة ، وكان لابد كذلك من تسليط المضخات على أعالى الساتر ثم على أسافله منعا للإرساب . ولقد كان هذا هو السبب في تأخر عملية مد الجسور والمعابر في هذا القطاع بعض

الوقت . بيد أن العملية فى جملـتها تمت بنجاح عظيم . وقد تم فيها شق ٨٥ ثغرة فى الســاتر الترابى أزيل فـيها من مكعبات الحفر فى ساعة إلى بعض ساعات ما كان يحتــاج إلى عمل نصــف مليون رجل/ سـاعة بالطريقة التقليـدية ، كذلك تمت اقامة ١٠ أو ١١ من الكبارى العائمة الثقـيلة Pontoon bridges ، ١٠ أخرى للمشاة ، ونحو ٥٠ معدية ، وذلك كله فى بضع أو عدة سـاعات . وهذه هى الشبكة العابرة التى ستنقل الجسم الأسـاسى للقوة الضاربة والتى ستصبح الشريان الحامل لتدفق الهجوم .

هذا عن دور الوحدات الهندسية . أما عــن دور المشـاة ، فقد كان ضروريا لتأمــين رؤوس الكبـارى عـلى الضفة . وكانت هذه المهمة بالغــة الأهمـية والحرج لأن معنــاها أن على المشـاة أن يتصدوا ، وحدهم وإلى أن يتم انشــاء الجســور ، لقوات العــدو المدرعة ومدفعيتــه الثقيلة . ولهذا فإن الساعات القــليلة التى اســتغرقها مد الجسور ثم تدفق أسـلحتنا الثقيـلة من المدرعات والمدفعية ، والتى تقدر فى مجموعها بما يتراوح بين ١٢، ٢٤ ساعة ، كانت فترة فائقة الخطر وبمثابة عنق الزجـاجة فى العملية كلها . ولكنها بنجاح فائق ، بل ومثير ، تمت . فمثلا حتى فى القطــاع الجنوبى الذى تعطلت فيه اقامة الجسور بعض الوقت كما رأينا لم

تصل الأسلحة الثقيلة إلا بعد يومين أو ثلاثة ، ظلت فيها المشاة وحدها فى الميدان ولكنها تسيدته بالدرجة نفسها التى حققتها فى بقية قطاعات الجبهة .

والسؤال الذى يفرض نفسه هنا على التو هو : كيف ، كيف حدث هذا ، ولماذا ؟ والرد مباشر كما هو بسيط : فلقد سلح الرجال ، الذين تخففوا إلى أقصى حد ممكن من كل ما ليس للقتال بصفة مباشرة سواء من المعدات أو التموين ، سلحوا بصواريخ الكتف الخفيفة المضادة للدبابات وللطائرات ، ومدوا بعربات جر يدوية صغيرة مبتكرة يحملونها الأسلحة الأثقل ويعتلون بها الساتر الترابى ، كما زودوا بسلالم خشبية وسلالم من الحبال يتسلقون بها الساتر . وهكذا ، بالسلالم المتحركة والحبال ، والأظافر أيضا ، اقتحم المشاة والصاعقة وقناصة الدبابات الساتر وانطلقوا للتعامل مع العدو .

وإذا عدنا للنظر قليلا إلى عملية العبور فى مجملها ، فسنجد عدة حقائق لافتة لها مغزاها . فهى أولا قد تمت على طول امتداد القناة من البحر إلى الخليج ، ١٧٠ –١٨٠كم، أو نحو ١٠٠ ميل . وبهذا فإن جبهة الهجوم المصرية شملت القناة برمتها، رغم أن جبهة المواجهة المباشرة تدور حول ١٠٠ كم منها فقط، وذلك لوجود قطاعات ذات طبيعة جغرافية خاصة تخرجها من المواجهة. وأهم هذه القطاعات هى سهل الطينة

الهش على الضفة الشرقية ازاء بحيرة المنزلة ، ثم قطاع بحيرة التمساح والبحيرات المرة شديدة الاتساع بحيث لا تصلح لعبور قوات كبيرة. ولكن من الواضح أن الخطة المصرية اختارت عمدا وعن وعى أن يغطى الهجوم جبهة القناة بكامل أبعادها بين البحرين. والسبب أن هذا الانتشار يوزع دفاع العدو ويشتت هجومه المضاد وخاصة منه الجوى ، كما يربك العدو فى تحديد اتجاه مجهودنا الرئيسى ويعطل بالتالى رد فعله ازاءه.

كذلك يلاحظ أن العدد الذى أقيم من الجسور والمعابر كان أقل من المطلوب فعلا للعبور. ولكنه كان كافيا لإرباك العدو وتشتيته وخداعه، ولأن يكفل احتياطيا وبدائل تحسبا لأية اصابة قد تحدث، ولأن يفيد من قطاعات القناة الضحلة أو الضيقة، وأخيرا لأن يبتعد بصورة مأمونة عن مواضع نقط العدو القوية على طول خط بارليف.

وبالفعل، فلقد تم فيما بعد، حين مرت الفترة الحرجة، اختزال هذا العدد إلى ٣ فقط ضمت فيها الجسور إلى بعضها البعض فى المواقع الاستراتيجية الأساسية. ففى بداية العملية كان هناك ٣ كبار على القطاع الجنوبى بين خليج السويس والبحيرات المرة، ٣ أخرى بين البحيرات المرة وبحيرة التمساح، ثم ٤ فى القطاع الشمالى ما بين بحيرة التمساح والقنطرة، اثنان منها جنوب جزيرة البلاح واثنان

شمالها. وحين ضمت هذه الجسور والمعابر تركزت أمام محاور سيناء الاستراتيجية الثلاثة ، أي في قطاعات السويس ، الإسماعيلية ، القنطرة.

المبارزة

وبديهي جدا أن هذه الجسور والمعابر، الحبل السرى وخط الحياة بين جانبي القوات الزاحفة، كانت الهدف الرئيسي الذى ركز عليه العدو نيرانه، وخاصة من الجو، بصورة محمومة. وفي وجه هذا الخطر لجأت الخطة إلى تكتيكات ديناميكية أفشلت كل محاولاته. فمن ناحية دأبت القوات المصرية على تحريك مواقع الكبارى بمرونة فائقة وسرعة من مكان إلى آخر. ومن ناحية أخرى أطلقت ستارة كثيفة من الدخان تحجب الرؤية وتمنع إصابة الأهداف ، ومن ناحية ثالثة أقامت بعض الجسور الخداعية ودفعت عليها بقوات هيكلية ركز عيها العدو فبددت جهوده وشغلته عن الجسور الحقيقية. وهكذا، وهكذا. وفي النتيجة فلقد فشل العدو في تدمير شيء من الكبارى أو المعابر ولم ينل منها بالكاد، على العكس تماما من دعايته الداوية - والكاذبة - فى هذا الصدد. وفى الحالات القليلة التى حدثت بها اصابات كان اصلاحها يتم فى دقائق ويستمر العبور بلا توقف. ولو أن من الجدير بالذكر، كما يقول كتاب حرب رمضان ، «أن معظم الكبارى أصيبت وأعيد اصلاحها أكثر من

خمس مرات..» (في ٧ أكتوبر أعلنت إسرائيل أنها دمرت «ربما كل» الجسور التي أقامها المصريون، وأن المعارك تدور «على حافة المياه»، وأنها ستستعيد السيطرة على الضفة الشرقية خلال ٢٤ أو ٤٨ ساعة. وفي ٩ أكتوبر أعلنت أنها «تخلت» عن خط بارليف ، وأن الحرب ستكون طويلة وصعبة جدا، وأن الخسائر الاسرائيلية كبيرة!)

فبعد ساعات من بدء العبور، رد العدو بالهجوم الجوى الشامل. وخلال الليل تحولت السماء إلى نهار بفعل المشاعل الجوية، وبلغ عدد الطائرات المغيرة أكثر من ٢٥٠ طائرة، أي أكثر من نصف سلاح العدو. حتى إذا كان الصباح ، حاول العدو أن يعود إلى أسلوبه في يونيو ١٩٦٧ بضربة جوية خاطفة ومكثفة على ارتفاع منخفض جدا. ولكن طائراته فوجئت بصواريخنا القصيرة المدى من طراز سام ٧ إلى جانب المدفعية والرشاشات تتصيدها عن قرب أو ترغمها على الارتفاع فورا، فتتسلمها صواريخنا البعيدة المدى من طراز سام ٢ ، ٣ ولكن بالأخص ٦ فتتساط قنابلها بعيدا عن أهدافها أو تتساقط هي نفسها محطمة أو محترقة.

هكذا نرى أن ملحمة العبور، رغم أنها بدأت مبارزة أمفيبية بين الضفتين تحت ستار هائل من نيران المدفعية المتبادلة بين الطرفين، إلا أنها تحولت فورا إلى مباراة بين الأرض والسماء كذلك . أى أن معركة

العبور عملية أمفيبية ابتداء ولكنها معركة جوية أساساً ، ونجاحها كان رهنا بغطائنا الجوى ضد انقضاض الطيران العدو ، وهكذا بالفعل كان .

فمن ناحية كان السلاح الجوى هو وسيلة العدو الأساسية لمحاولة اجهاض العملية: مئات الطائرات وآلاف الطلعات. ومن الناحية الأخرى تصدى له الطيران المصرى بقوة مكافئة، ولكن أولا وقبل كل شيء بدفاعه الجوى المتفوق ممثلا فى شبكة قواعد الصواريخ الثابتة والمتحركة الموزعة على طول الضفة الغربية. وتعد الشبكة الأولى ، التى وصفت بأنها غابة هائلة كثيفة من الصلب، أقوى شبكة دفاع جوى فى العالم بالنسبة إلى مساحتها، وقد كانت مقتلا حقيقيا للطيران الإسرائيلى المهاجم. أما الثانية فقد أثبتت نفسها مفاجأة المعركة الجديدة ، وكانت مصيدة أخرى قاتلة للعدو الجوى. وكما قال أحد طيارى الفانتوم الاسرانيليين «ان قوة النيران العربية المضادة للطائرات عبر القناة أعظم كثيرا مما كانت عليه خلال حرب الاستنزاف عامى ١٩٦٩، ١٩٧٠ ، وآن المصريين قد صنعوا بقذائفهم المضادة للطائرات وبصواريخهم فوق مواقعهم الجديدة غلالات من نار كثيفة يصعب اختراقها».

وها هنا نلاحظ حقيقة غير عادية وعلى قدر غير عادى من الأهمية والمغزى. لقد تمت عملية العبور بلا غطاء جوى بالمعنى التقليدى، بمعنى مظلة من السلاح الجوى تحمى القوات المتقدمة ضد طيران العدو. وبدلا من ذلك الغطاء الهجومي، كان الغطاء هو الدفاع الجوى، أى شبكة الصواريخ المضادة للطائرات، الثابت منها والمتحرك، المحمول ميكانيكيا والمحمول بشريا. وكانت هذه طفرة أبعد ما تكون عن الكلاسيكية، وتعد أول تجربة عسكرية فى تاريخ الحرب الحديثة تتم فيها المواجهة بين سلاح طيران معاد وبين نظام دفاع جوى بحت على أرض مكشوفة. وفى ظل هذا الدفاع كان المهندسون والمشاة والمدفعية المصرية جميعا تعمل وتتحرك فى وقاية نادرة . ومن المحقق كما قرر القادة المصريون أن عملية العبور ما كانت لتنجح لولا هذه المظلة الواقية. وفضلا عن هذا فإنها حررت سلاحنا الجوى من أعباء تغطية العملية لينطلق إلى ضرب أهداف العدو فى العمق والتفرغ للمغارك الجوية معه .

هكذا اذن جرى حوار هائل بين ستارتين لا ترتفعان من النيران، احداهما نازلة من السماء والاخرى صاعدة من الأرض، بهما تحول حيز الفضاء فوق مسرح العمليات إلى شيء أشبه بكهف ماموث من كهوف ألسنة الارسابات الجيرية المعروفة : ألسنة المعلقات النازلة

الاستالاكتيت stalactite ، وألسنة المرسلات الصاعدة الاستالاجميت stalagmite - إلا أنها من نار حية ومميتة بدل الجير الميت ..

ولقد انتصرت الستارة الصاعدة على الستارة النازلة، وألسنة الأرض على ألسنة السماء. وبدلا من أن يغرق طيران العدو عملية العبور في القناة كما كان يأمل وكما ظل طويلا يتوعد، تساقطت طائراته حولها «كالفراشات المحترقة» كما عبر بعض المراقبين ، وبدرجة رهيبة ومفزعة لم يسبق لها مثيل قدرها البعض بثلاث طائرات من كل خمس. أما ما لم يسقط من طائرات العدو فكان يلقي بقنابله بعيداً عن أهدافها لينجو بنفسه إلى أن أضطر العدو في النهاية إلى الكف تماما عن محاولته ، كما اعترف دايان ، وأصدرت قيادتهم قرارا بعدم اقتراب طائراتهم من القناة لمسافة ١٥ كم شرقها على الأقل .

ومن الناحية الأخرى فلقد فشلت المدرعات كذلك فيما بعد فيما فشلت فيه الطائرات من قبل، اذ عجزت تماما عن ايقاف العبور وبناء الجسور. ومرة أخرى يعترف دايان بذلك، فيقول «لقد كانت لي نظرية هي أن اقامة الجسور سوف تستغرق منهم طول الليل، وأننا سوف نستطيع منع ذلك بمدرعاتنا. ولكن تبين أن هذه ليست مسألة سهلة، وقد

كلفنا جهدنا لارسال الدبابات إلى القناة غاليا جدا. فقد أحدثت الأسلحة المضادة للدبابات التي استخدمها المصريون خسائر فادحة في المدرعات الإسرائيلية. وكانت هذه نقطة خطأ أساسية من هيئة الاركان، فنحن لم نتوقع ذلك».

ومهما يكن، فرغم أنه كان من المحتم ألا نعبر نحن القناة الا على جسر من الدماء حرفيا، فقد جاءت خسائرنا طفيفة نسبيا بدرجة غير متوقعة بل غير معقولة. فالقواعد العسكرية السائدة والمقررة تقدر لعبور الموانع المائية الخطيرة نسبة باهظة بل ومخيفة من الخسائر تصل فى أدناها الي ٢٠ ٪ وترتفع في بعض التقديرات إلى ٦٠ - ٧٠٪ أحيانا من قوة الهجوم. وقد قدرت حسابات الدوائر العسكرية الأمريكية ثلاثة إلى أربعة أسابيع لعبور القناة وحدها. وحتى التقديرات العالمية المحايدة لم تكن أكثر تشجيعا، فقد كانت تتراوح بين ٢٥، ٣٠ الف قتيل! بل لقد اتضح أن من القادة العسكريين المصريين المسئولين في وقت ما من اعتبر العبور «عملية انتحارية» ، في حين ذكر الزعيم اللبناني كمال جنبلاط مؤخرا أن الخبراء السوفييت قدروا كأصدقاء أن العملية تقتضى التضحية بنحو ١٠٠ ألف جندى.

غير أن مفاجأة عبورنا الكبرى انما جاءت فى هذا الجانب بالتحديد، اذ وصلت إلى حدها الأدنى المتصور أو غير المتصور. فلقد قدرت

خسائرنا فيما أعلن بما لا يزيد على بضع مئات من الأفراد، ١٨٠ فردا كما قيل، وهذا فى تقدير البعض ، اجتهادا : لا يعدو ٢٪ أو نحو ذلك من قوة الهجوم. وهذا ، إلى جانب الساعات المعدودات التى استغرقتها العملية ، رقم قياسى دعا كثيرا من كبار المراقبين العسكريين العالميين إلى أن يعتبر العملية «معجزة» عسكرية كما وضعوها بتعبيرهم.

لقد نجحت عملية العبور التاريخى، وتدفق المد المصرى كالطوفان الكاسح نحو الضفة الشرقية. وأذا كان العبور، الخطوة الأولى فى المعركة، هو بمثابة «عبور للهزيمة»، فقد كان نجاحه «هزيمة للهزيمة»، بل بالدقة بداية هزيمة العدو وبداية النصر العربى. فالواقع أن العبور كان مفتاح المعركة ومفتاح النصر، وقد لا يكون من المبالغة أن نقول ان نتيجة المعركة كانت تتوقف عليه، هو الذى يقرر مصيرها إما بالنصر أو عكس ذلك. ولم يكن العدو من جانبه يجهل هذه الحقيقة، ولم يخف قادته فى أوهام غرورهم القديم كم يتمنون لو أقدم الجيش المصرى على عبور القناة حتى يسحقوه ويدمروه مرة واحدة والى الأبد كما صور لهم الوهم.

فكما كتب ايف كو فى الفيجارو «لقد أصيب قادة إسرائيل بعقدة التفوق! فمنذ حرب الاستنزاف وأكبر أحلام قواد اسرائيل أن يروا اليوم

الذي تحاول فيه القوات المصرية عبور قناة السويس! وقد وضع هؤلاء القادة خططهم على أساس تدمير الجيش المصرى تدميرا كاملا وساحقا حالما تبدأ محاولة العبور. والجنرال موشيه دايان نفسه، بعد أن اعتمد هذه الخطط ، لم يحاول قط أن يخفى أمنيته أن يقدم الجيش المصرى على اجتياز قناة السويس، حتى يبدأ انقضاضه عليه وسحقه سحقا، كما صرح دايان أكثر من مرة وفى أكثر من مناسبة!» . وبعد ، فلقد انعكست الصورة منذ اللحظة الأولى وإلى الأبد !

اجتياح الخط

في «حرب الاستنزاف» ، التى استمرت نحو ثلاث سنوات عقب يونيو، صبت المدفعية المصرية آلاف الأطنان من القنابل لفترة طويلة بلا انقطاع - نحو المائة يوم - على مواقع العدو فى الضفة الشرقية. وكان العدو قد أقام على طول القناة سلسلة من الاستحكامات والتحصينات عرفت فى مجموعها باسم «خط بارليف». وقد انتهت حرب الاستنزاف بتدمير نحو ٨٠٪ من هذا الخط..

وقد كانت استراتيجية تلك الحرب أشبه شيء «بحرب الخنادق» القديمة التى عرفتها الحرب العالمية الأولى فى أوربا، الا أنها هنا خندق مائى هو القناة، أو قل هى «الحرب الجالسة Sitzkrieg » التى يتم

فيها التراشق من مواقع ثابتة الا من عنصر الطيران المتحرك. وقد كبدت هذه الاستراتيجية العدو خسائر فادحة وشكلت نزيفا مستمرا وخطيرا على قواته، كان وحده عاملا مؤثرا فى قبوله وقف اطلاق النار فيما بعد.

ومنذ انتهت حرب الاستنزاف، بدأ العدو فى انشاء خط محصن جديد تماما يشرف على القناة، يحمي عمقه وراءها ، ويكون رادعا مروعا لأى محاولة مصرية للعبور، ولا يقارن البتة بالخط البسيط السابق الذى تحطم. ولهذا فإن خط بارليف المعروف والذى اقتحمته قواتنا فى اكتوبر انما هو فى الواقع خط بارليف الثانى. واستفادة من تجربة خط بارليف الأول . كانت الفكرة الأساسية فى الخط الثانى ألا يكون سطحيا بل غائرا تحت الأرض حتى لا تنال منه المدفعية المصرية الثقيلة كما فعلت بالخط الأول ودمرته:

ورغم أنه جاء أحدث وأعقد خط من نوعه فى التاريخ، فإنه ينتمى أساسا إلى سلالة وفكرة الخطوط الثابتة التى تبدأ من أمثال سور الصين العظيم وخطوط التخوم الرومانية الشهيرة Roman Lines وتنتهى بأمثال خط ماجينو الفرنسى وزيجفريد الألمانى. كما شبهه أحد العسكريين الأمريكيين بخط مينيسوتا الدفاعى الذى أقامته أمريكا فى كوريا أثناء الحرب الكورية. كذلك فإنه ينم عن عقلية تخشى أن ، أو

تفضل ألا ، تحارب الا من وراء حصون مشيدة ابتداء من حصون خيبر قديما إلى الدشم وبروج الدبابات والمدرعات حديثا.

والخط كله يأتي بعد هذا مناقضا إلى حد أو آخر لفلسفة العدو الأثيرة في الحرب الوقائية والمبادرة الهجومية، مؤكدا أن الصمود المصرى بعد يونيو قد وضعه على جانب الدفاع رغما عنه. وصحيح أن الخط وإن كان ثابتا لا يعد نوعا من أنواع الدفاع الثابت، بل يعتمد على الدفاع المتحرك، الا أنه يبقى في النهاية دفاع لا هجوما. قارن هذا بما كان يردده دايان من قبل : «لم يحدث قط أن كان جيش اسرائيل في وضع دفاعى» (لماذا اذن يصرون على تسميته جيش «الدفاع» الاسرائيلى؟).

خريطة الخط

مهما يكن، فلا شك أن الخط كان كقطعة من الهندسة العسكرية المتقدمة «معجزة» حقيقية كما وصفه المحايدون . فقد وضع فيه العدو كل قدراته الذاتية جنبا إلى جنب مع كل خبرات العسكرية العالمية عبر التاريخ. فالخط، الذى يمتد بحذاء القناة وبطولها من رأس خليج السويس حتى مشارف البحر المتوسط، يتألف من حوالى ٣٠ نقطة قوية ، strong points ، (بالدقة ٢٢ موقعا حصينا، تضم ٣١ نقطة قوية) تبدأ من الشط وتنتهى برأس العش. كل نقطة منها اختير موقعها بعناية

فائقة، تتحكم فى كل الاتجاهات وتستطيع أن تغمر بالنيران الجانبية أي قوات تعبر القناة فى أى قطاع منها كما قال بعض كبار القيادة المصريين. وبعد هذا تربط بين الكل الطرق الخاصة التي تجوبها الدوريات المسلحة بانتظام. ثم يحيط بالجميع نطاق كثيف من خطوط الأسلاك الشائكة والخوازيق الحديدية ثم حقول الألغام الغزيرة، بما فى ذلك الألغام المبثوثة فى مياه الضفة الشرقية من القناة، فضلا عن سلسلة أحواض النابالم والوقود الحارق على ضلوع الخط.

أما النقط القوية نفسها فتتوزع فى أبعادها ومسافاتها بحيث تتفق مع المواضع التلّية العالية والتبات المشرفة والمواقع الاستراتيجية المسيطرة. ولكنها فى كل الحالات مرتبطة بالقطاعات الصالحة للعبور، وبصفة خاصة بقطاعات محاور سيناء الثلاثة. والمعنى واضح ، وهو أنها ما أقيمت ولا وقعت الا لتردع وتمنع عبور مصر يوما ما . وهذا أيضا هو السبب الذى يفسر لماذا يختلف تكاثف أو تباعد تلك النقط فضلا عن مساحاتها، وهو كذلك الذى سيفسر لنا لماذا تأخر الاستيلاء على بعضها بعض الوقت.

فمن حيث المساحة تتراوح النقط بين نحو الفدان وربعه . أما متوسط التباعد فيتراوح بين ٤ ، ١٠ كم ، فهى تتقارب ويقل تباعدها فى

القطاعات ذات القيمة الخاصة. ويمكن القول بصفة عامة انها كانت أكثر تكاثفا فى الجنوب وتزداد تباعدا وتخلخلا كلما اتجهنا شمالا. فكان هناك ٩ نقط بين رأس خليج السويس وبداية البحيرات المرة كان من أهمها وأقواها تلك المتحكمة في رأس الخليج كنقط الشط ولسان بور توفيق. وعى طول شواطىء البحيرات المرة كان هناك ٤ نقط ، ثم ٣ نقط بينها وبين بحيرة التمساح، ٤ بين الأخيرة وبين جزيرة البلاح، ثم فى النهاية ٧ نقط بحذاء الأخيرة وبطول القطاع الكبير الممتد حتى رأس العش شمالا.

وواضح أن التركيز كان على أشده فى أقصى الجنوب فى قطاع السويس الذى يفضي إلى ممر متلا الحاكم ، هذا بينما تتخلخل النقط بشدة بحذاء البحيرات المرة لأن اتساعها كجسم مائى فسيح يقلل احتمالات العبور والخطر. وبينما يعود التركز شديدا تجاه الإسماعيلية، رأس محور سيناء الأوسط، تعود النقط فتتباعد بشدة فى الشمال حيث تحد ظروف البيئة الطبيعية من فرص الخطر والحركة نسبيا، لا يستثنى من ذلك الا قطاع القنطرة حيث احتشدت كوكبة متقاربة من أربع نقط قربها باعتبارها رأس المحور الشمالى لسيناء . أما آخر نقط الخط شمالا فى رأس العش فكان مبرر وجودها الاستراتيجى هو التصدى لمحاولات أو احتمالات التقدم المصرى نحو الجنوب من جيب بور فؤاد

والملاحة ، الوحيد الذى احتفظت به قواتنا بعد يونيو شرق القناة والذى كان يمثل رأس حربة تهدد العدو باستمرار.

تلك بصورة عامة خريطة الخط وخطته. أما كل نقطة من نقطه القوية فهى فى ذاتها قلعة حقيقية قائمة بذاتها، أشبه بمدينة حربية محصنة من الحديد والأسمنت ، تتألف من مجموعة من الدشم المدرعة مبنية من الحجر الصلب أو الأسمنت المسلح، مصفحة بأبواب من الصلب ومدعمة بقضبان السكك الحديدية بل ويعرباتها (التى انتزعها العدو من خط حديد سيناء، مثلما سبق له أن أقام السد الترابى من رديم ومخلفات حفر القناة). والقعلة بعد هذا متعددة الطوابق تضم مأوى الأفراد كما تتسع للملاجىء الأسلحة وأوكار المدفعية والمدرعات، وبها مزالق مركبة صاعدة وهابطة للدبابات بحيث تضرب وتختفى ولا ترى .

ولكن القلعة جميعا غائرة تحت السطح كأنها «مغروسة» فى الأرض أو مدفونة تحت الرمل أو محفورة فى الساتر كبيوت النمل . فلنحو ٢٠ مترا كانت القلعة تقع تحت مستوى سطح الساتر الترابى، فى حين لا يظهر منها أعلاه سوى مترين أو ثلاثة أمتار. والأنابيب التى تزودها بالمياه هى تحت الأرض أيضا. حتى الرؤية هى الأخرى تحت الأرض، من خلال أجهزة كبريسكوب الغواصة، هذا عدا مزاغل المدافع

والرشاشات. انها قلعة دفينة كالمغارة الغائرة، سكانها كأهل الكهف troglodytes، أو هم جنود الكهوف، ولا نقول كالحيوانات الحافرة burrowing animals .

والوحدة كلها مخططة بعد هذا على مبدأ الدفاع الدائرى، بحيث تنال العدو من مزاغلها فى كل اتجاه دون أن يمكن لنيران العدو أن تنالها حتى لو أصابتها مباشرة بأطنان القذائف. انها، باختصار، أشبه بمزيج عصرى جدا وحديث إلى أقصى حد من كهوف العصور القديمة الحفرية، وقلاع العصور الوسطى الصماء الملتوية بالدهاليز والأنفاق وخنادق الماء، وأخيرا من عمارات الأسمنت المسلح البرجية الحديثة. انها قلاع وسيطة ولكن طراز القرن العشرين، ومدن حربية عصرية جدا ولكنها من عصور سكان الكهوف ..

هذا الخط القوى، الذى أنفق العدو فى تحصينه وتسليحه سنين عدداً (أكثر من ثلاث سنوات) وملايين بلا عدد (أكثر من ربع مليار دولار، أو نصف تكاليف السد العالى) ، ثم أنفق أكثر من ذلك فى الحديث المخيف عنه كجزء من الحرب النفسية الرادعة، هذا الخط سقط فى أيام بل ساعات - بالتحديد ست ساعات، فى حين كان المقدر لها الضعف! لقد هدمت القوة المصرية العارمة فى ست ساعات ما بناه العدو المفتون فى ست سنوات، كل سنة بساعة.

ولا بأس أن نتذكر أو نتذاكر هنا بعض ما أرسله العدو من صيحات الترويع عن خطه السيىء الذكر. قال دايان فى أخريات ١٩٦٩ «لن تنال عمليات العبور المصرية، ان هى حدثت، من قبضة إسرائيل المحكمة على خط بارليف، لأن الاستحكامات الاسرائيلية على الخط أشد منعة وأكثر تنظيما. ويمكن القول بأنه خط منيع يستحيل اختراقه، وأننا لأقوياء إلى حد نستطيع معه الاحتفاظ به إلى الأبد». وفى مناسبة أخرى عاد يقول ان خطوطهم المحصنة «أصبحت الصخرة التى سوف تتحطم عليها عظام المصريين»، وأنه إذا حاولت مصر عبور القناة فسوف تتم ابادة ما بقى من قواتها . كما صرح مرة أنه «مادامت قناة السويس هى حدودنا العسكرية ، والعرب هم أعداءنا، فلسوف نكون نحن على خير ما يرام».

بالمثل أعلن بارليف أنه «لعلى يقين أن مصر لو عادت إلى القتال فلن تستطيع أن تحقق أى عبور، لأن من المستحيل اختراق خط الدفاعات الاسرائيلية بارليف.. كما أن قواتها لن يمكنها قط عبور قناة السويس نظرا لما يمثله هذا الخط المحصن من خطر على القوات العابرة». وفى مرة أخرى قال ان المصريين لا يعرفون أى جحيم سوف ينصب عليهم ما ان يضعوا أقدامهم خارج الضفة الغربية للقناة. أما اليعازر فكان أقل اطنابا ولكن لم يكن أقل قطعا، قال عن الخط «انه سيكون مقبرة

الجيش المصري» . أما مايير فكانت فلسفية أكثر، قالت ببساطة «ان أى تصور يسمح ، ازاء ما نملكه من تحصينات، بعبور القوات المصرية إلى الضفة الشرقية يعتبر إهانة للذكاء» .

ومن الغريب بعد هذا كله أن قادة العدو الذين وصفوا خطهم كذلك مرة بأنه «غير منفذ للبشر أو للسلاح كما أن الصلب غير منفذ للماء أو للهواء» ، ومرة أخرى بأنه «غير قابل للتدمير حتى بالقنبلة الذرية»، عادوا بلا خجل عند أول هزيمة ليقولوا انه مجرد «شريحة من الجبن الجريير، به من الثقوب أكثر مما به من الجبن» (دايان)، بينما تنصل منه كلية من نسب إليه قائلا انها تسمية دارجة لا وجود لها رسميا في «جيش الدفاع» (بارليف) !

فأما بارليف فقد قال بالنص «ان جيش الدفاع الإسرائيلى لم يستعمل اصطلاح «خط بارليف» اطلاقا، والصحافة فقط هى التي تداولت هذا الاصطلاح. ولقد أقيمت هذه التحصينات أثناء حرب الاستنزاف كقواعد متماسكة بعضها ببعض لكل عملياتنا على طول امتداد القناة. وأن أى شخص عادى ليدرك أن عشرين تحصينا لم تكن لتوقف وحدها هجوما شاملا تشنه خمس أو أكثر من الفرق المصرية. ان الزعم بأن التحصينات لم تتمكن من صد المصريين هو قول أحمق، لأنها لم تكن معدة لهذه الغاية أصلا. ولقد سقطت التحصينات لأنها

كانت مجرد مواقع أمامية فقط». وبالمثل ركز دايان على «عدم أهمية الخط عسكريا» (!) قال : «هذه منطقة شاسعة، وليست هناك فرصة أيا كانت لحماية كل متر . والآن وبينما التعبئة تجرى، فإن قوة الدفاع الاسرائيلية ستنمي قريبا قواها الكاملة لتجمد وتبدد أثر المكاسب الثانوية التى تمكن العرب من إحرازها» (!). وقالت أصوات أخرى من قادة العدو ان خط بارليف كان مجرد خط اعاقة، وقد كانت خطط إسرائيل أن تهجر الخط بعد العمليات الأولى.. ولكن هذا كله لم يكن ليخدع احدا، وكما قالت اليونايتيد بريس فإن «سمعة دايان هى التى أصبح بها من الثقوب أكثر مما بها من الثقة» ..أين الحقيقة فى هذا كله ؟ أين هى بين هذا الركام المتناقض من التهويل السابق والتهوين اللاحق؟ الحقيقة أن العدو فى الحالين كان مخادعا: فى الأولى كان يخدعنا (أو يحاول) ، وفى الثانية كان يخدع نفسه (وهذا شأنه) . فرغم أن كثيرا من العسكريين الأصدقاء الناصحين أوصوا بالفعل بأن تدمير الخط غير ممكن حقيقة الا بالأسلحة النووية، فقد كان العدو فى تصريحاته عن مناعته يستهدف أساسا معنوياتنا ويمارس صيغة منتهى الحرب النفسية حتى نشعر باليأس والتخاذل. وحين سقط الخط فى ضربة قاضية واحدة، كان كل همه أن ينقذ ماء وجهه بعد هيبته وسمعته ومعنوياته التى انهارت .

أما الحقيقة الموضوعية الكاملة فلا تعدو كلمتين : خط فائق المنعة والقوة والبراعة بلا جدال وخطة اقتحام - مع ذلك - أشد تفوقا وأبرع اعجازا بلا لجاج. ولم تكن التحصينات «مصنوعة من الكرتون» كما قال أحد الجنود الاسرائيليين، ولا كان الخط شريحة من الجبن المثقوب الا بعد أن شرحناه نحن وثقبناه . وليس لنا نحن أن نأخذ أو نؤخذ هنا بدعايات العدو المغرضة، سواء تهليلا فى البداية أو تقليلا فى النهاية. فنحن انما نقلل من عظمة انجازتنا إذا نحن قللنا من قوة الخط العدو.

ملحمة الاقتحام

فإذا ما انتقلنا إلى ملحمة اقتحام الخط، فإن الأغرب من ذلك كله أن الخط انما سقط أساسا على أيدى المشاة فى الدرجة الأولى، ولم تكن سائر الأسلحة الأخرى إلا عوامل مساعدة، وذلك بحكم طبيعة تلك الحصون ، حصونه التى تستعصى على المدفعية الثقيلة، وكذلك بحكم الوقت ريثما تصل المدرعات بعد تمام مد الجسور والمعابر. كذلك فقد كانت تلك المشاة من المشاة الراجلة ، لا الميكانيكية، مزودة فقط بالقنابل اليدوية والمدافع الرشاشة والصواريخ المضادة للدبابات.

من هنا لعبت القوة البشرية أو العددية دورا هاما جدا، فكانت هى التى اقتلعت الخط وخلعته خلعا كأنها الاعصار الغلاب أو التيفون

الطوفان. ففور وصول طلائعنا الأولى إلى الضفة الشرقية، اندفعت الوحدات الهندسية تطهر حقول الألغام وتفتح ثغرات في الاسلاك الشائكة، بينما ارتقى افراد المشاة الساتر الترابى بخفة وسرعة، بالحبال والسلالم والأقدام، لمواجهة العدو ولفتح المزيد من الثغرات بفدائية مذهلة سجلت بطولات تاريخية.

ويلاحظ هنا أن اختراق الخط لم يبدأ أمام النقطة المحصنة ولا بدأ بمداهمتها ومهاجمتها هى نفسها، وانما بدأ بالتسلل خلال الفواصل الواسعة بينها. وبقدر ما زاد هذا من عنصر المفاجأة للعدو، قلل من أخطار المقاومة التى كان يمكن أن نتعرض نحن لها فى تلك المرحلة المبكرة.

ولكن حالما تم مد الكبارى ووصلت المشاة الميكانيكية والأسلحة الثقيلة وتدفقت القوات بأعداد ضخمة، أخذت قواتنا تغرق الخط بموجات متتابعة كثيفة كانت لا تلبث أن تعزل نقطه المحصنة عن بعضها البعض لتصبح كالجزر مقتطعة فى بحر الكثافة البشرية، فتطبق عليها «وتركبها» . فكان الجنود يقتحمون الحصن بأجسامهم ويطبقون على العدو فى مكامنه ومخابئه ويلتحمون به وجها لوجه وأحيانا بالسلاح الأبيض، حتى يتم تفريغ القلعة منهم بالقتل أو الأسر أو الفرار . «وفر الجنود الاسرائيليون من الخط بعد أن كانوا يجلسون فى خنادقه وهم

يلتقطون أنفاسهم وقد علت القذارة أبدانهم وشحبت وجوههم. لقد فرت فلولهم من الجحيم الذى أطلقه عليهم الهجوم المصرى المفاجىء» كما كتبت مجلة إيطالية . «وتحطم خط بارليف، الذى شيدته إسرائيل على غرار خط ماجينو، تحت ضربات القوات المصرية، تماما كما سقط خط ماجينو منذ ٣٤ عاما» كما أضافت المجلة نفسها.

هكذا أثبتت المعركة ، على حد قول الجنرال بوفر ، أن «الدفاع مهما كان حصينا - كقلاع خط بارليف - فلسوف يظل عرضة للاختراق والتدمير مادامت القوات المهاجمة من القوة والكثافة والتنظيم بالقدر الذي يضمن لها الغلبة». أو كذلك على حد قول وولتر لاكير، أثبتت المعركة أن الخطط العسكرية الاسرائيلية التي اعتمدت على بناء خطوط محصنة ثابتة على طول قناة السويس انما اعتمدت على فكرة بالية من الناحية العسكرية لم يعد يأخذ بها المخططون العسكريون منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

ولابد لنا هنا أن نسجل ملاحظتين هامتين. الأولى أن اقتحام الخط على هذا النحو انما تم بالمواجهة المباشرة، أى وجها لوجه على طول امتداد الجبهة وليس بالالتفاف حوله، الذى على أية حال لم يكن ليتفادى مشكلة الفاصل المائى. وتلك وحدها كانت مفاجأة لم يكن العدو يتوقعها بل كان يستبعدها تماما ويعدها خارج قدرة الجيش المصرى. أما

تقديره فكان الهجوم على الاجناب على الأكثر، أى من نهايتى الخط شمالا وجنوبا. لكن المقاتل المصرى أثبت قدراته التامة، ودفع العدو ثمن غروره السفيه.

الملاحظة الثانية أن سلوك العدو داخل نقطه الحصينة أثناء اقتحامها جاء تكذيبا لكل نظرياته العسكرية التى تنضح بالزهو والاستعلاء . فما أن أطبقت القوات المصرية على دشمها، حتى غاصت قوات العدو أو غاصت داخلها، إلى أن نفذت إليها قواتنا. الآن قارن هذا بما قاله دايان قديما: «إن جيشنا ليس كالقنفذ الذى ما يكاد يرى الخطر حتى ينكمش على نفسه تحت أسلاك شعره وينتظر الضربة. وانما هو كالثور الذى ما ان يشعر بالخطر حتى يشرع قرنيه استعدادا للهجوم». فى أكتوبر ، مع ذلك، استحال الثور قنفذا !

هكذا تحولت تلك الحصون الرهيبة التى أعدت لتكون فخا ومجزرة لنا إلى سجن ومصيدة قاتلة لأصحابها . وبعض هذه القلاع سقط أو سلم فى ساعات، ولكن البعض قاوم لفترات أطول، وبعضها الآخر ضرب عليه الحصار أياما حتى استسلم. فمثلا كانت أول نقطة تسقط فى يد الجيش الثانى هى نقطة الكيلو ١٩ جنوب بورسعيد (ساعة وثلث ساعة)، وفى يد الجيش الثالث نقطة الشط (بعد ساعة ونصف الساعة).

ونقطة الفردان سقطت فى ٤٨ ساعة ، بينما سقطت نقطة شمال البلاح ثم استردها العدو ثم استعدناها خلال ليل ٦ أكتوبر. وقد كانت نقط القنطرة شرق الأربع مما وقع في أيدى القوات المهاجمة مبكرا. فإحدى هذه النقط الأربع سقطت بعد ١٢ دقيقة فقط من العبور، وأخرى بعد ربع ساعة، وثالثة بعد ساعة، وفى اليوم الثالث كانت منطقة القنطرة شرق كلها قد حررت تماما . وعلى العكس كانت نقطة رأس خليج السويس أى لسان بورتوفيق آخر ما سلم - بعد أكثر من أسبوع من الحصار. لكن الخط فى مجموعه كان قد سقط معظمه عمليا وبالفعل خلال الساعات الست الأولى من بدء المعركة، ١٥ نقطة في الليلة الأولى، وتمت معظم تصفيته وتطهيره فى الأيام القليلة الأولى.

وفيما بعد ، حين اكتملت السيطرة على موطىء قدم على الضفة الشرقية تم نسف هذه القلاع جميعا بالتفجير، وكان هذا ضروريا كما هو طبيعى. وبذلك زال إلى الأبد من على وجه الأرض الخط الذى ظن العدو أنه سيغير به وجه التاريخ، فدخل هو التاريخ من باب الحفريات وأثريات المتاحف الحربية. ومن الطريف أن مخلفات حطامه تحولت فيما بعد إلى مادة خام فى أيدى قواتنا استغلتها فى اقامة قواعدها ومواقعها الجديدة .

وإذا نحن الآن توقفنا قليلا نتأمل ملحمة اقتحام هذا الخط الدارس، فلن نملك إلا أن تجبهنا بل تروعنا حقيقة غريبة مثلما هى باهرة. لقد كان فى فلسفة الخط نفسه شيء من الماضى ومن القديم، فلسفة القلاع ذات التحصينات المترسة والأسوار والحوائط المخندقة، المبانى الحجرية الضخمة، المزاغل، الانشاءات تحت الأرضية.. إلخ، لا يغير من ذلك كل مظاهر وأساليب التكنولوجيا العصرية الحديثة داخله وحوله.

بل ان فكرة الخط كلها كنظام دفاعى، تلك التى تبدو على طرف نقيض مع عملية الحرب الخاطفة التى سبقتها، لتمثل فكرة قديمة بل عتيقة إلى أقصى حد. فالخط فى الحقيقة انما يكرر خطا بل خطوطا سابقة من التحصينات والاستحكامات والقلاع أقامها الفراعنة كما رأينا مرارا عبر برزخ السويس فى نفس موقع القناة الحالية. وإلى هذا فإن الخط ومعه الساتر الترابى لا يشير فى جوهره الا إلى عقلية «سور المدينة» أو «حائط المدينة» القديمة، وانما على نطاق اقليمى بدلا من نطاق المدينة.

لم يكن غريبا لذلك كله أن يتلون الهجوم كذلك بلون قديم نسبيا أو جزئيا يذكر بصورة أو بأخرى بحروب الماضى. خذ تسلق قواتنا بالسلالم والحبال لذلك الساتر الترابى الذى ينحدر عموديا تقريبا كأنه

أقدام قلعة من قلاع العصور الوسطى ولكن ينقصها حتى منحدر ·gla
cis تلك القلاع . واعتبر كذلك حالات الحصار المحكم التى ضربت
واستمرت عدة أيام حول البعض منها. فاذا أضفنا كيف كانت المشاة
المصرية تتقافز على دشم هذه القلاع ، تركبها ، تقتحمها جسديا،
وتلتحم بالمتحصنين داخلها وجها لوجه وبالسلاح الأبيض أحيانا،
لاجتمعت ولا نقول اكتملت لنا فى هجومنا كثير من ملامح فروسية
حروب عصر القلاع وبطولات عصر حصار واقتحام المدن المسورة ذات
الحوائط والأبراج... إلخ ، وإنما فى صورة جديدة عصرية أو بالأحرى
معصرة. ولا يؤكد هذا الانتهاء كما يؤكده ما أعلنه أحد كبار قادة
المعركة المصريين من أننا «استخدمنا المشاة بالأسلوب نفسه الذى كانت
تستخدم به المشاة منذ العصور القديمة، وإن إختلفت الأسلحة التى فى
أيدينا عن تلك التى كانت فى أيديهم».

والخلاصة ؟ الخلاصة لقد كانت ملحمة اكتساح خط بارليف فى
جوهرها صراعا بين الشجاعة والمناعة، شجاعة المقاتل البحتة ومناعة
الأبراج المشيدة، مثلما كانت مواجهة بين فلسفة الخطوط الزاحفة
المتحركة ونظرية الخطوط المحصنة الثابتة. وفى الحالين تغلبت الأولى
على الثانية: تغلبت الارداة على الأرض، والإنسان على السلاح،

وأصحاب الأرض على الغاصبين . لقد «جاءوا، رأوا، وانتصروا» ... عبروا ، اكتسحوا، وانطلقوا.

معركة القاعدة الأرضية

منذ تم تدمير واختراق الخط بدأت مرحلة جديدة فى المعركة، مرحلة اعداد قاعدة أرضية وثيقة للاحتشاد وانطلاق الزحف. فمن رأس جسر إلى رأس حربة، ومن موطىء قدم إلى قاعدة انطلاق، وفى النهاية من موقع ثابت إلى موقعة متحركة - إلى هذا جاء تطور العمليات على الضفة الشرقية .

وبغير تحديد قاطع بصرامة، وفى قدر من التداخل والتواصل المفهوم، قد يمكن أن نقسم هذه المعركة التى امتدت نحو ١٧ يوما منذ تم العبور حتى اعلان وقبول وقف اطلاق النار إلى ثلاث مراحل ميدانية أو تكتيكية بحسب المهمة أو الملمح السائد عليها. فالمرحلة الأولى امتدت نحو اسبوع وهى مرحلة معركة القاعدة الأرضية، والمرحلة الثانية هى وقفة التعبئة نحو ٣ -٤ أيام، وأخيرا مرحلة معركة الدبابات الكبرى واستمرت نحو الأسبوع . أى أن المعركة كلها دامت نحو أسبوعين ونصف الأسبوع، واستغرقت مراحلها أسبوعا فنصف أسبوع فأسبوعاً آخر على الترتيب وعلى وجه التقريب.

وقد بدأت معركة الضفة الشرقية بتدفق القوات المصرية الذى لم ينقطع منذ تم مد الجسور والمعابر. وفى طليعة التدفق جاءت المشاة الميكانيكية ثم المدرعات والمدفعية وسائر الأسلحة الثقيلة. وقد تحقق هذا فى أول ليلة من المعركة تحت ستار الظلام، ولكن فى تنظيم دقيق محسوب وبنجاح تام. وقد حقق تدفق القوات أرقاما قياسية غير مسبوقة. فمثلا فى الأربع والعشرين ساعة الأولى من بدء القتال كان قد انتقل إلى البر السيناوى نحو من ٨٠ ألف جندى بكامل سلاحهم فى ١٢ موجة متتابعة. «وهذا فى حد ذاته يعد نصرا عسكريا بأى مقياس» كما كتبت مجلة تايم. ومعهم بدأت ملحمة التحام ومعركة تصادم شرسة ورهيبة من أجل تحرير الأرض. ولم يطلع فجر ٧ أكتوبر حتى كانت هذه القوات قد توغلت لمسافة ٨ كم.

وفى الوقت نفسه خرجت وحدات الأسطول البحرى تقصف مواقع العدو على كل سواحل سيناء الثلاثة وتتصيد وحداته البحرية فى مياه البحر المتوسط وخليج السويس، كما تحمى أجناب قوات الغزو المتقدمة من اليمين والشمال . كذلك انطلقت فرق الفدائيين الخاصة (الصاعقة، الكوماندوز) تعمل خلف خطوط العدو فى أعماق سيناء وسواحلها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. وقد كانت ممرات ومضايق سيناء من المسارح الأساسية لنشاط هذه القوات لمنع العدو من التقدم

لشن الهجمـات المضادة ولتدميره «وتجويفه» من الداخل. وقد استطاعت قوة منهم السيطرة الكاملة على ممر سدر معظم أيام المعركة بكاملها.

وعدا الخسائر الضخمة التى أنزلتها هذه الضربات بأجناب وأعماق العدو، وما أحدثته من قطع لخطوط مواصلاته وامداداته واعتراض لتقدمها، وكذلك ما عادت به من أسرى، فإن دورها كان حيويا وحاسما فى تشتيت جهود العدو وتوزيع قواتـه فى كل أطـراف شبه الجزيرة الشاسعة ، وبالتالى منعه من تركيز قـوته على الجبهة الأساسية على القناة. ويكفى لتوضيح مدى وخطر هذا التشتيت أن العدو أضطر على سبيل المثال إلى توجيه أكثر من ١٠٠ دبابة نحو محور السـاحل الشرقى لخليج السويس ، بعيدا تماما عن جبهة القناة الاساسية .

وفيما بعد وطوال المعركة لم ينقطع نشـاط البحرية والكوماندوز، بل تزايدت عملياتها ونجاحاتها على أوسـع نطاق . وقد اعترف العدو بذلك، وأعلن أن قـوات الكوماندوز المصرية تستخدم تكتيكات جديدة لأول مـرة، وأنهـا تدخل سيناء من كل مكان ومـن كل اتجاه وبكل الوسـائل ، الهليكوبتر، القـوارب، الأقدام، تقاتل بشراسة وبأحدث الأسلحة.

هذا على إطار شبه الجزيرة ، أما على جبهة المواجهة الأساسية فى الضفة الشرقية للقناة، فيجب أن نذكر أولا أن القوات المصرية المهاجمة

التي اخترقت خط بارليف لم تتوقف أمام حصونها بعد أن طوقتها وركبتها، بل تقدمت مباشرة نحو الشرق تاركة تلك الحصون تتساقط بالجملة أو واحدة بعد أخرى كجيوب محتواة تماما. ومن الناحية الأخرى كان كل هم العدو هو أن يدفع بقواته بأسرع ما يمكن لمواجهة القوات المهاجمة المتقدمة ولتدفع بها إلى الخلف نحو القناة. دون جدوى مع ذلك بالطبع. والواقع أنه فى الليلة الأولى من القتال كانت القوات المصرية قد دمرت معظم قوات احتياطى العدو الاعتراضية، مما اضطره إلى أن يدفع بأنساقه الخلفية إلى المعركة واحدا اثر الآخر .

وهنا لابد أن نلاحظ أن خط بارليف لم يكن هو خط الدفاع الوحيد على جبهة القتال، ولا كان معناه الدفاع الثابت كما قد نتصور. فلقد كان هناك خطان دفاعيان آخران خلف خط بارليف، يفصل بين كل منها ٣ - ٤ كم، بحيث تتوالى ثلاثتها عبر نحو ٨ كم عمقا. فأما الخط الأول فكان خط الاحتياطى التكتيكى، يتألف من قوات من المشاة الميكانيكية والأسلحة الخفيفة تعاونها بعض الأسلحة الثقيلة، ومهمتها التصدى لأى قوات قد تخترق خط بارليف، فعندئذ تتعامل معها وتساعد حصون الخط إذا حوصرت. أما الخط الثانى فكان خط الاحتياطى التعبوى، وهو أقوى عددا وأثقل تسليحا، ويتوزع فى قواعد

ومراكز مختارة بعناية. أما مهمته فالتقدم لتدعيم الخط الأول إذا لم يكف للمواجهة.

وإذا كان خط بارليف نفسه قد سقط في الساعات الأولى، وكان الاحتياطي التكتيكي قد تمزق فى الليلة الأولى من العبور، فقد جاءت نهاية الاحتياطي التعبوى بدوره فى غضون اليومين أو الثلاثة الأولى. وقد بلغت خسائر العدو فى هذه الفترة معدلات خطيرة، وكان واضحا للغاية مدى الاضطراب والارتجال فى قتال العدو. ولم تلبث المعركة أن تطورت إلى حرب ضارية بالأسلحة الثقيلة والمدرعات تعاونها الطائرات ، واضطر العدو أن يدفع بأسرع مما كان يتوقع باحتياطيه الاستراتيجى الذى نقله على عجل من أعماق سيناء ومن داخل إسرائيل نفسها.

فمن الجانب المصرى المهاجم تقدمت القوات الثقيلة من المدرعات والآليات والمدفعية جنبا إلى جنب مع قوات المشاة الميكانيكية والراجلة تحمل من بين ما تحمل الصواريخ المضادة للدبابات وتلك المضادة للطائرات، وفوق الكل غطاء جوى عارم من المقاتلات والقاذفات المقاتلة ، وخلف الجميع على الضفة الغربية أقوى وأكثف وأحدث شبكة من نوعها فى العالم من صواريخ مضادة للطائرات، عالية ومنخفضة، تغطى نطاقا عمقه نحو ٢٠ - ٣٠ كم من سماء الضفة الشرقية.

وعدا هذا فلقد كانت جبهة الزحف المصرى تمتد بطول القناة من البحر المتوسط إلى خليج السويس، موزعة على الجيش الثانى فى الشمال والجيش الثالث فى الجنوب، تفصل بينهما منطقة البحيرات المرة. أما التقدم عبر القناة فقد تم - والتقدم فى حروب الصحراء يتم أصوليا على محاور وليس جبهويا - على محاور سيناء الاستراتيجية الثلاثة : المحور الشمالى ازاء القنطرة أى عند نهاية بحيرة المنزلة وباتجاه الساحل الشمالى، المحور الأوسط أمام الإسماعيلية أى منطقة بحيرة التمساح وباتجاه مضيق الجفجافة، وأخيرا المحور الجنوبى مقابل السويس حول رأس الخليج وباتجاه ممر متلا. ومنذ احتلت القوات المصرية رؤوس الجسور ، أخذت توسعها وتعمقها إلى جيوب كبيرة ، ثم أخذت الجيوب تتوسع وتستعرض لتتصل وتتلاحم فى قاعدة أرضية جبهوية عريضة واحدة ليس بها الا الحد الأدنى من الثغرات.

ومن الناحية الأخرى سارع العدو بدفع كل قواته المتاحة أو المتبقية، بما فى ذلك الاحتياطى الاستراتيجى من العمق، فى هجوم مضاد مستيئس كما هو مضطرب ليصد الزحف المصرى . وقد تكررت عمليات الهجوم المضاد هذه عدة مرات (فى القطاع الأوسط مثلا شن العدو ١٦ هجوما مضادا خلال ٧ أيام على رأس جسر واحد فقط)، ولكن كل

هجوم مضاد منها كان لا يلبث أن يتكسر ، لبيدأ غيره فيتكسر من جديد. وكانت المدرعات والمدفعية هي قوام قوات العدو (طوال الأيام الثلاثة الأولى لم يشاهد جندى مشاة إسرائيلى واحد، دبابات فقط!) تحت غطاء جوى كثيف جدا من الطائرات بأنواعها بما فى ذلك طائرات الهليكوبتر المصفحة.

ورغم أن الأسحة التى دفع بها كل من الطرفين إلى المعركة كانت متنوعة إلى أقصى حد وتشمل كل أنوا ع الترسانة المتاحة، فقد كان بينهما اختلاف فى درجة التركيز على هذا السلاح أو ذاك. فكان العدو الاسرائيلى من جانبه يضغط أساسا على الطائرات والدبابات بأنواعها، بينما ركزت القوات المصرية بصفة خاصة على صواريخ الدفا ع الجوى فى وجه الأولى وعلى مشاة الصواريخ فى وجه الثانية.

فبالأولى أقامت من أسفل وخاصة من قاعدتها غرب القناة سدا ناريا بالغ الكثافة والضراوة ضد الستار النارى الذى أسقطه طيران العدو من أعلى سواء من شرق أو غرب القناة. وبالثانية تصيدت مشاتنا دباباتهم ومدرعاتهم على الأرض أولا بأول. وبهذا كانت شبكة صواريخنا المضادة للطائرات تجرد العدو بانتظام من غطائه الجوى، فتتسلم صواريخ مشاتنا قواته المدرعة على الأرض وتبيدها على الفور وبلا ابطاء .

ومن الثابت أن التفوق العددى والنوعي في السلاح والرجال في تلك المرحلة كان لنا، في حين كان العدو ممزقا بين عملية حشد احتياطيه التي تأخرت وبين خوفه من أن يؤدى القذف به في المعركة إلى تعرية ظهره. قال دايان «في اليوم الرابع من الحرب كان لدى مصر من الدبابات في سيناء أكثر مما عند إسرائيل» . ولو كانت إسرائيل قد استمرت في محاولة دفع المصريين إلى الخلف عبر القناة «لفقدنا قوتنا وتركنا إسرائيل بغير قوة».

ولقد وصف الأسبوع الأول من القتال بأنه «أسبوع تأديب للجيش الاسرائيلي»، بينما وصفه دايان بأنه «أخطر أسبوع في حياة إسرائيل كدولة». وإنه لكذلك بالفعل . فلقد كانت المعركة تتلخص ببساطة وبلا أدنى مبالغة في عجز على جانب العدو ، وإعجاز على الجانب المصرى. فقد اكتسح الهجوم المصرى خطوط العدو ومزق صفوفه وحقق انتصارات مذهلة ، وسيطر تماما على ميدان المعركة، أو كما كان يصرخ شارون في جونين «اننا نرقص على أنغامهم!».

ومنذ الساعات الأولى بدأت القوات الإسرائيلية تتحطم وتتهاوى: وحدات مدرعة برمتها تدمر وأطقمها تقتل، وأخرى يقع معظمها في الأسر أو تلجأ إلى الفرار تاركة أسلحتها وذخيرتها إما حطاما كالأطلال أو سليمة دون قتال أو استعمال، وعشرات الطائرات الأمريكية الصنع

تتساقط محترقة بطياريها أو بغير طياريها الذين لا يلبثون أن يضافوا إلى قائمة الأسرى المكتظة، سواء كان ذلك على الضفة الشرقية أو الغربية.

ويكفي مصداقا، بل تلخيصا ، لهذا كله أن نقتبس قائدا من قادة العدو نفسه، ايرييل شارون، الذي قال في غضب هستيري انه رأى وحدات المشاة المصرية تتقدم في تلك المرحلة «كما لو كانت في عرض خلف راياتها» بل لقد فكر العدو في بداية المرحلة في التراجع الاستراتيجي، فقد قال دايان في يوم ٨ أكتوبر «ان الموقف يبدو حرجا، وكي ندافع عن إسرائيل لم يبق أمامنا إلا أن ننسحب بقواتنا إلى خلف ممرات سيناء وعلى قمة هضبة الجولان». أما دايان نفسه فقد تحول إلى «رجل محطم» كما وصفته هاعولام هازيه التي كتبت تقول «ان الجنرال موشيه دايان قد انهار في اليوم الثاني من حرب اكتوبر عندما حطمت القوات المصرية كل الهجمات الاسرائيلية في سيناء ووصلت القوات السورية إلى مسافة لا تتجاوز خمس دقائق من وادي الأردن، وأوقعت خسائر فادحة في الدبابات والطائرات الاسرائيلية حولت دايان إلى رجل محطم». أو كما وضعها وولتر لاكير ، «فقد فاعليته وكاد يصاب بالهلع».

وإذا كانت مفاجأة هذه المرحلة هى النصر المصرى الساحق الذى حطم عصب الجيش الإسرائيلي وكسر عموده الفقرى على أقل تقدير، فإن مفاجأتها الأخرى ولا نقول الصغرى هى دور المشاة فى الميدان. فرغم أن حشود الدبابات والطائرات إلى جانب المدافع والصواريخ كانت هى المسيطرة على ميدان القتال وهى التى ملأت المسرح، فقد كان نجم المعركة وبطلها الحقيقى هو رجل المشاة والمشاة الميكانيكية المسلح بالأسلحة المحمولة الخفيفة ولكن بوجه خاص جدا بالصواريخ المضادة للدبابات وللطائرات. وقد قدر العدو ، إن خطأ أو صوابا ، أن من بين كل ثلاثة مشاة مصريين كان واحد مسلحا بتلك الصواريخ.

وأيا ما كان ؛ فلقد كانت المواجهة على الأرض تدور غالبا بين دبابة مدرعة وفرد بصاروخ، آو فى الجو بين طائرة مصفحة وفرد بصاروخ، وكانت النتيجة في الأغلب سقوط الدبابة أو الطائرة، بل ان كثيرا من جنود المشاة أسقط الواحد منهم عشرات من هذه الأهداف بمفرده على امتداد المعركة. وتلك جميعا كانت ظاهرة ثورية وسابقة غير مسبوقة فى التاريخ العسكرى تحتاج إلى وقفة خاصة حين نحلل نتائج الحرب فيما بعد.

أما هنا فيكفى أن نقول ان حصيلة الأسبوع من خسائر العدو على الجملة كانت بضع مئات من الطائرات المحطمة وعدة مئات من الدبابات

المحترقة، ثم بضعة آلاف من القتلى وعدة آلاف من الجرحى، أما إقليميا، فقد وصلت المنطقة المحررة أثناء تلك المرحلة إلى نطاق مهم بطول الضفة الشرقية من البحر إلى الخليج وبعمق بضع عشرات من الكيلو مترات ما بين القناة والمشارف الأمامية أو الخارجية لمضايق سيناء، وكانت تتراوح محليا بين ١٠ ، ١٨ كم.

وقفة التعبئة

عقب الأسبوع الأول من بدء المعركة أو قبل نهايته بقليل، حدث إلى حد ما هدوء نسبى فى حدة القتال أو انخفاض ما فى سرعة ايقاع التقدم . وهو تطور كان ملحوظا أحس به الجميع لبضعة أيام وعكسته بوضوح البلاغات العسكرية المصرية كما جسمته قلة خسائر العدو نسبيا عما ألفناه فى المرحلة السابقة، كما استرعى الانتباه واستثار التساؤل بل واستدعى النقد من البعض . فرغم أن الموقف كان أبعد شيء عن الجمود أو السكون وحتى عن الركود أو الاسترخاء العسكرى، فلقد شعر الكثيرون منا ومن غيرنا بعد نصر الأسبوع السابق الساحق أن ثمة فرصة كبرى يجب ألا نضيعها وأن علينا بأسرع ما يمكن أن نستثمر انتصارنا وهزيمة العدو وانهياره البادى لنجهز عليه بضربة أقوى داحرة ونهائية.

فلقد كان أمام القوات المصرية المتقدمة أحد اختيارين: إما الاندفاع نحو الممرات للسيطرة عليها، وإما التركيز على تأمين قاعدتها الأرضية وتدعيمها . وعلى الجانب الآخر كان أمام العدو الإسرائيلي أحد اختيارين: إما الانسحاب إلى المضايق والتحصن بها، وإما الصمود والمصادمة بأمل التمكن من التقدم وربما التوغل فيما بعد. وقد كان الانسحاب كفيلا بأن يستدرج القوات المصرية خارج نطاق شبكة صواريخها الحامية ويفرض عليها الانتشار الواسع المتعجل ويطيل خطوط مواصلاتها ، وبذلك كله يعرضها لخطر الاستنزاف. غير أن خطر مثل هذا الانسحاب من وجهة نطر العدو يتمثل في الأثر النفسي والمعنوي أولا، ثم في احتمال تفوق المصريين واستيلائهم على المضايق أو التشبث خلفها في حرب طويلة تستنزف العدو ولا تلائمه.

ولقد كان هناك بالفعل اغراء شديد للقيادة المصرية بأن تندفع بأقصى سرعة في زحفها نحو الشرق وبوجه خاص نحو المضايق ، مفاتيح سيناء الاستراتيجية الحاكمة بلا جدال. فالمضايق، التي أصبحت طلائع قواتنا المتقدمة على بعد عنها يتراوح بين ٥٠ ، ١٥ كم فقط في بعض القطاعات، هي كما نعرف قطب الجاذبية في أي صراع مسلح يدور على أرض شبه الجزيرة، هي الرهان الحقيقي، وهي الجائزة

الكبرى. ليس فقط لأن السيطرة عليها تعني بالنسبة لنا تحرير نحو ثلث المستطيل القاعدى الشمالى من سيناء، ولا لأن هذا الثلث كساحة حرب أضيق من أن يعرضنا الانتشار فيه لخطر اطالة خطوط مواصلاتنا بصورة مقلقة، (ولا كذلك لأنه أضيق من أن يسمح للعدو بفرص الحركة الكاملة والمناورة المطلقة بالمدرعات التى يعتمد عليها) ، ولكن أيضا وقبل كل شيء لأن السيطرة على المضايق تحدد مصير بقية المعركة. ولقد كان التسابق على المضايق هو بالفعل ما توقعه كثير من المراقبين العسكريين فى الخارج كالخطوة التالية للقوات المصرية والتطوير الطبيعى لهجومها بعد أسبوع النصر الأكبر.

غير أن من الواضح أن القيادة المصرية قاومت بشدة كل اغراءات الزحف السريع الكاسح وفضلت عن عمد وبوعى خطة تعميق وجودها فى القاعدة الأرضية المحررة على خطوة تنمية الهجوم وتطويره شرقا، أى فضلت التوسع الرأسى على التوسع الأفقى كما قد نقول. أو بعبارة أخرى آثرت البطء المحسوب على المغامرة بانتهاز فرصة قد تنطوى على فخ كامن، وفضلت انزال أكبر قدر ممكن من الخسائر بالعدو من حالة الثبات - وهي أفضل وضع ممكن حينذاك - على دفع القوات وزجها فى العراء بلا غطاء أو ساتر أو تجهيز هندسى يحميها من العدو الجوى. والسبب الأساسي في ذلك أن التوسع بعيدا إلى الشرق كان سيتقدم

بقواتنا خارج نطاق تأثير وفاعلية شبكة صواريخنا المضادة للطائرات ويحرمها من حماية مظلتها، وبذلك يعرضها لأخطار الطيران العدو وقد يمنحه فرصة للتفوق غير المأمون.

وقد حدث بالفعل ، كما أعلن فيما بعد، أن القوات المصرية خرجت عن خطة الوقفة مؤقتا حين اتضح أن خطة العدو هى «تثبيتها» ومنعها من التقدم ليتفرغ لسوريا، حتى إذا ما فرغ منها عاد بكل ثقله الينا. ولهذا، وتخفيفا لضغط العدو على سوريا في الجبهة الشمالية، اضطرت قواتنا فى يوم ١٤ أكتوبر إلى تطوير هجومها وإلى شن هجوم واسع النطاق فى مرحلة سابقة لأوانها امتدت بمدرعاتنا خارج نطاق صواريخنا المضادة للطائرات . وما إن حققت هذه الخطوة أغراضها في إرغام العدو على سحب كثير من قواته وطائراته من الجبهة السورية، حتى عادت قواتنا إلى قاعدتها الأرضية ورءوس جسورها حرمانا للعدو من أي فرصة لتصيدها بطيرانه، واستدراجا لهجماته المضادة إلى مقتل محقق فى نطاق شبكة صواريخنا.

وعلى هذا الأساس روعى فى عملية الضغط هذه ألا تؤثر على التمسك التام برؤوس كبارينا أو تماسكها المطلق. فتم الهجوم بجزء فقط من القوات المدرعة والميكانيكية، يتألف من مفارز صغيرة الحجم نسبيا ولكنها مؤثرة كثيفة في قوتها النارية. وقد مهدت قواتنا الجوية للعملية

بضربة جوية كبيرة بالطائرات والصواريخ على أهم أهداف العدو فى سيناء ، صحبتها فى اللحظة نفسها قصفة مدفعية كبرى مركزة (٥٠٠ مدفع/ربع ساعة)، كما نقلت قوات دفاعنا الجوى بعض وحدات صواريخها مدا لغطائنا الجوى إلى أبعد مسافة ممكنة شرقا. وعلى أثر هذا التمهيد وفى ظل هذه الحماية تقدمت مفارزنا على المحاور الرئيسية الثلاثة تجاه المشارف الغربية للمضايق والممرات، وتوغلت داخل نطاقات العدو نحو ١٥ كم أو إلى مسافة ٢٠ كم من القناة، ونجحت فى تدمير الكثير من قواته هناك وفى منع تدفق قوات امداداته نحو الغرب. وعندما اتمت هذه المفارز مهمتها عادت إلى رؤوس كبارينا مرة أخرى. وبذلك كانت العملية فى آن واحد مناورة توازن مع الجبهة السورية من جهة ، ونوعا من التمهيد المسبق للتطوير الأساسى القادم لهجومنا شرقا من جهة ثانية، ثم حلقة وصل بين الوقفة التعبوية ومعركة الدبابات الكبرى الوشيكة من جهة ثالثة.

وفيما عدا هذا كان قرار القيادة أن تحرم العدو أى فرصة انتقامية، وآثرت أن تتوقف مؤقتا وقفة تعبوية تشدد فيها قبضتها على قاعدتها الأرضية المحررة وتوطد مواقعها فيها وتعيد تنظيم وتجميع القوات، وكذلك ريثما يكتمل وصول الامدادات الادارية ووحدات دفاعنا الجوى ومدرعاتنا فتحشدها لمواجهة فاصلة. وبذلك يتم التقاط الأنفاس ويتحقق

الاتزان الاستراتيجى للمسرح كله. وفى أثناء ذلك تمتص كل هجمات العدو المضادة وتحطمها موجة وراء موجة حتى تتكسر جميعا. وهكذا بالفعل كان، وكان هذا هو المدخل إلى معركة الدبابات الكبرى. وحسب هذه المرحلة أن تم فيها تدمير ٥٠٠ دبابة للعدو، بجانب آلاف من الأفراد.

ولقد كان فى هذا السياق ما قاله جونين قائد الجبهة الجنوبية فى أمر يومى من أن إسرائيل تخوض «أكثر حروبها صعوبة منذ انشائها من ٢٥ سنة»، وأن «هذه الحرب ليست حربا خاطفة ولا حربا تعتمد على الهجمات الأمامية السريعة، وانما هى حرب قاسية ومستمرة، وأن من الضرورى أن نصارح شعبنا بأن هذه الحرب ليست مماثلة لأى حرب خضناها من قبل».

وعلى هذا يمكن تشخيص هذه المرحلة التى تميزت أساسا بالتقدم البطىء الحذر بأنها كانت مرحلة من «الهجوم الدفاعى» على الجانب المصرى ومن «الدفاع الهجومى» على الجانب الإسرائيلي. وكان التكتيك المصرى أساسا هو «اجذب واضرب» : الالتصاق بقاعدتنا الأرضية فى حماية شبكة صواريخنا وعدم الابتعاد عنها وعن مجال فاعليتها، مع استدراج القوات الاسرائيلية اليها لاستنزافها على التوالى حتى تتآكل تماما. أما التكتيك الاسرائيلى فكان الهجوم المضاد، فى محاولة لمنع

تقدمنا أو لتقليص جيوبنا وقاعدتنا الأرضية. فقام بعشرات من الهجمات المضادة وجهها إلى رؤوس كبارينا وركزها ضد أجنابها بوجه خاص بهدف تثبيتها ثم تطويقها ثم المروق إلى المعابر لتدميرها ايقافا لتدفق قواتنا إلى الشرق ثم عزلها عن قواعدها فى الغرب.

وفى هذا الصراع ، المحلى نسبيا، دفع كل من الطرفين بأعداد عظيمة من الدبابات، ٧٠٠ - ٨٠٠ دبابة لكل جانب، وكانت الخسائر المتبادلة كبيرة أيضا. وبينما لعبت صواريخ المشاة الكثيفة المضادة للدبابات دورا بارزا على الجانب المصرى فى هذه المعركة، لعبت الهليكوبتر المصفحة المسلحة بالصواريخ المضادة للدبابات دورا كبيرا على الجانب الاسرائيلى . وقد بلغ عمق القاعدة الأرضية المحررة فى نهاية المرحلة نحو ١٨ - ٢٠ - ٢٥ كم .

معركة الدبابات الكبرى

تعتبر هذه المعركة ذروة أخرى من ذرى حرب أكتوبر بعد نقطة القمة التى تمثلت فى العبور واكتساح خط بارليف. وهي فى الوقت نفسه ، وبإجماع كل المحللين العسكريين العالميين، واحدة من أكبر وأعظم معارك الدبابات فى التاريخ الحديث جميعا، لا تقارن الا بمعركة العلمين ومعركة ستالينجراد فى الحرب العظمى الثانية وربما فاقتهما كلتيهما

من حيث الحجم والكثافة والضراوة . فقد حشد فيها كل من الجانبين، عدا سائر أنواع الأسلحة والقوات الأخرى، نحو ١٠٠٠ - ١٢٠٠ دبابة، وربما أكثر ، أي بمجموع يربو كثيرا على ٢٠٠٠ ، وقد يصل إلى ٣٠٠٠ دبابة. وذلك في شقة أرضية ضيقة ومحدودة، قد لا تزيد على عدد مماثل من الأميال المربعة، يعنى نحو دبابة لكل ميل مربع، وهذه كثافة ميكانيكية ومن ثم كثافة نيران نادرة للغاية وربما غير مسبوقة وربما كذلك غير ملحوقة.

وليس من السهل تحديد بداية هذه المعركة بالدقة أو بالضبط، وان كانت نهايتها محددة بوضوح. فمنذ اليوم السادس للقتال بدأ المراسلون والمراقبون يتحدثون عن «أكبر المعارك البرية في سيناء» و«أكبر معارك الدبابات في التاريخ». وكان كل يوم يتلو يعد من جديد «أكبر معارك المدرعات في التاريخ»، وهكذا بانتظام. لقد كان الخط البياني للمعركة في تصاعد رهيب، وكانت المعركة كل يوم طاحنة أكثر منها في أي يوم مضى بلا استثناء. غير أن الذروة القمية السامقة التي تحدد بداية «معركة الدبابات الكبرى» هي يوم ١٥ أكتوبر، ومنه استمرت بلا انقطاع في التصاعد حتى نهاية القتال في ٢٥ أكتوبر، أي أنها اتصلت ١٠ أيام كاملة.

وقد كان الاجماع العالمى تاما علي أنها قد تحدد مصير الحَرب جميعا، وبات العالم يترقب نتيجتها بأنفاس معلقة. ليس هذا فحسب، بل إن الاجماع كان مطلقا أيضا على أنها تجاوزت كل حروب المدرعات فى تاريخ الحرب الحديثة بحيث لم يشهد العالم مثلها فى التاريخ ولم يسبق لها مثيل فى الحجم والشراسة والتدمير. بل لقد وصلت فى مراحل معينة إلى حد المعركة الانتحارية من الجانبين، اذ قذف كل منهما فيها بكل أسلحته الثقيلة والصغيرة، البرية والجوية، وكلما زادت الخسائر دفعا بالمزيد من القوات. وتحول مسرح المعركة إلى جحيم من النيران الكثيفة لا ينقطع، وبكثافة مماثلة امتلأت أرضها بالحطام المحترق والمهشم والجثث المتفحمة.

ولنفصل . على القطاع الأوسط من الجبهة دارت المعركة، تصادمية هائلة بالمدرعات، استنزافية رهيبة بالمدفعية، وانقضاضية مريرة بالطائرات. وفيها لعبت صواريخ المشاة المضادة للدبابات وللطائرات دورا حاسما مرة أخرى. وقد بدأ العدو أولا بهجمات مضادة محدودة، ما لبث أن صعدها إلى هجمات أساسية متواترة ليلا ونهارا على جميع رؤوس كبارينا. ولكنه ركز أساسا على الجانب الأيمن للجيش الثانى، هادفا إلى تصفية رأس الجسر فى هذا القطاع والاستيلاء على رقعة من الضفة الشرقية للقناة وشطر قواتنا على تلك الضفة . ولكنه في وجه

مـقاومـة ضـارية وباسلة فـشل، ولم ينجح فى أكـثـر من أن يدفع بتلك الأجناب إلى الخلف مسافة ٢ - ٣ كم فقط، لم تلبث قواتنا أن استردتها وأغلقت الثغرة مكبدة العدو خسائر فادحة . ومع ذلك فقد أصـر العدو على مواصلة الهجوم بأى ثمن، فدفع بالمزيد من قواته وتوالت هـجماته ولكن أيضا تصاعدت خسائره. غير أنه بعد بضعة أيام من الخسائر الفادحة وبعد أن ألقى بنحو ٥٠٠ دبابة فى المعركة استطاع دفع أجناب الجيش الثانى إلى الخلف نحو ٨ - ١٠ كم. وكـان هذا هو التمـهـيد والمدخل إلى عملية التسلل إلى الضفة الغربية كما سنرى، كما كان حلقة الوصل بين مـعـركـة الدبابات الكبرى فى سيناء وعملية جيب الضـفـة الغربية.

ومنذ البداية بدا واضحاً أن معركة الدبابات ، التى استطالت ذروتها إلى أكثر من الأسبوع ، ستكون فاصلة وربما تحسم الحرب الرابعة عمليا كما توقع كثير من الخبراء . وبالفعل أخذت المعركة فى أيامـها الأولى مـساراً مـحـدداً لصـالحنا بصورة قـاطعة وضـد العدو الذى بدا انهاكه واستنزافه جليا لا يخفى على أحد . والواقع أن العدو الذى كان قد قذف فيها بمعظم احتياطيه الاستراتيجى بدأ يشعر بنقص قوته البشرية مـثلمـا بدأت قواتنا تشـعـر باختـلاف وتدهور نوعيـة رجـاله . وأخطر من ذلك أن العدو ، كما اتضح فيما بعد ، كان قد بدأ يعانى

بشدة من نقص سلاحه عامة وذخيرته خاصة بصورة خطيرة لم تكن لتسمح له بمواصلة القتال لأكثر من ثلاثة أيام أخرى باعتراف دايان نفسه.

ولا غرابة بعد هذا أن يضطر هذا الأخير أن يقول للاسرائيليين أثناء المعركة «هذه حرب صعبة، معارك الدبابات فيها قاسية، ومعارك الجو فيها مريرة، انها حرب ثقيلة بأيامها ، ثقيلة بدمائها. وليس أمامنا الا أن نقاتل بقلوب كسيرة، ولكن علينا جميعا أن نطوي أعماق قلوبنا على الأحزان». وحين أحس العدو أنه لا محالة خاسر المعركة وأن الدائرة ستدور عليه، بدأ يمهد للتقليل من خطورتها انقاذا لروحه المعنوية، فأعلن قادته أن المعركة الحاسمة لن تكون هذه التى تدور على الجبهة الوسطى ولكن تلك التى ستدور على القطاع الجنوبى. كذلك راح يعلن استعداده لقبول وقف اطلاق النار بشروط بادية الافتعال لا يقصد بها الا حفظ ماء وجهه واخفاء هزيمته الحقيقية.

وفجأة، وعند هذا الحد ، أخذ الموقف منعطفا جديدا وخطيرا. فقد بدأت الإمدادات الأمريكية تتدفق على العدو بمعدل صارخ وبغير حساب، فوق جسر جوى وآخر بحرى حشدت له أمريكا أحدث ما فى ترسانتها من أسلحة متطورة لم يسبق قط استخدامها حتى فى فيتنام

بما فى ذلك القنبلة التلفزيونية وصاروخ T.O.W المضاد للدبابات وصواريخ وول آى ومافريك وستاندارد وشرايك وغيرها كثير، وكلها يمتاز بإحكام التصويب الفائق. هذا عدا مئات الطائرات والدبابات.

وهذه الإمدادات ، التى بلغ وزنها عشرات الآلاف من الأطنان وقيمتها عدة مئات من ملايين الدولارات، جمعت من القواعد الأمريكية فى أوربا ولكن أساسا من الولايات المتحدة إلى حد أن هددت مخزونها الاستراتيجى هى نفسها (أعلنت أمريكا بعد الحرب أنها أساءت تقدير كمية الذخائر الضرورية فى حالة نشوب أزمة مثل الحرب العربية الاسرائيلية بشكل خاص). وكان جزء كبير من هذه الإمدادات يصل إلى ميدان القتال فى سيناء نفسها رأسا، العريش فى البداية وربما فيما بعد الدفرسوار، أحيانا دون حتى تغيير علاماتها أو ألوانها، وأحيانا بطواقم أمريكية كاملة. والمفهوم أن هذه الأسلحة حدت من فاعلية صواريخنا التى كانت متفوقة ضد الدبابات والطائرات.

لقد دخلت أمريكا المعركة مباشرة. حقا لقد كانت دائما فى الصراع كله، وفى المعركة نفسها، ولكن ليس بمثل هذا السفور والمباشرة والتحدى ولا بكل ثقلها هذا . من هنا ظهرت على مسرح المعركة حشود

جـديدة، طازجـة وغيـر منهكة، من السـلاح والقـوات. والمقـدر أن عـدد الدبابات الجديدة وحدها وصل إلى ٥٠٠ دبابة. ولهذا يمكن اعتبار هذه المعركـة أساسـا مـعـركـة مـصـرية - أمريكيـة أكـثـر مـنـهـا مـصـرية - إسرائيلية.

وقـد ردت القوات المصرية على هذا التحدى الجديد بهجوم ضـار مروع غير مسبوق على الاطلاق ، وكبد العـدو خسـائر رهيبة حتى اعترف القـائد الاسرائيلى لسيناء أن «المصـريين يقـاتلون بشراسـة انتحارية فى أعنف رد على تحـركاتنا. انهم يقـومون بهجمات كثيفة ويردون بنيـران كثيـفة وأسـلحة كثيفة وأسـلحة مضادة للدبابات كثيـفة وأعـداد كثيـفة من الدبـابـات. انهـم يفـعـلون كـمـا فـعل الصـينيـون فى كـوريا ، يهاجـمـون بموجات وراء مـوجـات ويحـاربون بعناد شديد».

هذا بينمـا شـكا الجنود الاسـرائيليـون أنفسـهم من أن «انتـشـار الدبابات المصرية في سيناء قد صنع جدارا سميكا من الصلب، بينما ينتشـر المشاة الميكانيكية فى مواقـعهم يصيبون دباباتنا بصواريخهم التى تطلق من الكتف، كـمـا أن كثـافـة النيـران المصـريـة قـد وضـعت الطيران الاسرائيلى في موقف بالغ الصعوبة، وذلك عدا العناد الفائق الذى يقاتلون به».

جندى اسـرائيلى آخر ممن شاركوا فى القتال و(الهزيمة) على جبهة القنـاة قال للصحفى الفرنسى اريك رولو ما ترجمته «كانت تجربة مروعة بالنسبة لى. كان لدينا الاحساس بأننا نواجه هجوما من أمواج لا تنتهى من النمل المتماسك الملتصق ببعضه البعض، والمصمم على أكلنا. كان هذا هو حالنا أمام الجيش المصرى عند قناة السويس. أمواج متلاحقة من المدرعات والدبابات والعربات، تقذف علينا القنابل والقذائف والصواريخ، وكلما حاولنا ان نسكت تشكيلا من تشكيلات الجيش المصرى المهاجم، فوجئنا بإحلال قوة جديدة مكان القوة التى نجحنا فى اسكاتها، وتبدأ القوة الجديدة فى قصفنا وضربنا بقسوة وبإصرار».

هكذا أطال التدخل الأمريكى العدوانى القتال، وزاد من خسائر الجانبين بصورة مزعجة، وربما أفقد القوات المصرية هامشا ضيقا من نطاق الأرض المحررة حيث ان عمق هذا النطاق فى نهاية القتال يقصر بضعة كيلومترات عن الحد الأقصى الذى كان قد سجله فى أوج النصر. ومع ذلك فإن هذا التدخل غير مصير المعركة بالكاد، أو هو بالتقريب حيّد نتيجتها إلى نوع من التعادل فيما يبدو للبعض. ومهما يكن، فلولاه لنالت إسرائيل بالتأكيد هزيمة محققة كانت جديرة بحسم بقية الصراع الى حد كبير على أرجح الآراء.

وفى نهايات القتال، التى صبت القوات المصرية على العدو فى الأيام القليلة الأخيرة منها كمية من النيران تفوق كل ما صبته عليه طوال أيام المعركة السابقة، كان الموقف النهائى كالآتى. المنطقة المحررة فى سيناء ساعة وقف اطلاق النار، كما أعلنت القيادة المصرية فى يوم ٢٢ أكتوبر، تشمل الشاطىء الشرقى لقناة السويس برمته من رأس مسلة على خليج السويس حتى بورفؤاد بطول ٢٠٠ كم، وبعمق يتراوح بين ١٢ ، ١٧ كم شرقا، بما فيها مدينة القنطرة شرق، وفيما عدا ثغرة ضيقة من الدفرسوار شمالا بطول ٧ كم ملاصقة للبحيرات المرة. وتبلغ مساحة هذه المنطقة التى نسيطر عليها تماما ونؤمنها بقوة ٣٠٠٠ كيلو متر مربع. كذلك فإن خطوط اتصالنا وتموين قواتنا بالمنطقة منتظمة ومضمونة تماما.

وينبغى أخيرا أن نضيف أنه منذ انتهى القتال رسميا لم يتوقف تبادل النيران إلا بالكاد، بل بكثافة متصاعدة، وكان لقواتنا دائما فيه اليد العليا. فلم تكف عن إلحاق الخسائر الفادحة بالعدو وعن منعه من تحسين مواقعه وحرمانه من الاستقرار او الاسترخاء. وفرضت عليه حرب استنزاف من نوع جديد كما وصفها العدو نفسه. ومن جهة أخرى لم تكف قواتنا عن تحسين مواقعها وتوطيدها بعمق وعن توسيع رقعة سيطرتها شرقا، كما فى عيون موسى مثلا.

كذلك أخذت تدعم جسور الاتصال عبر القناة، فأصبح لنا ٥ جسور، بعضها تحول إلى طرق ثابتة لا مجرد كبارٍ عائمة. وفضلا عن هذا فلم يكن هناك نقص في تموين القوات لا في السلاح ولا في الذخيرة ولا الماء، بما في ذلك الجيش الثالث في القطاع الجنوبي الذي حفر كثيرا من الآبار ليوفر لنفسه كل موارده المائية المطلوبة.

وفوق كل هذا فلقد بدأت القوات المصرية شرق القناة تقيم، كما أعلن العدو محذرا الاسرائيليين، قواعد جديدة للصواريخ المضادة للطائرات، تمتد بطول القناة ويتجاوز مداها الى ما بعد ممرى متلا والجدى بمسافة كبيرة، وبالمثل أقامت صواريخها أرض - أرض البعيدة المدى بعد أن حركتها من الداخل الى الضفة الشرقية للقناة لتصبح أكثر قربا من عمق إسرائيل. باختصار، كانت القوات المصرية شرق القناة فى وضع استعداد كامل لاستئناف القتال بكفاءة تامة، فورا ولشهور عديدة حتى بما تختزن وحده فقط من أسلحة وذخيرة وتموين.

عملية التسلل

بدأت هذه العملية، «عملية شارون» كما يسمونها، وإن ثبت الآن أنه لم يكن مخططها الأصلى او الوحيد، بدأت فى ليل ١٥ - ١٦

أكتوبر، أي في اليوم العاشر من المعركة، وامتدت على مدى أسبوع، الأسبوع الأخير، حتى وقف اطلاق النار فى ٢٢ أكتوبر، ولكنها ظلت مستمرة بعده بضعة أيام أخرى في تلاعب فاضح بالقانون الدولي وبصفة غير مشروعة. وهي بهذا قد استغرقت في جملتها نحو ١٠ أيام. ومعنى هذا أيضا انها تعاصرت تقريبا مع معركة الدبابات الكبرى، بدأت معها او عقبها بقليل، ثم سارت موازية لها حتى تجاوزتها في النهاية. والواقع أنها ما قامت الا كنتيجة تعويضية مباشرة لتلك المعركة ولا تسللت بنجاح نسبى الا فى ظلها وانتهازا لها، كما أنها لم تلبث أن تداخلت معها وتشابكت حتى اندغمتا كلتاهما فى ملحمة عظمي واحدة على جانبي القناة. فالعلاقة بينهما إذن وثيقة عضويا ووظيفيا وسببيا وتوازنيا.

تفصيل ذلك أن اسرائيل تحت ضغط المعركة وتدهور موقفها فيها حاولت أن تفتح جبهة جديدة لا تخفف ذلك الضغط فقط وانما كذلك تنقله الى مؤخرة القوات المصرية، وربما كذلك بأمل أن تقلب معادلة القوة فى الميدان وموازين المعركة برمتها في النهاية. ففضلا عن أن هذا ينقلها من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم، وقد يمنح قواتها فرصة الوصول الى شبكة صواريخنا المضادة للطائرات وتدميرها

برا بعد أن فشل طيرانها فى ذلك جوا، فإنه قد يرغم مصر على أن تسحب جزءا من قواتها فى بسيناء الى غرب القناة، والا فإنها تستطيع على الأقل أن تخلق لها متاعب خطيرة وحقيقية فى مؤخرتها وتشيع بذلك جوا مقلقا من التشويش والاضطراب فى جبهتها. أو كما عبر - واهما! - شارون نفسه، حتى تكون الثغرة بمثابة «مسدس مصوب نحو القاهرة، وحبل حول رقبة الجيش الثالث».

وفى كل الأحوال فإن ذلك يكفل لاسرائيل نصرا دعائيا ونفسيا وسياسيا داويا، مهما يكن كاذبا او وهميا، يرفع روحها المعنوية المنهارة فى الداخل، ويغطى على سمعتها العالمية التى تحطمت، ومن الناحية الأخرى يطغى على الانتصار المصرى الحقيقى ويشوهه فى نظر العالم، الى جانب تأثيره العكسى وانعكاساته الضارة على معنويات مصر والعرب.

هكذا كبديل عن عجزها فى المواجهة التصادمية المباشرة، لجأت اسرائيل الى سلاحها الأثير وهو استراتيجية الاقتراب غير المباشر in-direct approach التى تقوم على الاختراق ثم التطويق فالتصفية، والتى مارستها بنجاح فى حرب السويس وحرب يونيو من قبل والتي تكفل مجالا واسعا لعنصر المفاجأة وتكتيك المناورة الواسعة المدى التى تلائم بذورها سلاح الدبابات والمدرعات. من هنا

بدأ العدو، فى غمرة انشغالنا بمعركة الدبابات الكبرى، يبحث عن ثغرة او نقطة ضعيفة يتسلل منها. وقد اتضح فيما بعد أن العدو كان قد خطط لهذا الاحتمال واستعد له بل ومهد فتحات فى الساتر الترابى حددها بعلامات معينة من الحجارة تحسبا للعبور.

ومن المؤكد والمسلم به الآن أن هذا البحث تم بتواطؤ ومساعدة طائرات التجسس الأمريكية التى قامت فى تلك الفترة بعدة طلعات متلاصقة على الأجواء المصرية العليا حيث رصدت ثغرة مخلخلة الكثافة الدفاعية نسبيا فى منطقة الانتقال او جبهة الانفصال بين الجيشين المصريين الثانى والثالث شرق القناة فى قطاعى الجبهة الشمالى والجنوبى على الترتيب. ومن المقرر والمسلم به عسكريا أن وجود ثغرات فى جبهة الحرب الصحراوية التى يتم التقدم فيها كقاعدة على محاور رئيسية، ليس خطأ من حيث المبدأ، ولكن الخطأ أن تترك للعدو فرصة استغلاله، خاصة فى مناطق الانتقال بين الجيوش المتجاورة.

ومن المعروف والمسلم به أيضا ان اسرائيل منذ فوجئت بالعبور المصرى وتدمير خط بارليف وهى تهاجم فى القطاع الأوسط بضراوة بالطيران والمدرعات من أجل العبور المضاد. وفى هذا السبيل حاولت فيها يبدو أن تتسلل مرة عند كبريت على العنق المختنق بين البحيرات

المرة الكبرى والصغرى ولكنها لاقت مقاومة عنيفة لعلها كانت بداية ذلك الحصار الطويل الذى صمد له الموقع صموده التاريخي والباسل. كذلك حاولت أن تتسلل عبر منطقة الفردان، أى فى ذلك القطاع من القناة الواقع بين بحيرة التمساح جنوبا ومضيق القنطرة شمالا. والمرجح ان هدفها من ثغرة في الفردان كان أن تنفذ منها الى احتلال الاسماعيلية والقنطرة غرب ثم حصار بورسيعد بعد ذلك. غير أنها فشلت وردت على أعقابها، ومن ثم عاودت التسلل من نقطة أخرى إلى الجنوب أكثر هى منطقة الدفرسوار، التى تقع على الزاوية الشمالية الغربية للبحيرات المرة الكبرى. فما هو الفارق بين النقطتين، وما مغزى تحول العدو عن الأولى الى الثانية؟

من الثابت المقرر فى جغرافية مصر العسكرية كما رأينا أن الهدف الاستراتيجي الأول لمن يهاجم القناة من الشرق هو الاسماعيلية. أما طرفا القناة فأقل أهمية كمداخل. السويس لأنها تؤدى الى وراء صحراوى غير معمور، وليس خلفها الا الطريق البرى الى القاهرة رأسا. وبذلك لا تصلح الا طريقا لمقامرة كاملة، وفى ظروف المعركة الحالية مقامرة مجنونة، لهجوم خاطف على العاصمة نفسها. وهذا لا يعنى مع وجود قواتنا الاساسية فى شرق الدلتا سوى قطع الطريق عليها وحصارها وابادتها تماما.

أما بورسعيد فأكثر بعدا وتطوحا وأقل أهمية. وقد حاول العدو في المعركة أن يركز عليها من الجو على أية حال. فانقلب عليها بالغارات المكثفة التى لم تكد تنقطع طوال ساعات النهار والضوء. وذلك بصورة هيستيرية ووحشية وبلا تمييز بين الأهداف العسكرية والمدنية، ربما ليحطم الروح المعنوية، وربما تمهيدا لمحاولة انزال أو ابرار. ولكن محاولاته جميعا فشلت على صخرة المقاومة الهائلة والصمود الرائع ورغم الدمار الكبير الذى أصاب المدينة الباسلة وبلغ نسبة ٣٠ - ٤٠ ٪ من مبانيها.

الاسماعيلية اذن هى المدخل الطبيعي للهجوم على القناة من الشرق. وثانى أفضل بديل لها هو منطقة الفردان لأنها تتوسط قطاع جزيرة البلاح، تقريبا ما بين الاسماعيلية نفسها جنوبا والقنطرة شمالا. وحين عجزت القوات الاسرائيلية المتسللة عن المروق عبر منطقة الفردان، وجدت الثغرة البديلة في الدفرسوار جنوبا على رأس البحيرات المرة الكبرى. وهنا نلاحظ ان العدو قد عبر القناة الى الغرب من أوسع قطاعاتها، على عكس ما فعلنا نحن حين عبرناها الى الشرق فى أضيق قطاعاتها.

ورغم أنها بديل ضعيف، لا يتحكم فى مصادر المياه الحيوية لتموين المنطقة والقوات، وتميل كثيرا الى الموقع الجنوبى بعيدا عن وسط

الجبهة ، فللدفرسوار بضع مزايا مع ذلك، فهي مفترق طرق برية شمالا الى بورسعيد وجنوبا الى السويس وغربا الى الوادي. ثم ان موقعها على رأس البحيرة يعطي عدة ميزات للمهاجم. فالبحيرة عكس القناة تمثل منطقة ضعف في الاستحكامات الدفاعية، ان لم تكن أضعف نقطة فيها، لأن الدفاعات خلف البحيرات عموما وكقاعدة تكون عادة اضعف منها خلف الأنهار او القنوات اعتمادا على اتساعها واستبعاد احتمالات اختيارها للعبور. ولقد كان على هذا الأساس بالفعل ان ارتكز خط تقسيم الجبهة بين جيشينا الثاني والثالث شرق القناة على منطقة البحيرات المرة بالذات. كذلك كانت التحصينات الدفاعية على جوانبها المقابلة غربا أقل كثافة وقوة منها على بقية جبهة القناة. وهذا وذاك باعتبارها خط دفاع طبيعي لا يصلح لعبور قوات كبيرة ولا يرجح الاقدام على الهجوم عبره.

هكذا اختار العدو عن عمد أن يعبر عند البحيرات المرة كنقطة لا يتوقع العبور عندها في الظروف العادية. ورغم مخاطرها وصعوباتها، فإن هذا كان كفيلا بأن يحقق عنصر المفاجأة، كما يعطي فرصة للقوات المتسللة من الشرق أن تعبر مسطحها الواسع بعيدا بقدر الامكان عن أنظار ونيران قواتنا المرتكزة على الضفة

الغربية وكذلك طائراتنا من أعلى. وأخيرا فإن المنطقة لكثرة ما بها من حدائق وبساتين كثة بأشجار الفواكه وحقول القصب، ثم مخازن ومباني حظائر مطارات مهجورة او قديمة، فضلا عن الحشائش البرية العالية شبه السافانية، يمكن أن تقدم أرضا صالحة للاختفاء والتمويه، لاسيما بالنسبة للدبابات، أضف كذلك انتشار القرى والعزب وأشجار مصدات الرياح.. الخ (كان هناك اقتراح مصرى قبل الحرب بإزالة هذا الغطاء النباتي الخطر وتهجير فلاحيه، ولكنه لم يتحقق).

ولقد كادت العملية، عملية التسلل، تفشل فى البداية، والمعتقد أن العدو أوشك أن يتراجع عنها. ولكن التسلل نجح ليلا بطائرات الهليكوبتر وعلى نوع من الأطواف العائمة، وليس بالدبابات البرمائية وحدها كما ساد الاعتقاد أولا. فقد استخدم العدو فى بداية العبور عددا صغيرا من الدبابات تلتصق بها من أسفل قطع متكاملة من كوبرى عائم بحيث تنفصل عنها عندما تصل إلى الشاطىء فتعبر عليها الدبابة اليه فى حين تتلاحم تلك القطع فى كوبرى تام، يصبح بعد ذلك معبرا جاهزا للدبابات العادية.

وتذكر «الشرارة» انه قد تبين فيما بعد أن العدو استعمل فى البداية عددا من الدبابات المصرية التى كان قد غنمها سليمة فى

حرب يونيو، فعبرت بالخداع دون مقاومة، حيث ظنها السكان المحليون من قواتنا فى حين كانت قواتنا المحلية محدودة اعتمادا على دفاعات البحيرة الطبيعية. وقد نجحت هذه الدبابات فى الاختفاء بين الآشجار والجناين. ولم تكتشف الخدعة كلها الا بعد أن كان عدد كبير نوعا منها يقدر ببضع عشرات قد تسلل بالفعل. وحين بدأت المقاومة الجدية، كانت أعداد أكبر قد تدفقت من قبل عبر ٣ جسور أقامها العدو بعد ذلك ليلا. وكان العدو بهذا قد نجح من آسف فى اقامة رأس جسر محدود. وفيما بعد قام العدو بإنشاء كوبرى ثابت له عبر القناة عند الدفرسوار من كتل الحجارة الضخمة أسقطها فى القناة حتى صار بعرض ٢٠ مترا عند السطح، ١٠٠ متر عند القاع (أصبح من المقرر الآن إزالة هذا الكوبرى الذى سد القناة).

وقد كان أول عمل وهدف للقوات المتسللة هو شبكة قواعد الصواريخ ارض - جو المضادة للطائرات، تلك التى عجز ازاءها طيرانهم كلية وأصابت قواته الجوية بأفدح الخسائر. فقام على الفور بضربها وتدمير كل ما يمكنه منها على الأرض، وان وجد معظمها قواعد هيكلية خداعية.

وبهذا ضمن العدو لنفسه ثغرة فى أجوائنا فتحت الطريق أمام طيرانه وأعطته حرية العمل التى حرم منها طوال الحرب. لاسيما ان

قيادتنا قررت عندئذ سحب باقي صواريخنا فى القطاع الجنوبى من الضفة الغربية صونا لها من التدمير وحفاظا على سلامة نظام دفاعنا الجوى. وكان هذا كله مما ساعد بعد ذلك على تدعيم عملية الاختراق وتامين نعزيزها بالامدادات المتزايدة. كذلك كانت بطاريات مدفعيتنا وطرق مواصلاتنا وامداداتنا من آهداف العدو. كذلك سارع العدو الى الاستفادة من المطارات الأمامية الثلاثة الموجودة بالمنطقة، بما فيها مطار الدفرسوار المهجور.

ورغم المقاومة المستميتة لقواتنا والهجمات المضادة التى قامت بها بالمدفعية والطائرات لتقليص حجم رأس الجسر وتدمير معابره واحتواء الجيب كله لضربه فى النهاية، الا أن الواضح انها جاءت متأخرة بعد أن ندعم رأس الجسر وتحول إلى جيب متوسع باطراد وبعد آن نجح العدو فى تحقيق اغراضه فى شق ثغرة في صفوفنا وفتح جبهة خلفية وراءها. والمقدر آن العملية التى بدأت بتسلل نحو ٤٠ دبابة ليلة ١٥/١٦ اكتوبر، كانت قد تدفقت وراءها نحو ١٩٠ من دبابات الكوماندوز في خلال اليوم آو اليومين التاليين، وفى ٢٠ أكتوبر، حسب التقديرات الأمريكية، كان حجم القوة الاسرائيلية العاملة غرب القناة نحو ٢٠٠ - ٣٠٠ دبابة مع ١٢ ألف جندى. وحوالى وقف اطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر كانت القوة قد

وصلت الى نحو ٥٠٠ دبابة. لقد تحول التسلل إلى ثغرة، والثغرة الى اختراق.

وعند هذه النقطة ينبغي علينا أن نعود الى العلاقة بين عملية الاختراق هذه غرب القناة ومعركة الدبابات الكبرى شرقها. لقد كانت بداية الاختراقة كامنة في الثغرة الفاصلة بين الجيشين الثاني والثالث شرق القناة، وبها ارتبطت تغذيتها وتوسيعها، وعليها كان يتوقف استمرارها ثم مصيرها. ومنذ بدأ العدو عملية الاختراق أخذ يمهد لها بتأمين تلك الثغرة. فنشر قواته من مدرعات وصواريخ مضادة للدبابات على جانبي ممر تلك الثغرة شمالا وجنوبا لضمان استمرار فتحها ومنعا لقوات الجيشين الثانى والثالث قرب المحور الأوسط من الإطباق عليها وغلقها من الشمال والجنوب على الترتيب.

ولهذا أخذ العدو يركز ضغوطه على جناحى الجيشين وآجنابهما، متخذا موقفا دفاعيا فى الشمال فى محاولة لتثبيت الجيش الثاني، وموقفا هجوميا فى الجنوب فى محاولة لزحزحة الجيش الثالث جنوبا. ومن الجانب المصرى احتدمت معركة الدبابات فى شرق القناة الى الذروة فى محاولة لاغلاق تلك الثغرة وقطعها حتى تتوقف تغذيتها بالقوات والتعزيزات وبذلك يتم تطويقها غرب

القناة وتدميرها في النهاية. وفى التقديرات الأمريكية أن هذه المعركة انتظمت نحو ٨٠٠ دبابة على الجانب المصرى ونحو ٦٠٠ دبابة من جانب العدو. وفي تقديرات أخرى آن قوة العدو العاملة فى سيناء حينذاك كانت نحو ١٠٠٠ دبابة.

وقد اشتدت بالفعل ضراوة معركة الدبابات شرق القناة وخاصة حول ممر الثغرة وعلى طول المحور الأوسط، وآنزلت القوات المصرية بالقوات الاسرائيلية خسائر فادحة، لكن دون أن تحسم المعركة مع ذلك. ونجح العدو فى دق إسفين عميق نسبيا، ٧ - ٨ كم، بين قوات الجيشين المصريين. والسبب الأساسى فى هذا يرجع إلى الأسلحة الأمريكية الحديثة التي تدفقت على العدو بشدة. ولهذا ظلت التعزيزات المعادية تتدفق عبر عنق الثغرة الى غرب القناة، كما ظل الجو مفتوحا بحرية امام طيران العدو، مما حد من فاعلية الهجوم المصرى المضاد غرب القناة ومكن العدو من توسيع جيبه باطراد. غير أن خسائر العدو فى عنق الثغرة وجيبها بلغ حدا مروعا، وتحولت المنطقة بما فيها مياه القناة إلى مقبرة حقيقية لدباباته وآفراده. أو كما أذاعت رويتر بعد انتهاء القتال «مازال حطام الدبابات الاسرائيلية طراز سنتوريون، وعليها آثار الحريق والرماد، مبعثرة على امتداد المسطح الصحراوى، ذكرى للمعارك التى تمثل أروع الانتصارات المصرية».

ومن الوجهة الاستراتيجية، فإن من المحقق رغم النجاحات التكتيكية والميدانية التى حققها الاختراق، ان حجم العملية لم يكن بالذى يمكن آن يغير مجرى الحرب أو يقرر مصيرها. ومن الثابت عجز اسرائيل عن توفير قوات أكبر للعملية. ولم يكن أمامها الا أن تسحب من قواتها في سيناء المشتركة فى معركة الدبابات الكبرى، ولكنها لم تستطع الاقدام على هذه الخطوة خشية أن تعجز عن حماية ممر ثغرتها فتقع فى حصار كامل. واذا كان ثمة تأثير استراتيجى مهم للعملية فهو أنها قد منعت القوات المصرية من أن تطور هجومها الكبير فى اتجاه الممرات وفرضت حدودا معينة على الزحف شرقا فى سيناء. وهذا دور وان كان خطيرا فهو سلبى آساسا.

من هنا نظر العسكريون فى العالم الى العملية نظرة متحفظة محدودة. فالعسكريون الامريكيون مثلا كانوا لا يرون ان اختراقة غرب القناة قادرة على آن تؤثر تأثيرا جوهريا فى سير المعارك. وفي رأى بعض المراقبين المحايدين ان هذه الثغرة فى ظروفها وبأوضاعها لو كانت أمام آى جيش آخر لغيرت مجرى الحرب، لكن الاسرائيليين عجزوا عن آن يخلقوا منها أكثر من جيب محاصر بسبب تماسك

القيادة والقوات المصرية التي اعتبرت العملية فى النهاية مغامرة دعائية سياسية نفسية ولكنها عسكريا محكوم عليها بالاحتواء والفناء، واذا كان وقوع هذه الاختراقة مما يحسب على القيادة المصرية، فمما يحسب لها بلا شك كذلك هدوء أعصابها ورباطة جأشها وموقفها الصامد ازاءها. ففى وجه دعوات الانسحاب من الضفة الشرقية (تذكر عقدة الانسحاب المذعورة!) او تقليص حجم المعركة فيها للالتفات الى الثغرة، قررت الصمود والمواجهة في الضفتين، وبنجاح طيب ولا بأس به في النهاية.

فإذا عدنا الآن الى رأس الجسر النامي على الضفة الغربية حول الدفرسوار، فقد كان أمامه فرص الانتشار المروحي، أى استراتيجية المروحة، إما شمالا الى الاسماعيلية، وإما جنوبا الى السويس، وإما الى الاثنتين معا. وقد كان شارون يريد الخطة الأخيرة، ولكن قيادة العدو رفضت، كما لم تكن الامدادات او الاحتياطيات كافية للاتجاهين. ولهذا اتجه التقدم أولا نحو الشمال على طريق الاسماعيلية، ولكن الجيش الثانى استرد الساتر الترابى على ضفة القناة الغربية المواجه لمنطقة الثغرة شمال الدفرسوار، ودمر قوات العدو وضربه عند نفيشة، فظل جيب العدو محدودا للغاية. وهنا عاد العدو فاتجه جنوبا ونجح فى احتلال سرابيوم شمال البحيرات المرة

الكبرى، ومنها بدأ الزحف تجاه السويس، ولكن هذا انما تم أساسا استغلالا لقرار وقف اطلاق النار.

ولما كان هذا التقدم الأخير قد تم فى نطاق الجيش الثالث وقرب مؤخرته، فإن هذا يفسر تواتر الحديث، ان خطأ أو صوابا، عن متاعب هذا الجيش بالتحديد. وقد كان هدف هذا الزحف أن يحاصر بسرعة مواقع الجيش الثالث من الخلف، وبذلك يعزله بقطاعيه على الضفتين الغربية والشرقية عن قاعدة الامداد والتموين فى الدلتا والعاصمة، كما يقطع مواصلاتهما ومعابرهما عبر القناة. وبذلك كله كان العدو يأمل أن يتحول الاختراق الى منتهاه الطبيعى وهو التطويق، والواقع ان العدو بعد أن حقق بعض النجاح الأولي، قرر أن ينتهز الفرصة ليحرز نصرا عسكريا اساسيا بأى ثمن ليعوض به هزائمه السابقة.

غير أن الشىء الغريب هنا أن العدو، الذى قام بعمليات ارهاب وخطف أى حملة تخريب ونهب اجرامية واسعة النطاق فى المناطق المأهولة من القطاع، اتخذ فى توسعه شكلا انتشاريا مثيرا للغاية. فانتهازا لفرصة احتمالات وقف اطلاق النار التى كانت تلوح فى الأفق، ثم أكثر منها اعلان الوقف فعلا، لجأ العدو المخادع الى الانتشار على أوسع مدى ممكن فيزيقيا بأقل كثافة ممكنة عسكريا.

وقد ساعده على هذا طبيعة الأرض والطبوغرافيا في هذا القطاع الجنوبي المرتفع من الضفة الغربية الذى تكثر فيه، على العكس من القطاع الشمالي السهلي المكشوف، التلال والتبات والأودية والخيران التى تصلح كثيرا للتسرب والتسلل والانتشار في خفاء. كما استغل العدو أن يد القوات المصرية المدرعة لم تكن، على النقيض منه، مطلقة الحرية في ضرب نيرانها حفاظا على أبناء المنطقة من السكان الوطنيين.

هكذا كان كل هم العدو أن يتوزع على أكبر مساحة متاحة تمهيدا وترتيبا لأى ادعاءات اقليمية قد يساوم عليها فيما بعد. ولهذا أخذ يرسل بوحدات مفتتة وقزمية، مفارز كالشظايا او الشراذم من دباباته ومدرعاته في كل اتجاه لتتداخل الى اقصى حد بين صفوف قواتنا ومواقعنا فيما وصف بحق باستراتيجية حرب عصابات دبابات (الأستاذ محمد حسنين هيكل). وهذا وحده ما سوف يفسر صعوبة الفصل بين قوات المتحاربين فيما بعد، ثم من قبل اتساع نطاق وجود العدو نسبيا.

فهو يوجد - أو كان - في شريحة أو شريط ضيق طوله نحو ٥٠ كم، أو بالأحرى كلسان مسحوب على ضفة القناة الغربية حتى مدينة السويس جنوبا بضواحيها وموانيها الأدبية والزيتية ومشارف جبل

عتاقة، ثم في بضعة ألسنة دقيقة نحو الداخل تتجه نحو ابوصوير غربا وتقطع عبر طريق السويس - القاهرة الصحراوى في بعض النقاط (الكيلو ١٠١) جنوبا بغرب.

ولقد كان من هذا الامتداد الأخير بالذات ما ردده العدو ودعايته المغالطة عن اقترابه يوما فيوما من القاهرة، كل يوم على الكليو كذا(!)، ثم محاولاته قطع طرق المواصلات والتموين بين السويس والقاهرة، وأخيرا ادعاءاته السيطرة على ما سماه «محور القاهرة - السويس» و«حصار» الجيش الثالث. وبالمثل كان من امتداده الأول محاولته الفاشلة ٤ مرات لحصار أو اقتحام السويس المدينة نفسها. ولكن المدينة الباسلة هبت إلى جانب قواتها المسلحة في حرب شعبية وطلائع حرب مدن حقيقية حتى أرغمت العدو الغادر على التراجع بعد أن كبدته خسائر جسيمة وفادحة.

ولقد كان صمود السويس نقطة تحول حاسمة في مصير مغامرة الثغرة كلها. فقد ركز العدو عليها كل أحلامه، وكذلك كل أحقاده. فقد صب عليها أكثف نيرانه جوا وبرا حتى أصيبت بدمار رهيب، بحيث ارتفعت نسبة الخسائر في المنازل من ٦٥٪ قبل اكتوبر الى ٨٥٪ بعده (قارن وارسو، المثل الكلاسيكي للمدن المدمرة، بالنسبة نفسها). ثم عمد العدو الى تطويق المدينة وحصارها من الشمال والغرب

والجنوب، حيث وصل فى الاتجاه الآخير الى جبل عتاقة وكان هدفه فيما بيدو السخنة والزعفرانة ايضا. وبهذا أصبحت المدينة محاصرة تماما، إلا من اتصالها عبر القناة بجناح الجيش الثالث شرقا. والواقع انها كانت الموقع الوحيد فى الجبهة الذى كان محاصرا بالفعل، على عكس بقية مزاعم العدو، وفيما عداه فلقد كان العدو كله محاصرة مواقعه ووجوده.

ثم لجأ العدو الغادر الى قطع المياه عن المدينة، حيث قام بردم ترعة السويس العذبة في قطاع منها يبلغ طوله عدة كيلومترات، حولها الى طريق للتقدم، فضلا عن عدة جسور أقامها عليها للعبور، وبالمثل ردم قطاعا من ترعة الاسماعيلية، وبهذا انقطع امداد المدينة بالمياه، فضلا عن انقطاع امدادات التموين والغذاء. ومن هذا الحصار والضرب كان العدو يأمل آن تسقط المدينة او تسلم فى النهاية جوعا وعطشا. ولكن السويس الباسلة ضربت مثلا رائعا فى المقاومة، فمنعت العدو من دخولها تماما، وحولت دباباته على مشارفها الى ركام وحطام، وأجهضت كل خططه للتقدم، فكانت خير ظهير للجيش الثالث شرقا وغربا وأروع مثل للدفاع الشعبى. ولو لم تصمد السويس فلربما تغير مصير معركة غرب القناة، ولكنها بصمودها وضعت حدا لها وختمت على مصير مغامرة

العدو الغادر، الذى غادرها كما جاءها لصا نذلا ومخربا من الوندال، قام بفك وسرقة مصانعها ومصافيها ثم بتدمير وحرق ما تبقى منها.

تلك قصة المغامرة، وتلك نهايتها، وكما هو، فإن هذا كله لم يكن الا وجودا انتهازيا، مخلخلا فطيرا «وهشا» كما قيل، مسطح بلا عمق، ومساحة أكثر منه كثافة. واكثر من هذا فإنه كان وجودا غير شرعى، انتهاكيا تم معظمه عن عمد وتخطيط بعد وقف اطلاق النار، فمن نحو ٧٠٠ كيلو متر مربع، او نحو ٤٧٥ ميلا مربعا ادعى العدو كاذبا سيطرته عليها، اى مساحة بطول ٢٤ ميلا فى ٢٠ ميلا عرضا، لم يزد مدى وجوده قبل وقف اطلاق النار على ٧٠ كيلو مترا مربعا كما أعلنت السلطات المصرية. وفى تقدير آخر ان المساحة التى احتلها العدو قبل قرار وقف اطلاق النار، لا تزيد على ثلث المساحة التى احتلها فى النهاية.

وعلى أية حال فلم يكن للعدو وجود اطلاقا غرب القناة بالقطاع الشمالى ابتداء من طريق الاسماعيلية شمالا، ولا فى أى من مدن القناة الرئيسية، السويس، الاسماعيلية، وبورسعيد. والأهم من هذا وذاك جميعا ان وجود العدو على الضفة الغربية هو برمته وجود محصور مطوق داخل جسم الجيش الثالث بامتداده فى عمق الدلتا

غربا وجناحه على أرض سيناء شرقا. فقواتنا غرب القناة تحتل النطاق الدفاعي الثاني، تؤمن المنطقة جنوب الاسماعيلية، وتحاصر قوات العدو غرب القناة وشمال البحيرات المرة. أما قوات العدو المتسللة فقد أصبحت محصورة، كما يحدد كتاب جرب رمضان، بين ترعة الاسماعيلية شمالا. والنطاق الدفاعى الثانى غربا، ومنطقة جبال شبراويت والشهابى وجبل جنيفة وجبل القط جنوبا.

فعلى العكس إذن من مزاعم العدو، لم يكن الجيش الثالث هو المحاصر، المحاصر فقط كان جيبين داخل وجود العدو. مدينة السويس على الضفة الغربية ، وقوة كبريت على الضفة الشرقية، وكلتاهما صمدتا لحصار العدو، دوخته وأعطته درسا مذهلا في ضراوة المقاومة. وفيما عدا هذا فقد كان العدو هو المعزول والمطوق.

فنظرة واحدة الى خريطة توزيع قوات الجانبين على ضفتى القناة، كتلك التى نشرتها وكالات الأنباء مع اتفاق الفصل بين القوات، توضح على الفور أن الوجود العسكرى للعدو غرب القناة هو، أولا، جيب منفصل exclavc عن جسمه الأساسى فى سيناء الا من حبل سرى ضعيف لا يربطه به الا بمقدار ما يسهل قطعه عنه. ثم هو، ثانيا ، جيب محصور enclave داخل قبضة القوات المصرية التى تطوقه بعمق تام تطويقا دائريا من كل الجهات فيما عدا ثغرة

محدودة في الشرق. وفيما بين هاتين الحقيقتين فإن الوجود الاسرائيلي غرب القناة لم يكن يعدو ، علي أحسن تقدير ، إسفينا محاصرا مطوقا تماما ومختنق العنق، يمكن خنقه بالإطباق عليه من الشمال والجنوب بواسطة الجيشين الثاني والثالث.

ومن الناحية الاستراتيجية يتضح على الفور أن هذا ليس الا مأزقا عسكريا، وضع غير سليم وغير متوازن استراتيجيا، يضع قوات العدو جميعا «رهينة» في يد القوات المصرية المحدقة كما عبر الجنرال بوفر، بل وكما اعترف بارليف العدو نفسه فيما بعد. او كما وضعها أحد القادة المصريين، لقد وضع العدو «رأسه في فم الأسـد»، وأصبح معرضا لخطر استراتيجية «الأسنان فى اللحم» اذا تجدد القتال كما وضعها مصدر آخر. ولكن خير ما يصور حقيقة موقف الجيب العدو هو، لاشك، ما صرح به الرئيس السادات نفسه لمجلة نيوزويك فى حديث له في مارس ١٩٧٤ الى مندوبها دى بورجريف. «كان باستطاعتنا»، قال سيادته، «استئصال هذا الجيب فى وقت قصير. فقد كانت صواريخنا مصوبة فى وضع الاطلاق على كل واحدة من دباباتهم الأربعمائة التى كانت تتخفى بالليل فى حفر بمواقع ثابتة.. وكان من الممكن فى لحظات قلائل أن يفقدوا نحواً من نصف قواتهم المدرعة فى الضفة الغربية حتى مع حساب الخطأ.

وكان لدينا أيضا ٨٠٠ من دباباتنا حول جيبهم هذا، مستعدة لسحق ما يتبقى من القوات الاسرائيلية». والواقع أنه كان قد بات معروفا لبعض الوقت ان قواتنا المصرية كانت تعد وتحتشد لهجوم ساحق وحاسم يصفي وجود العدو غرب القناة ويقلصه شرقها حتى أتى قرار وقف اطلاق النار فانتذ العدو منه. غير أن الرئيس عاد أخيرا فكشف عن قرار بتصفية الجيب عسكريا بعد شهرين من وقف النار، رضوخ العدو للانسحاب في الفصل بين القوات هو وحده الذى أنقذه منه هذه المرة.

وبالفعل، فمنذ توقف القتال شكليا أخذت القوات المصرية تشدد الضغط على جيب العدو وتحصره فيه بالنيران التى لا تنقطع بل تتصاعد كل يوم وبكل الأسلحة الخفيفة والثقيلة. ومن الواضح أن العدو كان يتعرض على الضفة الغربية لحرب استنزاف آشد وأقوى على الأرجح من تلك التى نعرض لها على الضفة الشرقية، لا تدعه فى هدوء قط، ولا تسمح له بتثبيت مواقعه او انشاء دفاعات او تحصينات هندسية.. الخ.. وكما اعلنت هيئة الطوارئ الدولية مرارا، فإن القوات المصرية ظلت توسع مناطق وجودها وتضيق نطاق وجود العدو بانتظام وبإحكام وبعمق قدر أحيانا بالكيلومتر، وتدفع به دفعا نحو شاطئ القناة.

وعدا هذا فلم يكن للعدو الا طريق واحد عبر القناة، هو وخطوط امداداته وتموينه الطويلة الشاقة من خلفه كانوا تحت رحمة نيراننا وقواتنا. كذلك فإذا كان وجود العدو فى هذا النطاق قد مكنه من تدمير شبكة دفاعنا الجوى السابقة به، والتى كان يحاول أن يستفيد من قواعد منصاتها في استحكاماته الدفاعيـــة، فقد أقـــمنا نحن شبكة جديدة الى الغرب أقوى وأكثف وأفتـــك. هذا فضلا عن تكثيف قـــواتنا في شرق الدلتا وتعزيزها بفرق جديدة متطورة السلاح، بحيث أصبحت نسبة القوات المصرية الي الاسرائيلية غرب القناة هى ٢ : ١، وبحيث أصبح العدو حقيقة ويقيـــنا بين فكي كمـــاشة ســاحقة. وسنرى بعد قليل كيف آثر العدو الانسحاب طـــائعا أو كارها لينجو بنفسه من هذا المأزق المميت، وليتحقق بالتــــالى ما قاله الجنـــرال بوفر بصدق من أن «عملية شـــارون» كلها لم تكن عملية عسكرية بقـــدر ما كانت «مظاهرة تليفزيونية».

الفصل الرابع

المعركة السورية الكبرى

لسوريا، فى الاستراتيجية كما فى السياسة، وضع خاص وبارز بين العرب. فكما كانت دائما قمة من قمم العروبة الشامخة طوال العصور الاسلامية ورائدة القومية العربية الأولى بلا منازع فى العصر الحديث، كانت الجبهة السورية فى الصراع العربى - الاسرائيلى قلعة شاهقة، مجازيا كما هى حرفيا، عسكريا كما هى جغرافيا، وقوة ضاربة أساسية بالغة الصلابة والعنف، حفظت التوازن مع العدو على سائر الجبهات وفرضت عليه ضغوطا مضادة مزقته من الوجهة الاستراتيجية وشتته تشتيتا.

واذا كانت الجبهة السورية واحدة فقط من عدة جبهات محاربة فى معركة ١٩٦٧، فإنها فى أكتوبر كانت الجبهة الوحيدة على الجانب الآسيوى، وذلك بعد أن وقفت الجبهة الأردنية المترامية من أسف خارج المعركة. فكانت هى مع مصر قطبى الصراع المسلح الذى اتخذ بذلك محورا أحاديا فى هذه الجولة. وكما هو معروف، فقد كان من

الأوليات الأولــيات في استراتيجية العدو الإسرائيلي، الذي يقع جغرافيا في حالة حصار أرضى كامل داخل الــوطن العربي، ألا يحارب قط في جبهتين او اكثر في وقت واحد. وعلى شبكة كثيفة كفء من طرق المواصلات الجيدة، وعلى أساس من ضآلة مساحته الجغرافية، كان العــدو يعتمد على، ويتعمد أن، ينفــرد بكل دولة عربية على حدة في حرب سريعة خاطفة ينثني بعدها فورا الى دولة أخرى بضربة عاجلة مماثلة، وهكذا. ولقــد كان هــذا بالضبط ما نجح العدو في تحقيقه في ١٩٦٧، وكان عاملا أساسيا من عوامل الهزيمة العربية.

العكس تماما ما حدث في ١٩٧٣، ففي ظل سياسة قومية تحريرية موحدة، وتحت اســتراتيجية عظمى مشتــركة، وبقيادة عسكرية واحدة، كان التنسيق كاملا ومطلقا بين الجبهتين السورية والمصرية، توقيتا وتكتيكا، استراتيجية وتخطيطا، تصعــيدا او تخفيفا.. الخ، بحيث كانت الجبهــتان في واقــع الأمر كفكي كماشة وضعت العدو لأول مرة وبصورة جدية «كالبندقة في الكسارة» - هذا تعبير بن جوريون القديم - ووضعت المعركة كلها «بين قوسين» من الارادة العربية.

وبين هذين القوسين نمزق العدو وانشطرت قواته وتبددت فواه، وراح يلهث من الشمال الى الجنوب حينا وحينا آخر من الجنوب الى الشمال - دون جدوى مع ذلك. ولعلها لم تكن محض صدفة ان العدو اكتشف وعاني لأول مرة نقصا حادا في أسطول سيارات النقل وشعر بعدم كفايته وحاجته الملحة الى شراء بضعة آلاف من الشاحنات بسرعة لسد هذا العجز الذي خلقته لاشك ثنائية الجبهة بالنسبة له.

ولقد كانت وحدة المعركة العربية على الجبهتين عاملا آساسيا بلا ريب في انتصار العرب، وجاءت مصداقا مجددا وعمليا للقانون الخالد في صراع الأمة العربية مع أعدائها، آلا وهو آن مصير العرب معلق دائما ورهن آبدا بوحدة القوة السورية والمصرية. سوريا - مصر كانت باستمرار وحدة جيوستراتيجية واحدة، من وضع قدمه في احداهما قادته تلقائياً الى الأخرى، وهما معا قلب الوطن العربي جغرافيا وطليعته تاريخيا، والذبذبات السياسية في مصير العرب ارتفاعا او اتضاعا، تحريرا او استعمارا، مرتبطة بالعلاقات بينهما إن وحدة آو تفككا وإن تضامنا آو تباعدا. ولقد أثبتت معركة أكتوبر الجانب الموجب في معامل الارتباط الكامن في هذه العلاقة واستبعدت الجانب السالب. لقد أثبتت المعركة آن في وحدة سوريا ومصر دائما نصر العرب العسكري والسياسي.

هكذا كان دور الجبهة السورية التاريخي، وهكذا كان في أكتوبر. ولئن كانت هذه الجبهة أقصر بكثير جدا من الجبهة الاردنية المجاورة في طول حدودها المشتبكة مع العدو، فإنها قد عوضت عن الطول بالكثافة، وعن الاتساع بالعمق، وعن القرب بالصلابة. فكما أثبتت سوريا نفسها في الميدان قوة بالغة الضراوة قتالا وحربا، حشدت أمام العدو قوة عسكرية تعتبر بكل المقاييس بالغة الضخامة عددا وعُددا (أكثر من ربع مليون جندي، او نحو ٢٦٠ ألفا) وتعد بلا شك أعظم مما يمكن أن يتناسب مع حجم سوريا البشرى ومواردها الاقتصادية. ولكن سوريا، التي كانت قد نذرت نفسها وعاشت للمعركة فقط، كانت تخصص للقوات المسلحة نسبة من دخلها القومى ومن ميزانية الدولة تعد من أكبر ما خصصته الدول العربية جميعا، ولم تكن لتقل في ذلك كثيرا عن العدو الذى يكرس كما هو معروف أعلى نسبة من الدخل القومي في العالم كله للتسليح والجيش.

وعلى سبيل المثال، فقد قذفت سوريا فى المعركة بأعداد من الدبابات جاوزت في بعض مراحلها الألف بكثير، قيل في وقت ما ١٤٠٠، وأكثر منها من المدافع الثقيلة، عدا مئات الطائرات المتفوقة، فضلا عن قوة بشرية هائلة كثيفة. ويكفى للدلالة على ضخامة وكثافة

هذه القوة السورية انها ناهزت في خطوط معينة مثل ما قذفت به مصر تقريبا على جبهة سيناء في الجنوب. كما أن ضراوة وحدة المعركة على الجبهة الشمالية لم تكن تقل أبدا عنها في الجبهة الجنوبية. وفي وقت ما وصل عدد الدبابات المتصارعة من الجانبين الى نحو ٢٣٠٠ دبابة.

إلى جانب هذه القوة الأساسية، تدفقت على الجبهة السورية أيضا قوات مساعدة وتكميلية من الدول العربية الشقيقة. القوات العراقية خاصة ثم قوات سعودية وأردنية وأخرى مغربية. وقد ساهمت هذه القوات في تدعيم طاقة سوريا القتالية مساهمة طيبة.

كذلك لابد أن نضيف هنا القوات الفلسطينية الفدائية التي لعبت دورا مهما على الجبهة السورية، مع وأمام وخلف القوات النظامية، في قلب صفوف العدو وفي قلب أرضه المحتلة، وأصابته بضربات مؤثرة وكبدته خسائر جسيمة في الأرواح والسلاح والمنشآت. وقد عبرت إحدى وكالات الانباء الغربية عن دور الفدائيين الفلسطينيين هذا بقولها «في الوقت الذي تدور فيه معارك كبيرة بين الاسرائيليين والعرب في سيناء والجولان، تدور هنا - في شمال اسرائيل - حرب أقل اثارة ولكنها مدمرة تماما».

وليس من شك فى أن الـدور الفلسطينى الباسل كان، على روعته وحجمه، يمكن أن يكـون أعظـم وأكبر، شـيئا كجبهة ثالثة بكل معنى الكلمة، لولا ما كان قد أصيب به من ضـربات غير شريفة ولا مشرفة فى مجازر سبتمبر (أيلول) وما بعـدها، ولـولا أنه لم يتح له أن يمارس نشـاطه من جبهـته الطبيعية والفعالة وهى الجبهة الأردنية.

وعلى الجملة فلقد قـدمت الجبهة السورية مسـرحا قتاليًا لا يقل ثقلا وقـوة وعنفا وكذلك اقتدارا عما قدمت الجبهة المصرية. وقد أدارت سـوريا معركتها هناك بكفـاءة لا تـدانيها الا بسالتها وصمودها واصرارها على النصر وتدمير أكبر قدر من قوة العدو البشرية والسلاحية.. وفى ذلك كله نجحت إلى أبعد الحدود بحيث أصبحت الجولان مقبرة أخـرى للعـدو الاسرائيلى، مقبرة – على سبيل التغيير والتوسـعة على العدو! – ندية خضراء مشجرة معلقة، حيث كانت سـيناء مقبرة رملية فقط ، غبراء جرداء مسطحة.. لقد أعادت ملحمة المعركة السـورية أمجـاد الأمـوية فى أعظم صورها، وضـعت المقاتل العربى فى موقعـه الصحيح على القمة مسجلا بطولات اسطورية، وصححت كل أخطاء يونيو مثلما صححت مسار المستقبل.

المسرح الطبيعى

وهناك بطبيعة الحال اختلافات اساسية بين الجبهتين السورية والمصرية من حيث هما مسارح قتال. فالفارق جذرى فى الموقع الجغرافى من ناحية وفى بيئة المسرح الطبيعى من ناحية أخرى.

الموقع

فأما الموقع، فإن سوريا إذ تقع الى الشمال من أرض العدو دون فاصل يذكر من اللامعمور، كفاصل صحراء سيناء، لا تعرف فراغا بشريا او عمرانيا على جبهتها ولا منطقة عازلة تبعد خطوطها الأمامية عن خطوط العدو. الجبهة هناك متصلة وواحدة ومستمرة، وكلها باستثناءات محلية نسبيا من المعمور، وحتى مرتفعات الجولان وحوران وما حولهما هى من المعمور الخفيف على أقل تقدير. وغير بعيد الى الخلف من الجولان، بل وشيكا جدا، يبدأ المعمور السورى بكتلته الرئيسية وبكامل كثافته السكانية وازدحامه البشرى – دمشق نفسها لا تبعد الا ٧٠ كم عن أقرب نقطة في حدود فلسطين المحتلة (لسان اسرائيل الحالي المتطاول فى أعالى ومنابع الأردن).

وعلى جانب العدو، ربما بدرجة أكبر، تتكدس الكثافة السكانية على الحدود وخلفها مباشرة تكدسا غير عادى. انها مرتفعات

الجليل، أغزر جهات شمال فلسطين مطرا ومن أكثفها انتاجا وزراعة، ومن أشد قطاعات اسرائيل ازدحاما بمدن الحدود والمستعمرات من كيبوتز وموشاف، حشدت هنا أو حشرت اما بحكم الطبيعة الجغرافية وغناها واما لأغراض التوسع والتهديد الاستعماري المخطط.

معنى هذا على الفور ان جبهة الصدام وميدان القتال ليس فراغا بشريا خلوا من المدنيين على أى من الجانبين، ولا هم بمنأى او بمنجى من الخطر او الضرب. ويكفى ان نتذكر هنا ان عشرات وعشرات من الالاف من السكان المدنيين قد تعرضوا للطرد من الجولان مرتين على أيدى العدو، الضارى حقده، فى كل حرب نشبت، أثناء وبعد حرب يونيو ثم فى أكتوبر على السواء. وقد بلغ مجموع هؤلاء اللاجئين الآن ١٧٠ ألفا. وهذا الخطر لا ينفصل بطبيعة الحال عن خريطة جغرافية السكان التى تتكدس فيها التجمعات البشرية بدرجة او بأخرى على جانبى الحدود السياسية.

ولا شك ان هذا الخطر يصدق على العدو الاسرائيلى بدرجة أكبر، اذ أنه يعانى بصفة خاصة جدا من نقص حاد فى القوة البشرية. ومن هنا قلقه بل رعبه التقليدى والمزمن من الجبهة السورية

بالذات. حيث ان نيرانها تستطيع أن تصل، حتى من وراء الخطوط العسكرية، الى دائرة واسعة من شمال إسرائيل. ومن هنا أيضا خوفه الدفين من أى تقدم مفاجىء او سريع للقوات السورية، الأمر الذى قد ينقل المعركة الى أعماق العدو المأهولة بكل ما يعنيه ذلك من خسائر مدمرة بشريا واقتصاديا.

. ان الخطر السورى الكامن هو، من وجهة نظر العدو، خطر مزدوج، عسكرى وبشرى، حيث الخطر المصرى فى الجنوب خطر عسكرى فقط بحكم بعد المعمور الاسرائيلى الشديد عن ميدان المعركة، وأطماع اسرائيل الاستعمارية فى الجولان هى استعمار استيطانى واستراتيجى. حيث هى فى سيناء استعمار استراتيجى اساسا فحسب؛ وقد عبر دايان عن هذه الحقيقة بلا مواربة أثناء المعركة، فى تصريحاته السرية التى لم تعلن إلا بعد شهور، حيث قال «رغم ان الجبهة المصرية كانت تسيطر على الأنباء، فإن الاستراتيجيين الاسرائيليين كانوا فى شغل أكثر بمعركة الجولان، على أساس ان نجاح سوريا هناك يهدد قلب الأراضى الاسرائيلية اكثر مما يهدده التقدم المصرى فى صحراء سيناء». كما اعترف بأن إسرائيل قصفت دمشق بالقنابل بعد أن أصابت الصواريخ السورية أرض - أرض المستعمرات الاسرائيلية.

ومن هنا وهناك جميعا فى النهاية نستطيع أن نفهم ذلك الحقد الضارى والروح الانتقامية الوحشية التى كان يضمرها العدو دائما لسوريا ولموقفها الصلب غير المتهاون، ثم توعده وارهابه لها علنا قبل المعركة واثناءها، وسنرى ترجمة أمينة، بقدر ما هى خسيسة، لهذه الروح العدوانية والشراسة الحيوانية فى كل مراحل المعركة تتمثل فى تركيزه عمدا على الأهداف المدنية والسكان المدنيين العزل من السلاح.

المسرح الجغرافى

هذا عن الموقع الجغرافي. أما عن المسرح الطبيعى او البيئة الجغرافية للجبهة السورية فتختلف كثيرا بطبيعة الحال عنها على الجبهة المصرية.

فأولا: ليس هناك ذلك الفاصل المائى المانع، القناة، يضع خطا أو خندقا صارما بين المعسكرين، ان أرض المعركة متصلة بلا انقطاع والمواجهة برية تصادمية مباشرة، وثانيا، فبدلا من البيئة الصحراوية الرملية والجافة فى سيناء، فإن ها هنا بيئة جبلية صخرية وعرة قاسية بقدر ما هى مرتفعة معلقة. وحتى المناخ يختلف: أمطار وبرودة وثلوج فى الشتاء تغطى قمم الجبال وتحد كثيرا جدا من امكانيات القتال فى ذلك الفصل.

واذا أردنا أن نوجز الطبيعة الطبوغرافية للجبهة السورية فى ملامحها الاساسية فيمكن أن نقول ان التربة جرداء موحشة، والأرض صخرية صلبة وحاده شديدة التضرس، اصولها بركانية أحيانا أو غالبا، بها طفوح بازلتبة قاسية مدببة زجاجية حادة الزاويا، منها ما لا يصلح حتى للآليات الميكانيكية او ما يصلح للمدرعات بالكاد. والأودية الجبلية المنحوتة الأخاديد الغائرة ليست أفضل كثيرا نظرا لضيقها وشدة انحدار سفوحها.

باختصار، الجولان كمسرح طبيعي ميدان قاس معقد لا يسمح الا بمعركة شاقة مريرة بالغة القسوة. فمن ناحية، خطوط المواجهة متداخلة ومتشابكة في تعقيد شديد. ومن ناحية أخرى، لا مجال هنا للمناورة أو تكتيك الاكتساح والالتفاف الذى تصلح له بيئة سيناء المكشوفة الواسعة المفتوحة، الأنسب هنا هو تكتيك الكمون والتربص خلف المرتفعات ثم الانقضاض المباغت. فى جملة واحدة، فرص المناورة هنا أقل، وفرص المفاجاة أكثر.

وعلى الجملة فإن المسرح الطبيعي، وبالتالى أساليب القتال معه، أقرب نوعا فى الجبهة السورية الى ظروف الحرب فى أوروبا الغربية الباردة المطيرة، الغابية الجبلية، منها الى طبيعة حرب الصحراء المطلقة التى تمثلها جبهة سيناء خير تمثيل. والمعركة نفسها هنا

«رأسية» معلقة كما قد نقول، حيث هى «أفقية» مسطحة على جبهة القناة.

ونحن نستطيع ان نفهم هذه الحقائق أكثر، ومعناها الاستراتيجى أيضا، اذا تمثلنا فى أذهاننا خريطة المنطقة الجغرافية، فالقطاع الذى احتلته اسرائيل فى يونيو هو الركن الجنوبى الغربى الأقصى من رقعة سوريا السياسية. شكله العام مستطيل طولى تقريبا، مساحته ١١٥٠ كم مربعا، أبعاده القصوى نحو ٧٠ كم بالطول، ٢٥ كم بالعرض، وهذا الرقم الأخير يحدد بالتقريب امتداد جبهة المواجهة المباشرة مع العدو. بالطول، تمتد الرقعة المحتلة من الأجزاء الجنوبية من جبل الشيخ فى الشمال حتى مصب نهر اليرموك فى نهر الأردن حيث تشترك الحدود السورية مع الأردن وفلسطين فى الجنوب. أما بالعرض فتمتد الرقعة من خط الحدود السياسية الذى يتبع قمم جبل الشيخ فى الشمال ثم وادى الأردن والحولة حتى طبرية فى الجنوب. هذا من ناحية الغرب. أما من الشرق فإن حدود الرقعة تتعرج فى تقوس عام، أقصى نقطة فيه شرقا هى الرفيد.

وعلى هذا الأساس فإن الجزء الأكبر من الرقعة تغلب عليه المرتفعات والارتفاع. ولكن الارتفاع يتغير ويتدرج على محورين. بالطول يزداد السطح ارتفاعا باطراد كلما اتجهنا شمالا، من سهول

وادي اليرموك فى اقصى الجنوب الى آعلى مرتفعات وذرى جبل الشيخ فى آقصى السمال. آما بالعرض فإن المرتفعات تنحدر بشدة وبسرعة غربا نحو وادى الأردن الرنيسى، وشرقا بالتدريج الوئيد نحو مرتفعات حوران وبادية الشام. وبهذا يتقوس سطح المرتفعات بصورة عامة ولكنها غير منتظمة او متناظرة ما بين الشرق والغرب. وفى المحصلة العامة ينقسم سطح المنطقة المحتلة الى ثلاثة قطاعات هي من الشمال الى الجنوب: جبل الشيخ، هضبة الجولان، سهل اليرموك.

فأما قطاع جبل الشيخ فيشمل نحو ثلث سلسلة الجبل التى تعرف ايضا بجبل حرمون والتي تسودها الصخور الجيرية. متوسط ارتفاع القطاع يتراوح بين ١٠٠٠، ١٥٠٠ متر، فى حين تصل القمم الى أكثر من ٢٨٠٠ متر أحيانا بحيث تغطى بالثلوج الدائمة طول العام فتبدو القمم بيضاء معممة كالشيخ - من ثم الاسم. والمسرح الطبيعى بهذا كله وعر للغاية يصعب اختراقه بالعرض من الغرب الى الشرق حيث يعد مانعا طبيعيا خطيرا.

ويتحكم الجبل بإرتفاعه فى كل الدائرة التى حوله بما فيها القطاع الأوسط.

هذا الأخير هو المرتفعات السورية بالمعنى المحدد والتى تسميها الصهيونية الجولان. هى تمثل الجزء الأكبر من الأرض السورية المحتلة، وتتوسطها مدينة القنيطرة، كبرى مدنها وعقدة مواصلاتها ومفرق طرقها الجبلية الاستراتيجية، ترتكز الهضبة فى الشمال والشمال الغربى الى كتلة جبل الشيخ، ولكنها اقل ارتفاعا، بين ١٠٠٠، ٥٠٠ متر فى المتوسط، غير انها تندفع على سطحها سلاسل جبال وتلال ومرتفعات أعلى (كتل الفرس مثلا)\كما تختطها الأودية بالطول والعرض. أرض الهضبة حمراء رمادية، تربتها بركانية غطت قاعدتها الجيرية القديمة الطفوح البازلتية الداكنة وخطوط المخاريط البركانية الحديثة التى تنتشر على سطح الهضبة من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى عامة.

وعموما ترتفع الهضبة نحو ٣٠٠ متر فوق مستوى منخفضات وادى الأردن الأعلى فى فلسطين المحتلة، ومن ثم تتحكم فى كل مستعمرات العدو ومواقعه في وادي الحولة والأردن وطبرية. ومن ناحية الحركة فإن الأرض صالحة على العموم للعمليات الميكانيكية، ولكنها تظل قاسية للغاية. والسفوح والمنحدرات الغربية للهضبة والتى تطل على وادى الأردن هى بالتحديد اصلح طريق للحركة بين الشمال والجنوب. وعليها بالفعل يمتد المحور الشريانى دمشق - القنيطرة - جسر بنات يعقوب.

أخيرا لا يبقى الا قطاع من السهول المتموجة فى الجنوب والجنوب الشرقي من الأرض السورية المحتلة، تليه فى الشمال، تتدرج باعتدال نحو وادى اليرموك فى الجنوب ووادى الأردن فى الغرب. والمنطقة مفتوحة بسهولة للحركة والعمليات الحربية ولا تمثل مشكلة طبيعية او عسكرية خاصة.

واذا كانت تلك هى القطاعات الطبيعية لأرض الجولان، فإنها تنعكس مباشرة على قطاعاتها العسكرية، فرغم ان الجولان رقعة مستطيلة تمتد من الشمال الى الجنوب، ورغم أن الجانبين المتحاربين تقع أحدهما الى الشمال والآخر الى الجنوب. فلا يفهم المنطقة تماما كمسرح للعمليات الحربية من ينظر الى معركتها كمجابهة بين شمال وجنوب بالضبط. فلبست المعركة اندفاعا مستقيما كالسهم المرسل تنطلق من اقصى الشمال او العكس، ولكن المجابهة أدنى فى الواقع ان تكون بين شرق وغرب. وهى إلى ذلك تنقسم الى ثلاثة قطاعات بالعرض لكل منها محور عرضى، وهى فى ذلك كله تشبه فى معنى ما مسرح سيناء الغربية.

ذلك أن جبهة الهجوم السورية تتمثل هنا فى الحدود الشرقية لهضبة الجولان والأجزاء الغربية من هضبة حوران، فهذا هو المنطلق الطبيعي وقاعدة الانطلاق والوثوب المنطقية لاسترداد الجولان.

والهجوم السورى يبدأ أساسا من الشرق على طول هذه الجبهة الطولية. وقد كان على طول هذه الجبهة بالفعل، وبامتداد تتمتها الثانوية العرضية. أن أقام العدو خطا من الاستحكامات الطبيعية والهندسية الكثيفة التى تعتمد إلى أقصى حد على الظاهرات الطبوغرافية من مرتفعات ومنخفضات وتلال وأودية ، وعرف فى مجموعة «بخط آلون». وقد كان من أبرز عناصر هذا الخط خندق صناعى من الأسمنت المسلح بعمق ٤ أمتار وعرض ٦ أمتار وبطول ٣٠ كم على طول جبهة المواجهة ، وقد حفر هذا الأخدود الغائر، الذى رصع بالألغام الكثيفة، لكى يمنع المدرعات والآليات السورية من الاقتحام. ولكن القوات السورية عبرته، كما سنرى، على جسور حديدية رغم أنف العدو ورغم نيرانه.

وإذا كان الشرق هو المصدر الطبيعى للهجوم السورى، فإن هدفه بعد ذلك هو التقدم بعرض الجولان على ثلاثة محاور عرضية رئيسية تحاول فيما بينها ان تمزق قوات العدو الى عدة جيوب محاصرة لتعزلها عن بعضها البعض وتضربها على حدة. ويمكن أن ينشعب كل محور منها بعد ذلك فى داخل الهضبة الى شعبتين شمالا وجنوبا ليتصل بعضها ببعض امعانا فى تفتيت العدو وتطويقه. فإذا ما قاوم او تقهقر فإنه يدفع غربا إلى السفوح الغربية المنحدرة حيث الظروف

الجغرافية غير ملائمة للعمل. وهذا أيضا هو الذى يفسر ان المعركة كانت تدور فى جميع مراحلها علي القطاعات الثلاثة فى وقت واحد مهما تغيرت مصايرها.

هكذا تنقسم ارض المعركة الى ثلاثة قطاعات عرضية يتوسط كلا منها تقريبا محوره العرضى الأساسى. غير أننا لابد أن نذكر أولا أن القطاعين والمحورين الشمالى والجنوبى يعتبران ثانويين نسبيا، أما القطاع الأوسط ومحوره فهما الأهم على الاطلاق، فالقطاع الشمالى أقلها مساحة، ويتركز على محور مجدل شمس - بانياس. والقطاع الأوسط أوسع مساحة، ومحوره يعد العمود الفقرى للتقدم والحركة فى المعركة كلها. ويمتد هذا المحور من الصمدية الى القنيطرة الى حوالى منطقة سهل الحولة عموما (بحيرة الحولة سابقا) اما القطاع الجنوبى فهو أكبرها مساحة، ومحوره يمتد من منطقة الرفيد والجواخدار فى الشرق الى منطقة بحيرة طبرية في الغرب بعامة، والى فيق والحمة بخاصة.

سلبيات يونيو

تلك إذن صورة لفظية لمنطقة المرتفعات السورية، نستطيع أن نرى منها انه كان لسوريا تقليديا ميزة استراتيجية وعسكرية مهمة جدا على العدو الاسرائيلى، الا انها من أسف ضاعت فى يونيو. تلك

نقصد ميزة الارتفاع المسيطر والطبوغرافيا الحاكمة. فالمرتفعات السورية كتلة عالية تشرف من علٍ على منابع الأردن وسهول الحولة وطبرية وامتداداتها وكذلك على منحدرات هوامش الجليل الأعلى فى شمال اسرائيل، وبهذا تبدو المرتفعات السورية كهضبة شبه مائدية مشرفة، كالقلعة الشماء، سفوحها الوعرة في الجنوب والغرب تميل كالمنحدر التقليدى للقلاع glacis ،ومن سطحها تستطيع ان تكشف كل السهل اسفلها فى داخل اسرائيل وتسيطر على مواقعه ومستعمراته بحيث تقع هذه مباشرة تحت نيرانها ومدفعيتها البعيدة المدى.

ولقد كانت اسرائيل تشكو دائما بمرارة من وضعها الطبوغرافى غير الملائم بالنسبة للمرتفعات السورية، وكانت لا تخفى قط أطماعها ونواياها فى اغتصابها والسيطرة عليها عند أول فرصة، وقد واتتها هذه الفرصة من أسف في يونيو، حين احتلت قطاع الجولان بأكمله حتى سفوح جبال لبنان الداخلية وجبل الشيخ. وبذلك تحسن موقفها الاستراتيجي كثيرا جدا. من ناحية، لأن مرتفعات الجولان توفر للعدو الأمن التام فى الجليل الأعلى والأسفل وغور الأردن، ومن ناحية، لأنها خط دفاع طبيعى عميق وعريض ضد أى هجوم سورى يأتى من الشمال. ومن ناحية ثالثة، لأنها فى الوقت

نفسه تقدم قاعدة انقضاض مثالية للهجوم او للهجوم المضاد على سوريا. هذا فضلا عن أنها باتصالها المباشر بحدود الأردن الشمالية تعطى العدو فرصة فتح جبهة ثانية مع الأردن فى حالة دخوله الحرب.

على أن سوريا لحسن الحظ لم تفقد كل ميزتها الطبوغرافية القديمة، فقد ظلت محتفظة بمناطق جبلية وهضبية مرتفعة خارج الجولان، سواء في كتلة حوران شرقا أو في بقية جبل الشيخ شمالا أو فى سلسلة لبنان الداخلية شمالا وغربا. وبهذا فقد كان الطرفان المتواجهان يقفان على قدم المساواة طبوغرافيا من حيث الارتفاع والوضع الاستراتيجي المشرف.

ولقد كان فى وجه هذا الوضع المتكافىء بالدقة أن لجأت اسرائيل بخبث الى اقامة مرصد محصن كنقطة مراقبة شاملة على قمة من أعلى قمم جبل الشيخ لتكشف منها بقية المرتفعات السورية وكل مواقع القوات السورية في جبهة المواجهة. وقد كان هذا المرصد - الحصن مبنيا على غرار دشم خط بارليف، إلا أنه معلق فى خط السماء على أعلى الجبل، فقد كان قلعة حجرية مسلحة متعددة الطوابق، ولكنها بكاملها مدفونة تحت الأرض فى باطن الصخر، ومدعمة بأسقف وأبواب من الصلب يستحيل تحطيمها حتى بالقذائف

المباشرة الثقيلة. وسنرى القيمة الاستراتيجية والدور العسكرى الذى لعبه هذا المرصد فى المعركة.

ومن الناحية الأخرى، فإن إسرائيل اذا كانت قد امتلكت منذ يونيو ميزة الموقع المرتفع كسوريا او شاركتها هذه الميزة، فإن هذه المشاركة لم تكن مطلقة او كاملة، فلقد أصبح على خطوط مواصلاتها وامداداتها ، إلتى طالت كثيرا وصارت معرضة اكثر، ان تصعد من السهل فى الجنوب الى هضبة الجولان وهى آتية وان تهبط من الهضبة الى السهل وهى ذاهبة. وهذه الحركة الصاعدة الهابطة عبء شاق جسميا وميكانيكيا بطبيعة الحال. ولم يكن هكذا وضع خطوط المواصلات السورية، التى تنساب باطراد ورفق نسبيا ما بين مرتفعات الجنوب ومنطقة التلال والمرتفعات المحيطة بغوطة دمشق والمؤدية اليها، وهى المنطقة التى تتعاقب عليها ثلاثة خطوط دفاعية قوية تمثل الدرع الصلبة للعاصمة وتناظر فى صورة مضغوطة الخطوط الدفاعية الثلاثة ما بين القناة والقاهرة.

مراحل المعركة

تلك هى الفروق الاساسية بين مسرح المعركة فى كل من الجولان وسيناء . وقد انعكست هذه الفروق بطبيعة الحال على الخطط والعمليات الحربية فى المعركة. ففيما عدا الاستحكامات الطبيعية

والهندسية الكثيفة على الجانبين، لم تكن هنا على الجولان مشكلة عبور مائي وكان التقدم الأرضي ممكنا منذ ساعة الصفر فور اجتياز الخندق. ومن الناحية الآخرى فقد كانت جبهة الجولان تشبه جبهة سيناء من حيث ان عليها هي الأخرى شبكة من صواريخ الدفاع الجوى تعد أيضا من أكثف وأكفأ ما على الأرض من نوعها، تعززها كذلك غابة من المدفعية الثقيلة شبيهة بشقيقتها على الجبهة المصرية نوعا وكثافة وقوة. ولعلنا نضيف كذلك ذلك القدر من التشابه بين الجبهتين من حيث الامتداد المستطيل والانقسام إلي ثلاثة قطاعات ومحاور عرضية.

وفيما بين هذه الاختلافات الطبوغرافية والمشابهات العسكرية، جاءت المعركة السورية شبيهة بالمعركة المصرية الى حد أو أخر. بل إلى حد بعيد، فى كثير من خططها وخطوطها وخطواتها، وأخذت مراحل وتطورات مناظرة الى حد معين سواء فى حركة المد والجزر الميدانية او فى الانجازات التدميرية أو فى النتائج الاقليمية. وفيها أيضا تعددت أسلحة المعركة ما بين البر والبحر والجو، كما كانت مجالا لبعض من أضخم وأعتى معارك الدبابات والمدرعات فى العصر الحديث، لا تقل هي الأخرى عن أكبر ما عرفت الحرب العالمية الثانية، قذف فيها بأعداد تعادل ان لم ترجح أحيانا ما قذف

به فى سيناء من دبابات فى بعض المراحل. فالمقدر أن سوريا هاجمت فى وقت ما أثناء المعركة بنحو ١٤٠٠ دبابة، عدا مئات الدبابات العراقية التى شاركت فى القتال. أما المعركة الجوية فلم تكن أقل ضراوة بالتأكيد، وفيها أيضا لعبت الصواريخ المضادة للطائرات دورا حاسما ومهلكا لطيران العدو. وأخيرا قامت البحرية كما فى المياه المصرية بدور أكثر من جانبى، نشط وفعال، على طول امتداد السواحل والموانىء السورية.

وعموما يمكن أن نقسم المعركة بحسب تطوراتها وملامحها ونتائجها الى أربع مراحل، تكاد تتعاصر ذبذباتها وارتفاعاتها وانخفاضاتها مع ما كان يحدث على الجبهة المصرية. وسنرى أن التدخل الأمريكى هو القاسم المشترك بين هذه التطورات المتوازية والضابط الكامن خلفها دورا وتوقيتا ومصيرا. وهذه المراحل هى: الأولى، مرحلة الاكتساح السورى (٦ - ١٠ أكتوبر)، الثانية، مرحلة الهجوم الاسرائيلى المضاد (١١ - ١٤)، الثالثة، مرحلة المد السورى الثانى (١٤ - ١٦ أكتوبر)، الرابعة، مرحلة التوازن النسبى (١٧ - ٢٢ أكتوبر).

مرحلة الاكتساح السورى

بدأت مقدمات المعركة، كما على الجبهة المصرية، بعدوان

اسرائيلي جوى وبرى مدبر على بعض المواقع السورية. وفى ساعة الصفر نفسها، الثانية بعد ظهر السادس من أكتوبر، بدأ الهجوم السورى الجوابى، ويلاحظ أن هذا التوقيت اختير لتوحيد بدء المعركة فى الجبهتين السورية والمصرية لتحقيق المفاجأة الكاملة للعدو من كل جانب. فأنسب توقيت للجبهة السورية حيث لا مانع مائيا هو أول ضوء فى الفجر. وهذا على العكس من الجبهة المصرية حيث يستدعى عبور القناة العمل فى ظلام الليل وبالتالى البدء مع آخر ضوء فى المساء.

فى تلك اللحظة التاريخية انطلقت ١٠٠ طائرة قاذفة مقاتلة لتعطى العدو ضربة جوية خاطفة وقاصمة مكافئة لنظيرتها على الجبهة المصرية. ومعها كذلك بالضبط انطلقت المدفعية السورية الثقيلة فى ضربة هائلة مكثفة - ١٠٠٠ مدفع، كما على القناة - تدك مواقع العدو فى أعماقه وأنساقه المختلفة. وكما حدث فى الجنوب، فقد العدو كل توازنه: لقد حققت سوريا المفاجأة وانتزعت المبادأة ووضعت العدو على الدفاع وألقت به فى دوامة من الاضطراب والارتباك البادى.

وفى حماية مظلة النيران الرهيبة تلك، وفى ظل اهتزاز العدو، زحفت جيوش المدرعات والدبابات السورية بقوة عارمة وبأعداد لم

تعرفها الجبهة من قبل، وراحت تكتسح مواقع العدو واستحكاماته، كما قصفت كل مستعمراته في الهضبة. وكما كتب تشرشل الحفيد «هجم السوريون بقوة أمامية قدرها ١٢٠٠ دبابة، وهو أكثر من ضعف قوة المدرعات عند روميل في العلمين وأكبر من ذلك قوة». وقد بدأ الزحف من الشرق على طول الجبهة بكاملها وفي مواجهة الجانب الشرقى من الجولان برمتها، في حين أرسلت بعض القوات المحمولة جوا لإسقاطها على المواقع الخلفية على الجانب الغربى من الجولان.

ولقد كان مرصد جبل الشيخ بالذات من أول أهداف الهجوم السورى المنقض. فبواسطة القوات المحمولة جوا، قام فرسان الجو «والمغاوير» (الكوماندوز) السوريون باقتحام الحصن رأسيا وأفقيا، جسديا وتلاحميا، بحيث تحولت القلعة المدرعة الى مصيدة موت لحامية العدو، تماما على نحو ما حدث لدشم خط بارليف فى الجنوب. وهكذا سقط المرصد فى الساعات الأولى من اليوم الأول، وحرم العدو من نقطة مراقبة خطرة.

أما على الأرض، فقد تقدم الزحف البرى من الشرق على المحاور الثلاثة، ونجحت كلها فى اختراق قوات العدو وتحصيناته منذ البداية. وتقدمت القوات السورية المدرعة على كل محور لينشعب كل

منها الى شعبتين نحو الشمال والجنوب، وتم الاتصال بين كل هذه الشعب بحيث تمزق العدو الى جيوب وتم تطويق منطقة القنيطرة بصفة خاصة بفكي كماشة من الشمال والجنوب. وفى الجنوب كانت الاندفاعة السورية قوية بنوع خاص، وكان خطرها شديدا لشدة كثافتها ولقربها من حدود العدو. وقد قال الاسرائيليون ان السوريين كانوا يفوقونهم عددا فى هذه النقطة بنسبة عشرة الى واحد. وقطع السوريون طريق الامدادات الاسرائيلى الرئيسى بالقرب من جسر بنات يعقوب وهددوا أعالي وادى الأردن. وقد فشل العدو بطيرانه ومدرعاته في ايقاف الزحف، وتكسرت كل هجماته المضادة. وفى اليوم الرابع وحوالى نهاية هذه المرحلة كان قد تم تحرير الجزء الأكبر من الجولان بالفعل.

والواقع أنه منذ بدأ الزحف السورى العظيم وضحت على الفور، وبشكل وحشي، الطبيعة المكشوفة العارية للمواقع الاسرائيلية، كما كتبت الصنداي تايمز. وكما تضيف الصحيفة نفسها، لم تتوقف موجة الزحف السورية الأولى للاستيلاء على المراكز الاسرائيلية القوية في هذه المواقع ، وانما تجاوزتها كالدوامة الكاسحة. وتلك كانت استراتيجية الاقتراب غير المباشر، اختراقا وتطويقا. وفي هذا علق قائد مدرعات اسرائيلي «انهم لم يبقوا على الطرق. لقد ظلوا

يتدفقون الى الداخل كالماء، يشقون طريقهم فى أى مكان يستطيعون. أما التصدى للمراكز الاسرائيلية القوية فكان مهمة الموجة الثانية» . وبهذا أصبحت الهضبة كلها مسرحا مختلطا اشبه بعالم الكوابيس تدور فيه معارك برية منفردة يائسة وقتال وحشى يدا بيد، فى حين كانت القوات الاسرائيلية تتراجع شبرا شبرا.

وبصفة عامة كانت صورة الموقف الأساسى خلال أيام هذه المرحلة الأربعة او الخمسة هى كالآتى: القوات السورية المدرعة على الهجوم، معها المبادأة والمبادرة.. وفى زحف مستمر عنيد على طول القطاع الشمالى من مرتفعات الجولان، العدو، الذى يحتاج الى ٢٤ ساعة فى تسلق الطريق الجبلى الملتوى من روش بيناه فى الجليل عبر وادى الأردن إلى هضبة الجولان، يتقهقر بغير انتظام رغم مقاومة مستميتة تكسر له خلالها هجومان مضادان رئيسيان قام بهما بكل حشد وعنف. وفى نهاية المرحلة كان جبل الشيخ ومعظم القطاع الشمالى وجزء كبير من القطاع الأوسط قد تم تحريرها ووصلت القوات السورية إلى مشارف القنيطرة عاصمة الجولان الاقليمية والاستراتيجية.

بل لقد اعترفت اسرائيل ان طلائع المدرعات السورية توغلت فى وقت ما فى نهاية هذه المرحلة فى عمق شمال اسرائيل ووصلت الى

رأس منحدر وادى نهر الأردن، وأوشكت أن تصل الى حافة التلال المطلة على الجليل، الى مسافة تتيح شطر القوات الاسرائيلية فى الشمال الى نصفين، ولو قد كان هناك اسفين متقدم آخر ليهبط الى الضفة الأخرى من النهر وليكونا معا فكى كماشة لاستطاعا اقتطاع شريحة من أطراف اسرائيل، لسانها الشمالى الناتىء. «كقضمة التفاحة»، كما وضعها أحد المعلقين الغربيين (چيرار ليچران).

وفي وجه هذا التفوق السورى المطرد على الأرض، وأمام الخسائر المخيفة التي منى بها العدو في المدرعات والقوات الميكانيكية، وضع هذا ثقله فى سلاحه الجوى. والحقيقة ان ضراوة وكثافة الهجوم الجوى العدو كانت تتناسب تناسبا طرديا مع هزائمه وخسائره على المسرح الارضى. فباستثناء الليل، لم تنقطع غاراته الجوية المكثفة، على المواقع والقوات السورية، أحيانا بمئات الطائرات، وبصورة قيل «ڤيتنامية». غير انه كان كلما تصاعد بهجماته الجوية، تصاعدت خسائره من الطائرات بصورة مخيفة تماما.

فلقد تصدى له الطيران السورى بكفاءة نادرة من ناحية، وشبكة صواريخ الدفاع الجوى من ناحية أخرى، تلك التى تحولت الى مصيدة قاتلة لطيران العدو. وأصبح مشهدا يوميا روتينيا مألوفا فى سماء المدن والجبهة السورية لقاء الصاروخ بالطائرة فيما وصفه البعض سخرية

«بقبلة الموت». اذ كانت طائرات العدو تتساقط كالفراشات، وطياروها يصادون بالعشرات. «يبدو أن عملية القبض على الطيارين الاسرائيليين– هكذا كتبت إحدى وكالات الانباء – أصبحت هواية عند الدمشقيين الذين امسكوا بعشرات منهم حتى الان»!، او كما عبر مراسل آخر ساخرا «لأول مرة فى التاريخ يجد الطيار المعادى الذى يهبط بالمظلة جميع أهل البلد فى استقباله!» وهكذا تحولت الحرب الجوية الى عملية استنزاف رهيبة لسلاح طيران العدو، الذى فشل بذلك فى شل الزحف السورى المتقدم على الجبهة.

هنا لجأ العدو الى فتح جبهة جانبية اخرى تستهدف اساسا تحويل ثقل القوات السورية بعيدا عن الجبهة فى الجولان، دون جدوى مع ذلك، فتكررت غاراته البحرية على موانىء وسواحل سوريا، خاصة اللاذقية وطرطوس ثم بانياس.. غير أن القوات البحرية والدفاع الساحلى السورى تصدوا بنجاح تام لهذه الهجمات وأغرقوا كثيرا من وحدات العدو، وحين واجه العدو الفشل على هذا النحو برا ثم جوا ثم بحرا، عاد فتحول بسلاحه الجوى إلى ضرب الاهداف المدنية والاقتصادية ، الأحياء السكنية والمدنيين فى دمشق وحمص وغيرها ، مصافى البترول والمنشآت الصناعية فى حمص وطرطوس وبانياس .. إلخ .. وفى هذه الهجمات الوحشية غير القانونية ، التى كانت وحدها دليلا ساطعا

على عجز العدو فى ميدان القتال الحقيقي، حدثت خسائر جسيمة فى الارواح والمنشآت.

ولكن الطيران السورى رد عليها بقصف منشآت بترول العدو فى حيفا وغير ذلك من الاهداف الاستراتيجية والحساسة فى قلب العدو وعمقه بشمال اسرائيل، كذلك انصب القصف المدفعي الثقيل الكثيف والقصف الصاروخى البعيد المدى (صواريخ فروج أرض ـ أرض) على المستعمرات الاسرائيلية في سهل الحولة والجليل ومرج ابن عامر. وقد اضطر العدو الى إخلاء الكثير من هذه المستعمرات وتهجير سكانها ـ وبعض هذه المستعمرات يقع على بعد ٢٣ ميلا من اقرب نقطة سورية من خط وقف اطلاق النار السابق ، كما اعلنت اسرائيل فى شكاواها العديدة ، والمخادعة ، للأمم المتحدة، بل والى «مسافة ٥٠ ميلا فى عمق اسرائيل» كما كتب تشرشل الحفيد.

مرحلة الهجوم الاسرائيلى المضاد

منذ اليوم الخامس او السادس تبدأ مرحلة جديدة فى المعركة. فقد حشد العدو كل احتياطيه الاستراتيجى من المدرعات تعززها قواته الجوية، وقذف بها فى هجوم مضاد محموم ألقى فيه بكل ثقله وحقده معا، بأمل ان يفرغ من الجبهة السورية ليتفرغ للجبهة المصرية التى زاد حرجه فيها إلى اقصى حد، وقد حقق العدو بعض النجاح بالفعل ،

والمهم احيانا على المحاور الثلاثة ، واضطرت القوات العربية للاسف الى التراجع الى الشرق.

والثابت ان التقدم السورى فى المرحلة السابقة كان أسرع وأعمق من المرسوم بحيث ابتعد كثيرا عن نطاق حماية شبكة صواريخه الجوية من ناحية وبحيث لم يتسع له الوقت ليحصن مواقعه الجديدة من ناحية اخرى.

وقد ركز العدو الاسرائيلى على المحورين الشمالي والاوسط بصفة خاصة لأنهما اقرب الى تهديد دمشق نفسها كما يرتكز الاول منهما على جبل الشيخ ، أما المحور الجنوبى فطويل وبعيد عن طريق دمشق كما يعرض العدو لهجوم مضاد شامل من مرتفعات حوران .. وحين وجد العدو انه قد حقق نجاحا كبيرا فى القطاع الشمالى، قرر أن يستثمر نصره الي اقصى حد.

فحشد كل قواته المتاحة على محور القنيطرة - سعسع، الذى يقع على الطريق إلى دمشق ، لكى يقوم بهجوم شامل وساحق.

ورغم أنه واصل تقدمه وتجاوز خطوط وقف اطلاق النار فى قطاعها الشمالي ووصل قرب سعسع، إلا ان العدو كان قد لجأ إلى الحرب النفسية يؤمن بها هجومه، فأطلق على العالم سيلا من الدعاية الكاذبة عن تقدم وهمى إلى دمشق، وصدرت تصريحات قادته بأنهم فى

الطريق اليها، على بعد اميال منها حدودها اولا بأول ، وأنهم سيدخلونها في ٢٤ ساعة.. الخ... وبطبيعة الحال لم يتحقق شيء من هذا ولا الفيحاء سقطت.

وانكشفت اكذوبة الدعاية الاسرائيلية للعالم الذى عدها دعابة سخيفة وكانت موضعا لتندره.

ذلك أن القوات السورية، التى وصلت القوات العراقية ثم الاردنية لساندتها ، قد صمدت بكل عناد وبسالة للهجوم المعادى وتصدت له باصرار مخيف، وقد لعبت مشاة الصواريخ فى هذا الصمود دورا كبيرا، إذ كانت تتقدم ليلا وتقترب من دبابات العدو ومدرعاته وتدمرها بالجملة، كذلك أدت القوات المدرعة السورية مع العراقية دورا خطيرا فى تكسير الزحف وايقافه ثم ارغامه على التراجع، بحيث توقفت قوة العدو عن الحركة تماما فى يوم ١٤ أكتوبر. وكان هذا هو الموقف الذى وصفه كيسينجر بأنه «عائم».

مرحلة المد السورى الثانى

ومن هذه النقطة بدأت مرحلة جديدة فى المعركة، فمنذ اليوم الثامن واصلت القوات السورية التقدم جنوبا فى القطاع الشمالى فى وجه هجوم مضاد جديد للعدو، واستمر الصدام سجالا ثلاثة أيام ، حين أعلن الرئيس السورى فى اليوم العاشر ان القوات السورية تمكنت من

تحرير مساحات كبيرة من الأرض المحتلة فى القطاعين الأوسط والجنوبى، فى حين ان مدفعيتها «تقصف الآن مواقع العدو فى سهل الحولة وشمال طبرية» ، ولعل هذه النقطة تحدد ذروة النصر والتقدم السورى.

وفى هذه الجولة دارت معركة من أكبر معارك الدبابات فى التاريخ الحديث، اشترك فيها من الجانبين نحو ٢٠٠٠ دبابة، تغطيها سحابة كثيفة من الطيران وعلى مدى بضعة ايام اتصلت المعركة التى تكبد العدو فيها خسائر فادحة على الأرض وفى الجو.. وعاد الزحف السورى من جديد نحو الجنوب وبدأ التقدم فوق اجزاء من الأرض المحررة للمرة الثانية بعد أن تم طرد العدو منها للمرة الثانية ايضا. فعلى محور القنيطرة - سعسع تم دفع العدو الى منتصف المسافة بين سعسع وخطوط ١٩٦٧. وفى اقصى الشرق تم طرد العدو من تل الفرس ومنطقة القنيطرة ثم من هامش كبير من القطاع الجنوبى. وبذلك تمت دورة شبه كاملة نوعا من المد والجزر ثم المد على جزء كبير من الهضبة انتهت الى حد ما لصالح سوريا.

المرحلة الاخيرة

ومنذ اليوم الحادى عشر من القتال، وتماما كما على الجبهة المصرية، تبدأ مرحلة جديدة واخيرة، افتتحها العدو بهجوم مضاد

شرس وعنيف ، شنت سوريا فى وجهه هجوما عريضا وعنيدا حشدت له، كما أعلنت اسرائيل نفسها ، «دبابات اكثر من الدبابات التى استخدمتها ألمانيا ضد الروسيا فى الحرب الثانية»، وقد استمرت هذه المعركة بلا هوادة لعدة أيام متصلة، حقق فيها العدو بعض التقدم شمالا، لكنه تكبد خسائر فاحشة فى قواته وعتاده . وقد استطاع العدو، على محورين للتقدم شرق الجولان وغربها، أن يحقق «ثغرة» فى خطوط القوات السورية كتلك التى أحدثها غرب القناة على الجبهة المصرية - ومنذ اليوم الخامس عشر والسادس عشر كان القتال مستميتا حول جبل الشيخ مرة اخرى فى الشمال، وبهذا كانت هضبة الجولان، كلها او بعضها ، قد تم اكتساحها وتبادلها أو استردادها مرتين من كلا الجانبين خلال المعركة، أى خضعت لعملية مد وجزر مزدوجة.

غير ان الموقف العام بعد هذا تجمد نوعا واتخذ القتال صفة محلية وتكتيكية غالبا، بهدف تحسين المواقع المحلية أو القيام بهجمات محدودة أو الرد عليها ردا محدودا. ورغم استمرار المساجلات بالمدفعية والصواريخ فقد تحول القتال الى حرب استنزاف برية وجوية يتبادل فيها الجانبان الضربات المحدودة على التعاقب، وكان من الواضح ان الجانبين قد بلغا حد الارهاق والاعياء، وايضا حد التوازن ، فدخلا

فى دور من «تناطح الكباش» كما وصفته «الشرارة» (دار الصياد، بيروت).

وخلف هذا المسرح، كانت القوات العربية تعد لهجوم كبير حاسم، ولكن قرار وقف اطلاق النار كان اسبق، وهنا، كما على الجبهة المصرية، كان اثر الامداد الامريكي الخاطف قد بدأ يظهر على تطورات المعركة، وتحول المد لصالح العدو بصفة عامة وان كانت خسائره في تصاعد جنوني.

وكما على الجبهة المصرية ايضا، استغل العدو بخسة فرصة وقف اطلاق النار ليوسع رقعة الأرض التي يحتلها. فدفع بكل قواته ليختلس أكبر نصر ممكن فى آخر لحظة متاحة، والمفهوم انه فى نهاية القتال تماما كان قد استعاد منطقة الجولان ووصل الى خطوط وقف اطلاق النار كما كانت قبل ٦ أكتوبر ثم تجاوزها بنحو ١٠ كم على امتداد القطاع الشمالي، مثلما فعل على الجبهة المصرية غرب قناة السويس. وكما على الجبهة المصرية، فقد كانت سوريا تخطط لهجوم ساحق وشامل تكسح به العدو نهائيا حين أتي قرار وقف اطلاق النار ليترك الموقف على هذه الصورة، وإذا كانت عملية الفصل بين القوات في الجولان لم تتحقق حتى الآن وتبدو صعبة شاقة بسبب أطماع العدو، فقد فرضت سوريا عليه حرب استنزاف ضارية بكل الاسلحة الثقيلة سوف يكون لها ما بعدها بلا ريب.

على أننا ينبغى ان نلاحظ ان العدو اذا كان قد نجح في تجاوز خطوط ١٩٦٧ وتوسع في جيب محدود جديد عبرها، فإن السوريين ايضا وفى الجانب المقابل جغرافيا قد نجحوا في التوسع جنوبا غربا ووصلوا الى خطوط ما قبل ١٩٦٧ مع العدو ثم تجاوزوها وتعمقوا في اطراف آرض فلسطين المحتلة منذ ١٩٤٨ (حيث سبح الجنود السوريون بالفعل في مياه طبرية).

والفارق ان التوسع السورى للاسف لم يتح له ان يستمر ويبقي، على العكس من التوسع العدو، الذى على أية حال لم يلبث ان انحسر ..اسئا وهو حسير مع إتمام الفصل بين القوات .

خصائص معركة الجبهتين

عند هذا الحد من الدراسة يتعين علينا ان نتوقف لنلخص التقييم العام الشامل للمعركة بجبهتيها في خريطة بيانية او صورة لفظية محددة كما هي مركزة، فماذا نجد؟ هناك خطوط وملامح او انتهاءات اساسية ستة يمكن التعرف عليها والتوصل اليها بدقة، كما تكاد تتكرر بحذافيرها على الجبهتين السورية والمصرية، الامر الذى يشير إلى وحدة المعركة بينهما ايقاعا ونبضا، توقيتا وتعاصرا، ضوابط وضواغط ، أقدارا ومصيرا.

أولا، من أوضح ، ولعلها ابرز، ملامح المعركة ان اول بدايتها بالدقة هى قمتها المطلقة، بينما على العكس كانت نهايتها هى قاعها، وما بين البداية والنهاية كان الخط البيانى اميل الى النزول الخفيف منه الى الاستواء الافقى او افق الاستواء.

فلقد بدأنا بانتصار انفجارى داو حقا هو ملحمة العبور وخلع الخط ، أو ملحمة الساعات الست الخالدة .وبعدها كانت معركة رأس الجسر والقاعدة الارضية قمة اخرى، ولكن ـ لعلنا لن نختلف ـ اقل قامة وارتفاعا.

ثم جاءت معركة الدبابات الكبرى قمة اخرى ولكنها فى اتجاه المنحنى نفسه عموما او تقريبا، الى ان سجلت عملية الاختراق انحدارا ملحوظا، فكانت قاع المنحنى كما كانت نهايته.

هذا على الجبهة المصرية ، ولكن ايضا بالمثل على الجبهة السورية : زحف كاسح رائع اولا، ثم ارتدادة محدودة ، فمد مشجع وبارع من جديد، ثم اخيرا تراجع بطىء ولكنه صامد فى النهاية.

ثانيا: على هذا الاساس ينقسم منحنى المعركة ككل، وفى الجبهتين على السواء، الى قسمين وربما بالتحديد الى نصفين، متمايزين، فمن بين ايام القتال العشرين ، كانت الايام العشرة الأولى انتصارا مصريا وسوريا مطلقا وأحيانا ساحقا، ولا مبالغة فى هذا، كما لا شك . أما

الأيام العشرة الاخيرة فإنها النصف المحايد، فهى اقرب على الجملة الى التعادل ، من هنا فإذا كانت المعركة برمتها هى «العصر البطولى he-age roic » فى تاريخ العرب الحديث ، فإن نصفها الاول هو بدوره العصر البطولى فى ملحمة المعركة نفسها عموما.

ثالثا: ذلك التصنيف او التنصيف انما يرجع الى حقيقة واحدة ووحيدة تعد وحدها من أخص، كما هي من أخس، خصائص حرب أكتوبر: لقد حارب العدو معركتين اثنتين لا معركة واحدة في هذه الحرب، «معركتين توأمتين» الا انهما مختلفتان جذريا فى النتائج والمصائر، قل فى النوع او الجنس. ولا يعبر عن ثنائية معركة العدو هذه تعبيرا مباشرا وسافرا كما تعبر ثنائية المد والجزر التى شهدتها الجبهة السورية بصورة محددة جدا وداله الى أبعد حد. كما يرمز اليها ويلخصها تبادل العبور إلى ضفتى القناة بين القوات المصرية والاسرائيلية على جبهة سيناء.

والواقع أن المد والجزر الميدانى الذى حدث اثناء المعركة، إذا نظرنا اليها من بدايتها إلى نهايتها، يمكن ان نصفه فى حالة الجبهة المصرية بأنه مد وجزر «أفقى» توسع ثم انكمش فيه كلا الطرفين المتحاربين يمينا ويسارا مرة واحدة على مستوى واحد. أما فى سوريا فقد كان المد والجزر مزدوجا، ومن ثم كان «رأسيا» تمدد فيه ثم

تقلص كل من الطرفين مرتين «طباقيا» فوق الآخر وتحته.

أما كيف حارب العدو معركتين لا معركة واحدة، فأمر بالغ الوضوح، فى الأيام العشرة الاولى حاربت اسرائيل معركة مهزومة بصفة مؤكدة، كانت القوة الاسرائيلية فيها على وشك ان تتحطم وتنهار نهائيا وكانت ذخيرتها تنفد إلا من رصيد أيام معدودات، حين بدأت المعركة الثانية من نقطة الصفر تقريبا فأنقذتها من هزيمة كاملة محققة.

أما هذه المعركة الثانية التى استمرت ايضا عشرة أيام فهى معركة امريكية اكثر منها اسرائيلية، معركة التدخل الامريكي شبه المباشر الذى نقل اليها وفى الميدان شلالا من الاسلحة الحديثة البالغة التطور فاق ما كان لدى اسرائيل قبل الحرب كما وكيفا، فكان الموقف اشبه بعملية «نقل دم» كاملة إلى جريح طريح الميدان على وشك ان يلفظ انفاسه الاخيرة فمنحته «سلفة» جديدة من الحياة a new Lease of Life وكان الوضع كما لو ان اسرائيل قد بدأت معركة جديدة لأول مرة كأنها لم تحارب على التو معركة سابقة وهزمت فيها هزيمة ساحقة.

وقد عبر الاستاذ محمد حسنين هيكل عن هذه الثنائية نفسها تعبيرا ثاقبا وسديدا ولكن بطريقة اخرى تضغط على العلاقة بين

الابعاد الدولية والمحلية للمعركة، فهو أيضا يقسم أيام الحرب العشرين الى قسمين متساويين بالضبط، المرحلة الأولى «كانت الحرب فيها بين العرب وإسرائيل مباشرة وبقوة كل منهما بمفرده.. والحركة فيها هى حركة الميزان بين القوة العربية وبين القوة الاسرائيلية .. وفى هذه المرحلة بالتحديد تركزت معظم خسائر اسرائيل فى الحرب كلها، حيث فقدت نصف قوتها المدرعة وثلث قوتها الجوية ، لقد «هزمناها.. ليس بالضربة القاضية ولكن بالنقط».

المرحلة الثانية «تداخلت فيها تأثيرات التوازن الدولى مع حركة الميزان بين القوة العربية وبين القوة الاسرائيلية.. ولم تكن الحرب فيها بين العرب واسرائيل وجها لوجه، ولا مباشرة.. ولا بقوة كل منهما بمفرده، ان ساحة الصراع تغيرت، لم يعد هناك طرفان فيه ولكن اربعة.. لم يعد هناك العرب واسرائيل وحدهما وانما نزل الى الساحة الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الامريكية.. وأصبح الصراع دائراً على مستويين صدام اقليمى بالسلاح في الشرق الاوسط، واحتمال صدام عالمى عند القمة بين القوتين الاعظم». ونتيجة لهذا التغير فإن القيادة الاسرائيلية «تمكنت من استعادة توازنها ، وعادت الى السيطرة على ادوات قوتها، خصوصا بإتمام حالة التعبئة العامة

الى حدودها القصوى.. وراح ذلك يظهر في ميدان القتال» ، كما لابد ان نعترف حتى لا نخدع انفسنا.

رابعا: ثنائية المعركة هذه هي التى تفسر ادعاء اسرائيل بتعادلها او انتصارها المزعوم فى الحرب، فهى تريد ان تصور نتيجة معركتها الاولى المهزومة مكافئا موضوعيا ومعادلا استراتيجيا للمعركة الثانية الاقرب الى التعادل.. وهذه مغالطة فجة تناقض ابسط بديهيات المنطق والواقع.

وواقع الامر ببساطة هو ان اسرائيل حاولت ان تجعل من الحرب الرابعة فى اكتوبر نسخة مكررة من الحرب الثالثة فى يونيو، فلما فشلت حاولت ان تجعل من المعركة الثانية من حرب اكتوبر نفسها نسخة مقلوبة من المعركة الاولى منها، فلما فشلت فى ذلك عسكريا حاولت دعائيا، فلما فشلت حاولت وتحاول الآن سياسيا.

خامسا : إذا كانت اسرائيل قد حاربت او مكن لها من ان تحارب معركتين وتخرج بالتالى بنصف هزيمة، فإن سوريا ومصر على العكس قد حاربتا نصف حرب في معركة واحدة كاملة خرجتا منها بنصف انتصار.. ولا يغير من هذا او يتعارض معه بطبيعة الحال ان مدة القتال هى واحدة بالنسبة لكل الاطراف المتحاربة، وانما المقصود التطورات الاساسية التى طرأت داخل المعركة.

وإذا كانت اسرائيل تدعي لإخفاء هزيمتها أنها حرمت عالميا من ان تحقق انتصارا ممكنا، فإن العكس تماما هو الصحيح ، فإنما مصر وسوريا، بسبب التوازنات والحسابات الدولية وبسبب تدخل امريكا شبه المباشر والقوات الاسرائيلية تكاد تحتضر، مصر وسوريا هما الطرف الذي حرم من استكمال نصره الواقع بالفعل الى منتهاه وقمته، فاختزلت الحرب بالنسبة اليهما من حرب كاملة الى نصف حرب والنصر الكامل الى بنصف نصر.

سادسا : واخيرا.. وفى التحليل النهائى، وبأى حسابات وعلى اى مقاييس، ورغم كل ادعاءات العدو، خرجت مصر وسوريا وهى المنتصرة واسرائيل المتهزمة فى الحرب الرابعة، صحيح لقد كان من الممكن لهذا النصر وتلك الهزيمة ان يكونا اكبر واكمل لولا ان المعركة اوقفت قبل الأوان ولم تستمر الى مداها ومنتهاها الطبيعى فجاءت الحرب، «منقوصة» ـ أو «مقصورة» ان شئت ـ وذلك بفعل العوامل الخارجية والتدخل الاجنبي.

ولئن كان العدو يزعم انه لم ينهزم وانما انتصر، بل وحقق انتصارا اكبر من انتصاره الساحق فى ١٩٦٧، فهذا لم يخدع أحدا، حتى هو نفسه.

ولكن هذا يحتاج الى مناقشة أكثر تفصيلا، ولهذا فليكن سؤالنا الختامى هو: لمن النصر؟

الفصل الخامس

النصـــــر لمـــن ؟

قد يبدو هذا السؤال غريبا، مثلما هو مؤلف عربيا، وقد يبدو متطفلا وطفيليا غير مشروع اكثر مما فيه من فضول مشروع، ولكن لا حيلة لنا فيه، ولا مفر لكاتب من التعرض له بعد ان حاولت الدعاية الاسرائيلية المحترفة ان تطمس معالم الحقيقة وان تقلب حقيقة الموقف، ولنا على أية حال ان نتذكر ان العدو، هو الآخر، يسأل نفسه مثل هذا السؤال.

ولا يقل اهمية عن هذا أن البعض منا يتساءل ايضا، يتشكك او يشكك فى حقيقة انتصارنا، بل يذهب آلى ان من «الغفلة» ان نعتبر معركة اكتوبر انتصارا لنا، وان حرب اكتوبر ليست «حرب تحرير» بقدر ما هى «حرب تحريك» كما وضعوها فى صيغة من السجع السياسى الأثير والمأثور.

ولن نذكر هنا بطبيعة الحال ذلك الرأى الذى يقول بخطأ الحرب كلها، قرار البدء بها، ثم توقفها او ايقافها واخيرا قبول المحادثات السياسية.

وعندنا ان الاجابة عن هذا السؤال، مهما كانت اكاذيب العدو او «غفلة» البعض منا، ينبغي ان تكون موضوعية بحت، نقول ما لنا وما علينا ونضع الحقيقة فى حجمها الطبيعى، واثقين من قبل ومن بعد بأن الحق والحقيقة معنا دائما واكثر من اى وقت مضى، ان الموقف الميدانى لم يكن قط غامضا او ضبابيا أو متميعا بحيث يسمح فى تقييمه بوجهات النظر المختلفة فضلا عن التأويلات الشخصية او التحيزات الخاصة والتفسيرات الملتوية، ودعك تماما من قلب الحقيقة رأسا على عقب كما يفعل العدو الحقود ومن ضللتهم دعايته من بيننا.

موقف العدو

ولنبدأ بالعدو، واقع الامر ان العدو بعد ان خسر المعركة العسكرية وقبل ان تبدأ المعركة السياسية، فقد أدار معركة دعائية داوية على مستوى العالم فى هستيريا محمومة مكابرة ومريبة ليشوه بل ليسرق بها انتصارنا وليزيف لنفسه انتصارا موهوما منتحلا، وخلاصة هذه الحملة الدعائية هي أن العدو لم يهزم والعرب لم تنتصر، بل واكثر من هذا ان العرب هى التى هزمت (كذا!). بل والاكثر منه ان اسرائيل قد سجلت نصرا عسكريا اكبر وأعظم من انتصارها

الساحق في ١٩٦٧، وأن العرب ـ بالمقابل ـ تلقوا هزيمة عسكرية اكبر وافدح من هزيمتهم فى ١٩٦٧ (كذا!).

واخيرا وليس آخرا ذهبت اسرائيل الى حد القول بأنها لولا التدخل الدولي لوقف اطلاق النار لدمرت الجيوش العربية ولحققت انتصارا اكبر مما حققته بالفعل، وقد عبر حاييم هيرتزوج عن هذا في مؤتمر صحفي يوم ٢٧ اكتوبر بزعمه ان «العالم لم يكن يريد لاسرائيل ان تنتصر. وقد اظهر نحوها في اللحظات الحرجة عداء غريبا لا نستطيع تفسيره الا بانه نزعة من نزعات معاداة السامية» (!) . أما دايان فبعد ان اعترف بأن الجيش الاسرائيلي قد «عجز عن تدمير الجيوش العربية كما وعد». اضاف مستدركا «نتيجة لاسباب سياسية».

ذلك باختصار موقف العدو الدعائي في تقييم الحرب، اما اساس هذه النتائج او الاستنتاجات المثيرة، المثيرة للدهشة بعد السخرية، فهو انه إذا كانت مصر قد عبرت القناة الى سيناء فقد عبر هو القناة الى الضفة الغربية. حيث اصبحت قواته تحارب ـ كما اعلن وقتئذ ـ «فى افريقيا» (!)، وإذا كانت مصر قد استردت قطاعا على الضفة الشرقية فقد توسع هو ايضا في قطاع مناظر على الضفة الغربية، واخيرا فإن سوريا ومصر وان احرزتا انتصارات ميدانية لا سبيل الى انكارها، فإن

اعدو بالمقابل سجل مكاسب اقليمية وسعت منطقة احتلاله السابق بنحو ١٠ كم سواء على الجبهة السورية او المصرية، لتمتد بذلك «من سعسع الى الادبية» بعد ان كانت تمتد « من القنطرة إلى القنيطرة» فقط (!).

وإذا كان هذا هو موقف العدو الاسرائيلى المتطرف نفسه، وبخاصة مؤسسته العسكرية المتحكمة، فإن حلفاءه الامريكيين - اكثر تواضعا - ينتهون إلى انتهاء اقل تطرفا واعوجاجا ولكنه اكثر خبثا ربما، فالدوائر العسكرية فى واشنطن انتهت فى تقييمها للمعركة - هكذا حملت وكالات الانباء - الى انه ليس هناك منتصر ولا مهزوم، وأن الجولة انتهت بالتعادل بين الطرفين، هذا بينما تميل اغلب الدوائر المحايدة فى الخارج الى القول بأن العرب على الجملة قد حققوا «نصرا محدودا» ، قدره احدهم - بصيغة اسهم الشركات ؟ - بنسبة ٥١٪ للعرب ، ٤٩٪ لاسرائيل (!). . ولكن هذه النسبة - سنرى - ينبغى ان تعدل. وقد يكون من المبالغة ان نقول ٧٥٪ ضد ٢٥٪، ولعل المقبول شىء وسط بين الطرفين ، اذا كان ولابد من مثل هذه الصياغة.

وقبل ان نعود الى حقائق الميدان والى ملف المعركة نفسها، فإن لنا يقينا ان نتساءل او بالأصح ان نسأل العدو: فماذا اذن هذا الذى

يجرى داخل البيت ـ الجيتو اسرائيل ؟ كيف ولماذا تحول الى مأتم قومى حار، ومبكى وطنى على مقياس دولة ثم الى مستشفى امراض عصبية (أعلنت اسرائيل ان نسبة الامراض النفسية قد زادت ١٠٪ بعد الحرب!).

ان الخبر اليومى، ام لم نقل الخبز اليومى، الذى يخرج من اسرائيل منذ المعركة انما يصنع مادته الاساسية الحزن العميق والقلق والاكتئاب والخوف من الغد والاحساس العام بالضياع والاحباط وان المستقبل غير مضمون او مؤكد او موثوق به . ثم ما هذا الصراع وهذه الاتهامات الكاسحة المتبادلة بن قادة اسرائيل العسكريين ـ «حرب الجنرالات» ـ تلك الآلهة التى هوت والاصنام التى تحطمت ؟ وهذا التحقيق الرسمى الذى تديره الحكومة فى اسباب وملابسات «الكارثة» الوطنية التى اصابت «جيش الدفاع» و «الدولة اليهودية» ؟ ثم سقوط تلك الحكومة نفسها ؟ وو.. الخ؟

لقد اعترف كل قادة وزعماء اسرائيل انها اصيبت «بكارثة» مروعة ـ هذا تعبيرهم ـ فى ٦ اكتوبر، وتحدثوا علنا عن «اخطاء حرب اكتوبر القاتلة»، بينما اعترف ابا ايبان صراحة «بفشل اسرائيل فى سيناء» . فكيف يتفق هذا مع ادعائهم الانتصار؟ لقد قال رئيس المنظمة اليهودية فى ستراسبورج بعد المعركة بلا مواربة «ان الجولة الرابعة قد اسفرت

عن كارثة كاملة بالنسبة لاسرائيل.. فنتائج المعارك والانعكاسات التى بدأت تظهر عنها فى اسرائيل تؤكد اهمية الانتصارات التى حققتها القوات العربية فى المعركة، تلك الانتصارات التى أنهت الشعور بالتفوق الاسرائيلى وجيشها الذى لا يقهر، وأكدت كفاءة المقاتل العربى وتصميمه وفاعلية السلاح الذى فى يده». ولئن كان القادة الاسرائيليون، كما يقول كاتب يهودى آخر هو فيكتور سيجلمان، «يدعون ان اسرائيل قد انتصرت في الحرب، فان الاسرائيليين انفسهم لا يشعرون بأنهم انتصروا على الاطلاق». وفى المعنى نفسه كتبت مجلة تايم بعد ٥ شهور من انتهاء الحرب، كتبت تقول «ان معظم الاسرائيليين يشعرون الآن أنهم خسروا الحرب العسكرية فى اكتوبر الماضى، وأنهم يخسرون الحرب السياسية».

لماذا اذن - دعنا نحن نسأل انفسنا هذه المرة - تذهب اسرائيل إلى هذا المدى المخل والمخجل من التناقض الفاضح بين دموعهم فى الداخل ودعايتهم فى الخارج؟ كيف يحدث ان يتباكى متحدثو العدو وقادته على ان العالم لأمر ما «حرم» اسرائيل من تحقيق نصر، وفى الوقت نفسه يزعمون انهم قد سجلوا نصرا؟ هذه النكسة المقبضة والخسائر الفادحة، كيف تتفق عقلا ومنطقا مع تلك الدعوى الفاجئة.. دعوى النصر أو حتى اللاهزيمة؟

ثمة اسباب ثلاثة اساسية وراء هذه الاكذوبة الشاحبة، تستميت اسرائيل من اجلها، وثلاثتها - سيلاحظ - تؤلف حربا نفسية بعيدة المدى متعددة الابعاد.

أولها: ولعله اقلها اهمية رغم خطره البالغ، تمهيد اسرائيل للمعركة السياسية المصيرية التى ستترجم المعركة العسكرية الى مكاسب او خسائر اقليمية والى تسوية ارضية . فما دام لا غالب ولا مغلوب ، فلا مجال ولا محل لتنازلات سياسية او انسحاب من أراض محتلة. مادام لم يحدث تغيير في التوازن العسكرى، فلا مبرر لتغيير فى «الحالة الراهنة status quo اقليميا. تلك هى اللعبة، ولقد بدأتها اسرائيل من قبل بالفعل. ففي وجه المقترحات المصرية فى محادثات الكيلو ١٠١ ثم فى مؤتمر جنيف بانسحاب العدو من طرف واحد، رد بأن هذا «لايعكس حقيقة الموقف فى المعركة» (كذا)، واقترح بالمقابل ان ينسحب من الضفة الغربية للقناة، مقابل ان تنسحب مصر من ضفتها الشرقية فى غرب سيناء.

صفقة صفيقة كما هى سفيهة، وعليها كانت تراهن حتى قريب لكى لا تنسحب الي خطوط وقف اطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر.

أما السبب الثانى العاجل والملح لادعاء العدو بالنصر فهو اعلان الحرب النفسية المباشرة على الروح المعنوية العربية والمصرية، على

الوحدة الوطنية داخل كل بلد عربى، وخاصة سوريا، وبالأخص مصر، ثم على الوحدة القومية بين العرب جميعا، وواضح تماما منطق وهدف واسلوب العدو فى هذه الزاوية . فما دام العرب قد هزموا مرة ثانية، بل رابعة، بعد كل ما حدث، فما هو الامل، وما جدوى قياداتهم وانظمتهم التى توفر لهم الهزيمة بانتظام؟ محاولة دق الاسفين بين الجماهير والقيادات وبين الشعوب والنظم واضحة، والهدف هو احداث بلبلة وتساؤلات ثم انفجار عربى من الداخل يمزق الوحدة الوطنية والقومية ويقدم العرب فريسة سائغة للعدو وأطماعه التوسعية والاستعمارية التقليدية.

السبب الثالث والاخير هو من وجهة نظر العدو أشد خطرا على المدى البعيد لأنه يلقى بظلاله وانعكاساته على صميم الوجود والكيان الاسرائيلى ذاته، ذلك نقصد انقاذ فكرة الامن الاسرائيلى وهيبة القوة الاسرائيلية وصورة اسرائيل في العالم، فاسرائيل التى بنت وجودها كله على مبدأ القوة الرادعة الساحقة، واسطورة التفوق العسكرى المطلق لا يمكن ان تسمح لنفسها او ان يسمح لها بأن تهزم، ومن ثم لا يمكن ان تعترف بهزيمة، ان مثل هذا الاعتراف لمرة واحدة كفيل بأن يهدد وجودها الى الابد، وعليها الآن من هذا المنطق وبعد ان هزمت بالفعل ان ترفض الإقرار بالهزيمة وان تقاومه بكل ضراوة حفاظا على

روحها المعنوية المتداعية من الانهيار الكلي، وذلك بأمل ان تصحح الموقف بنصر غادر تختلسه فى اقرب فرصة متاحة مستقبلا.

وسنجد بالفعل انه شرط اساسى ومنطقي جدا لموقف اسرائيل الراهن، من انكار الهزيمة وادعاء النصر المزور، ان تباغت يوما ما بالهجوم ، انها لا يمكن ان تخدع نفسها حقيقة، وانما هى تخادعنا نحن ، على نية مبيتة ومحتومة بتحويل هزيمتها الى نصر قريب يجبها ويمحوها من سجل حياتها.

وهذا انتهاء بديهى كما هو جوهرى بالنسبة للعرب، وعلينا ان نعيه جيدا لانه مؤشر مؤكد نحو سلوك العدو المستقبلي، غير ان هذا موضوع آخر سنعود اليه بتفصيل فى موضعه.

حساب الخسائر والارباح

أما الآن، فلنستعرض كشف حساب المعركة وصولا الى تقنيم موضوعى متزن لنتيجتها، بعيدا عن دعاية العدو وادعاءاته وعن التحيز الشوفيني او المزايدة والمناقصة، وهناك اساسان ممكنان للحساب : خسائر الجانبين فى السلاح والرجال، وخسائر او مكاسب الجانبين فى الأرض.

الرجال والسلاح

فإذا بدأنا بالاولى، فإن تقديرات الخسائر تختلف بحسب مصادرها، ولكن المتوسطات المقبولة في اغلب الدوائر المحايدة والمعتدلة تدور على النحو الآتى :

خسائر العدو فى القوة البشرية عشرة آلاف قتيل - هذا تقدير فرنسى وامريكى يشمل الجبهتين السورية والمصرية. وهناك تقدير رويتر، ٨٠٠٠ قتيل.

وهذا على اقل تقدير يفوق كثيرا مجموع خسائر العدو، كما اعلنها هو نفسه، منذ ١٩٤٨ وحتى ما قبل اكتوبر، والتى تبلغ ٦٠٠٠ قتيل، وإذا كان دايان قد «اعترف» بأن خسائرهم فى اكتوبر ثلاثة امثال ما خسروه فى ١٩٦٧ (وهى فى تقديرهم المعلن ٧٥٩ فردا) فهذا تضليل سافر وكاذب، لأن الارقام التى اعلنتها اسرائيل بنفسها تفوق هذه الحسبة بكثير، ولقد صرح احد كبار الاساقفة الامريكيين بعد زيارة للقدس بأنه علم ان عدد القتلى الاسرائيليين فى اكتوبر يبلغ فى الحقيقة ٣ أو ٤ أمثال الارقام الرسمية المعلنة، وعلى اية حال، فإذا نحن اضفنا الى قائمة القتلى هذه عدد الجرحى الاسرائيليين الذى يقدر بنحو ٢٠ ألفا، لأدركنا بسهولة صحة القول الدارج من ان فى كل بيت بإسرائيل اليوم تقريبا قتيلا او جريحا او اسيرا أو مفقودا على

الأقل، أو كما كتب ليفي هيروشليمي في معاريف ، «لا يوجد حي او شارع او كيبوتز دون عائلات مصابة».

أما بحساب القتلى وحدهم، فلقد قدر انه يعادل بالنسبة لعدد السكان فقدان الولايات المتحدة مثلا لثلثي الى ثلاثة ارباع المليون، او مرتين ونصف المرة الى ثلاثة اضعاف خسائر الولايات المتحدة فى فيتنام على مدى ١٠ سنوات ، كما ان هذا يعني ايضا ان نسبة القتلى الى عدد السكان هى ١ : ٣٠٠ ، اى ٠٫٣٪ ١٠٠٠٠/٣٠٠٠٠٠٠٠ ..
اما إذا قارنا بخسائر مصر في ١٩٦٧ ، التى تعد حالة شاذة جدا، والتى تقدر بصفة غير رسمية بنحو ٢٠ الفا ، فإن خسائر اسرائيل فى اكتوبر تعادل النصف، غير اننا اذا عدنا فنسبنا الى عدد السكان (٣ ملايين ضد ٣٦ مليونا) ، فإن خسائر اسرائيل فى اكتوبر تعادل كما لو ان مصر فقدت ١٢٠ ألفا، اى ستة امثال خسارة مصر فى يونيو.

هذا فى القوة البشرية. اما فى السلاح فان تقدير خسائر العدو يدور بالتقريب حول ١٠٠٠ دبابة، وبضع مئات من الطائرات، البعض يقول ٢٠٠، والبعض يصل بها نحو ٣٠٠ طائرة، وآخرون إلى اكثر والمقول ان هذا يعنى ان العدو فقد نصف سلاحه عامة ، وفى تقدير آخر نصف قوته المدرعة وثلث قوته الجوية ، وفى تقدير ثالث ثلاثة ارباع سلاحه الجوى بالذات. وفى هذه الخسائر الرهيبة قال الصحفى

الامريكى أرنو دى بورجريف «ان ما شهدته على جبهة السويس لم اشهد فى ١٢ حربا».

أما خسائرنا نحن فى السلاح فهى على ضخامتها اقل بكثير وباجماع الكل من خسائر العدو، على الاقل باعتبار كل من الدولتين العربيتين على حده وهى فى الرجال اقل مما فقدناه في حرب يونيو . فاما فى السلاح، فكما وضعها المتحدث العسكرى المصرى فى منتصف ايام القتال تقريبا فإن خسائره. ولما كانت خسائر إسرائيل كما اعلنها المتحدث المصرى فى المناسبة نفسها هي نحو ٣٠٠ طائرة، ٥٠٠ دبابة، فـ كن ان نستنتج من هذا وذاك ان خسائرنا كانت ٦٠ طائرة، ١٧٠ دبابة. غير ان هذه الأرقام ، حتى مع حفظ النسب المعطاة، لابد ان تعدل كثيرا ـ بالزيادة ـ بعد ان تضاعفت خسائر العدو تقريبا بنهاية القتال.

أما خسائرنا فى الرجال فلم تعلن رسميا، ولكن مجلة «تايم الامريكية» تضعها فى حدود ٣٠٠٠ فرد، وتقول : إن هذا يعنى بحسب نسبة السكان ان خسائر اسرائيل ١٠ أمثال خسائر مصر. وهناك بعض مصادر اجنبية تعطى أرقاما اكبر بكثير ، ولكن هذه لا عبرة بها ولا اعتبار لها، فحتى ها أرتس قد اعترفت بأنه «حتى بالنسبة للاصابات فى الجنود المصريين ، فان التقديرات تشير إلى

انها نسبة لا تكاد تذكر مقارنة باجمالي عدد الجيش . فهى اقل وبكثير من ١٪». ذلك كله رغم ان المفروض نظريا وعمليا ان خسائر المهاجم ترجح دائما وبالضرورة خسائر المدافع، وهى فى حالتنا طفيفة بدرجة نادرة بالنسبة لما حققناه من انتصار وانجاز.

أما على الجانب السورى، فليس لدينا تقديرات متاحة، لكن خسائر العدو على تلك الجبهة لا تقل عن عدة مئات من الدبابات وبضع مئات من الطائرات، إلى جانب رقم كبير من القتلى قد يزيد ايضا عن خسائر السوريين زيادة كبيرة للغاية، أما على الجانب العربى على الجملة فقد ورد فى حديث للمناضل ياسر عرفات ان مجموع شهدائنا على الجبهتين ٩٠٠٠، منهم اقل قليلا من الألف من الفدائيين الفلسطينيين ، بالاضافة الى ٢٠٠٠ دبابة.

وإذا كان لهذا كله من معنى فهو ان الجيش المصرى وكذا السورى خرج كلاهما من المعركة وهيكله الاساسى سليم تماما وقادر على العودة الى القتال بكامل قوته، بينما ان الجيش الاسرائيلى قد خرج بالفعل مدخورا محطما، لولا المساعدات الامريكية الخرافية والجزافية لكان غير صالح للقتال من جديد قبل سنين.

الأرض

يبقى الآن كشف حساب الأرض، الورقة التى ظنها العدو رابحة وبها كان يلعب لعبته الدعائية المكذوبة ومناورته السياسية المكشوفة، والنقطة التى لا نظنها جدلية بقدر ما تحتاج الى التصحيح إن فشل التوضيح.

بحسب ما اعلنه المتحدث العسكرى المصرى عشية اعلان وقف اطلاق النار في ٢٢ اكتوبر، كانت القوات المصرية تسيطر على منطقة من سيناء مساحتها ٣٠٠٠ كيلو متر مربع، تمتد بطول القناة من البحر الى الخليج وبعمق يتراوح بين ١٧ ، ١٢ كم. أما قوات العدو فكانت تضع يدها غرب القناة على رقعة مساحتها ٣٠٠ كيلو متر مربع، ٧٠ كيلو مترا منها هي التى كانت قد احتلتها قبل وقف النار.

على هذا الاساس، واضح تماما، حتى من حيث المساحة البحتة، انه لا وجه للمقارنة على الاطلاق. فالنطاق المصرى قاعدة ارضية عريضة صلبة وثيقة تبلغ عشرة اضعاف مساحة الوجود العدو والعدوانى غرب القناة، والذى لا يعدو جيبا ضئيلا مختوى محصورا تماما في تضاعيف وقبضة قواتنا، فضلا عن ان معظمه تحقق بالغش والخداع ومفروض أن ينسحب العدو منه بفرض الامم المتحدة

والا فبالقهر العسكرى، انه اسفين محكوم عليه سياسيا والا فعسكريا.

وعلى خريطة اتفاق فصل القوات التى نشرتها وكالات الأنباء العالمية، تبدو مساحة الجيب الاسرائيلى غرب القناة مساحة كبيرة طولا وعرضا تبدأ فى الشمال جنوب مدينة الاسماعيلية مباشرة وتنتهى فى الجنوب بعد السويس عند الأدبية وجبل عتاقة، واما نحو الداخل فتتعمق فى كتلة متصلة بلا انقطاع حتى خط يمتد من ابو وبر شمالا حتى الكيلو ١٠١ على طريق السويس - القاهرة جنوبا. وبهذا يبدو الجيب الاسرائيلى فى نحو مجموع مساحة المنطقة المحررة شرق القناة، التى تنقسم الى نطاقين يفصل بينهما نحو ٢٠ كم، ولا يفسر هذا الاتساع غير العادى الا ما رأيناه من تسطح وتخلخل فى كثافته.. هذا أولا.

ثانيا: ليس بالمكاسب الأرضية وحدها تتحدد نتيجة الحرب الحديثة، وخاصة حروب التحرير، وبالأخص حروب الصحراء، لمدى تدمير القوة البشرية وقوة السلاح اعتبار اكبر واخطر، وفى هذا فلقد تلقت اسرائيل ضربة صادمة ونزيفا رهيبا لاشك فيهما، لم تعرفهما من قبل طوال حياتها، يتعديان اعرض احلام اعدى الأعداء، ويتجاوزان كل حدود مكابرة أو انكار أشد الأصدقاء عنادا وتعصبا..

هذا بينما خرج العرب بالحد المناسب من المكاسب العسكريه وبالحد الادني من الخسائر البشرية وخسائر السلاح.

ثالثا: لا سبيل إلى المقارنة اى مقارنة بين الانجازة العسكرية المصرية المتمثلة فى العبور واقتلاع الخط وانتزاع القاعدة شرقا وبين عملية الاختراق العدو غربا. ولدينا فى هذا شهادة ناطق العدو، هيرتزوج، ان «من الضرورى وضع عملية التسلل الى غرب القناة فى إطارها الصحيح، ويجب ألا ننسى فى أية لحظة ان المعركة الحقيقية إنما تدور فى سيناء، هذا بينما كتب صحفى امريكى هو هنرى تانر يقول «واضح ان الاسرائيليين قد شنوا هذه العملية لأهداف سياسية ونفسية ، وخاصة لمحاولة دعم موقفهم فى المساومات إزاء ضغط خارجى متزايد لوقف اطلاق النار». وهناك ايضا حكم ريتشارد كروسمان، الزعيم العمالى البريطانى العريق فى صهيونيته:

«نشاط الاسرائيليين غرب القناة، «طنطنة» فارغة، لن يكسبوا منها شيئا سوى مزيد من الخسائر».

فإذا جئنا الى التقييم الموضوعى المقارن بين الانجازتين العسكريتين المضادتين شرق وغرب القناة ، فإن الحقائق الوحيدة التى تبقى وتقوم هى كالآتى .. أولا ، لقد قلبت الاولى توازنا قائما كاملا

برمته وغيرت مصير الصراع لاول مرة، ولكن الثانية لم تغير حتى مجرى المعركة او تقلب توازنها المحلى.. ثانيا، ثمة كذلك فارق جوهرى بين طبيعة الانجازتين بعد نقطة مهمة جدا فى المقارنة: وجودنا شرق القناة غير قابل استراتيجيا للاقتلاع، ولكن وجود العدو غربها قابل .. ثالثاً واخيرا.. وفى المحصلة العامة، يمكن ان نلخص حقيقة الموقف كله فى ان النصر العربى «نصر استراتيجى» بينما الاسرائيلى «نصر تكتيكى» وهذا بالضبط مفتاح القضية برمتها والقول الفصل فيها.

أما ان يدعى العدو بعد هذا فى دعايته ان نصره مكافىء عسكرى لنصرنا، وان النتيجة الصافية بالتالى هى التعادل «بالنقط» ، فهذه مغالطة اما بالغة السذاجة او فائقة الخبث ـ والاخيرة الأرجح .. بل لقد فضح العدو بنفسه اخطاء وقصور عملية الاختراق بصورة تقلص حتى من قيمتها المحدودة كنصر تكتيكى. ففى الاتهامات الحادة المتبادلة بين جنرالات العدو بسبب الهزيمة، كان الاتهام الاساسى الموجه الى شارون ، بطل العملية والذى صور ـ اسرائيليا ـ على انه بطل الحرب الرابعة كلها واله الحرب الجديد وملك اسرائيل الأخير، هو انه افسد تنفيذ عملية الدفرسوار بحيث حققت من المكاسب اقل مما حققت من الخسائر، حيث تمت بأكبر قدر متصور

من الخسائر البشرية وتبديد السلاح ، وهذا اعتراف صريح بما فيه الكفاية يكذب الادعاء البائس بتعادل النصرين العربى والاسرائيلى.

حقيقة الموقف

وإذا كان هذا هو الموقف المكابر والكاذب للعدو الرسمى، فإن قطاعا كبيرا من الرأى العام الاسرائيلى قد تولى مهمة الرد عليه وتفنيده ، فأكد بصورة قاطعة ان المعركة كانت خاسرة بالنسبة لإسرائيل ووضح حقيقة الهزيمة التى تحاول السلطات الاسرائيلية اخفاءها عن شعبها، مثلا كتبت ها آرتس غداة انتهاء القتال تقول : إنه إذا كان الهدف الأساسى امام الجيش الاسرائيلى من القتال هو تحطيم الثقة الذاتية للجيش المصرى عن طريق تدمير سلاحه او رجاله، فقد اكد وقف إطلاق النار انه لم يستطع تدمير جيشى سوريا ومصر، ومن الواضح ان ثقة الجيش العربى بنفسه ومعداته لم تتقوض . «والحقيقة انه حتى بدون وقف النار الآن، فان من المشكوك فيه ان جيش اسرائيل كان سينجح في تدمير الجيش المصرى، فمن اجل تحقيق ذلك فى وقت قصير، كان جيش اسرائيل يحتاج إلى قوات اكثر مما عنده، بينما من اجل تحقيق الهدف بالمعطيات القائمة كان يحتاج الى حرب طويلة ومضنية».

وفي الصحيفة نفسها كتب زيف شيف في مقاله «من انتصر»؟» يقول : «إن الحد الأدنى الذى كان مطلوبا لنا هو دحر المصريين فى سيناء، وهذا ما لم ننجزه». واضاف «ومن ناحية الارض - وهو الاهم ليست هناك اهمية خارقة لحقيقة اننا نحتل الآن كذا كيلومترا غرب القناة، لانه إذا لم يتم التوصل الى تسوية سيكون من الصعب جدا على اسرائيل التمسك بالخطوط الجديدة إلا بجيش اكبر».

كذلك كتب إورى دان فى معاريف غداة وقف النار ايضا ان «الامر يبدو خطيرا جدا، لان هذه المرحلة من الحرب انتهت عشية وقف القتال دون هزيمة مصر، رغم الضربات التى وجهتَ لها، وبعد الخسائر التى تكبدناها فى الارواح والمعدات، وواضح انه من غير الممكن قياس النجاح بعدد الكيلومترات المربعة التى يحتفظ بها الجيش الإسرائيلى». كذلك اصبح من أولويات الحياة فى اسرائيل ان تحول دايان الى موضع انسخط المستمر والتهجم الثائر المثير بسبب «النكسات الفادحة التى منيت بها إسرائيل فى حرب ١٩٧٣» أصبح «وزير العار» كما سبته المظاهرات الغاضبة والحاشدة اليومية.. «ورمزا لكل ما هو خطأ فى اسرائيل كما عبر بعض الضباط الشبان .. الخ.

واخيرا.. وفى ندوة عقدت فى القدس فى مارس ١٩٧٤ شارك فيها الجنرال بيليد، اتفق المجتمعون على ان «اسرائيل لم تحقق اى انتصارات فى حرب اكتوبر، » وان كل ما حققته هو مكاسب تكتيكية فحسب، لا تكفى لان تحرز بها اى تغيير اساسى لصالحها، وارجع المنتدون ذلك الى ان اسرائيل فشلت فى ان تتوصل إلى نصر عسكرى حاسم، إذ انها وجهت فى البداية هجوما مضادا إلى سوريا لتدمير جيشها فلم تنجح فى ذلك، وعندما حولت قواتها نحو الجبهة المصرية فانها فشلت كذلك فى تحقيق هدفها هناك.

وقد وضح احد المتحدثين ان استراتيجية الدفاع الاسرائيلية مازالت كما هى منذ ما قبل حرب ١٩٦٧، ثم اكد انه اصبح من الضرورى ادخال تغيير اساسى على أساليب اسرائيل التكنيكية فى العمليات كما فى الاستراتيجية نفسها.

ذلك اذن موقف العدو، لا نقول منقسم على نفسه بين الشك واليقين، بل بين الخداع والاعتراف. ومن الملاحظ ان العدو قد استخدم كل الالفاظ الممكنة والمتاحه للتعبير عما اصابه فى المعركة، الزلزال، الصدمه، الضربة، وتحدث عن الخسائر الفادحة، والأخطار المحدقة، عن التقصير، عن الكارثة والفشل.. الخ، لكنه كان حريصا جدا على الا

يتكلم عن «هزيمته» قط. ولكن لا يجب ان يخالجنا اى شك فى ان العدو فى هذا كما فى غيره يكذب باستمرار وانتظام، لا نقول كما يتنفس ولكن كما يرسم ويخطط. بل قد اعترف بعض قادته اخيرا بذلك صراحه. قال اليعازر، تقريبا عشيه سقوطه معزولا، «من المؤكد انه كانت هناك أخطاء ، ومن الطبيعى ان يحدث تركيز على هذه الاخطاء». ثم اردف بلا مواربة «ان مبدأنا الا نقول كل الحقيقة ، حتى نشجع رجالنا ونثبط همة العدو»

واذا كان من المسلم به ان جميع الدول المحاربة فى العالم لا تعلن الحقائق السالبة او حتى الموجبة كاملة تماما لا عتبارات الامن والمعنويات وضرورات الصراع المعقدة... الخ، فقد فسر البعض مزاعم العدو الاسرائيلى على اساس ان معادلة الاعلام العسكرى الاسرائيلى تقوم على ضرب مكاسبه هو وخسائر العدو فى اثنين، وقسمة خسائره هو ومكاسب العدو على اثنين ! ولهذا فإن المحصلة الصافية لا يمكن ان تعدو او تبلغ ربع الحقيقة! ومهما يكن فليس لنا او لأحد ان يأخذ بأقوال العدو او ادعاءاته ببساطة أو بسذاجة، لا سيما عن « نصره » المزعوم.

امـا نحن من جانبنا ، فليس لنا ان نشك لحظة فى ان النصر الصافى، على الجملة وفى التحليل الاخير، كان لنا. وإذا كان العدو

يزعم أنه لولا التدخل الدولى لحقق الانتصار فى نهاية الحرب، وأن قرار وقف اطلاق النار وحده الذى انقذ العرب من الهزيمة ، فعليه ان يذكر أنه لولا هذا التدخل الاجنبى نفسه لما حقق العرب النصر الكامل فى وسط الحرب فقط بل ولسحقوا اسرائيل نهائيا، فكما يقول بوفر «لقد اصاب الشلل اسرائيل في الفترة الاولى من الحرب حتى حصلوا على معدات أمريكية فائقة التطور، ومع ذلك فلم يستطيعوا ان يحرزوا ذلك التفوق الكامل الذى احرزوه فى ١٩٦٧» . أو كما اعلن مسئول كبير فى الوزارة المصرية «الحكومة الامريكية منعت العرب من الحاق هزيمة كاملة باسرائيل». ولدينا ايضا اعتراف دايان من ان «امريكا لا تريد لاسرائيل ان تخسر الحرب». وهناك كذلك استغاثة اسرائيل بأمريكا فى وسط المعركة، تلك التى شبهها البعض بأنها استغاثة غريق على وشك الموت

S.O.S message ، والتى ارسلتها جولدا مايير شخصيا الى نيكسون يوم ١٢ اكتوبر قائلة فيها «اذا لم تقدم الولايات المتحده شحنات ضخمة وعاجلة من السلاح، فسوف يؤدى ذلك الى انسحاب اسرائيل من الحرب».

ثم لدينا الآن فى هذا ، وهو الاهم، شهادة مباشرة بل اعتراف صريح من أمريكا نفسها. فقد نقلت الاخبار عن المصادر الامريكية

تصريحها بأن اسرائيل كانت «تواجه مأزقا استراتيجيا حرجا وطريقا مسدودا في اثناء حرب اكتوبر . فقد كشفت الحرب لاسرائيل قابليتها للهزيمة، وان شحنات الاسلحة الامريكية اليومية هى وحدها التى انقذتها،واضافت تلك المصادر فى تلميح كاشف انه «عندما تجد إحدى الدول نفسها عاجزة عن توجيه ضربات لإعدائها، فلا بد ان تعترف انها تواجه مأزقا استراتيجيا». واذا كان ذلك كذلك، فان علينا، مهما يكن، ان نعترف ايضا بأن عملية الاختراق، رغم انها نصر ثانوى بالنسبة لنصرنا الاساسى ولا تغير من النتيجة الشاملة للمعركة، قد اساءت بالتأكيد الى انتصارنا الكبير واخذت بالضرورة شيئا من وقدته وسناه وقدره واطفأت قدرا من بريقه ولمعانه. هذا عدا ما اعطت من مادة دسمه لدعاية العدو ليقلل زورا وبهتانا من حجم انتصارنا الحقيقى ومن حجم هزيمته الحقيقية ، بل وإلى حد قلب معه هزيمته الحقيقية الى نصر ملفق ونصرنا الحقيقى الى هزيمة مكذوبة . ولولا هذه العملية لظل انتصارنا الاول والاولى بكامل حجمه وثقله وبكل سموقه وشموخه . ومن الملاحظ بالفعل بين جماهير الشعب ان موجة الامال الشاهقة العليا التى اثارتها انتصاراتنا الاولى قد أصابتها بشئ من الفتور والهبوط الملحوظ تلك العملية الاختراقية. ان المد العربى، وإن لم يتحول قط إلى جزر، فقد فقد لا شك بعضا من اندفاعه وارتفاعه.

وها هنا لا بد لنا ان نعترف بأنه كان خطأ لا يبرر كما لا يغتفر ان سمحنا لتلك الثغرة وتلك الاختراقة ان تحدثا. لقد كان من الواضح منذ الايام الاولى للمعركة ان العدو مستميت الى حد الانتصار من أجل تحقيق هذا الهدف. وهو من قبل لم يخف تهديده بأن أى محاولة من جانبنا لعبور القناة شرقا لن تستبعد عبوره غربا. وصحيح ان من الثابت الان ان التخطيط المصرى لم يغفل الاحتمال، بل واعد واستعد له وتدرب عليه مرارا. لكن هذا لا يغير من الحقيقة والواقع.

كذلك فلقد كان مفهوما من جانبنا انه مهما تطورت احداث المعركة فى سيناء، فكحد ادنى لن يسمح ولا ينبغى قط ان يسمح للعدو بأن ينقل المعركة الى ارض الوادى. وليس ردا ان يقال ببساطة ان الحرب سجال وكر وفر، تحتمل كل الاحتمالات، او انها يوم لك ويوم عليك. وليس ردا - إلا فى سياق واحد فقط، وهو الحرب المتصلة . اعنى انه لا تبرير لعملية الاختراق تلك الا فى سياق استمرارالقتال بعدها كما كان قبلها.

أما وقد توقف القتال، فقد اصبح المعنى الوحيد المقبول والبديل الوحيد للاستمرارهو كما سنرى الاستئناف، أى العودة الى القتال، الا اذا انسحب العدو سلما.

مهما يكن، فأما وقد حدث ما حدث، فقد أصبح السؤال هو كيف ننقذ انتصارنا الغالى الثمين [والحقيقى جدا] ونستنقذه من حملة تشوية العدو وتمييعه ان لم نقل تبديده وتخريبه . لقد رد انتصارنا الاول اعتبارنا فى العالم، وقد وجب الان ان نرد له اعتباره هو الآخر. وهذا يعنى ان واجبنا هو ان نصحح موقفا، لا نقول سيئا، ولكن كان يمكن ان يكون اروع وأعظم وأكمل . كان الواجب ان نحول التطور الانتهازى المختلس من «خصوم» علينا وعلى حساب المعركة إلى «اصول» لنا ولنصرنا. فكيف؟

لقد كان المفروض بحسب نصوص اتفاقية وقف اطلاق النار وشروطها الستة التى اعتمدتها الامم المتحدة وضمنتها الدولتان الاعظم ، ان ينسحب العدو «فورا» الى ما وراء خطوط ٢٢ اكتوبر، أى الى بقعة لا تزيد على ٧٠ كيلو مترا مربعا حول الدفرسوار. ولكن كان من الواضح لمدة طويلة ان العدو يماطل ويسوف ويساوم ليتهرب من قضية الانسحاب الاكبر والكلى التى ستكون وحدها صراعا آخر بلا حدود على ما يبدو. ويبدو كذلك ان العدو لم يكن يريد أن يربط بين الانسحاب الى خطوط ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣وبين الانسحاب الى خطوط ٤ يونيو ١٩٦٧، بل كان يحاول ويتحايل على عدم الربط بينهما ليساوم بالأولى على الثانية وليضع هذه عقبة مانعة فى سبيل تلك . ولذا كان لا

بد من انذاره والزامه بحد زمني أدنى للإنسحاب . فاذا لم يفعل فلا مفر من القوة، لا مفر من العودة إلى القتال.

إن وضع العدو الاستراتيجى غرب القنال لم يكن «هشا» فحسب كما قيل، ولكنه «هامشى» ايضا. اعنى انه وضع «حدى» يمكن ان يتطور (سيان هنا ان تقول يتدهور) الى احد النقيضين بدفعة كبرى اما من هذا الجانب او ذلك. فقد كان من المتصور أن يحاول العدو فى نوبة من اليأس ان يتم اختراقه بمباغتة غادرة، بينما كان يمكن ان يسحق ويباد إبادة كاملة بضربة منا قادرة. ان النصر التكتيكى الذى أحرزه العدو هنا كان يمكن تماما ان يتحول إلى هزيمة استراتيجية كبرى وأخرى له .

وقد لخص نائب رئيس وزراء مصرى هذا الموقف كله بدقة فقال : إنه حين «تحركت اسرائيل بعد ٢٢ أكتوبر فى غرب القناة للحصول على مركز سياسى، وهى تعلم ان مواقعها العسكرية فى المنطقة محاطة بقواتنا المسلحة بل هى فى مصيدة تحرمها من ايه قيمة عسكرية، فإن الأمر بالنسبة لرفع هذا الجيب الاسرائيلى كان يتمثل فى إجراء عملية عسكرية كاملة شرق القناة وغربها مثل عملية ٦ اكتوبر. وكانت هناك موازنة بين آمرين وهما: اما دخول المعركة بقواتنا فى الشرق والغرب على ضفتى القناة، او نبحث اقتراح كيسينجر الخاص بفصل القوات

ليخرج العدو من الضفة الغربية نهائيا وليس فقط العودة إلى خط ٢٢ أكتوبر، وذلك بعد ان وضح للعدو انه تم تعزيزنا في غرب القناة بقوة كبيرة فى الفترة الاخيرة».

معنى الانسحاب

وهذا بالدقة ما أثبتته وقائع التطورات اللاحقة، وان يكن بغير طريق القتال، فقد أدرك العدو، كما أعلن الون ودايان وغيرهما صراحة ، ان حرب الاستنزاف التى تعرضت لها قواته على جبهة القناة كانت ستتصاعد حتما الى حرب جديدة «ستعرض أمن اسرائيل للخطر». او كما اعلنت مايير «لم يكن امامنا من بديل لفصل القوات سوى مواجهة حرب جديدة مع مصر » ولهذا وبعد أقل من ثلاثة أشهر من المعركة، وبعد كل مواقف التصلب والعناد والمزايدة، وبدون أدنى تنازلات من جنب مصر، اضطر العدو مرغما فى اتفاق الفصل بين القوات الى القبول بالانسحاب التام لا من الضفة الغربية برمتها وحدها، ولكن ايضا من نطاق كبير من الضفة الشرقية كذلك.

ففى هذا الاتفاق الذى وصفته صحفية اسرائيلية بأنه «مخاطرة محسوبة تعطى مزايا سياسية واستراتيجية مهمة لمصر»، سلمت اسرائيل بالانسحاب المباشر من جميع الاراضى المحتلة الواقعة غرب

خط يوازي قناة السويس بطول امتدادها ويبعد عنها ٣٠ كم، اى قرب مشارف ممرى متلا والجـدى، وبالفعل اخذ العدو صاغرا، بعد شهور معدودة من المعركة وخلال اسابيع محدودة منـذ الاتفاق ، ينسحب كما جاء، ولكن في خط محدد عكس ما جاء: من الضفة الغربية أولا ، من الجنوب الى الشـمال على التـوالى، ثم مـن الضفة الشرقية، من الغرب الى الشرق على الترتيب. وبذلك اصبحت مصر مسيطرة على جانبى القنـاة تماما، واتسـع نطاقها المحرر في سيناء، وتحول الميزان الاستراتيجى لصالحها، واصبحت في الوضع الاستراتيجى الافضـل، ومنه يمكنها التقدم فورا الى معـركة فاصلة اذا لـزم الامر مستقبلا.

واذا كان لهذا الانسحاب من معنى، فهو انه اساسا اعتراف، اعتراف مزدوج: اولا، بخطورة وضع الجيب الاسرائيلي غرب القناة، وفي هذا فان اعتراف دايان صريح تماما: «ان وجهة النظر القائلة بأن على إسرائيل تحتفظ بمواقعها على الضفة الغربية من القناة هى وجهة نظر خاطئة . انها ربما تؤدى الى انتصار براق، ولكنه لا يؤدى بدوره إلا إلى حالة حرب دائمة». اما الاعتراف الثانى فهو بأن النصر العسكرى الحقيقي في أكتوبر إنما كان للعرب. وخير ما عبر عن هذا ما قاله مصدر عسكرى فرنسي بعد اعلان اتفاق فصل القوات من «اننا

نستطيع الآن ان نقول بعد ثلاثة شهور من النجاح العسكرى المصرى ان ما حدث فى أكتوبر اصبح امرا واقعا مسلما به». وقد فسر ذلك بان اجتياز الجيش المصرى لقناة السويس فى ٦ أكتوبر يمثل نجاحا فعليا واستراتيجيا بحيث لا يمكن تصور المطالبة بإجلاء القوات المصرية من مواقعها، بينما ان اجتياز الجيش الاسرائيلى إلى غرب القناة لم يكن مامونا سواء استراتيجيا أو عسكريا.

وليس من شك في أن هذا الانسحاب نصر سياسى ، لأنه يعنى أن إسرائيل لم تعد فى وضع الذى يفرض إرادته ، بل هى على العكس التى ترضخ للإرادة العربية . ولاشك كذلك أن هذا النصر السياسى يمثل أولى ثمرات النصر العسكرى فى أكتوبر ، ولولاه لما كان . واعتراف مايير هنا صريح وقاطع . فقد قالت عن إتفاق الفصل بين القوات أمام الكنيست انه «ثمرة ما انتهت إليه الحرب ، وانعكاس لانتصارات مصر فى الأيام الأولى من القتال» كذلك فليس أدل على هذا من موقف المعارضة وكثير من الإسرائيليين الذين اعتبروا اتفاق الفصل «استسلاما تاما» و «ليس تخفيضا للقوات وإنما تخفيض لأمن إسرائيل» كما قال بيجين : «وتنازلا من جانب واحد بلا مقابل» عن «الورقة السياسية والعسكرية الرابحة الأساسية والوحيدة» فى يد إسرائيل كما قال شارون بطل الثغرة الذى استقال احتجاجا على

الاتفاق ، والذى أعلن أيضا أن صيغة خط الممرات ليست إلا خدعة لأن ممرى متلا والجدى «لا يحميان الا منطقة محدودة من سيناء» .

أما كتلة ليكود فقد هاجمت الاتفاق قائلة «لقد تصرفنا كمنهزمين فى الحرب الأخيرة» ، وأضافت «أننا لم نحصل على شىء فى المقـــابل ، لا الاعتراف بإسرائيل ، ولا وضع حد لحالة الحرب ، ولا حتى مبدأ نزع سلاح الأراضى التى يتم الانسحاب منها» . كذلك وصف بعض أصدقاء إسرائيل الاتفاق بأنه «ليس فى صالحها» . هذا بينما ذهب إسرائيليون كـثيـرون إلى أن الانسـحـاب قـد يكون الخطوة الأولى «نـحـو تصـفيـة إسرائيل على مـراحـل» ، على حين ذهب آخـرون الى أن كـيـسنجـر ، مهندس الاتفاق، أراد السلام «فأتانا بكارثة» .

ثم نعود ، بعــد أن استكملنا رحلتنا طويلة ومـوضـوعيـة حتى نهـايتـهـا، إلى سـؤالنا الأصـلى : لمن النصـر ؟ خلاصة الرحلة كلهـا وجـوهر الحقيقة الواقعة برمتها هى أن النصر الميدانى التدميرى كان لنا بالقطع ، ولكن شابه وضــع القوات الاقليمى ، غير أن هذا الوضع تكفلت بتصفيته التطورات التى حتمها النصر الأول . بذلك استرد نصرنا على الجملة وزنـه الحقيقى واتضحت أبعاده الطبيعية ، ولم يعد هناك من مبرر أو حتى مجال للتساؤل عما اذا كنا انتصرنا أم لم ننتصر .

بل إن هناك ملاحظة لعلها اخذت تفرض نفسها بالتدريج على الجميع الآن ، وهي أنه كلما مضي الوقت وتقادم العهد بالمعركة ، زدنا اقتناعا بنصرنا وزاد نصرنا حجما في أنظارنا العالم . بعد المعركة مباشرة كان ثمة حيرة في حقيقة النصر عند البعض ، ثم عدم وضوح كاف ، ثم اقتناع محدود ، ولكن مع الوقت تحول الاقتناع المتحفظ الى اقتناع مطلق والشك إلى يقين قاطع . كأن حقيقة نتيجة المعركة كانت كلوحة مرسومة كلما اقتربت منها ضاعت ملامحها في تفاصيلها ، ولكي تراها على حقيقتها لابد أن تبتعد عنها بقدر كاف .

لقد كان النصر العسكرى فى حرب أكتوبر عموما لنا بلا ريب ، ويمكن الآن بتحديد اكثر أن نضيف : ربما بنسبة ٢ : ١ بمعنى أن نصرنا يعادل ضعف نصر العدو وأن هزيمته تعادل ضعف هزيمتنا ، وفى المحصلة فان النتيجة العامة ليست ٥٠ ـ ٥٠٪ أو ٥١ ـ ٤٩٪ كما يود أن يحددها البعض . واذا كان من المبالغة أن نضعها عند ٧٥ ـ ٢٥٪ فلنقل مثلا ٦٦ ـ ٣٣٪ بالتقريب ، فإذا بدا لأحد أن هذه مبالغة مسرفة ، فالرد هو أن الأمر أساسا نسبى . بل إننا لنذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إننا اذا فكرنا مليا أو حتى وهليا ، ولكن بموضوعية ، فسنجد على النقيض تماما من أوهام العدو أن النصر العربى فى

١٩٧٣ أكبر من النصر الإسرائيلي في ١٩٦٧ نسبيا ، نكرر نسبيا ، وإن لم يكن على الاطلاق بالطبع .

فلأسباب متعددة ومعقدة ولكنها مفهومة ومعروفة ، كان الحجم المطلق لنصر العدو في يونيو أكبر جدا من نظيره العربي في أكتوبر ، ولكن بالقياس إلى الظروف الموضوعية والملابسات المحيطة ، لابد أن يعد الأخير أكبر نسبيا إلى حد أو آخر . فنصر العدو في ١٩٦٧ إنما تم بغارة من طراز بيرل هاربر لم تحدث بعدها مواجهة أو حرب حقيقية ، كما أن سيناء كانت غير محصنة للمدافعين ، أما في ١٩٧٣ فقد حقق العرب انتصارهم من موضع الهزيمة أولا ، والهزيمة البشعة ، وهذا فارق نفسي رهيب ، ثم كانت هناك ثانيا استحكامات وتحصينات لا مثيل لها من قبل في سيناء والجولان ، لقد كان نصر العدو في ١٩٦٧ كبيرا لكنه مزيف مختلس ، بل كان كبيرا ، لأنه مزيف مختلس ، وكان نصرنا في ١٩٧٣ محدودا نسبيا ولكنه حقيقي ومستحق الى أقصى حد .

وإذا كان العدو الإسرائيلي هو أكثر من قلل أو حاول أن يقلل من حجم انتصارنا وقيمته بالدعاية وحملات التشويه ، فذلك أمر طبيعي جدا وجد مفهوم . لكن الحقيقة ، على غرابتها ، هي أن هذا العدو نفسه هو أكثر من يدرك القيمة الحقيقية لذلك النصر ، ليس في الدنيا من

يدركها أكثر منه . هو وحده الأقدر على معرفة معنى تحطيم خط بارليف، الذى يعرف حقيقته أكثر من أى أحد آخر ، والعبور والاجتياح ، ثم المعارك الجبارة ثم الصمود بعد التدخل الأمريكى .. الخ .. إن العدو ، أكثر من يقلل من قيمة انتصارنا دعائيا ، هو وحده أكثر من يدرك فى قرارة نفسه وبلا أوهام ولا خداع للنفس القيمة الحقيقية لهذا الانتصار.

أما للذين يتصورون منا أن من «الغفلة» وحدها أن نعتبر معركة اكتوبر نصرا لنا ، فنحن نقول إنما الغفلة الحقيقية أن نهدى العدو ، متبرعين أو متسرعين أو متذرعين ، نصرا وهميا لم يحققه ، وأن ننظر بعينه الوحيدة إلى الموقف . من الغفلة حقاً أن نضع انتصارنا فى أكثر من حجمه الطبيعى ، بل إننا لنقرر أن أكبر خطر يمكن أن يهدد انتصارنا اليوم هو أن نضعه فى أكبر من حجمه الحقيقى . أو كما قال الرئيس الجزائرى «لست أحب أن نغالى فى تقدير انتصاراتنا حتى لايقع المواطن العربى فى الخطأ الذى وقعت فيه اسرائيل بعد ١٩٦٧» ، «وإن كان يضيف بعد ذلك «أننا لم نهزم اسرائيل ، ولكننا هزمنا الخوف ، وهذا من أهم مكاسب المعركة» ولكنها يقينا أكثر من مجرد غفلة أن نضع انتصارنا فى أقل من ذلك الحجم ، ولا خلاف على أن نصرنا جاء منقوصا ، وإنجازاتنا كانت طموحة ولكنها دون المطلوب ،

وأن نصرنا لن يأخذ معناه ولا أبعاده الحقيقية إلا إذا استكمل مستقبلا بطريقة أو بأخرى .

لا خلاف ، ولكن الأمر بعد ذلك يتوقف على زاوية الرؤية ، وكيف ننظر إلى تقدير الموقف : أهو كوب نصف ملآن أم نصف فارغ ؟ وهل ننظر إلى أحد وجهى العملة دون الآخر أم اليهما معا ؟ العدو لا يريد إلا أن يرى جانبا واحدا من المعركة هو الجزء الأخير منها ، ولا يريد أن يرى الجانب الآخر والأكبر والأخطر منها ، كأنما هو الوجه الذى لا يرى قط من القمر . إنه لاينظر الا إلى ١٦ أكتوبر ، ويعمى عينه عن ٦ أكتوبر .

ونحن انتصرنا لأننا بدأنا من نقطة الصفر بل من تحت الصفر فارتفعنا الى أكثر من النصف ، وإسرائيل انهزمت لأنها بدأت من القمة المطلقة فهوت إلى ما دون النصف . وانجازة أكتوبر الحقيقية هى أنها كسرت الاتجاه النزولى السابق ، فلقد كنا كحجر ضخم يهوى من قمة جبل شاهق وفى اتجاهه بفعل الجاذبية الأرضية الحتمية الى أن يرتطم بالسفح ويتهشم . ثم فجأة وبقوة الدفع الأقوى تغلبنا على قوة الجاذبية فبدأنا عملية التصاعد . أو اذا شئنا صورة أخرى تقابل صورة راكب الدراجة يصعد الطريق الجبلى متعلقا بعربة لورى ضخمة، تلك التى رسمها دايان لدور إسرائيل فى معركة العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ،

فلقد كنا إلى ما قبل أكتوبر كعربة تعطلت «فراملها» تنزلق على سفح منحدر مخيف ، فجاء أكتوبر كحجر ضخم اعترض طريق عجلاتها فأوقفها فعادت تصعد المنحدر لأول مرة بقوة وبأقصى سرعة ونحو أعلى قمة .

وإذا كان لنا أن نختتم مناقشـتنا بحكم نهائي ومسئول ، فكما لخص الرئيس السوداني الموقف كله «إننا في السودان معكم نرقب بالأسى محاولات التشكيك في انتصاركم العظيم» تلك المحاولات التي «لن تنال من انجازكم العظيم .. ونصركم الباهر والذى كان وسوف يبقى مفخرة للأمة العربية .. إن انتصاراتكم في أكتوبر المجيدة ، لم تكن اقتحاما لمواقع ظنها العدو منيعة ، كما لم تكن اجتيازا لمواقع ظنها العدو حصينة، كما أنها لم تكن تحديا لغرور القوة الإسرائيلية فحسب ، وإنما كانت بداية عصر جديد تخلف كل ما كأن قبله من فنون القتال وعلومه» ثم أخيرا كما وضح الرئيس السادات بصورة حاسمة في تقديمه لورقة أكتوبر «خرج البعض وشكك .. شككوا ولا زالوا يشككون حتى هذه اللحظة .. قالوا إن مصر انهزمت ، وأنني لم أكن لدى الشجاعة لأقول أني انهزمت. كلا ، مصر لم تنهزم. مصر انتصرت أروع انتصار» .

الفصل السادس

٦ أكتوبر والاستراتيجية العسكرية والإقليمية

فى الاستراتيجية العسكرية

منذ الحرب العالمية الثانية ، أكبر ملحمة عسكرية كوكبية فى التاريخ البشرى ، وفى ظل العصر النووى نفسه ، لم تحدث حرب ما انقلابا فى الفكر الاستراتيجى والنظريات العسكرية مثلما فعلت حرب أكتوبر . فبإجماع كل الخبراء العسكريين ، قادة ونقادا ، محترفين ومؤرخين ، جاءت حرب أكتوبر «ثورة» استراتيجية جذرية كاملة قلبت معظم مفاهيم الحرب التقليدية وغير التقليدية وثورت كثيرا من قواعد الجغرافيا العسكرية بحيث جعلت من الضرورى إعادة كتابة «كتاب الحرب» من أساسه . ولقد كانت هذه النتيجة هى كبرى مفاجآت هذه المعركة ، لا تقل عن مفاجآتها هى نفسها .

الحرب الكورية مثلا ، وحرب الهند ـ الباكستان ، وحتى حرب فيتنام المطوطة المطولة التى استمرت سنين عددا ، كانت كلها حروبا تقليدية

رغم حداثتها وعصرية الأسلحة التى استخدمت فيها ، حتى حرب يونيو، التى اعتمدت على نظرية الحرب الخاطفة ، لم تقدم جديدا ثوريا بالقياس إلى نموذجها الأصلى الذى ابتكرته ألمانيا الهتلرية فى الحرب الثانية ، ومن هنا أصبحت حرب أكتوبر تجربة جديدة ، مدرسة جديدة ، انكبت عليها دوائر الجيوش والاكاديميات العسكرية والمعاهد الاستراتيجية ، تعكف على نتائجها ومغازيها ومدلولاتها ومحمولاتها . وسيمضى وقت طويل بالتأكيد قبل أن تأخذ هذه النتائج كل أبعادها وأعماقها الكاملة .

على أن الشيء الذى يمكن القطع به من الآن بكل اطمئنان وثقة هو أن المعركة أثبتت أصالة وجدة كلتاهما حقيقية ومحققة من الناحية الاستراتيجية تخطيطا وتنفيذا وتطويعها واستخداما للسلاح . إنها فى كل هذه المجالات تختلف اختلافا بينا عن كل الحروب المحدودة وغير المحدودة التى شهدها العالم منذ الحرب الثانية . وهذا هو بالفعل مدار تفردها ومحور الاهتمام العالمى الملتهب بها .

فمما لم يعد يتطرق اليه شك أن المعركة قد أضافت اضافات رائدة أصيلة محددة وغير تقليدية ولا مسبوقة ، وأثبتت بذلك أن المدرسة العسكرية العربية ، وخاصة المصرية ، قد ساهمت مساهمة مبتكرة وفذة فى الفن العسكرى ، ضربت بها أرضا جديدة بكرا فى العلم

الاستراتيجي والحربي . المعركة ، باختصار ، أثبتت أن العسكرية العربية قد انتقلت ، ربما لأول مرة ، من مرحلة التلمذة الحربية والنقل الى مرحلة الخلق والابتكار .

وأبسط دليل على هذا أن جيوش العالم بدأت تأخذ عن المعركة كثيرا من خبراتها ودروسها ، ومن انجازات العسكرية العربية بعض خطوطها التكنولوجية والهندسية وخططها الاستراتيجية والتكتيكية . على سبيل المثال ، دشم مخابيء الطائرات المصرية المبتكرة منذ ما بعد يونيو اقتبس منها حلف الاطلنطي الكثير كما يقال . وفي هذا قال وزير الدفاع الأمريكي بأسلوب مباشر «ليس ثمة على الاطلاق غير الدشم وسيلة لحماية الطائرات من إغارة الطيران المنخفض» وبالمثل اقتبس حلف وارسو وبعض الاشقاء العرب اضافات الهندسة العسكرية المصرية في مجال بناء وتصميم قواعد الصواريخ المضادة للطائرات ، والتي توصلت اليها بالتجربة الواقعية أثناء ملحمة إنشاء شبكتها العظيمة غرب القناة في أخريات حرب الاستنزاف . هناك أيضا تطوير تعدد ممرات المطارات وتصميمها وحمايتها ، الاستخدام الثوري للمشاة الصاروخية والميكانيكية في جبهة القناة أصبح الآن نموذجا يحتذيه الجميع .. الخ .

وإذا نحن نظرنا بعد هذا نظرة كلية علوية الى معركة أكتوبر فلا شك أن أبرز ما يجبهنا هو أنها بحق «حرب المفاجآت» فهذه الحرب العجيبة - وعجيبة هي كما سنرى بالتأكيد - مليئة بالمفاجآت النادرة بل التناقضات المذهلة ، كما هي حافلة بالأوليات والأخريات ، بالقمم والكبريات ، والبدايات والنهايات . انها غنية جدا بالطفرات الاستراتيجية الجديدة وخصبة الى أقصى حد في نتائجها ودروسها العسكرية بحيث قد تكون استراتيچيا نهاية عصر وبداية عصر ، أي نقطة تحول تاريخية بكل مقياس .

من سجل «الأوليات» بها ، على سبيل المثال ، أنها أول حرب محدودة في ظل الوفاق ، إنها أول حرب تكنولوچية في التاريخ . ومن سجل «الكبريات» بها إنها قد تكون أكبر حرب صحراء في التاريخ الحديث ، وكذلك أكبر معركة مدرعات فيه . ولكن ممن سجل «أخرياتها» أنها - للمفارقة الغريبة - قد تكون أيضا آخر معركة دبابات كبرى في تاريخ الحروب !

والواقع أن هذه المفارقة الأخيرة تكفي وحدها لتضع أيدينا على المفتاح الحقيقي لجوهر طبيعة هذه الحرب الثورية المثيرة ، والذى هو وحده المدخل الطبيعي لدراستها وتحليلها . إنها أساسا «حرب المتناقضات» - نعم المتناقضات ، وإلا لما ثورت القواعد المقررة والأصول السائدة .. ونستطيع هنا أن نرصد خمسا من هذه المتناقضات على

الأقل، سندير حولها مناقشتنا وتحليلنا بالتفصيل : حرب محدودة ولكنها بالغة الكثافة ، حرب طويلة ولكن مصيرها تقرر في ساعات ، حرب الطيران ضد الصواريخ ، حرب دبابات ظاهريا ولكنها حرب مشاة في الدرجة الأولى ، وأخيراً حرب تكنولوجيا ولكن حرب القوة البشرية أكثر .

حرب محدودة لكنها كثيفة

فأولا ، حربنا بحسب التصنيف الاستراتيجي الحديث والمتداول حرب «محلية أو اقليمية» ، «صغيرة أو محدودة» تدور بين دول اطراف متوسطة أو صغيرة الحجم والقدرات ، فعلى المستوى الاستراتيجي ، كما يقول بوفر ، «فإن الموقف العالمي الحالي ، ووجود القوتين الأعظم وتهديدات الحرب النووية ، قد جعل الحرب بين الدول الصغيرة محدودة من حيث الاهداف ، ومن حيث الزمن ومن حيث الساحة . ولقد كانت حرب رمضان حربا محدودة» . وهي من هذه الزاوية تأتي ـ بالتعريف ـ في الفئة أو الطبقة نفسها التى تضم حرب فيتنام وحرب الهند ـ الباكستان ، عدا حرب يونيو بالطبع . ومع ذلك فإنها تختلف عنها جميعا اختلافاً كميا يكاد يصل إلى حد الاختلاف الكيفي .

فأما مع حرب فيتنام ، فإن الاختلاف واضح . حرب فيتنام تتفوق خارج كل مقارنة في المدة والطول بطبيعة الحال ، وكذلك في كميات

الأسلحة الرهيبة والخسائر المادية والبشرية الهائلة بحكم أن الدور الأمريكي هناك كان مباشرا وإباديا من البداية إلى النهاية ، ولكن الفارق الأساسي هو أن المواجهة كانت بين قوات نظامية من جانب «أمريكا» وحرب عصابات وحرب شعبية من الجانب الآخر «الثوار الفيتناميون» أما اذا قارنا حرب أكتوبر بسابقتها ونقيضتها حرب يونيو، فإنها حتى بصرف النظر عن اختلاف النتائج ، أكبر حجما الى أقصى حد في كميات الأسلحة وأعداد القوات ، فضلا عن أنواع الأولى ونوعيات الثانية .

والشيء نفسه صحيح حين نقارن بحرب الهند ـ الباكستان ، على الرغم من الفارق الفادح في حجم السكان والموارد ومساحة الدول الاطراف في الحالتين «عدد سكان الدول المتحاربة في حرب الهند ـ الباكستان نحو ٦٨٠ مليونا . مقابل ٤٦ مليونا فقط لأطراف حرب اكتوبر!» كذلك فرغم تشابه أنواع ومصادر السلاح الذي استخدمه كلا الجانبين في كلتا الحربين ، اللتين كانتا أيضا مواجهات تصادمية بين جيوش نظامية أساسا ، فقد كانت حرب الهند ـ الباكستان تقليدية بصفة عامة في استراتيجيتها وأساليب استخدام السلاح فيها ، بينما أبدت حرب آكتوبر أصالة وتفردا غير مسبوقين في استراتيجية الاصطدام والاقتحام بعامة وفي استخدام المشاة والصواريخ بخاصة .

على هذا يمكننا أن ننتهى بسهولة واطمئنان الى أن حرب أكتوبر هى أكبر وأخطر ، كما هى آخر حرب محلية محدودة في الفترة المعاصرة ، ومع ذلك فإن الأمر أبعد من هذا . فحرب أكتوبر - للغرابة والدهشة - تكاد ترقى أيضا بأبعادها ومقاييسها العسكرية والميدانية الى مستوى حرب كبيرة ، إنها معركة تليق تماما بالدول الكبرى ولا تتناسب في الحقيقة الا مع أحجامها وطاقاتها وقدراتها . بل ان هذه الدول الكبرى التقليدية ، باستثناء القوتين الأعظم ، لتنظر الآن بدهشة وحيرة لما كشفت عنه الحرب من معدل استهلاك فاحش في السلاح لا تستطيع ترساناتها أن تصمد لمثله إلا بالكاد ، بل إن من المحللين من يعتبر حرب أكتوبر اعنف حرب عرفتها البشرية وأشدها ضراوة وكثافة ، وأنها تمثل «مسودة Blue Print » أو تصغيرا «ماكيت» للحرب العالمية التقليدية فى المستقبل ، كتلك التى يمكن أن تنشب مثلا بين حلفي الاطلنطى ووارسو، إنها باختصار ترسم صورة المستقبل ، حرب القرن الحادى والعشرين، تفعل ذلك أولا بحجم القوات التي قذف بها في المعركة ، وتفعله بحجم ونوع السلاح الذى استخدم فيها ، وتفعله أخيرا بكثافة الاثنين بالنسبة إلى مساحة الميدان .

فالمقدر أولا أن ما لا يقل عن مليون جندى قد شاركوا فى المعركة من كل الاطراف ، تعاملوا بنحو ١٠٠٠ طائرة وقرابة ٣٠٠٠ وربما ٤٠٠٠ دبابة ، والواقع أن أرقام الدبابات بالذات تتضارب ، ولكنها تتضارب دائما نحو المزايدة ، فأما اسرائيل فهناك مصادر تقدر عدد دباباتها التى اعتمدت عليها فى المعركة بنحو ١٧٠٠ دبابة ، وهذا الرقم ـ تضيف هذه المصادر ـ يزيد على ما تملكه دولة كبرى كبريطانيا ! بل تذكر مصادر أخرى أن إسرائيل التى كنا نظن أن لديها ١٠٠٠ دبابة ، ٣٧٥ طائرة ، تكشف أن لديها ٢٠٠٠ دبابة ، ٥٠٠ طائرة . أما عن الجانب العربى ففي تقرير للجنة الكونجرس الأمريكى عن الشرق الأوسط أن الهجوم المصرى اعتمد على ٢٦٤٠ دبابة ، والسورى على ٢١٠٠ دبابة ، أى بمجموع قدره ٤٧٤٠ دبابة «أى أكثر من ضعف وأقل من ثلاثة آمثال الرقم الإسرائيلى» .

بهذا يكون مجموع دبابات كل الاطراف المتحاربة هو ٦٤٠٠ دبابة إلى ٦٧٤٠! وهذا الرقم الرهيب لا ندرى مدى نصيبه من الصحة بالضبط، ولكنه على آية حال يشير إلى مدى فداحة حجم هذه الحرب «المحدودة» . ومهما يكن فقد لايكون بالرقم المسرف فى المبالغة اذا نحن ذكرنا حقيقة أخرى مذهلة ومؤكدة ، وهي أن مجموع ما دمر من دبابات لكل الاطراف المتحاربة فى ٢٠ يوم قتال هو ٢٥٠٠ دبابة ، أى أكثر مما

تم تدميره في الحرب العــالمية الثــانية كلها كما تؤكد بعض المصادر. بل لقد ورد فى حديث للرئيس الســادات الى النـيوزويك أن هذا لعدد هو ٣٠٠٠ دبابة : «ان نحـوا من ٣٠٠٠ دبابة فـقـد علي الجانبين خلال حرب أكتوبر ، وهو أكبــر بكثير من أى شـيء حدث فى الحرب العالمية الثانية» .

هذا عن الدبابات ومعها الطائرات ، أما عن سائر الأسلحة الأخرى بجميع أنواعها ، فلا سبيل الى حصرها ، ولكنها بطبيعة الحال تتناسب مع تلك الأسلحة القاعدية ، ويكفى هنا ، على سبيل المثال ، أن نذكر حقيقة واحدة ولكنها عميقة الدلالة ، فلقد قدر أن ما صبته مدفعيتنا وحدها ـ وللمدفعية المصرية تاريخ عريق مشهور ومشهود له ، كان آخر فصوله معركة المدافع عبر القناة فى حرب الاستنزاف ـ مجموعة ما صبته طوال حرب أكتوبر من البداية الى النهاية يعادل فى مجموع قوته التفجيرية قوة قنبلة نووية صغيرة !

فإذا نحن نسبنا هذا كله الى رقعة ميدان المعركة المحدودة نوعا ، لكانت كثافة الحرب من أعلى ما عرف فى الحروب الحديثة ، وفي هذا المعنى قال بعض المعلقين العسكريين أثناء المعركة ، مثل ك. تانر مراسل اليونايتدبرس ، ان خبراء الدفاع في العالم في حيرة تامة ازاء هذه الأعداد الهائلة من جانب القوات العربية التي تخوض الان قتالا ضاريا

لم تعرفه حتى الحرب العالمية الثانية نفسها ، حتى فى أخطر مراحلها ، حتى في العلمين أو ستالينجراد . ثم يردف الكاتب نفسه قائلا إن خبراء الدفاع يرون أن اشتراك مثل هذه المعدات العسكرية الثقيلة على مساحات أرض صغيرة ومن جانب دول صغيرة نسبيا هو ظاهرة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الحروب ، بما فى ذلك معارك أوربا بين الدول الكبرى خلال الحرب العالمية الثانية ، وهى التى شاركت فيها الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وبريطانيا و ألمانيا ما بين سنتى ١٩٣٩ ، ١٩٤٥ .

ولا ننسى بعد هذا أن معظم الأسلحة التى دخلت المعركة هى أسلحة بالغة العصرية والحداثة ، فائقة التطور ، أغلبها بحكم العصر لم تعرفه حرب أخرى من قبل . ومع ذلك فكما أكد الخبراء العسكريون فى الغرب فقد كانت هناك قدرة قتالية عالية جدا وخبرة ومهارة فائقة فى ادارة معارك الدبابات خاصة والحرب الحديثة عامة أثناء حرب أكتوبر ، فإذا تذكرنا أخيرا أن الدول المتحاربة كلها دول صغيرة نامية أو شبه نامية ، وأنها لا تنتج السلاح ولا تملك امكانات الصناعات الحربية الثقيلة بل وحتى الخفيفة الصغيرة الى حد أو آخر ، لتأكد لنا تناقض الموقف كله .

ويزداد التناقض الى حد مثير حين ننظر الى المستقبل ، المستقبل القريب جدا ، فلقد أعلنت اسرائيل عن ضرورة مضاعفة اسلحتها للحرب القادمة ، فقررت رفع قوتها من الطائرات إلى ١٠٠٠ طائرة ، ومن الدبابات إلى ٤٠٠٠ دبابة ! هذا بينما أعلن دايان مؤخراً أن العرب قد أعادوا التسلح من جديد بعد أكتوبر ، وزعم إن خطأ أو صوابا أن «إسرائيل تواجه اليوم قوة جوية مشتركة مجموعها ٩٢٠ طائرة ، ٤٠٠٠ دبابة على الجبهتين» ثم جاء بيجين بعد ذلك فادعى أن لدى مصر وسوريا الآن ٥٠٠٠ دبابة ، ستيرتفع فى بضع سنين إلى ٩٠٠٠ ! فإذا صح هذا تقريبا أو نسبيا ، لكان معناه أن الحرب الخامسة اذا قامت فسيشترك فيها من الطرفين نحو ٢٠٠٠ طائرة ، ٨٠٠٠ دبابة بحسب تكهنات دايان ، أو ٩٠٠٠ إلى ١٣٠٠٠ فيما بعد بحسب تكهنات بيجين وهذه أرقام تذكر لا بترسانات الدول الكبيرة ، بل بالأحرى بترسانات الأحلاف الكبرى كالاطلنطى ووارسو !

التفسير يكمن ، مع ذلك ، فى عدة حقائق كاشفة ودالة ، أولاها الطبيعة الخاصة للصراع ، فهو ليس خلافا أو نزاعا «عائليا» أو بين «جيران» على حدود أو رقع أرض أو حقوق ، بل هو صراع وجود ومصير وتحرير بين دولة دخيلة استعمارية استيطانية احلالية توسعية

وبين دول وطنية عريقة متحضرة على جانب لا بأس به من التقدم والتنمية وتسعى أساسا الى التحرير والاستقلال .

ولا يقل البعد الدولى فى الصراع أهمية بعد ذلك عن البعد المحلى . فالمعركة جزء من صراع القوى التحررية والتقدمية فى العالم ضد المعسكر الاستعمارى ، وعلى رأسهما القوتان الأعظم ، وهاتان القوتان هما اللتان تتكفلان بإمداد الاطراف المحلية بالأسلحة المتطورة وبكميات هائلة ومتصاعدة أبدا . بل ان البعض ليعتبر الصراع «منطقة تجارب» للسلاح الجديد الذى تنتجه هاتان القوتان . ومن هنا يشبهون المعركة بالحرب الأهلية الإسبانية فى الثلاثينات ، تلك التى سبقت الحرب العالمية الثانية «وبشرت» بها ، مثلما كانت حقل تجارب وانبوبة اختبار وصوبة زجاجية لترسانة اسلحتها المعدة وأساليب استراتيجيتها المخططة .

ولأن نتائج حقل التجارب تعكس أثارها على النموذج الأصلى ، وقد تلقي بظلال شاحبة أو غير مطمئنة أو مستحبة على ترسانة الأسلحة الآم ، فإن القوة العظمى الموردة للسلاح يهمها إلى أقصى حد أن ينتصر الطرف المحلى الذى يستخدم سلاحها لأنه انتصار الى حد معلوم لسلاحها ، ان ذلك يصبح جزءا من صميم صراع القوى العظمى المباشر نفسه وجزءا لا يتجزأ من توازن القوة بينها . ولهذا يتصاعد

الصراع المحلي بمنافسة مزدوجة فى الواقع : من اطرافه المتحاربة فى الميدان ، وتلك الموردة للسلاح . وهذا أيضا هو الذى يفسر تصميم أمريكا بعناد وضراوة ، نكاد نقول بحقد وحشي وغل أسود ، على امداد إسرائيل فى قلب المعركة بكل ماتملك فى ترسانتها من أسلحة جديدة ومتفوقة وبكل وسيلة نقل وتوصيل ممكنة وغير ممكنة ، حتى تضمن انتصار سلاحها أو على الأقل تنفذ سمعته وهيبته العالمية ، وهذا نفسه هو الذى جعل كيسنجر وزير خارجية أمريكا يقرر صراحة أنهم ليسوا على استعداد لأن يتركوا السلاح الأمريكى يضرب ويهزم بالسلاح السوفييتى .

حرب طويلة لكن بدايتها خاطفة

بالقياس إلى حرب الأيام الستة الخاطفة في ١٩٦٧ ، فإن حرب الأيام السبعة العشر شكلا والتى امتدت إلى ٢٠ يوما بالفعل فى ١٩٧٣ ، تعد بلا شك حربا «طويلة» . هى وحدها تعادل طول فترة القتال فى حربى ١٩٦٧ «٦ أيام» ، ١٩٥٦ «١٠ أيام» كما تزيد على ثلاثة أمثال الأولى ، وقد لا تقل كثيرا عن مجموع أيام القتال فى معارك العرب الثلاث ضد إسرائيل منذ ١٩٤٨ ، انها باختصار أطول حرب خاضتها العرب ضد العدو ونجحت في فرضها عليه رغم كل خططه ومبادئه العسكرية . أما خارج دائرة الصراع ، فإنها تكاد تعادل

ضعف طول حرب الهند ـ الباكستان «١١ يوما» آخر وأقرب حرب محلية قبل أكتوبر .

مع ذلك ، وهنا المفارقة ، فقد اكتسبت حربنا فى بدايتها على الأقل شكل الحرب الخاطفة بطريقة أو بأخرى ، فلا سبيل إلى الشك فى أن افتتاحية العبور وملحمة الخط كانتا قطعة من الحرب الخاطفة ، صاعقة سريعة وقصيرة وأخاذة كالعاصفة وضربة المائة والمائتى طائرة الكاسحة فى ساعة الصفر لا تفعل سوى أن تستكمل كل مقومات الحرب الخاطفة .

والواقع أن السرعة المطلقة كانت شرط نجاح تلك المراحل الأولى ، بعدها فقط كان يمكن للحرب الطويلة الممطوطة أن تبدأ ، تلك الحرب التصادمية والاستنزافية التى كان لابد منها لتحسم الصراع على الأرض . فبينما استغرقت عملية العبور واقتحام خط بارليف ، وانتزاع رأس جسر وموطىء قدم على الضفة الشرقية عدة ساعات فقط استوعبت معركة البر السيناتى بقية أيام الحرب التى تناهز العشرين يوما .

والمعتقد آنه بين هذين القوسين الخاطفين ، الضربة الجوية والعبور ، كان قد تحدد مسار ومصير المعركة كلها ، حتى ليسمى البعض حرب أكتوبر «بحرب الساعات الست» على غرار ما سميت حرب يونيو «حرب

الايام الستة» أو ربما على سبيل النقيض ، أو لعله الانتقاد . المهم أن حرب أكتوبر وإن تكن أطول حرب في تاريخ الصراع الا أنها أيضا تنطوى في ثناياها على حرب خاطفة جدا . وتلك كانت المفارقة الثانية في هذه الحرب العجيبة .

كانت المعركة اذن مزاوجة تكاملية بارعة ومتوازنة بين نوعى الحرب القصيرة والطويلة الأمد ، تأخذ محاسن ومزايا كل منهما دون أضداد وعيوب أى منهما ، ولكن هذا إنما يذهب ليؤكد لنا ثلاث حقائق لا ينبغي أن تغيب عن أنظارنا قط . تلك على الترتيب هى : اعادة تقدير طول الحرب الحديثة . أهمية دور موردى السلاح في الحرب الحديثة ، اعادة تقدير قدرات العدو وقدراتنا على أشكال الحرب الحديثة .

فعن الأولى ، لم يعد شك أن الحرب الحديثة هى بطبيعتها أميل إلى القصر ، ومن ثم الى نوع الحرب الخاطفة بالضرورة ، فالأسلحة الحديثة خاصة الجوية والالكترونية ، شديدة الفاعلية وسريعة المفعول ، شراهتها التدميرية بلا حدود . واذا كانت إسرائيل مجرد مقلد لأستاذتها النازية فى تبنى الحرب الخاطفة ، فمن المحتمل أن هتلر لم يكن المؤلف الحقيقى للبليتزكريج ، وإنما هو اكتشف فقط الامكانيات الكامنة والطبيعية للسلاح الحديث . واذا كانت حرب فيتنام حرب سنوات، فذلك لطبيعتها الخاصة جدا سياسيا وعسكريا ، بينما ضاعت

باكستان الشرقية في ١١ يوما ولم يكن مجموع الأسلحة والقوات المحشودة فى حربها ليقل كثيرا عما ألقى به فى معركتنا الأخيرة .

وحسبنا فى هذا الصدد آن نذكر أن مجموع خسائر كل اطراف المعركة قد قدر بنحو ٢٥٠٠ دبابة «ذكر وزير الدفاع الفرنسى أن مجموع ما دمر ٤٠٠٠ دبابة ، ٦٠٠ طائرة» ، فإذا علمنا أن طاقة انتاج دولة كبيرة كفرنسا من الدبابات لاتزيد على ٣٠٠ دبابة سنويا ، لكان معنى هذا أن المعركة التهمت منها فى ٢٠ يوما ما يعدل انتاج ٨ أو ٩ سنوات «فى تقرير للكونجرس الأمريكى أن معدل الانتاج الأمريكى من الدبابات هو دبابة كل يوم آو ٣٦٥ تقريبا فى السنة» وهو يعنى أيضا أن طول مدة المعركة يتوقف على كمية ورصيد السلاح المتاح للطرفين ، أحدهما أو كليهما ، ويتناسب معه تناسبا طرديا فى التحليل الأخير .

وهذا كله يعنى أن الفارق الزمنى بين ما نسميه الآن الحرب الطويلة والقصيرة قد انكمش وتضاءل كثيرا بحيث اقتربت النهايتان العظمى والصغرى وتقارب النقيضان فأصبح الفرق بينهما محدودا نسبيا كما وكيفا ، لم يعد التمييز بين الحرب الطويلة والقصيرة بالسنين أو بالشهور وإنما بالأسابيع وربما بالأيام ، وعموما فلقد اثبتت معركتنا

أن الحرب الحديثة أصبحت قصيرة للغاية ، بضعة أو عدة أسابيع على الأكثر أو في الأعم الأغلب .

ويترتب على قصر الحرب الحديثة نتيجة أخرى بالغة الأهمية ، وهي دور عنصر المفاجأة ، لقد تحدث المعلقون كثيرا ، وبكثير من القلق ، عن دور المفاجأة في انهيار الاستحكامات والخطط الاسرائيلية وانكسار اسرائيل . وكان في اذهانهم الأخطار المشابهة التي يمكن أن تتعرض لها الدول الكبرى اذا هوجمت فجأة . والسبب لاشك ، أو جزء منه بالأصح ، أن الحرب الحديثة ، وهي على هذا القصر والسرعة ، لا تكاد تستوعب مفاجأة الهجوم حتى تكون أيامها الباقية قد أصبحت معدودة ، فهي لا تتحمل المفاجأة ثم الاستمرار طويلا .

لقد كان من الممكن في الماضي أن يتلقى طرف ضربة خطيرة في مفاجأة مباغتة ، ولكن تستطيع الحرب أن تمضي بعدها لشهور أو لسنين ، أما الحرب الحديثة التي لا تتجاوز عدة أسابيع في الظروف العادية ، فان مفاجأة تتم في يوم أو اثنين قد تحسمها ، ربما نهائيا ، فلا تستمر بعدها الا أياما معدودة، باختصار ، ان الحرب الحديثة ، مثلما هي قصيرة بالطبع ، تعطي الهجوم المفاجيء دورا حاسما أو ميزة لم يسبق لهما مثيل في تاريخ الحروب تقريبا .

وهذا ما يؤدى بنا الى الحقيقة الثانية التي جسمتها المعركة . فلأن صراعنا يعتمد في كلا طرفيه على السلاح المستورد أساسا ، فإن كمية هذا السلاح ، وبالتالي مدى طول المعركة ، تتوقف في المحل الأول والتحليل الأخير على ضوابط خارجية ، هي السياسات أو القدرات التسليحية للقوى العظمى الموردة . وجزء مهم جدا من هذه السياسات «حسابات التوازن» وهذه القدرات «تكنولوجيا اللوجستية أو النقل» هو عملية الإمداد بالأسلحة «أثناء» المعركة ، فقد أصبح لها دور خطير في اطالتها أو تحديد طولها .

ولما كانت القوى العظمى هي وحدها اليوم القادرة على انتاج السلاح العصرى المتطور ونقله بالحجم والسرعة اللازمة لحرب حديثة ، فقد بات من المقرر أن الدول الصغيرة والنامية ومن في حجمها لا تستطيع الآن أن تخوض حربا حديثة بغير الاعتماد اعتمادا كليا تقريبا على مورد مضمون من بين تلك القوى العظمى . أبعد من هذا ، يصل البعض الى حد التنبؤ بأن الحروب المحدودة بين الدول غير العظمى غير المنتجة للسلاح العصرى الحديث قد تنقرض بالتدريج وبانتظام «؟» .

مهما يكن ، فلما كانت الولايات المتحدة ، مورد العدو ، مستعدة للتصاعد إلى النهاية وبلا نهاية في تسليحه كما وكيفا ، فإن هذا يعطى

للعدو الاسرائيلى قدرة لم تكن متوقعة أو غير محسوبة على الاستمرار في القتال تكاد تصل إلى حد الحرب الطويلة ، ولقد رأينا كيف أن العدو بدأ بالفعل معركة ثانية جديدة تماما بعد أن كاد رصيده من السلاح والذخيرة ينفد فى معركة أولى خاسرة ، وذلك دون انقطاع فعلي ظاهر بين المعركتين .

كذلك فلما كانت اسرائيل تعتمد اقتصاديا وماليا على مساعدات أمريكا وقروضها وجباياتها المتواصلة بلا حدود ، فإن هذا يساعدها على الصمود التعبوى فترة أطول مما كان يمكن لها وحدها ، ويساعدها على الاستمرار فى القتال رغم الحدود الصارمة والسلبيات التى تفرضها التعبئة العامة وغياب الأيدى العاملة عن الانتاج وتوجيه الموارد المالية الى الحرب .. الخ .. ورغم الضربة الحقيقية التى أصابت الاقتصاد الاسرائيلى من الحرب ، فقد ظل القطاع الصناعي مثلا يعمل بنحو ٧٢٪ من قواه العاملة فى الظروف العادية ، وبالنسبة نفسها تقريبا من طاقة الانتاج ، ٧٥٪ كما أعلن وزير التجارة بارليف ، ولو أن خطوطا معينة هبطت هبوطاً ذريعا كالبناء الذى تدهور بنسبة ٤٠٪ من حجمه العادى والنشاط التجارى الذى بلغ ٣٠٪ من حجمه العادى . كذلك استطاع اقتصاد العدو أن يتحمل الحرب ٢٠ يوما والتعبئة العامة أو شبه العامة لفترة أطول مازالت ممتدة حتى الآن .

والخلاصة النهائية هى أن إسرائيل وان كانت بتكوينها الذاتى الخاص قصيرة النفس ولا تتحمل الحرب الطويلة المطوطة جدا ، فإننا ينبغى أن نتحفظ نوعا فلا نبالغ فى حدود هذه الحقيقة . لقد ألفنا أن نقول إن اسرائيل لا تتحمل الحرب والتعبئة العامة لأكثر من بضعة أسابيع أو لنحو شهر على الأكثر دون أن تنهار اقتصاديا ، غير أن التجربة إنما تشير الى صعوبات هائلة حقا ، لكن دون أن تصل الى حد الشلل المقعد ، وبالفعل ، أعلن القائد العام المصرى مؤخراً أن إسرائيل لا تتحمل التعبئة العامة لأكثر ولكن ليس أقل ، من ثلاثة شهور ، والسبب فى هذا ، أولا وأساسا ، أن وراء اسرائيل المنظورة إسرائيل غير المنظورة التى تدخل المعركة دائما وعند الضرورة بطريقتها الخاصة ثم ثانيا ما رأينا من أن «طويلة وقصيرة» و«خاطفة وتقليدية» أصبحت مفردات متقاربة نسبيا فى قاموس الحرب .

الحقيقة الثالثة والأخيرة التى تؤكدها المعركة هى أننا اذا كان علينا ألا نبالغ فى تقدير عجز اسرئيل دون الحرب الطويلة المدى أو ضعفها ازاءها ، فليس لنا كذلك أن نفترض أنها وحدها التى تملك القدرة على الحرب الخاطفة ، لقد ظلت اسرائيل طويلا تتباهى فى العالم بقدرتها على الضربة الخاطفة المكثفة التى تعبر عن قدرات خارقة فى الاعداد

والتخطيط والتنظيم والتنفيذ تمثل في الواقع جماع القدرة الحضارية والتكنولوچية لأى دولة . وكل ما كتبته إسرائيل وأذاعته فى العالم ، بحيث جعل من الضربة الجوية في صباح ٥ يونيو بل ومن معركة يونيو كلها أسطورة سحرية ، إنما كان يعني شيئا وحدا آرادت أن تثبته في عقل العالم ووجدانه وهو احتكار الكفاءة ، رمزا وترجمة عملية للتفوق الحضارى والتكنولوچي والعسكرى .

ولقد جاءت حرب أكتوبر تكذيبا عمليا لهذا الادعاء العريض ، فقد أتت مقدمتها الخاطفة ضربة لأوهام العدو النظرية كما كانت لقواته المسلحة فى الميدان ، من ناحية لأنها اثبتت القدرة العربية على التخطيط الثاقب والواثق والانضباط المطلق والتنفيذ الدقيق السليم لعملية هى بالطبع فائقة التكثيف والتعقيد ـ والمخاطرة أيضا . ومن ناحية أخرى لأنها أثبتت عجز العدو عن توقى الضربة المفاجئة وكشفت مدى الفوضى والانهيار فضلا عن الجزع والرعب الذى أصاب قياداته وقواته التى أمسكت بها القوات العربية وهى «عارية» كما وضعها صحفى عربى . وفي هذا كله فلقد استفاد العرب من أخطائهم في يونيو وطبقوها على العدو . ان الحرب الخاطفة لم تعد حكرا على العدو ، لأنها أيضا ملك للقدرة العربية ، فضلا عن أنها الى حد معلوم شيء كامن فى طبيعة الحرب الحديثة عامة وفى عملية العبور والاجتياح فى حالتنا خاصة .

حرب طيران حسمتها الصواريخ

من أكبر مفاجآت أكتوبر التى ألهبت خيال العسكريين فى كل الدنيا وأثارت دهشتهم «وكذلك مخاوفهم» بروز دور الدفاع الجوى بعامة والصواريخ المضادة للطائرات بخاصة ، وبالأخص صواريخ «سام» بأنواعها وعائلاتها وبنسلها وأجيالها المتعاقبة «٢ . ٣ ثم ٦ . ٧ . وهذه الصواريخ تتعامل مع الطيران العالى والمنخفض . كما تنقسم الى ثابتة ومتحركة ذات قواعد أرضية أو ميكانيكية أو محمولة على أكتاف المشاة . ولم تكن سام ٢ ، ٣ جديدة على المعركة ، فقد أثبتت وجودها فى نهاية حرب الاستنزاف بعد أن أقيمت شبكة الصواريخ المصرية الشهيرة على القناة قبل وقف اطلاق النار فى ١٩٧٠ ، تلك التى وصفتها مايير فى حينها بأنها «كعش الغراب المشئوم ، كلما دمرنا إحداها نبتت أخرى بدلا منها».

فى تلك المرحلة أسقطت الصواريخ عددا ضخما من طائرات العدو صورة روعته ودفعت به في النهاية الى قبول وقف اطلاق النار ، (فى نوفمبر ١٩٧٠ قدرت مجلة افييشن ويك الأمريكية خسائر اسرائيل بنحو ٥٠ طائرة ، ثلثها دمر ، والثلثان اصابات) ولعلنا نذكر كيف تورط آبا ايبان حينذاك فى تصريحه المشهور عن «تآكل» سلاح طيرانهم ، ثم صرخته «إنهم يسقطون طائرة بملايين الدولارات بصاروخ بآلاف الدولارات!» ..

واستفادة من هذه التجربة المريرة ، كان العدو قد استعد بالأجهزة الالكترونية الأمريكية المضادة للحد من خطر هذه الصواريخ ، غير أن سام ٦ و ٧ كان المفاجأة الكبرى التي وقف طيران العدو المدجج أمامها عاريا عاجزا شبه مجرد من السلاح ، فتهاوت طائراته أثناء المعركة بالعشرات حتى بلغت المئات ، فانتوم وسكاى هوك وميراج وكذلك هليكوبتر مصفحة ..الخ .. والصورة نفسها تكررت على الجبهة السورية ، وبالنتائج الباهرة نفسها ، واذا صحت التقديرات الأمريكية فإن ٨٠٪ من مجموع الطائرات الإسرائيلية التي اسقطت في أكتوبر سقطت بفعل الصواريخ أرض ـ جو مقابل ٢٠٪ فقط سقطت في المعارك الجوية المباشرة .

والطريف أن العدو حتي بعد أسبوع تساقط الفانتوم في نهاية حرب الاستنزاف عاود الحرب النفسية ضدنا حفاظاً على اسطورة تفوقه الجوى .. فظل يشيع في الدنيا أننا غير قادرين حتى على حسن صيانة أسلحة دفاعنا الجوى فضلا عن حسن استخدامها ، وعلى هذ الأساس كتب أصدقاؤه ـ النيوزويك في ١٩٧٣ ـ أنه «يمكن لإسرائيل أن تكتسح طول مصر وعرضها بدون أى مقاومة أو مواجهة من قوات الدفاع الجوى . كما يمكنها تدمير عناصر الدفاع الجوى بالسرعة نفسها التى تم بها ذلك عام ١٩٦٧ ».

ولكن فى أكتوبر فشل طيران العدو فى التشويش على دفاعنا الجوى كما كان يأمل ، «وتغلب الذكاء المصرى على الخداع الإسرائيلى» كما وضعها قائد قوات الدفاع الجوى المصرى ، وبهذا فشل فى ضرب معابرنا وجسورنا أولا ثم زحف مدرعاتنا بعد ذلك ، وكانت المعركة مبارزة مصيرية بين التفوق الجوى الذى بنى عليه العدو كل استراتيجيته وبين دفاعنا الجوى الذى كان بلا شك أساس كل استراتيجيتنا القتالية والذى غير شكل المعركة والذى لولاه لتغير الموقف كثيرا وربما النتيجة أيضا . لقد حيد دفاعنا الجوى طيران العدو . ونحن وان لم ننتزع السيادة الجوية من العدو فقد حرمناه منها ، وبذلك كان الموقف أقرب إلى التعادل أو التكافؤ الجوى ، الأمر الذى ترك المعركة البرية أن تمضى حرة مباشرة فكان نصرنا المحقق فيها امرا مقضيا .

ولنتوقف قليلا هنا عند تعليقات بعض المراقبين المحايدين ، قال توماس تشيتام مراسل اليونايتيد بريس «ان الطيران الاسرائيلى لم يتمكن من تحقيق النجاح الذى كانت عامة الشعب الاسرائيلى تتوقعه له قبل الحرب . لقد اتضح من خلال سير العمليات أن التأكيدات الرسمية التى كانت تتحدث عن قدرة القوات الجوية الاسرائيلية على القيام بعمل سريع ضد العرب فى حالة تجدد القتال كانت مزاعم غير دقيقة» أما

جان فرانسوا لي موف فقد كتب يقول «لقد شد انتباه الخبراء الغربيين الذين درسوا سير الصراع العربى الاسرائيلى وفنون الحرب التى استخدمها المتحاربون أنه بينما انتصر الاسرائيليون عام ١٩٦٧ بفضل تفوقهم الجوى الكامل ، اذ بنشاطهم الجوى يتضاءل هذه المرة فى القتال والقصف بفضل تسلح العرب بالصواريخ طراز سام» حتى العدو نفسه قالها ، فقد نقلت الجيروزاليم بوست عن قائد من القوات الجوية الإسرائيلية تصريحه بأن «الدفاع الجوى المصرى يتمتع بكفاءة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الحروب ، تفوق تلك التي واجهها الأمريكيون فى فيتنام» «مقتبسة فى كتاب حرب رمضان» .

ولم تكن تلك الطفرة نقطة التحول الحاسمة فى المعركة وحدها فقط ، ولكن في كل تاريخ الحرب الجوية الحديثة . فعلى حد تعبير الجنرال بوفر «لقد أدى توفر الصواريخ المضادة للطائرات لتقديم الوقاية الفعالة للقوات البرية - حتى فى غياب الحماه بواسطة الطائرات - أدى الى خلق موقف جديد تماما لم يسبق ممارسته في الحروب السابقة ، وأعنى به ذلك التوازن بين القوات الجوية لدى الطرفين الذى خلق موقفا يختلف تماما عما لمسناه فى الحرب العالمية الثانية أو فى الجولات العربية الإسرائيلية السابقة ، عندما كان أحد الخصمين ينجح فى احراز التفوق أو السيطرة الجوية على سماء المسرح خلال المرحلة الافتتاحية أو

الاولى للحرب» . فرغم أن الطيران المصرى والسورى تصدى باقتدار وكفاءة وندية كبيرة لهجوم العدو الجوى ، فقد كان تركيزنا الأساسى فى المواجهة على الدفاع الجوى ، احتفاظا بقوة الطيران الرئيسية لمراحل الصراع القادمة . وبهذا انحصرت المعادلة أساسا فى الدفاع الجوى العربى ضد الهجوم الجوى العدو ، فكانت حرب صواريخ في الدرجة الاولى ، واذا كان السلاح الجوى هو العمود الفقرى في جهاز الردع العسكرى الإسرائيلى ، فقد كان الدفاع الجوى هو العمود الفقرى لقواتنا فى ردع الردع الإسرائيلى .

وهنا كانت المفارقة : فلقد كنا - جويا - «نهاجم» بالدفاع ، بينما كان العدو «يدافع» بالهجوم ، وفى هذا السياق كتبت مجلة تايم الأمريكية «ان التقدم المصرى عبر قناة السويس قد برهن على أن الصواريخ المضادة للطائرات وللدبابات على السواء يمكنها أن تلعب دورا هجوميا ايضا - رغم أنها أسلحة دفاعية - حيث انها مكنت القوة المهاجمة من اقامة وحماية رءوس الجسور وتدعيمها بقوات المشاة الميكانيكية والمدرعات بعد أن قامت بشل فاعلية طيران العدو ومدرعاته - التى تمثل أسلحة الردع الإسرائيلية - وكبدته الكثير من الخسائر» .

لقد انتصر الدفاع المهاجم على الهجوم المدافع ! انتصر الدفاع ، وعلى صخرته العنيدة تحطم سلاح الطيران الإسرائيلى ، العمود

الفقرى «لجيش الدفاع» ، أو بالأحرى «سلاح القرصان الجوى فى «جيش العدوان الإسرائيلى» ومعه تحطمت الى الابد اسطورة التفوق الجوى الاسرائيلى التى ملأ العدو بها الدنيا ضجيجا ودعاية ، وحاول ان يملأ بها قلوبنا خوفا او قلقاً . كذلك تحطمت تلك الفروق الصارمة يضعها البعض بين اسلحة «دفاعية» وأخرى «هجومية» ، وأثبتت المعركة أن كل سلاح يصلح ويمكن أن يستخدم للغرضين ، وإنما يتوقف الأمر على الاطار او السياق الاستراتيجى .

ولعل من الملائم والمفيد هنا أن نقتبس خلاصة تحليل مركزة وواعية لمعركة أكتوبر الجوية قدمها الجنرال السوفييتى ميخائيل تومينكو فى النجم الأحمر ، فهى تلقى من الضوء بقدر ما تبدد من وهم . فحرب الشرق الأوسط كما يقول الجنرال دمرت اسطورة جيش الدفاع الإسرائيلى «الذى لا يهزم» والدفاعات العربية المضادة للطائرات «قد لقنت درسا قاسيا لقراصنة الجو ، واظهرت مقدرتها على الدفاع عن مواقع قواتها وعن المنشآت العسكرية والمدنية وعلى الحاق خسائر جسيمة بالعدو» ويضيف تومينكو أن «إسرائيل التى كانت تأمل أن تحتفظ بالتفوق الجوى قد أخفق سلاحها الجوى فى الالتجاء الى أسلوبه المفضل الذى كان يعتمد على الأعمال الفجائية» . ثم يحلل الجنرال أسباب الخسائر الفادحة فى الطيران الإسرائيلى ، فيردها الى

الروح القتالية العالية للعاملين على الصواريخ المضادة للطائرات وللطيارين على المقاتلات ، وما وصلوا اليه جميعا من مستوى فى التدريب ، والى هذا يضيف ثقتهم بقواتهم وإيمانهم بعدالة القضية العربية ، ثم أخيرا وليس آخرا تنظيم أجهزة الدفاع الجوى والتعاون الوثيق بين كل هذه الأجهزة والعناصر .

تلك إذن قصة الصراع على سماء المعركة وتلك نتائجها . وإذا كان هناك من مغزى تطورى شامل لها ، فهو بلاشك تناقص دور الطيران نسبيا فى المستقبل ، لقد كان الطيران ـ اعظم سلاح هجومى فى الحرب الحديثة ـ يتسيد أسلحة الجيوش عموما وباطراد ، ويوشك فى وقت ما أن يحتكر كل الأهمية والسيطرة بينها . كانت الحرب بمعنى اخر ، «تنتقل» حثيثا وبقوة من الأرض الى السماء ، وتنذر اذا ما استمر الاتجاه دون تغيير بأن تغادرها تقريبا تاركة لها دورا طفيفا متضائلا باطراد . حرب أكتوبر انزلت الحرب من السماء وأعادتها إلى الأرض أكثر ، وبالتالي أعادت الى القوات البرية كثيرا من قيمتها القديمة ، إن الطائرة وان لم تفقد قيمتها فقد فقدت سيادتها .

اما على المستوى العام والعالمى ، فقد أحدث ذلك كله انقلابا كاملا وثورة جذرية في استراتيجية الحرب الحديثة كما اتفق كل المختصين ،

فكان حكمهم بالاجماع أن عصرا جديدا قد بدأ فى تاريخ الحرب الحديثة ، وآن سام ، وسام ٦ بخاصة ، هو الذى دشن هذا العصر وهو سيده ، انه أساسا عصر الصواريخ والدفاع الجوى ، بينما تراجع عصر التفوق الجوى تقريبا أو هو فى سبيله إلى الانكماش ، لا ، ولم يعد السلاح الجوى سيد حرب الصحراء كما أوحت التجارب السابقة ، ولا هو بالضرورة سيد الحرب الحديثة عموما ، أو كما ذكر لى موف «يرى بعض الخبراء العسكريين أن مبدأ التفوق الجوى الذى اعترف به خبراء الاستراتيجية منذ الحرب العالمية الثانية قد يعاد النظر فيه على ضوء أحداث الجولة الرابعة ، بينما لا يتردد البعض الآخر فى تأكيد أن هذا المبدأ قد انهار تماما» .

انقلاب راديكالى وخطير فرض على كل الدول والجيوش والصناعات الحربية أن تعيد حساباتها وخططها الاستراتيجية كلية فى مواجهة عصر الصواريخ الجوية . ومن ناحية أخرى انتهى البعض إلى أن امتلاك عنصر المفاجأة العسكرية لا يكفى لتحقيق النصر ، ما لم يصاحبه ضرب القوة الجوية للعدو منذ اللحظة الأولى ، هذا بينما راح البعض الآخر يتنبأ بأن طيران المستقبل سيكون كله بلا طيارين ، وآخرون ذهبوا إلى أن تكاليف انتاج الطائرات سترتفع الى مستويات فلكية ومانعة ...الخ .. الخ ..

وقد عبر عن هذه الطفرة كلها بالدهشة «والقلق أيضا!» وزير الجيش الأمريكى نفسه حيث قال «إن عبور القوات المصرية لقناة السويس في مواجهة التفوق الإسرائيلي فى القوة الجوية يعتبر علامة بارزة في الحروب الحديثة سوف تؤدى الى تغييرات في الاستراتيجية العسكرية العالمية .. ان حرب الشرق الأوسط قد فجرت وبددت الكثير من المفاهيم ، فلأول مرة في التاريخ الحديث تتمكن قوة عسكرية من انجاز عملية عبور ضخمة لقناة تماثل النهر دون أن تفقد أى طائرة من طائراتها ، وذلك في وجه عدو يملك سلاحا جويا متفوقا ، ولقد تمت عملية العبور بصواريخ متطورة ، مما يجعل من الضرورى ادخال تغييرات جديدة على الاستراتيجية العسكرية» . وعلى هذا الأساس أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية عن بدء برنامج لتطوير اسلحة الدفاع الجوى ، يركز على انتاج طراز معدل من الصواريخ المضادة للطائرات ويعطى الأولوية للصواريخ أرض - جو .

وبالمثل أعلن جالليه وزير دفاع فرنسا أن حكومته ستطبق الدروس المستفادة من معارك الميدان في الشرق الأوسط فى تطوير خططها العسكرية والدفاعية ، خاصة فى مجالات الصواريخ الدفاعية المتوسطة المدى والمشاة الميكانيكية والصواريخ المضادة للدبابات .. إلخ .

وأخيرا ، وعلى سبيل المثال أيضا ، فقلد بدأ حلف الاطلنطي ينظر بقلق حاد إلى التوازن العسكرى بينه وبين حلف وارسو ، فسلاح الحلف الأخير هو نفسه السلاح الذي استعمله السوريون والمصريون في أكتوبر بكفاءة وخطورة ، وبالتالي يلقي بظلال كئيبة على مصير وفاعلية أي مواجهة مسلحة في أوربا ، لاسيما أن سلاح حلف الاطلنطي هو نفسه سلاح إسرائيل في المعركة بل قد يكون أقل تطورا من هذا الأخير في خطوط معينة اختصته بها أمريكا دون حلفائها الأوربيين . أما من جانب الصناعات الحربية ، فقد أوقفت بعض مصانع السلاح في العالم بالفعل انتاج بعض خطوطها التقليدية والمفضلة سابقا ، وبدأت تخطيطا جديدا تماما للانتاج .

حرب دبابات ضد مشاة

وهذا الذي قلناه عن الحرب الجوية يصدق تماما ، وربما بصورة أكثر درامية ، على الحرب البرية ، وبخاصة حرب المدرعات أو الدبابات، فقد سجلت معركة أكتوبر انقلابا آخر لا يقل خطرا ونتائج واثارة في الحرب الميكانيكية ومعارك المدرعات ، كما سجلت مفارقة أخرى فذة في تاريخها .

فمن الغريب ان الحرب شهدت ما قد يعد أكبر معركة دبابات في التاريخ الحديث ، أكبر على وجه اليقين من العلمين وعلى وجه الاطلاق

من ستالينجراد ، ولقد رأينا كيف شاركت من الجانبين نحو ٤٠٠٠ دبابة فى الصراع الرهيب ، وكيف بلغت الخسائر المشتركة نحو ٢٥٠٠ أو ٣٠٠٠ دبابة . ومع ذلك فلقد أثبتت المعركة نتيجة ثورية ومتناقضة جدا : أثبتت فى تقدير البعض نهاية عصر الدبابة ، لقد كانت المعركة اكبر ، وربما فى الوقت نفسه ، آخر معركة دبابات فى التاريخ المعاصر على ما يبدو ! لقد ولدت الدبابة فى الحرب العالمية الأولى ، وماتت فى حرب أكتوبر . عمدت فى بريطانيا ودفنت فى سيناء والجولان على مايرى البعض ، خلقها الانجليز وخنقها العرب .

الأغرب بعد ذلك كله أنها ليست كما ظن الكثيرون معركة دبابات ، بل معركة مشاة أولا وقبل كل شيء .. ذلك أن المفاجأة الصادمة هنا كان ظهور الصواريخ المضادة للدبابات والموجهة الكترونيا ، سواء المحمولة على منصات وقواعد متحركة أو المحمولة على أكتاف المشاة «صواريخ ساجر وسنابير ومولوتكا والاربيجى السوفييتية الصنع ، يقابلها صواريخ س . س - ١١ وتاو الأمريكية الصنع» ، هذا بالطبع عدا المدفعية المضادة للدبابات وغيرها . فكانت أرتال دبابات العدو ومدرعاته ، التى يعتمد عليها بعد السلاح الجوى مباشرة ومعه أساسا ، كانت تذوب وتتلاشى أمام صواريخنا المضادة بأنواعها المختلفة «أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية أن المصريين دمروا نحو ٢٠٠ دبابة إسرائيلية

في الأيام القليلة الأولى من المعركة باستخدام القذائف الموجهة الكترونيا» .

ولقد كانت الصدمة الصاعقة للعدو بوجه خاص هى صواريخ المشاة ، هؤلاء الذين لم يكن يعتد بهم تقليديا فى الحرب المدرعة الحديثة، والذين كانوا ـ كالفرسان من قبل ـ يمثلون أخر مخلفات وزوائد وبقايا الحرب القديمة ، ولعل مما له مغزاه الدال في هذا السياق ذلك التشبيه التاريخي الذى ذكرته النيوزويك نقلا بعض الخبراء العسكريين ، فلقد قارنوا بين نجاح الأسلحة السورية والمصرية الجديدة وبين الدمار الذي أحدثه اكتساح المشاة الانجليز للفرسان الفرنسيين في موقعة كريسى الشهيرة في منتصف القرن الرابع عشر ، فقد فتك المشاة المزودون بالاقواس البعيدة المدى بالفرسان الراكبة فتكا ذريعا .

ففي أكتوبر كان رجل المشاة الراجل يواجه الدبابة المدرعة بشخصه وبصاروخه على كتفه ، فيحيلها بقذيفة واحدة أحيانا الى حطام يحترق . ومن هنا فكما كانت المعركة تصادمية بين مدرعات ومدرعات وبين دبابات وصواريخ مضادة للدبابات ، كانت أيضا مواجهة بين المدرعات بمدافعها وبين المشاة بصواريخها . وليس هناك أدنى شك فى تفوق الجانب العربى فى الحالين : فكما اعترف ألون فى حديث الى ايديعوت

أحرونوت فإن المشاة المصريين برهنوا على بسالة عظيمة ، كما أن القوات العربية تعلمت جيدا كيف تقاتل ليلا وكما صرح وزير الدفاع الأمريكي في مارس ١٩٧٤ فإن الدراسات التى أجراها خبراء الأسلحة فى الجيش الأمريكى على الدبابات التى استخدمتها إسرائيل فى أكتوبر لم تثبت وجود عيوب خطيرة فيها ، ولكن اللوم فى الخسائر الجسيمة التى منى بها الإسرائيليون فى دباباتهم إنما يقع على «الأساليب الإسرائيلية الطائشة والاستخدام العربى المركز للصواريخ المضادة للدبابات» .

وبقدر ما أعاد هذا كله المشاة الى قلب الصورة بقدر ما حدد مصير المدرعات ، إنها عودة المشاه وربما نهاية الدبابات أو بداية نهايتها . فلم تعد المدرعات سيدة الحرب البرية ، ولا الدبابة بالضرورة سيدة حرب الصحراء تصول فيها وتجول فى مناورات الحركة السريعة والالتفاف الواسع المدى كما كان دورها فى العلمين مثلا . وإنما انتقلت السيادة الأرضية عموما إلى الصواريخ المضادة للمدرعات ، وعلى رأسها المشاة الصاروخية بالذات .

وقد أدى هذا كله بأحد المعلقين العسكريين الى انتهاء خطير مؤداه أن مستقبل الدبابة فى خطر «وأن أيام الدبابة قد أصبحت معدودة فى الحرب الحديثة» كما كتبت مجلة تايم فى نوفمبر قائلة «ان التكنولوجيا

المصرية قد جعلت العصر الذى كانت الدبابات والطائرات تسود فيه ميدان القتال يذهب فى ذمة التاريخ» ولكن البعض يرى أن من الحكمة أن نتحفظ قليلا ، فربما كان مثل هذا الجزم القاطع سابقا لأوانه ، ولابد من التريث بعض الوقت قبل أن تتحول الدبابات والمدرعات نهائيا إلى قطع متاحف .

وعلى أية حال فلقد فرضت معركة أكتوبر على العسكريين قضية الصراع على السيادة فى الحروب بين الدبابة والصاروخ المضاد لها . وإذا كان البعض يرى أن تجربة أكتوبر قد أفقدت الدبابة سيادتها ، فإن هناك من يعتقد أن من الممكن لها من تحتفظ بأهميتها وبدور مهم اذا ما ركبت عليها حوامل صواريخ مضادة .. فإذا صح هذا أو حدث ، فلن يكون له فى الحقيقة من معنى سوى أن الدبابة قد بعثت وعاشت مرة أخرى من خلال مصل أو لقاح مضاد اتخذته بالدقة من سمها القاتل نفسه .

هذا عن الدبابات ، أما عن المدفعية ، من الناحية الأخرى ، فلقد أثبتت المعركة خطورتها وأكدت دورها وبقاءها ، وذلك أمر منطقى فى الواقع ، فما الصواريخ نفسها ، سواء المضادة للدبابات أو للطائرات ، الا امتداد وتطوير بشكل ما للمدفعية ، وعلى أية حال ، فمن السهل بعد هذا أن نتصور الانقلاب الهائل والعميق الذى سوف تحدثه هذه

التطورات على هياكل الجيوش وصناعات التسليح واستراتيجية الحرب في المستقبل على المستوى العالمي جميعا ، ولقد قررت أمريكا أخيرا بالفعل مضاعفة انتاجها من الدبابات ومن الصواريخ المضادة لها في الوقت نفسه ، الاولى تعويضا لاستنزافها على يد إسرائيل ، والآخيرة كدرس اكتوبر بلاشك .

حرب التكنولوچيا ضد القوة البشرية

ونصل أخيرا من مجموع هذه الانقلابات والطفرات الثري الى خاتمة ، وربما كبرى ، الحقائق - النقائض التى دفعت بها حرب أكتوبر الى المقدمة . انها أول حرب الكترونية فى التاريخ كما وصفت ، ولكنها بمنطق ديالكتيكى مثير أعادت الى عامل القوة البشرية وزنه وقيمته الحاكمة ، أى أنها بداية حرب التكنولوچيا العظمى ، ولكن أيضا نقطة عودة القوة البشرية .

والأصل - نظريا - أن التكنولوجيا فى الحرب بديل القوة البشرية تختزلها وترثها وقد تجبها تماما ، مثلما تحل الآلة محل الإنسان فى الحياة العادية وحضارة السلم . ولكن معركة أكتوبر ، على شدة اعتمادها على آحدث وآرقى ما توصلت اليه تكنولوجيا الحرب وصناعة السلاح ، هى التى لأول مرة أعادت التوازن الى طرفى معادلة

التكنولوجيا ـ الإنسان ، وأعادت القوة البشرية بالتالى الى مكان الصدارة فى الحرب الحديثة .

والقوة البشرية Manpower ـ والتعبير أصلا من وضع الجغرافى البريطانى الكبير هالفورد ماكيندر ، صكه وأشاعه منذ الحرب العالمية الاولى ـ للقوة البشرية جانبان متكافئان فى الأهمية : الكم والكيف ، وللكيف بدوره جانبان مماثلان: المادى والمعنوى . فليست القوة البشرية إذن مجرد حجم أو كثافة ، أى عدد القوات ، وإنما هى أيضا نوعية الرجال ، تدريبهم وكفاءتهم وقيادتهم وخططهم ، ولكن أيضا وأولا وقبل كل شىء روحهم المعنوية ودرجة الإقدام والشجاعة والفدائية والإيمان والاقتناع بالهدف الخ .. وبغير هذا مجتمعا لا نفهم معنى القوة البشرية .

فإذا عدنا إلى المعركة ، فسنجد الصاروخ القاسم المشترك الأعظم فى الدفاع ، سواء على الأرض ضد المدرعات أو فى الجو ضد الطائرات، سواء ثابتا أو متحركا، محمولا على قاعدة ومنصة أو على أكتاف المشاة. إنها اذن ليست معركة دبابات وطائرات ضد دبابات وطائرات فقط، ولكنها بالدرجة نفسها أيضا معركة مشاة وصواريخ ضد دبابات وطائرات. وفى هذا قال الجنرال بوفر «لقد ابرزت حرب اكتوبر دروسا عديدة فى المجالات التكتيكية والتعبوية والاستراتيجية.

فالصواريخ الموجهة المضادة للطائرات والمضادة للدبابات قد اثبت كفاءتها وبطشها الشديد. وبفضل هذه الصواريخ فشلت الدبابات والطائرات الاسرائيلية في إحراز التفوق ومالت الموازين الى جانب العرب» . ومن هذه الزاوية فاذا كان من الصحيح تماما ما اضافه بوفر بعد ذلك من آن الحرب اثبتت «آن المعركة في مجالها الفني سوف تزداد تعقيدا، نظرا لأن كل خطوة للتطور سوف تعقبها خطوة أخرى مضادة لهذا التطور، وسوف يصبح التفوق التكنولوجي تبعا لذلك شديد الوقع عظيم التأثير على احداث القتال». فلا شك ايضا أن هذا كما رأينا قد أعاد المشاة الى قلب الصورة ومقدمة المعركة، وحد أو خفف من حاكمية الاسلحة الحديثة وخاصة الطيران والمدرعات. وعلى هذا فان المغزى الأعم والأعلى هو إعادة القوة الى عنصر القوة البشرية، جنبا الى جنب مع عامل التفوق التكنولوجي. نعم ، العدد والحجم، الكثافة البشرية ونوعية الرجال ومعنويات المقاتل، كلها عادت الى الصدارة. وهذا قلب آخر مثير لقوانين الحرب الحديثة .

وثمة انقلاب ثالث آو رابع أو عاشر تنبيء أو تشي به هذه التطورات لا يقل آثاروإثارة ، لقد رأينا ان الحرب الحديثة بطبيعتها وبتكنولوجيتها تميل باطراد الى أن تكون حربا قصيرة سريعة مختزلة ومضغوطة، لكن هناك تحفظا استدراكيا مهما تمليه عودة الأهمية الى عامل القوة

البشرية. ففي رأى البعض من الاخصائيين أن تزايد دور القوة البشرية المطرد سيفرض على حرب المستقبل اتجاها مضادا نحو الطول الى حد أو آخر. ستعود الحرب طويلة نسبيا، ليس بطولها في الماضي البعيد بالطبع، ولكن ليس كذلك بقصرها الشديد الذى يسود حاليا. لن تعود حروب السنوات العديدة، ولكن ستنتهى حروب الايام المعدودة، لتسود حروب الشهور المعقولة.

وإذا بدا الآن ان معظم هذه الانقلابات والاحتمالات الاستراتيجية التى كشفت عنها المعركة أقرب أن تكون عودا بدرجة ما وبصورة أو بأخرى الى الماضى - العدد والحجم، الشجاعة والاقدام، معركة كريسى، البشر أكثر من السلاح استطالة الحرب نوعا - فليس هذا رجعة او ردة الى الخلف ولا هو يعيد عقارب الساعة الى الوراء كما قد يبدو على السطح، وانما هو بالاجرى عودا الى الطبيعة، الى طبائع الأشياء، بعد أن كانت التكنولوجيا قد فصلتها عنها كثيرا أو قليلا. الحرب ستعود بالتدريج الى البيئة، تتلاءم وتنسجم معها أكثر، تعكسها ولا تعاكسها، تماما مثلما تتجه الحضارة المعاصرة العادية إلى العودة الى الطبيعة والى البيئة والى الجغرافيا.

والجدير بالملاحظة بعد هذا أن الانقلاب فى جملته يأتى لصالح كثافة السكان ولصالح الدول والجيوش الكبيرة الحجم والشعوب الفقيرة

والاقل تنمية وبالتالي في صف العرب عامة ومصر خاصة في مواجهة اسرائيل، وبصفة أعم في صف دول العالم الثالث. لقد فتحت المعركة باب الأمل العسكرى أمام الدول المتخلفة نسبيا. فلقد كشفت حرب اكتوبر عن بديل متاح وميسور للتفوق التكنولوجي الساحق يوازيه ويوازنه ويحيده أو يحد منه، ذلك هو الخزان البشرى العميق وأعماق الشخصية المحاربة.

ولقد كان مما راع العدو الاسرائيلى بالفعل وروعه فى المعركة قوة الكثافة البشرية (أو كثافة القوة البشرية، سيان) المصرية التى اطلقت عليه أثناء العبور واقتحام الخط وبعدهما وكما رأينا فلقد حشدت مصر للمعركة ١ ١ مليون جندي وسوريا ٢٦٠ ألفاً ، أى بمجموع ٣٦٠ ١ جندى أى مليونا وثلث المليون .

ولعلنا كذلك نذكر كيف أعلن العدو شاكيا صارخا أن نسبة المشاة الصاروخية المصرية الى المدرعات أثناء المعركة بلغت ١:٣ ومن ناحيتنا نحن، فلقد عبر الرئيس السادات في حديث له الى مجلة الحوادث اللبنانية عن ذلك بصورة حاسمة بقوله : إن اسرائيل اعتمدت على التفوق الجوى لأن القوى البشرية اللازمة لم تكن متوافرة لديها، ولكن حرب اكتوبر اثبتت أن التفوق فى القوى البشرية كان اساس التميز الاستراتيجى، وهذه القوى هى التى أخرجت العدو من

المعركة». كذلك عبر أحد القادة المصريين عن الموقف بصورة ثاقبة امسكت بجوهر التطور كله حين قال أن قواتنا استخدمت في العبور اعقد الاسلحة المتطورة جنبا الى جنب مع ابسط الوسائل «واكثرها بدائية» .

من الاولى اسلحة الدفاع الجوى والاعاقة اللاسلكية والرادارية، ومن الثانية سلالم الحبال وعربات الجر وتجريف الرمال !

وإذا كان لهذا كله من معنى استراتيجي ، فهو أن العرب قد استثمروا عامل الكثافة البشرية الى أقصى حد ووظفوه فى المعركة بنجاح تام. فالتفوق العددى ، وهو مكفول لنا تماما هو من أكبر اصولنا فى الصراع ومن أكبر «خصوم» العدو وكان حتما أن نوظفه بكفاءة ، على الاقل تعويضا بالكم عن الكيف ، تماما كما توظف الصين مثلا كثافتها السكانية الهائلة فى مشاريع السلم والحرب على السواء . ولعلها أكثر من صدفة تشبيه جونين للمد المصرى الذى اجتاح قواته فى سيناء بموجات الهجمات «الصينية». ولقد كان من اخطاء يونيو وادعاها إثارة للدهشة أن العدو حشد فى المعركة قوة بشرية تفوق مجموع القوى العربية مجتمعة ! أما معركة اكتوبر، رغم انها اساسا حرب العلم والتكنولوجيا وأول حرب الكترونية فى التاريخ ، فقد أثبتت أن للقوة البشرية – ما يزال – دورها وقيمتها الحيوية ، وخطأ كبير أن يظن أحد

ان العدد الحديثة حتى اليوم، تغنى كلية عن العدد فالتفوق البشرى العدد هو بمثابة مضاعفة لعدد الجيوش ورصيد لا ينفد في وجه أى انتكاسة عارضة. فمع التفوق العددى ، حتى مع تفوق العدو نوعيا يمكنك ان تستهلكه الى حد الاستنزاف بجيش تلقى به وراء جيش إلى أن تنهكه وتنتصر عليه .

كل هذا عن العدد والحجم الخام. ولكن جانب الكيف والنوع والمعنويات لا يقل خطرا أو اثارة فبصفة خاصة يعيد هذا التطور الخلاق الاعتبار الى عامل كان هاما جدا فى القديم وحروب الماضى وخاصة العصور الوسطى ثم أصبح متنحيا فى عصر الحروب العلمية الحديثة، ونعنى به عامل الشجاعة والاقدام أو الفروسية . فقد كان يقال أن الحرب الحديثة حرب ذكاء وعلم وآلات متطورة وتخطيط معقد. لم يعد فيها مكان كبير للحماسة أو الشجاعة .. إلخ .

حرب اكتوبر اعادت للبسالة والشجاعة وروح التضحية والاقدام كل قيمتها فلأول مرة يلتحم المشاة بالدبابات والمدرعات وجها لوجه، ويتحول المشاة الى دبابات حية فى مواجهة وصفت ببلاغة ولكن بجدارة بأنها مواجهة بين اللحم والصلب وبين الأعصاب والنيران . ولأول مرة يصمد رجال الصواريخ على الارض لسيال نارى متصل من السماء ويقفون فى وجه الطيران الغامر، لقد كانت المعركة معركة الاقدام الراجلة

والاقدام الجسور ضد القلاع الزاحفة والفرسان المدرعة ، معركة المشاة الحاملة ضد المدرعات المحمولة، أي اساسا حربا بين الشجاعة والمناعة وبين البسالة والحصانة .

وعند هذه النقطة تثور مفارقة أخرى تضاف الى قائمة متناقضات هذه الحرب الفريدة. وهي مفارقة دالة وكاشفة بقدر ما هي طريفة ولاذعة ايضا، لأنها تسخر من العدو في صميم وهم أثير لديه. فلقد ألف منظرو العدو أن يصوروا الصراع بين العرب وإسرائيل على أنه صراع بين جثة ضخمة ثقيلة غليظة ولكنها متبلدة وعاجزة عن الحركة ، وبين كائن صغير دقيق الحجم ولكنه حركي قادر مفعم بالنشاط والمهارة .. إلخ ، بالتشبيه العبرى التوراتى الأثير : بين جوليات وداوود . وقد صنع العدو من هذا المثال الساخر رأسمال عدائيا كاسحا في العالم وصورة باهرة للدولة الصغيرة المتحضرة المتقدمة التي تقهر دولا عديدة ضخمة وشاسعة .. الخ .

حرب أكتوبر جاءت لتسخر بدورها من هذه السخرية ! فمما لاشك فيه أن من الظاهرات اللافتة للنظر جدا في المعركة أن العرب إنما تصدت لسلاح طيران ومدرعات العدو بالصواريخ أكثر منها بالطيران والمدرعات . وهذا بحذافيره - أليس كذلك ؟ - هو صميم الصراع بين الوحدات الضخمة الحجم والثقيلة الوزن في جانب ، وبين الوحدات

الصغيرة الخفيفة الوزن والحمل فى الجانب الآخر : تماما كالأرمادا الإسبانية قديما ، تلك القلاع الضخمة الثقيلة العائمة ، ضد سفن القرصنة البريطانية المرنة الخفيفة السريعة الحركة ، فى ذلك الصراع البحرى المصيرى الذى أنهى خرافة «الأرمادا التى لا تقهر "The Invincible Armada ولعلها أكثر من صدفة أن العدو لم يكن يتحدث ، هو الآخر إلا عن جيش الدفاع وسلاح الطيران «الذى لا يقهر».. لقد قهرت المرونة والوحدات السلاحية العربية الصغيرة «غول» الوحدات الضخمة الثقيلة للعدو، ولكن داوود هذه المرة عربى وجوليات هو غول العدو!

وهذا بالضبط هو الرد الصحيح الوحيد على كل ما ادعاه العدو أو روج له اصدقاوه تبريرا للنكسة التاريخية التى منى بها فى المعركة، فلقد ركز كثيرون على الاسلحة المتطورة الممتازة، وخاصة صاروخ سام ٦، فى ايدى السوريين والمصريين ، كبطل المعركة ونجمها الوحيد، وذلك عمدا ليبعدوا المقاتل العربى خلف تلك الاسلحة عن دائرة الضوء والتركيز، غير أن الواضح تماما أن فاعلية وكفاءة تلك الاسلحة بالذات، الممتازة بلا أدنى شك، إنما تتوقف أساسا على اليد التى تمسك بها وتشغلها وتسيطر عليها، وكان الانسان العربى المحارب هو البطل الحقيقى فى المعركة .

وهذه الحقيقة نفسها هي التي تفسر تخبط العدو في تبرير هزيمته. فهو مرة يقول أنه فوجيء بموعد الهجوم ثم عاد يقول بل بكمية ونوعية الاسلحة والتدريب ، بل لقد وصل الى حد البحث عن «السلاح السرى» أو «العقار السرى» (حبوب الشجاعة) الذى حمله المقاتل العربى (كذا!) ولم يكن ذلك كله فى الحقيقة سوى تبرير خاطيء لعدو فاشل على أنه فى النهاية اضطر الى أن يعود فيعترف بأن مفاجأة المعركة كانت هى نوعية المحارب العربى .

رئيس اركان العدو بنفسه أعلنها : «أن كل حرب تحمل معها مفاجاتها»، قال ديفيد اليعازر، «وهناك أشياء لا بد لنا أن نتعلمها وأن نصحح معلوماتنا بشأنها . وكبرى هذه المفاجات أن الجنود المصريين، وكذلك السوريين، قد أظهروا قدرا من الكفاءة والتضحية بالنفس وتوفر الدافع يفوق بكثير ما أبدوه في الحروب السابقة. إن الجيش الاسرائيلى قد فوجىء تماما بتدريب وكفاءة الجندى العربى». لقد اكتشف العدو، متاخرا جدا ، أن «السلاح السرى» أو «الغقار السحرى» الذى توهمه مع المقاتل العرى انما هو المقاتل العربى نفسه !

والشيء نفسه اعترف به بارليف حين قال ان المصريين حاربوا هذه المرة بدوافع وطنية أكثر قوة من أى وقت مضى، وأنه لا يستطيع أن

يقلل من القوة القتـــالية للمصريين فى المرات السابقة فقد كانت صفوفهم صعبة التفتيت عنــدما كانوا يقاتلون من مواقع دفاعية، جيدة، ولكنهم فى هذه المرة كانوا أكثر جسارة وتصميما وكانت روح الفداء لديهم لا نزاع فيها ، بل وصلت الي حد المخاطرة. ثم اضاف بارليف أن المصريين والسوريين فضــلا عن ذلك قد دخلوا هذه الحرب بأسلحة جديدة وبكميــات هائلة لم تحسن المخابرات الاسـرائيلية تقديرها. ولهـذا وقـعت المفـاجـأة ، ونجح المصـريون والسـوريون فى تحـقـيق انتصاراتهم .

عن الاستراتيجية الإقليمية
دراسة مقارنة

من الضرورى، كما هو من المفيد أن ننظر الى السادس من اكتوبر فى اطار الاستراتيجية الاقليمية لنقارنه بما سبقه من معارك ومواجهات عسكرية داخل المنطقة أو خارجها. فمن اوجه الشبه والاختلاف المرصودة نستطيع أن نحدد الخصائص الأساسية والخصوصية المنفردة لحرب أكتوبر، ولا شك أن حرب يونيو هى أول ما يفرض نفسه على الدراسة المقارنة ، على أن من المستحسن واللازم أيضا أن نجمع الاثنين معا، يونيو واكتوبر في اطار واحد هو اطار الصراع العربى –

الاسرائيلي عموما. غير أننا سنجد أن هذا يوحي على الفور بالمقارنة بالصراع الأوربي - النازى فى الحرب الثانية. وهناك أيضا تشابه جزئي وثانوى، لكنه جدير بأن يذكر، بين حرب اكتوبر وبين حرب الهند - الباكستان الأخيرة. وسنبدأ بإشارة سريعة إلى المقارنة الأخيرة، نتفرغ بعدها بتفصيل للمقارنة بين قصة النازية وخطتها فى أوربا ونظيرتها الصهيونية فى الشرق الأوسط .

الصراع العربى - الاسرائيلى والصراع الهندى - الباكستانى

فعن حرب الهند - الباكستان ، هناك عدة ملامح تذكر بالصراع العربى - الاسرائيلى ، مع فارق اساسى وشرطى للغاية يتعلق بالحقوق الشرعية والمواقف القانونية الأساسية فى الصراع والتى لن نتعرض لها هنا: ففيما عدا هذا التحفظ الجوهرى، وبعيدا تماما عن مقارنة الشرعية الاقليمية بين اطراف الصراع فى الحالتين. وكذلك مع التسليم بوجود اختلافات اخرى عديدة قد ترجح اوجه التشابه ، يمكن أن نعدد مظاهر التقارب الآتية :

فأولا : هناك فارق حجم وموارد ضخم الى أبعد الحدود بين الهند والباكستان (٥٥٠ مليونا ضد ١٣٥ مليونا) كذلك الذى بين العرب

واسرائيل (١٢٥ مليونا ضد ٣ - ٣.٥ مليون) ولكن لأسباب خارجية متعددة ومختلفة كان هناك تقارب ما في مستوى التسليح وقوة السلاح بين جانبي كلا الصراعين .

وثانيا : قامت بين الهند والباكستان ٣ حروب منذ التقسيم ، مقابل ٤ حروب بين العرب واسرائيل منذ الاغتصاب. ولعلها صدفة أو اكثر من صدفة ان الصراع في الحالين ديني في الاساس وينتظم دولة دينية من جانب واحد على الاقل غير أن الفارق الأساسي هو الوضع الاستعماري الاغتصابي الدخيل لاسرائيل في الشرق الاوسط، وهو بطبيعة الحال فارق جذري وحاسم يطغى على كل ما عداه من فروق فضلا عن التشابهات، ولهذا لا يحتمل مزيدا من الضغط والتأكيد ولا تأويلا أي تأويل .

وثالثا : كانت الولايات المتحدة تقف بانتظام مع الطرف الاصغر (الباكستان هنا، واسرائيل هناك) كحليف بدرجة أو بأخرى يورد له السلاح الاساسي ويسانده سياسيا واقتصاديا وفي جانب الطرف الأكبر (الهند هنا، ومصر وسوريا وغيرهما هناك) وقف الاتحاد السوفيتي مؤيدا بالسياسة والاقتصاد وموردا للسلاح. الفارق الوحيد أن المساعدات السوفيتية للآخرين متكافئة متزنة ومتناسبة مع احجامها، أما مساعدات أمريكا للباكستان فلا تقارن قط بسيل مساعداتها المتدفق على إسرائيل.

رابعا : فى الحرب قبل الاخيرة (الحرب الثانية بين الهند والباكستان ١٩٦٥) والثالثة بين العرب واسرائيل (١٩٦٧) سجل الطرف الاصغر على الاكبر انتصارا ساحقا بدرجة أو بأخرى وفى كل منهما لعبت الحرب الجوية الخاطفة دورا فى آخر. وفى الحالتين بدا أن هذا الانتصار الضخم قد جاء مضادا للتوازن الطبيعى للقوى بين الطرفين وربما غير معبر عن حقائق القوة بينهما، ولكنه بالدرجة نفسها قلب الموازين الاستراتيجية فى الصراع .

خامسا : فى الحرب الأخيرة (١٩٧١ فى شبه القارة، ١٩٧٣ فى الشرق الاوسط) التى كانت حربا محدودة فى الحالتين دامت ١١ يوما فى الأولى ونحو ٢٠ يوما فى الأخيرة، لم تلعب الحرب الجوية الخاطفة دورا حاسما وكانت المواجهة برية تصادمية أساسا، وفيها كان النصر حليف الطرف الاكبر الأول مرة فى الحالين تقريبا. وكان التنسيق بين هذا الطرف وبين الاصدقاء الكبار السوفييت وكذلك السلاح السوفيتى عاملا هاما فى تحقيق هذه النتيجة .

سادسا : تشترك الحرب الأخيرة فى كل من الحالتين فى انها اول حرب محدودة فى ظل الوفاق الدولى بين القطبين الاعظم، واكدت بذلك أن الوفاق ليس قيدا على الحروب المحلية ولا مانعا لها، وأن كان عليها أن تعمل فى ظله وبالتنسيق معه ومراعاة توازناته العالمية الحرجة. غير

أن هناك فارقا مهما أيضا بين الحربين بعد ذلك، فحرب الهند، الباكستانى دارت والوفاق لم يزل بعد فى مرحلته التكوينية نسبيا، ولا نقول الجنينية . أما معركة اكتوبر فقد وقعت والوفاق قد اكتمل نضجا وتبلورا ، أو هو على الاقل فى سبيله الى ذلك . حرب شبه القارة هى الأولى شكلا فى ظل الوفاق، ولكن حرب شبه الجزيرة هى الأولى موضوعا ، من هنا تعد حرب اكتوبر بجدارة أول حرب محلية حقيقية تتم فى ظل الوفاق .

سابعا : وفى الحالتين ، بينما جاء انتصار الطرف الاصغر فى الحرب قبل الأخيرة مدويا من الناحية العسكرية، جاء عقيما من الناحية السياسية، فقد جمد الاوضاع الراهنة دون أن يفرض الحل النهائى. أما فى الحرب الاخيرة، فرغم ان انتصار الطرف الاكبر كان أقل بريقا وحجما وربما دويا من الناحية العسكرية، فقد كانت آثاره حاسمة من الناحية السياسية .

فمعركة الهند - الباكستان قلبت التوازنات الاقليمية فى شبه القارة تماما، اذ انشطرت دولة الباكستان وتقلصت الى وحدة سياسية مقلمة متوسطة الحجم كايران المجاورة تقريبا، بينما خلقت دولة جديدة تماما هى بانجلاديش ، على حين طفرت الهند الى الصدارة كقوة شبه عظمى فى جنوب آسيا .

بالمثل في حرب اكتوبر، لأول مرة تعاد اسرائيل الى حجمها الطبيعي كدولة صغرى في مثل حجم الأردن المجاور تقريبا، ويسترد العرب مكانتهم العالمية مرشحين ، ربما لدور قوة كبرى أو شبه عظمى، مع احتمال ان تتمخض التسوية ايضا عن قيام دولة فلسطينية جديدة ؟ مثلما قامت بانجلاديش .

معركة يونيو ومعركة اكتوبر

تلك مقارنه عاجلة وعابرة على مستوى الاستراتيجية العسكرية والاقليمية بين معارك الصراع العربي - الاسرائيلي ، والصراع الهندى - الباكستاني . والتشابه جزئي بطبيعة الحال ، ولكن لعله أن يكون مقنعا مثلما هو دال وأن يلقي من الضوء اكثر مما يلقي من الظلال. وعلى اية حال، فان المقارنة بين الصراع العربي الاسرائيلي والصراع الاوربي النازى هي ما تعنينا أساسا. ولنبدأ أولا بالمقارنة بين معركتي يونيو ١٩٦٧ واكتوبر ١٩٧٣ . ثمة نقاط أساسية خمس، وكلها أوجه اختلاف جذرى - بالطبع .

أولا : معركة يونيو هي النموذج الكامل للحرب الخاطفة، ولكن أيضا وأساسا لضربة «بيرل هاربر» الغادرة فقد بدأت بهجوم شامل، مبيت وغادر، على السلاح الجوى المصرى وهو على الارض اخرجه على الفور من المعركة فكان الوضع اشبه مبارزة اطاع احد طرفيها بسيف الطرف

الآخر على غرة قبل اشارة البدء القانونية ، فتحولت المبارزة على الفور إلى إلتحام بين حامل سيف واعزل من السلاح . وكانت البقية محتومة ! طعنة نافذة في جسم الأخير. هكذا تحولت المعركة في سيناء الى مواجهة بين جيشين في جانب، جوى وبري وبين جيش واحد بري في الجانب الآخر. او بالأحرى لم تحدث مواجهة حقيقية. فبعد أن فقد غطاءه الجوى، أصبح سلاح المدرعات المصرى هدفا مباشرا وسهلا لسلاح طيران العدو.

أما في اكتوبر فقد انعكس الوضع بصورة أو بأخرى فقد تحول الجانب العربى من الدفاع الى الهجوم وأحرز قصب المبادأة ونجح في مفاجأة العدو بضربة جوية شاملة وخاطفة قد تقل حجما وابعادا عن حرب العدو الخاطفة في يونيو ولكنها لم تكن أقل فاعلية وكفاءة ، وإن كانت أبعد شيء عنها من حيث اخلاقيات الشرف والنزاهة. وبعدها اصبحت المواجهة حقيقية بين جيشين في كلا الجانبين ، جيش برى وآخر جوى. من هنا كانت معركة اكتوبر اختبار قوة حقيقي للطرفين، حيث كانت معركة يونيو تجربة غدر من طرف واحد .

ثانيا : في يونيو توسع العدو ترسعا دائريا أى على الجبهات العربية يمينا ويسارا: شمالا في الجولان وشرقا في الضفة الغربية

للاردن، وجنوبا فى سيناء، وبهذا وصل الى حدود طبيعية مانعة وموانع مائية من الدرجة الأولي : المرتفعات السورية ونهر الاردن وقناة السويس وبهذا أيضا تحقق له احتلال مساحة شاسعة من الارض العربية وبلغت آربعة أمثال مساحة الارض السليبة فى فلسطين المحتلة نفسها . «من القنطرة الي القنيطرة ومن شرم الشيخ الى جبل الشيخ» كما وضعها االسوفسطائيون من فلاسفة العدو .

في اكتوبر على العكس، نجح العرب في رد العدو على اعقابه عن قطاعين هامين في غرب سيناء بطول القناة وفى بعض أطراف القطاع الشمالى من الجولان بعرض المرتفعات . وإذا كانت هذه المناطق المحررة لا تمثل إلا كسرا صغيرا من الارض المحتلة فى يونيو، فان الحرب لم تنته والمعركة مستمرة نظريا وعمليا. ويمكن أن تكون تلك القطاعات المحررة عتبة عريضة أو خشبة قفز وثيقة لخلع العدو عن بقية الارض العربية .

وإذا كان العدو قد فاته الغدر على طريقة بيرل هاربر أو غيرها فى بداية المعركة مثلما فعل فى يونيو فقد لجأ الى التعويض بالخداع فى آخرها. فسواء على الجبهة المصرية أو السورية استمات فى نهاية القتال ، ولكن اساسا بعد وقف اطلاق النار رسميا ليفتح ثغرة ليتسلل منها إلى مكاسب إقليمية أو عسكرية أو سياسية وقد نجح بالفعل على الضفة

الغربية للقناة وفى تخوم القطاع الشمالى من الجولان . غير أن وجوده غير الشرعى - لا يعدو فى الحالين جيبا محاصرا كان يمكن تصفيته وسحقه اذا عاد القتال ولهذا سارع بالانسحاب منه فى الفصل بين القوات .

ثالثاً : كانت حرب يونيو حربا جوية فى الدرجة الأولى بداية ونهاية وحسما بالتالى اعطت سندا للنظرية القائلة بأن الطيران هو سيد حرب الصحراء مثلما اعطت مادة لدعاية العدو الراعدة عن تفوقه التكنولوجى والجوى.. إلخ . حرب اكتوبر ، على النقيض ، تأتى حربا جوية وميكانيكية ، حرب طيران ومدرعات ، قاذفات مقاتلة ودفاع جوى، وصواريخ ومشاة، وعلى النقيض اكثر جاءت لتكتسح نظرية الطيران سيد حرب الصحراء ومعها اسطورة التفوق الجوى الاسرائيلى بل وكذلك جاءت لتنسخ نظرية منافسة هى نظرية الدبابات سيدة الارض فى حرب الصحراء.

وعلى العموم فعلى حين لم تغير حرب يونيو شيئا من قواعد الحرب التقليدية بما فيها حتى نظرية الحرب الخاطفة التى كانت تقليدا لا تجديدا، قلبت حرب اكتوبر معظم نظريات الحرب المقررة وهزت اركان الاستراتيجية ومعطياتها الثابتة هزا عنيفا وعميقا على نحو ما رأينا تفصيلا فى الصفحات السابقة .

رابعاً : حرب يونيو هى أقصر حرب خاضها العرب ضد اسرائيل وحرب اكتوبر هى أطولها ، استطالت كما رأينا الى ثلاثة - اربعة أمثال الاولى ، وبينما كانت الاولى جولة واحدة ناجزة ، انتظمت الثانية بصورة ما جولتين فقدت اسرائيل أولاهما بصورة قاطعة ، وكادت تفقد بها الحرب نهائيا لولا التدخل الامريكي غير المباشر - ولكن غير المستتر - الذى منحها فرصة جديدة من الحياة والمقاومة لتبدأ الجولة الثانية التى انتهت الى شكل من التعادل . وبهذا كانت نتيجة الحرب الصافية نصراً محدودا ولكنه اكيد للعرب .

ولئن بدأ هذا النصر أقل ضخامة وبريقا من نصر العدو فى يونيو من الناحية العسكرية ، فان العكس صحيح تماما من النواحى الأخرى، فنصر العدو العسكرى فى يونيو أتى عقيما من الناحية السياسية ، اذ عجز عن فرض ارادة اسرائيل على العرب وبقى الوضع الجديد معلقا . اما نصر العرب المحدود عسكريا فى اكتوبر فقد جاء مع ذلك خصبا الى أقصى حد من الناحية السياسية وغنيا جدا بالتداعيات الجيوبولتيكية . فلقد قلب الميزان الاستراتيجى فى المنطقة تماما وفتح الباب لفرض الاوضاع السياسية الجديدة وكانت له انعكاسات عالمية على موازين السياسة الدولية المعاصرة تزداد

كل يوم وضوحا وستفرض نفسها لا شك في الواقع الدولي إن عاجلا أو أجلا.

خامساً: حرب اكتوبر في المحصلة النهائية وترتيبا على كل ما سبق، هي انعكاس تام وقلب كامل لحرب يونيو. انهما طرفا بنقيض عسكريا وسياسيا، اقليميا وعالميا ، كالقطب الموجب والسالب على الترتيب ، أو كالقرار والجواب، أو كالنفي والاثبات . السادس من اكتوبر هو نفي النفي، هو النقيض الموضوعي للخامس من يونيو ، وهو النسخ التاريخي لمسخ يونيو. لقد قلب يونيو الصراع وتركه «واقفا على رأسه». فأعاد أكتوبر اقامته على قدميه .

في البداية انتزع العرب المبادأة والمفاجأة والهجوم لأول مرة، ووضعوا العدو على الدفاع لأول مرة. في الميدان : كان يونيو آخر نصر عسكري يحققه العدو، وكان اكتوبر اول نصرى عسكرى يسجله العرب. وفي الرأى العام العالمي : في يونيو كان الانحياز الاستفزازى بل والعدائى كاملا ضد العرب ولصالح العدو ، ولكن في اكتوبر كان العدو في عزلة شبه تامة عن العالم. في السياسة : انتهى يونيو الى طريق مسدود والى حالة من الجمود هى حالة اللاحرب واللاسلم، أكتوبر أنهى هذه الحالة وفرض على العالم ضرورة الحل الحقيقي لأزمة .

الصراع العربى الاسرائيلى
والصراع الأوربى - النازى

يبقى الآن أن نضع ٦ أكتوبر مع ٥ يونيو داخل اطار الصراع العربى الاسرائيلى موضع المقارنة مع استراتيجية قيام وسقوط النازية اثناء الحرب الثانية، وبين النازية والصهيونية عدد من أوجه التشابه والتقارب، بل أكثر منها علاقة نسب مباشرة، فما خرجت الصهيونية إلا من رحم النازية فكانت هذه جلادتها وولادتها فى الوقت نفسه ورغم مافى ذلك من تناقض ظاهرى. ولنا بكل تأكيد ان نتحدث عن «الصهيونازية Zionazism كمرادف لنازية العنصرية الاسرائيلية، إلا انها أكثر تحديدا ووضوحا وادخل الى العقلية الاوربية التى تعرف جيدا معنى النازية بكل محمولاتها وابعادها. على أن ما يعنينا الآن من علاقة النسب والتشابه بين النازية والصهيونية هو الجانب الجيوستراتيجى وحده، وهو الذى سنركز عليه . .

فالعنصرية العدوانية فى كل من ألمانيا النازية واسرائيل الصهيونية توسعت من حولها توسعا دائريا فى كل الجهات والجبهات ، وبسرعة كاسحة فى حرب خاطفة فى الحالين. الأولى على امتداد اوربا من الاطلسى حتى البحر الاسود وكذلك حتى شمال افريقيا، والثانية من

قناة السويس حتى نهر الاردن والجولان. وكما كان لألمانيا جبهتان اساسيتان محيطتان في وقت واحد، شرقا في الاتحاد السوفيتي وغربا في أوربا الغربية، كان لاسرائيل ايضا جبهتان، شمالا وشرقا مع سوريا والاردن وجنوبا مع مصر .

وهناك تناظر مركب بشكلٍ ما في الجغرافيا الاستراتيجية للحرب والمعارك الكبرى داخل الاطارين تأخذ مصر فيه من سمات الجبهة الشرقة مرة والغربية مرة. فعلى أقصى ضلوع منطقة النفوذ والتوسع الالمانى حدثت معركتان تاريخيتان فاصلتان ، وتكادان أن تكونا متعاصرتين (١٩٤٢)، هما اللتان حددتا مصير الصراع: العلمين على اطراف شمال افريقيا وعتبة مصر فى اقصى الجنوب الغربي، وستالينجراد فى قلب الروسيا الاوربية فى اقصى الشمال الشرقي. وكلتاهما كانتا من معارك الدبابات العظمى فى التاريخ الى جانب دور الطيران الحاسم .

وبالمثل في اطار صراع الشرق الاوسط، شهدت سيناء في أقصى الجنوب الغربي والجولان في أقصى الشمال الشرقى الصدامات الرئيسية في حرب يونيو، ولكن اساسا فى حرب اكتوبر حيث دارت معركتان فاصلتان من كبرى معارك الدبابات فى التاريخ حتى لتكادا تعادلان ان لم تفوقا نظيرتيهما حجماً مثلما توازيهما موقعا

ودورا . وفى كل الحالات كانت هذه المعارك هى نقط التحول لأول ولآخر مرة فى اتجاه الصراع ورسمت بذلك مؤشرات النصر أو الهزيمة .

وإذا شئنا مزيدا من التفصيل في هذه المقارنة فثمة هذه الأرقام الدالة فى العلمين مثلا، قدرت قوة بريطانيا بنحو ١٤٠٠ دبابة، حيث لم تملك المانيا وايطاليا إلا ٥٥٠ دبابة فقط، أى بمجموع كلى نحو الالفى دبابة . أما فى ستالينجراد فكانت المواجهة بين ٩٠٠ دبابة للسوفييت، ٧٠٠ فقط للألمان ، بمجموع كلي قدره ١٦٠٠ دبابة. وللمقارنة ، فان هذا الرقم الأخير قد لا يزيد كثيرا جدا عما ألقى به أى طرف من اطراف حرب اكتوبر طوال المعركة ويقل بالتأكيد عما قذف به أكبر اطرافها ، بل أن مجموع ما قذف به فى المعركتين العالميتين القديمتين، وهو ٢٥٥٠ دبابة ، ليقل كثيرا بالتأكيد عن نظيره فى معركة اكتوبر والذى يتراوح حول ٤٠٠٠ دبابة وربما رجحها . بل لعل من المثير ان نلاحظ ان ذلك المجموع ، ٢٥٥٠ دبابة، هو نفسه مجموع عدد خسائر الطرفين المتحاربين فى معركة اكتوبر وحدها !

هذا كله من ناحية التشابه العام بين خريطتي الصراعين العربى - الاسرائيلي والاوربى - النازى جيوستراتيجيا. ومن ناحية اخرى نجد موقف مصر فى يونيو يشبه موقف الاتحاد السوفيتى فى الحرب الثانية

من منظور معين. فكما توغلت المانيا فى الاتحاد السوفيتى الي خط مدن لننجراد - موسكو - ستالينجراد ، توغلت اسرائيل فى سيناء اثناء حرب يونيو الى او قرب خط مدن القناة بورسعيد - الاسماعيلية - السويس . وكما هجر الاتحاد السوفييتى سكانه وصناعاته الى ما وراء الاورال ، هجرت مصر سكان ومصانع الاسماعيلية والسويس وجزءا كبيرا من سكان بورسعيد الى ما وراء القناة .

كذلك فكما صمد الاتحاد السوفيتى في عمقه الاستراتيجى وبجرمه الهائل أمام الزحف الالماني ، صمدت مصر فى وجه النصر الاسرائيلى بفضل ثقلها ووزنها وعمقها الكبير . وكما جمد الاتحاد السوفيتى بصموده القوة الالمانية فى صحراء جليدية قارسة فعقم الحرب الخاطفة الى أن تمكن من التحول مع الغرب الى الهجوم ثم سحق النازية نهائيا ، فكذلك أدى صمود مصر وسوريا الى تجميد القوة الاسرائيلية فى صحارى رملية حارقة فعقم حربها الخاطفة الى أن كانت ساعة الصفر والنصر فى ٦ اكتوبر .

وإذا كانت تلك هى الصورة العريضة للتشابه الجيوستراتيجى بين المسرحين والملحمتين فلعلنا سنلاحظ كيف تأتى مصر بخاصة قاسماً مشتركا حلقة وصل بينهما . فكما تمت العلمين الفاصلة على ارضها اثناء الملحمة الاوربية، كانت سيناء هى ارض الصراع الحاسم فى دراما

الشرق الاوسط. واللافت المثير حقا ان الصراع فى الحالين كان ضد النازية عموما: القديمة هناك والجديدة هنا ، نازية اوربا سابقا ونازية الشرق الأوسط حاليا .

وهنا ايضا نلاحظ كيف تبرز مصر وعلى جانبيها يميناً ويسارا ، بالتحديد على كتفيهما قد دارت اثنتان من كبرى معارك الدبابات فى التاريخ الحديث، ان لم تكونها كبراها على الاطلاق كما يذهب معظم العسكريين ، العلمين وسيناء. وإذا كان لاجتماع معركتين تاريخيتين عظميين على أرض دولة واحدة من معنى ، فهذا المعنى بلا شك هو اولا خطورة واهمية موقع مصر الجغرافى: لقد تحول الموقع الى موقعة ، ثم هو ثانيا دور مصر الاستراتيجى الحاسم فى الصراعات العالمية والاقليمية : انها الصخرة التى تحطم عليها المد النازى غربا والصهيونى شرقا .

وفيما عدا هذا فان هناك تناظرا غريبا بين المعركتين حتى من داخل المنظور المصرى نفسه ، رغم ان الأولى كانت لحساب الاجانب والثانية لحساب الوطن. ففضلا عن التناظر فى الموقع على بوابتى مصر ومدخليها الشرقى والغربى، فان كلا منهما يمثل عنق زجاجة عنق مصر كذلك فالمسرحان كلاهما بيئة طبيعية واحدة اساسا هي البيئة الصحراوية، وبالتالى فراغ عمرانى وبشرى وعازل استراتيجى هام.

ومن الطبيعي بعد ذلك أن المعركتين كانتا على السواء حرب صحراء بكل ما تعنى استراتيجيا وتكتيكيا من التركيز على الحرب الميكانيكية والجوية أو المدرعات والطيران وكمجال مثالي للمناورات الشاسعة المدى والكر والفر بلا حدود .

بل أكثر من ذلك أخذ هذا الكر والفر نمطا متشابها في الحالتين، نمط المد والجزر تقدما وتقهقرا عدة مرات ما بين الشرق والغرب أو استراتيجية «شد الحبل tug of war » كما تسمى أحيانا ففى العلمين زحفت قوات المحور من شمال افريقيا وليبيا على بوابة مصر الغربية ثم ارتدت أمام زحف الحلفاء المضاد ثلاث مرات على الاقل حتي كانت الجولة النهائية في العلمين. وفى سيناء تقدم الزحف الاسرائيلى بصورة أو بأخرى ، وحده أو فى حماية الحلفاء، غدرا أو غصبا ، ثم انحسر كليا أو جزئيا ، ثلاث مرات أيضا في ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣.

وهنا نلاحظ أن معركة العلمين اشبه عسكريا بمعركة اكتوبر من أي منهما بمعركة يونيو ، وذلك من حيث الاستراتيجية والسلاح والمدى الزمني . فبينما اعتمدت يونيو على الحرب الجوية الخاطفة السريعة، كانت العلمين كاكتوبر حرب مدرعات وطيران علي السواء، تصادمية طويلة ورهيبة. واخيرا فانهما تتناظران حجما وحشدا وخسائر بل

ونتائج مصيرية رغم أن الواحدة كانت عالمية والثانية محلية : دبابات بالآلاف وطائرات بالمئات فى الحالين، وخسائر جسيمة فى السلاح، ثم فى النهاية اول انكسار للطرف النازى فى الصراع بعد سلسلة انتصارات متصلة ، وأول انتصار للجانب التحريرى بعد هزائم متكررة ، ومن نقطة التحول فى الصراع هنا وهناك على حد سواء .

تلك خطوط عريضة فى المقارنة بين قصة صعود وسقوط النازية الألمانية فى اوربا وقصة نشأة وانكسار الصهيونية الاسرائيلية فى الشرق الاوسط ، قد لا تزيد عن بروفيل عام ، ولكنها كافية لأن تجعل من المناظرة بينهما تناظرا ايضا. وإذا كان لنا بعد هذا ان نتتبع هذا التناظر الى منتهاه . فان هذا المنتهى هو النهاية المحتومة للصهيونية تماما كما حدث للنازية. انها مثلها كيان محكوم عليه جغرافيا وتاريخيا، استراتيجيا وحضاريا، فلسفيا . وانسانيا ، وهو محكوم عليه لأنه أساسا كيان ضد الطبيعة وضد الحياة . لقد خرجت الصهيونية من رحم النازية ، ثم كررت دورة تاريخها الطبيعي، وستتم الدورة وتدور الدائرة كاملة تدفن مثلها فى مقبرة التاريخ ..

الباب الثانى

٦ أكتوبر

فى استراتيجية السياسة العالمية

منذ الحرب العظمى الثانية، لا نكاد نعرف حربا محلية خصبة بآثارها الإقليمية وحبلى بنتائجها العالمية مثل حرب أكتوبر. قد تكون حربا محدودة بالمقياس العسكرى، إلا أنها بلا حدود فى انعكاساتها وإشعاعاتها السياسية: وربما كانت مجرد حرب محلية جيوستراتيجيا، ولكنها بلا مبالغة كوكبية جيوبولتيكيا. وهذه واحدة أخرى من مفارقات هذه الحرب الفذة، إنها ليست فقط حربا عصرية باللغة العصرية، وإنما هى كذلك حرب العصر بالضرورة والامتياز.

أو كما قال الجنرال بوفر «الحرب بدلت الموقف تماما فى الشرق الأوسط، فلقد رأينا حربا محدودة فى المكان والزمان، لكنها حققت هدفا سياسيا مهما»، هذا بينما قال ريمن آرون أن حرب أكتوبر «من أكبر مفاجآت العصر»، كما عدها جالليه وزير دفاع فرنسا «نقطة تحول فى التاريخ المعاصر». وبالمثل اعتبر وزير خارجية السودان أن «٦ أكتوبر تحول سيكون له أثره على تاريخ البشرية». وبالمثل تكلم الرئيس تيتو مخاطبا صديقه وضيفه الرئيس السادات فى بريونى عن أحداث تجرى أخيرا فى الشرق الأوسط «يمكنها أن تؤثر بشكل مصيرى على التطور اللاحق ليس فقط فى تلك المنطقة بل على نطاق أوسع فى العالم أيضا». هذا فى حين قال السادات نفسه أن ٦ أكتوبر «غير التاريخ ليس فقط فى بلدنا أو أمتنا، وإنما غير تاريخ العالم كله». يحدث هذا ويصدق إلى

أقصى حد رغم أن انتصارنا لم يكن كاملا تماما حيث أن المعركة لم تتم إلى آخر المدى، وهذه وحدها مفارقة أخرى لا تقل إثارة.

الحرب الفيتنامية مثلا، تلك الملحمة الرائعة والمروعة معا، كانت أطول بكثير جدا بالطبع، وربما أشد ضراوة وترويعا، كما لم تكن مشحونة بأخطار أقل كثيرا، ومع ذلك لم يكن لها الوقع والإيقاع والإشعاعات والانعكاسات العالمية الحاسمة والفاصلة التي لمعركة أكتوبر. خذ حرب الهند ـ الباكستان الأخيرة أيضا، غيرت خريطة شبه القارة تماما، فلقت دولة قائمة وخلقت دولة قادمة، وقلبت ميزان القوة في جنوب آسيا: لكن كل تلك آثار إقليمية في الصف الأول أكثر منها عالمية الصدى أو المدى.

كذلك كانت كوبا مواجهة نووية مباشرة وسافرة، حيث لم تزد معركة أكتوبر عن تهديد بالمواجهة، أو بالأحرى عن «تشنج نووى» أمريكى، ومع ذلك فلا مجال للمقارنة بين الأزمتين من حيث شلال النتائج السياسية العالمية.

أما حرب أكتوبر، فإننا نستطيع أن نضعها ببساطة كالآتي: حرب كان لها دور وفعل الزناد trigger action ، أطلق رصاصة تتابعت بعدها الطلقات الأكبر والأبعد مدى في سلسلة من الأفعال وردود الأفعال chain reaction ، بدأت من أدق دقائق الموقف العسكرى

المحلى نفسه فى الميدان إلى أكبر وأخطر القضايا النظرية الكوكبية كفلسفة الحضارة المعاصرة نفسها والنظام العالمى الراهن.. الخ. أو كما عبر الأستاذ أحمد بهاء الدين في صورة دقيقة وشيقة، كانت الحرب «بمثابة القنبلة التى تنفجر فى مخزن للقنابل فتنفجر سائر القنابل وتتطاير شظاياها على مساحة واسعة.. كل قنبلة موقوتة تنفجر، ثم لا يلبث انفجارها أن يفجر قنبلة أخرى مجاورة». «وتكاد لاتكون هناك قضية ـ كما يضيف فى مكان آخر ـ إلا وطرحتها حرب أكتوبر للنقاش وعرضتها لامتحان عسير».

كذلك لايكاد يمضى يوم منذ ٦ أكتوبر إلا ويكشف للخبراء والمراقبين فى العالم كله أثرا جديدا أو وقعا بكرا أو نتيجة إنقلابية، ليس فقط فى الجوانب العسكرية والنظريات الاستراتيجية، وإنما كذلك فى توازنات القوى العالمية ومناخ السياسة الدولية بعامة. ومن المحقق أنه مهما قيل فى هذا الصدد فإن أحدا لن يستطيع لوقت طويل جدا أن يقدر تلك المعركة حق قدرها أو أن يحدد وزنها كاملا على أى مستوى. المستقبل وحده هو الذى سوف يضعها فى مكانها الجدير فى تاريخ عالمنا المعاصر.

لقد أحدثت المعركة كثيرا من التغيرات المهمة فى موازين القوة العالمية والإقليمية وحسابات الصراعات الدولية والمحلية، كما صفت

وستصفي كثيرا من الحسابات السياسية المعلقة والقديمة. وفيما عدا هذا فإن المعركة قد زلزلت كثيرا من المعتقدات السائدة والأفكار المستقرة والثوابت المقررة في كل مجالات الحياة السياسية ومستوياتها، وبدأت ترسي مكانها بدائل جديدة ووريثة، وليس يقل اهمية ونتائج أنها قد بددت كثيرا من الأوهام وحطمت غيرها من الأساطير التي عاشت أو عششت طويلا، ليس فقط في عقل العدو ومعسكره بل وفي عقولنا وأصدقائنا كذلك. باختصار، لقد نسخت حقائق قائمة وأقامت غيرها، ثم فجرت أوهاما دفينة وخلقت معتقدات جديدة.

وهناك بعد هذا حقيقة أولية تفرض نفسها على الملاحظة بشأن موقع أكتوبر العالمي ووقعه الدولي، تلك هي أن تأثيرات ٦ أكتوبر في كل المجالات السياسية وعلى كل مستوياتها أكبر جدا من المعركة نفسها ومن حدود ميدانها المباشر. والواقع أننا نستطيع بسهولة أن نضعها قاعدة عامة أن المعركة أكبر في حجمها العسكري نفسه من إنجازاتها الإقليمية أي الأرضية البحتة حتى الآن، وأكبر في نتائجها الاستراتيجية العامة والفكر العسكري من حجمها العسكري بدوره، ثم هي أخيرا أكبر وأكبر في نتائجها السياسية العالمية من نتائجها في مجال الفكر الاستراتيجي العسكري العام.

وإلى هذه المتتالية الدالة يمكن أيضا أن نضيف حقيقة لا تقل خطورة ومغزى، تلك هى أن أغرب مافى المعركة أن نتائجها المستقبلية أكبر من نتائجها الحاضرة، وغير المباشرة أكبر من تلك المباشرة، كما أن نتائجها البعيدة المدى أكبر من نتائجها القصيرة المدى. ويمكن أن نعبر عن هذا كله بطريقة أخرى وفي عبارة مركزة فنقول أن نتائج ٦ أكتوبر هى «بالقوة» أكبر منها «بالفعل». إنها معلقة ومتعلقة بالمستقبل أكثر مما هى محققة فى الواقع، وأكبر وأخطر نتائج أكتوبر بلا جدال هى تلك التى لم تتحقق بعد.

والسؤال الذي يقترح نفسه، بل يطرح نفسه طرحا، عند هذه النقطة هو: لماذا كل هذه الأهمية غير العادية لمعركة أكتوبر؟ ما الذى يمنحها هذا الخطر والخطورة الفائقة وهذه الأبعاد العالمية؟ إنها معركة محدودة، بل نصف معركة هى، ونصف نصر بعد ذلك، ولكنها قلبت العالم كله قلبا، فلماذا؟ ليست الصدفة بالقطع «ولا التحيز بالطبع!»، وإنما هناك ثلاثة أسباب محسوسة جدا وأكثر من مقنعة: خطورة المنطقة نفسها، طبيعة الصراع الداخلى، امتداد الصراع الخارجي.

فأولا : خطورة المنطقة نفسها لا خلاف عليها، فهى «عاصمة العالم استراتيجيا» مرتين، مرة بموقعها الاستراتيجى الحاكم فى قلب العالم، ومرة لأنها «عاصمة العالم بتروليا» ـ والبترول نفسه وبدوره أهم سلعة

استراتيجية فى العالم. المنطقة إذن مركز مؤثر وحساس وقطب جاذبية شديد الإغراء لكل المصالح العالمية، من ثم فإن كل مايحدث فيها تنتشر آثاره بعيدا كموجات الزلزال ويتردد صداه مضاعفا داويا كما لو خلال مكبر صوت.

ثانيا: طبيعة الصراع الداخلى «أو الداخلية، سيان» ليست مما يسمح بأنصاف الحلول أو بأنصاف الأفعال وردود الأفعال. فهو صراع مصيرى وباقٍ، صراع وجود لانزاع حدود، فإما أن يكون أحد الطرفين أو لايكون، وهذا وحده يكفى لتفسير ضخامة الترسانات المسلحة المحشودة فيها وتطور الأسلحة المستعملة بها بدرجة قد لا تملكها أو تعرفها حتى بعض الدول الكبرى، أو على الأقل بدرجة لاتتناسب مع الحجم البشرى ومستوى التنمية الراهنة للمنطقة، ولنا أن نلاحظ هنا كم يصبح من الخطورة أن تكون المنطقة، التى هى «بئر بترول» العالم، «برميل بارود» أيضا.

ثالثا: امتداد الصراع الخارجى يأتى نتيجة منطقية وحتمية للعاملين السابقين، ولكنه يضاعف آثارهما بمعدل الربح المركب، فبحكم طبيعة العصر، ينطوى كل صراع محلى اليوم على عنصر دولى. إلا أن الصراع العربى ـ الإسرائيلى هو الوحيد الذى يتقاطع فيه المستوى العالمى والمستوى المحلى بأكبر درجة من التشابك والتفاعل. وفى النتيجة

فإن منطقتنا تنفرد بأنها منطقة التقاطع الحرج والتداخل الأقصى بين البعدين المحلي والدولي.

من ثم فإن الصراع المحلى «يتلبس» إلى أقصى حد مع الصراع العالمي، وبالتالي يصبح هو نفسه بمثابة صراع «اختزالى catalyst» يختزل كثيرا من صراعات العالم ومصالح القوى المختفية وراءها. بل نستطيع أن نقرر أن الصراع العربى ـ الإسرائيلى أصبح اختزالا موضعيا مكثفا للصراع العالمي جميعا، فكان بصفة خاصة استقطابا محليا للإستقطاب الثنائي فى الماضى وهو الآن استقطاب للوفاق الثنائي. ويؤدى هذا كله إلى أن المنطقة، وقد رأيناها عاصمة العالم استراتيجيا، تتحول هى نفسها إلى كشاف جيوبولتيكى re-agent، أى محك أو حجر مغناطيس عالمى touchstone, loadstone، وتصبح بمثابة بارومتر الجيوبوليتيكا الكوكبية، ولم يكن غريبا بعد ذلك أن يتحول الإقليم الكشاف إلى منطقة اختبار واستكشاف لأسلحة الأقطاب العظمى مثلما هى منطقة ارتطام بينها.

لكل هذه الأسباب مجتمعة تبدو معركة الشرق الأوسط أكبر من حجمها الطبيعي، وتكاد تخرج عن أبعادها الذاتية، وبالتالى تأتى بنتائجها وآثارها عالمية إلي أبعد الحدود متجاوزة الدائرة الإقليمية أو المحلية بالتأكيد. وليس لنا أن ندهش، ولا لأحد أن يتهمنا بالمبالغة، حين

نجد هذه النتائج والآثار تتخلل النسيج السياسى للعالم كله وتفرض نفسها على توازن القوى المعاصر برمته، وليس من قبيل الحماس أو الانفعال أن نعدها، كما سنرى، أخطر نقطة تحول فى عالمنا المعاصر وفى استراتيجية السياسة العالمية منذ الحرب الثانية.

ومن الناحية الأخرى، وقبل أن نذهب إلى أبعد من هذا المدى من السياق، قد يكون من الخير لنا والمفيد أن نسجل رنة تحفظ ولا نقول نبرة تحذير، فحتى لا نقع فى خطأ «صيغة منتهى المبالغة» أو نتورط فى مزالق «أفعل التفضيل»، ينبغى أن ندرك ونقرر بوضوح مرة أخرى أن كل نتائج أكتوبر التى ألمحنا إليها إجمالا والتى سنفصل القول فيها تفصيلا إن هى بعد إلا بدايات وإرهاصات فقط، لم تكتمل ولم تتحول إلى حقائق نهائية بالضرورة حتى الآن، ليس فقط لأن هذا يحتاج إلى فسحة كافية من الوقت، ولا كذلك لأن هناك مقاومة من الأطراف المعادية أو المعنية لفاعلية وآثار أكتوبر، بل ومحاولة حاقدة لحصرها وتضييعها ولإهدارها واستنزافها، وإنما كذلك لأن أكتوبر نفسه ليس إلا بداية مهما كانت موفقة، ومجرد افتتاحية أيا كانت براعة الاستهلال فيها، إنه الخطوة الأولى الحاسمة فى رحلة الألف ميل، ولكنه بالقطع ليس نهاية المطاف، إننا لم نملك المستقبل بعد، وهو عريض جدا، ولكننا ملكنا مفتاحه بالتأكيد وفتحنا باب الأمل على مصراعيه.

وإذا كان لهذا من درس أو مغزى، فهو أن علينا نحن أن نكافح من أجل أعمال آثار المعركة وتحقيق نتائجها كاملة، واجبنا أن نحارب من أجل أن يتحول الممكن والكامن إلى كائن وواقع. إن نتائج المعركة الكامنة معلقة ومشروطة ورهن بأن نستكمل نحن شوط الصراع إلى نهايته. وإذا كانت هناك معركة سياسية لتمييع نتائجها أو إجهاضها، فإن علينا أن نشن معركة مضادة وأن نضرب والحديد ساخن لكى نجنى ثمار النصر كاملة. ويجب أن يكون مفهوما لنا جميعا أن نتائج أكتوبر لن تحقق نفسها بنفسها أوتوماتيكيا ولن تقدم نفسها لنا تلقائيا وذاتيا. وليس دورنا بعد النصر دور المتفرجين أو المنتظرين سقوط الثمرة ناضجة، وليس لنا كذلك أن نبيع جلد الدب قبل أن نصيده، والمعركة السياسية بعد كل معركة حربية لا تقل خطورة أو خطرا ولا أهمية أو مشقة.

إن عظمة وجبروت النصر الذى أحرزناه، أيا كان عنصر النسبية فيه، شيء يجب أن نحرص عليه تماما وعلى ترجمته إلى مكاسب سياسية وأرضية حقيقية مكافئة، ذلك لسبب بسيط، وهو أن هذا النصر بهذا البريق والوهج والبعث وعودة الروح والثورة القومية لن يتكرر بسهولة كل يوم، كما لن يستمر طويلا إذا ترك ليتآكل مع الزمن ويفقد بريقه، فالزمن عامل خطير من عوامل التعرية، فى السياسة كما فى

الطبيعة، إنها حقا لتكون خطيئة مأساوية، إن علينا أن نمسك به، نصرنا، لا ندعه يفلت أو يتبدد، بل نعمقه، ونعمقه بأن نستكمله، وإذا كان لنا أن نستقريء كل المؤشرات والدلائل، خيرا من أن نستبق الحوادث، فإنها تكاد تصرخ أن هذه المعركة لن يصلح آخرها إلا بما صلح بها أولها: نصر محقق جديد.

ولعلنا الآن بحيث نستطيع أن نتقدم إلي دراسة آثار أكتوبر ونتائجه دراسة تحليلية منهجية أصولية مفصلة. من الممكن أن نقسم هذه الآثار والنتائج على أساس مزدوج من التصنيف النوعي والإقليمي، فنبدأ بنتائج المعركة على العرب أولا، وفي القلب تأتي مصر ٦ أكتوبر وسوريا، ثم ننتقل إلى العدو المباشر لنرصد صورة إسرائيل بعد المعركة، ثم نتوسع إلى محيط السياسة العالمية كبعد أخير، وهكذا تنقسم فصول هذا الباب إلى ثلاثة: العرب والسادس من أكتوبر، ٦ أكتوبر والعدو الإسرائيلي، العالم والمعركة.

الفصل السابع

العرب والسادس من أكتوبر

حين وصف بعضهم ٦ أكتوبر بأنه بعث أو ميلاد جديد للعرب، وحين ذهب آخرون إلى أنه أعظم وأمجد أيام العرب منذ قرن ونصف قرن على الأقل، أي نقطة الأوج والذروة في تاريخهم الحديث جميعا، لم يكن ذلك من قبيل الحماسة أو المزايدة العاطفية ولا كان فيه من الرومانتيكية الجامحة أو المجنحة أكثر مما فيه من الموضوعية العلمية الصارمة، وإذا كان هناك من يرى في ذلك «كثيرا من المبالغة، وقليلا من الدقة العلمية»، وأن ٦ أكتوبر مرحلة مهمة من مراحل الصراع فقط، وتغيير كمي لا كيفي بعد»، فإن الاختلاف في النهاية نسبي، وخطر التقليل قد يكون أسهل ولكنه أسوأ من خطر التهويل، ويبقى ٦ أكتوبر تغييرا ضخما وجذريا بكل مقياس وعلى أي أساس.

ذلك لأنه بقدر ما يكون عمق السقطة السابقة يكون ارتفاع القفزة اللاحقة، ولا يستطيع أن يقدر معنى ومدى وحجم النصر العربي في أكتوبر إلا من يستطيع أن يتخيل مدى الانهيار والسقوط ونوع المصير

الذى كان يمكن أن ينتهى إليه العرب لو أنهم هزموا فيه فوق هزيمتهم فى يونيو وبعدها، ولو أننا فكرنا بهدوء وواقعية فيما كان يراد بنا ويخطط لنا على أيدى العدو وأطماعه وطموحاته، لتأكد لنا بلا أدنى شبهة أننا على الأقل وعلى الأسوأ قد نجونا من خطر ماحق كان يدبر لنا وكان يمكن فعلا لو تحقق أن يودى بنا، وعلى الأغلب والأرجح قد ضمنا مستقبلنا وأمنا مصيرنا إلى الأبد، وعلى الأكثر والأحسن سوف نحقق كل أهدافنا وآمالنا القومية العظمى كاملة يوما ما فى المستقبل القريب أو البعيد، أو كما يقول بهاء الدين مرة أخرى «هزيمة يونيو لم تجعلنا نركع» ولكن ظل «سيفها مصلتا فوق رءوسنا ، قريبا جدا من أعناقنا.. حرب أكتوبر كسرت هذا السيف المسلط، وحطمت القيد الذى كان يكبلنا»..

فليس سرا أن نكسة يونيو كانت قد أصابت الوجود العربى فى مقتل أكثر مما كانت جرحا داميا أو كسرا أليما.. وقدر البعض مابين جيل إلى جيلين حتى تخرج العرب من كارثتها العسكرية وتعيد بناء قواتها المسلحة. بينما ذهب ريمون آرون إلى أن العرب لن يفيقوا من هول ماحدث إلا بعد قرن كامل، ففى يونيو خسرنا فى ستة أيام سوداء ليس فقط ما كلفنا ستة أعوام حالكة. كالحة من الإنهيار والعار والتمزق ومهانة الهزيمة، كل يوم بسنة، ولا كذلك ما قيمته ستة آلاف مليون جنيه

من السلاح وحده خسائر مباشرة ، أى كل يوم بألف مليون جنيه، هذا عدا ستة آلاف مليون أخرى خسائر مادية واقتصادية غير مباشرة، ولكنها أكثر منه جميعا شوهت ستة آلاف سنة عريقة من التاريخ المجيد، كل يوم بألف سنة.

ولم تكن بشاعة الهزيمة لتكمن فى ذاتها فحسب، فالعرب قد عرفت وامتصت هزائم كثيرة فى تاريخها المفعم، ولا كانت كذلك فى حجمها، وقد كان مخيفا مهينا بصورة غير متصورة وإن لم تكن بالضرورة غير مسبوقة، وإنما كان هول الهزيمة فى مصدرها ومعناها، فمن مثل عدونا الإسرائيلى المعقد القمىء، بكل أحقاده وصغاره وسعاره، وأكثر منها وأخطر خططه وأوهامه المجنونة ونواياه المعلنة والمكتومة كاستعمار استيطانى إحلالى أبادى وأبدى، من مثل هذا العدو كانت الهزيمة إذلالا دمويا مشينا للماضى والحاضر برمته.يسفحهما سفحا ونذير شؤم سوداوى للمستقبل ينذه إلى الأبد.

معنى نكسة يونيو

من هناك جميعا لم يكن من المبالغة فى شىء أن تعد سنوات ما بعد يونيو السوداء بمثابة ردة فى تاريخ العرب الحديث إلى «العصور المظلمة». وفى الوقت الذى كان العالم يطفر طفرا نحو آفاق عصر جديد ونحو حضارة لم يسبق لها مثيل فى درجة التطور والتعقيد والإمكانيات،

وحتى المتخلفون كانوا يلهثون للحاق بالعصر، بدا للبعض كما لو أن العرب وقد انزلقوا وحدهم فى حمأة هذه الرجعة التاريخية قد أمسوا وكانهم أمة منقرضة لن تقوم لها قائمة، ميئوس منها، شاخت واستنفدت أغراضها ومبرر وجودها، وتلك فقط إنما علامات الزوال وآلام الاحتضار. أما من ترفق منهم فقد قال : إن العرب قد توقف بهم التطور عند صلاح الدين أو على الأكثر عند محمد علي..

ولم يكن ذلك صحيحا بالطبع، بل بالقطع، ولكن كان لابد من تحد عملي قاطع، ومن ثم جاء ٦ أكتوبر بمثابة بداية «عصر النهضة» العربى المحدث بعد تلك «العصور المظلمة» التى انتهت إليها النكسة. لقد رد هذا اليوم اعتبار العرب فى العالم، ونسخ كل النظريات والنظرات الاستخفافية والاستهزائية التى نسجت حولهم، وأعاد تأكيد وجودهم إنسانيا، كما أعاد إقامة تاريخهم على قدميه بعد أن كان قد انكفأ على وجهه ثم انقلب على رأسه.

غير أنه أكثر من ذلك أيضا ساعد على وضعهم فى مكانهم الحق والمستحق في العالم كقوة كبرى كامنة أو قادمة، لقد فتح باب الأمل كاملا أمامهم، لا ليلحقوا بالعصر فقط، بل ليسبقوه إن أرادوا، بحيث يمكن لنا، ربما بقليل من مبالغة ولكن بأكثر منه من الصحة، أن نعتبر

السادس من اكتوبر بمثابة البداية المسبقة والطافرة للقرن الحادى والعشرين فى تاريخهم الحضارى.

بل أكثر من قرن جديد، كوكب جديد، فلو أننا فقط نجحنا - وهذا شرط لازب - فى أن نستكمل المعركة والنصر بحيث نستخرج منهما كل نتائجهما المنطقية ونعتصر ثمراتهما الطبيعية كاملة ، لكنا بمثابة من انتقل إلى كوكب جديد اليس هذا - فى النهاية - معنى حديثنا الشائع عن البحث عن مكان جديد تحت الشمس؟ أو لم نكن بعد يونيو- كما رددنا كثيرا - فى مفترق طرق مصيرى وعنق زجاجة تاريخي، اما أن نفشل فننزلق إلى الخلف عشرات السنين حبيسى الزجاجة المغلقة،واما آن نقتحم عنقها فنطفر منطلقين إلى أوسع آفاق المستقبل واعرض امكانيات التطور، نخترق حاجز التخلف، نحقق الوحدة وندخل دائرة القوة والسيادة العالمية، إلى آخره؟ حسنا، لقد قررت المعركة الاختيار الأخير.

الآثار العالمية

ونستطيع الآن ان نحصر الآثار السلبية لهزيمة يونيو فى ثلاثة مجالات نحللها تباعا: عالميا، قوميا، ووطنيا. فأولا، على المستوى العالمى لم يكن هناك أدنى شك ان العرب فقدوا كثيرا جدا من وزنهم السياسى

ومن هيبتهم ومكانتهم الدولية، وانتقلوا في معادلة القوة العالمية قرب تخوم خط الخمود. وتحولوا على خريطة استراتيجية السياسة الدولية إلى منطقة ضغط منخفض، أى إلى «انخفاض جيوبوليتيكى» أغرى تيارات ضغوط القوة من حوله ومن بعيد بالتدفق لملء التخلخل الناشئ، ولا نقول الفراغ.

تضاءلت، علينا من أسف أن نعترف - قامة العرب فى المجتمع الدولي وخفت موازينهم في حساب الصراعات العالمية، وبدا كما لو قد أتى علي الانسان العربى حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا. حتي لقد طمع فينا احيانا الصغار قبل الكبار، القوى المحلية المجاورة قبل القوى العظمى النانية. بل لقد تكامل الاثنان فى مشروعات ومخططات مشتركة بزعامة القوة الأعظم المعادية وهى الولايات المتحدة. وكانت الاستراتيجية العظمى فى هذا هى الحصار والعزل فى الخارج، والضرب والتفتيت فى الداخل.

فمن ناحية بدأت الولايات تعد لسقوط المنطقة كاملة فى قبضة نفوذها وفرض الوصاية عليها، بطرد القوة المكافئة والمضادة منها، وتصفية النظم الوطنية بها، ثم تقنين السيادة الاسرائيلية المباشرة عليها. ومن الناحية الأخرى أخذت تمهد بالسلاح والاقتصاد وبالاستراتيجية الاقليمية والاستراتيجية البحرية لخلق مناطق «أقطاب

مضادة» للمنطقة العربية تقوم على ضلوعها مباشرة سواء فى آسيا أو فى افريقيا، «ترث» دورها القيادى فى الشرق الأوسط الكبير وتنتزع منها زعامتها فيه إلى الأبد، وذلك بزعم أنها أصبحت مجرد جسم مترهل متخلف مضروب وإن كان غنياً ، وعاجز ثقيل الحركة بقدر ما هو ضخم ومترام.

على المستوى القومى

هذا عالميا، أما قوميا فلم يكن شك أن اللطمة التى أصابت العرب عامة قد أساءت إساءة بالغة إلى مصر خاصة، باعتبارها عاصمة العرب استراتيجيا والقوة الوطنية الكبرى التي يقع عليها تاريخيا وجغرافيا وديموغرافيا وتكنولوجيا مسئولية الدفاع القومى فى الصف الأول والتحليل الأخير. ولما كان هذا العجز العارض قد جاء فى مرحلة، غرضية هى الأخرى، أخل فيها البترول بدرجة أو بأخرى بتوازنات القوة فيما بين الدول العربية نفسها، فقد استغل الاستعمار هذه الفرصة للطعن فى زعامة مصر والتشكيك فيها- محاولة انتزاعها أمر غير وارد أصلا لأنها، بترول أو لابترول، مستحيلة، ضد الطبيعة والجغرافيا والتاريخ والمستقبل.

وقد يمكن بصورة تقريبية نسبيا ولكنها مقربة للغاية ان تشبه موقف العرب فى العالم ومصر بين العرب بعد النكسة بموقف العالم السلافى

وعلى رأسه الروسيا بعد حرب اليابان والحرب العالمية الأولى وقبل ثورة اكتوبر، حيث كانت اوربا تنظر إلى كل منهما كمارد ضخم الجثة راقد على أطرافها وتخومها ولكنه عاجز لا يأخذه أحد بجدية. وهناك فروق عديدة وعميقة جدا بالطبع، ولكن المقصود فقط هو الموقف العسكرى وموازين القوة والهيبة بالنسبة للعالم الخارجى. فالعالم السلافي عائلة كبرى واحدة رغم الاختلافات والخلافات ورغم التعدد السياسى، تجمعها الأصول الاثنولوجية إلى حد معين والقرابة اللغوية إلى حد أخر، ثم كان هناك الدين والكنيسة، وأخيرا نمط الحياة العامة وقالب الحضارة.. الخ.. وفى وسط هذه المجموعة المترامية الممتدة كانت الروسيا بضخامتها وجرمها العملاق ومواردها تقف تقليديا وتاريخيا كحارسة السلافية وحاميتها العتيدة .ولكن مع تضعضع الروسيا القيصرية ثم هزيمتها على يد المانيا فى الحرب الأولى، بدت كحارسة عاجزة مضروبة ومحتلة مقتطعة آجزاء من اراضيها، لا تملك أن تحمى نفسها فضلا عن الأخوات الصغيريات. إلى أن قامت الثورة، ثم إلى أن كانت الحرب العالمية الثانية حيث حققت إلى القمة دورها التاريخى في تحريرهن وحمايتهن. بالمثل كان وضع العرب ومصر فى العالم بعد يونيو، بل ربما منذ ١٩٤٨ .وسنرى بعد قليل كم يصل التشابه إلى منتهاه وكيف تعادل حرب أكتوبر فى آثرها عندنا ثورة أكتوبر عندهم.

وعدا هذا فلقد حمل أعداء القومية العربية على فكرة الوحدة العربية، التي لاشك اهتزت بعض الشئ في قرارة النفس العربية، وان لم يصل الأمر قط إلى حد الشك فيها أو فقد الايمان بصحتها أو بحتميتها ولكن الاستعمار اهتبلها سانحة للهجوم بالجملة على كل أعمدة العروبة والقومية والوحدة وذلك للاجهاز عليها مرة واحدة وإلى الأبد. فزعم، على سبيل المثال، أن العرب مجرد مجموعة غير متجانسة: لا جنسا ولا لغة ولا لونا ولا دينا، إلى آخر تلك النظريات السقيمة الخاطئة التي دفع بها الأعداء بثا للبلبلة والتخريب..

ولا مفر لنا من أن نعترف أن هذه الحرب النفسية نجحت نسبيا في خلخلة التماسك العربي إلى حد ما، وبدا لوقت ما كما لو ان العرب قد خضعوا لحركة مركزية طاردة centrifugal وقعوا في عين دوامتها الكاسحة، وأنهم يتصرفون كما لو كانوا أمة غير واحدة. بل بدا أحيانا ولكن فقط على السطح وللمراقب السطحي -كما لو أن العرب ليسوا أصلا وأساسا «أمة واحدة» وأن القومية العربية لم تكن مجرد مثالية اسطورية فهي ليست أكثر من حقيقية تاريخية ولكنها بالتأكيد ليست حقيقة واقعة فعلا.. إلخ.

ووطنيا

أخيرا، على المستوى الوطني، غني عن القول أن صدمة النكسة قد

هزت الوجدان الوطنى حتى النخاع، وأحدثت مرارة الجرح كثيرا من التقلصات الحادة بل والتشنجات العنيفة فى الجسم السياسى، وحدثت فجوة تصديق وثقة ساحقة بين القاعدة والقيادة فى كل بلد من البلاد العربية تقريباً. وعلى الجملة فقد انعكست كل تفاعلات الهزيمة على الوحدة الوطنية، وأصبحت مشكلة الوحدة الوطنية هى قضية الجبهة الداخلية الأولية والآنية.

ولحسن الحظ فان الوطنيات العربية، بفضل رصيدها التاريخى الزاخر والهائل من التماسك والتجانس والوعى، تجاوزت الأزمة وسرعان ما التأمت جراحها والتحمت صفوفها فى وجه الخطر الخارجى، بل لقد اتخذت تلك الوطنيات من الوحدة الوطنية خط دفاعها الأخير الذى تخندقت فيه تعيد ترتيب بيتها من الداخل وتستعد للتحدى، ومنه بالفعل قفزت قفزتها التحريرية الرائعة فى اللحظة المقدورة.

وفضلا عن هذا فلقد سجلت الوحدة الوطنية مكاسب ثورية وتقدمية محققة صنعتها فى ظل النكسة وبرغمها بل وكرد فعل متحد ومصل مضاد لها. فكانت الثورة فى السودان ثم فى ليبيا، وكذلك فى اليمن الجنوبية ثم فى العراق... إلخ وكان هذا كله اعلانا بنبذ الهزيمة وبرفض نتائجها وعلامات على طريق الصمود حتى فجر النصر.

بعث أكتوبر

الآن يأتى ٦ أكتوبر لينسج هذه الصورة كلها، بل وليقلب التوازنات والاوضاع جميعا رأسا على عقب. وكما قال الجنرال بوفر «ان النجاح العظيم الذى حققه العرب فى هجومهم يوم ٦ أكتوبر يكمن فى أنهم حققوا تأثيرا سيكولوجيا هائلا فى معسكر الخصم وفى المجال العالمى الفسيح ويبقى عليهم بعد ذلك أن يفكروا فى نتائج هذا التأثير على العالم ليحصلوا على مناصرته وتأييده» انه أول انتصار عسكرى حقيقى يحرزه العرب فى العصر الحديث. أو كما قالت المجاهد الجزائرية «ان الأمة العربية كلها تحس اليوم بفخر عظيم وشكر عميق لجيوش مصر وسوريا التى حققت للعرب أول انتصار لا رجوع فيه. ومهما تكن النتائج النهائية للمعركة، فلسوف تبقى حقيقة أنها أنهت مهانة ١٩٦٧، وجددت الكرامة العربية».

انه – لابد لنا أن ندرك جيدا وأن نقرر منذ البداية – نهاية عصر كامل وبداية عصر جديد تماما، وطنيا وقوميا وعالميا. اننا نعتبر السادس من أكتوبر خط التقسيم التاريخى بين مرحلتين اساسيتين ومتناقضتين كل التناقض فى تاريخ الصراع العربى – الاسرائيلى ما كان منه وما سيكون: مرحلة الجزر العربى حيث كان المنحنى فى نزول

مستمر للأسف بالنسبة لنا ولصالح العدو باطراد، ومرحلة المد العربي حيث غير التطور مساره بزاوية حادة صاعدا إلى أعلى لصالحنا وعلى حساب العدو ووجوده الطفيلي البغيض.

ليس انفعالا غير منضبط اذن أو تهويلا غير مسئول، ولا هو من السابق لأوانه كذلك، أن نقول ان ٦ أكتوبر يتجاوز فى معناه التحريرى والتاريخى ومغزاه النضالى كل ابعاده الراهنة المباشرة، الميدانية منها والديبلوماسية، العسكرية أو السياسية، أو غير ذلك.انما السادس من أكتوبر هو - بلغة الرسم البيانى - نقطة الانعكاس العنيفة والحاسمة point of inflection فى ذلك الخط الخطأ والاتجاه النازل أبدا الذى اتخذه منحنى الصراع منذ بدأ فى ١٩٤٨ وحتى الأمس القريب والى أن ينتهى بالتحرير الشامل والاسترداد النهائى للاراضى المحتلة والسليبة والمقدسة على السواء.ومن هنا يشبهه البعض بحق بمعركة حطين بالنسبة للصليبيات ، لم تكن النهاية ولكن بداية النهاية، لم تكن التصفية نفسها ولكنها كانت نقطة الانكسار ومنعطف التحول اليها. ومن ثم فمعركة أكتوبر هى حطين الصهيونيات. وآخرون يقولون معركة ذى قار فى التاريخ العربى.

إن السادس من اكتوبر - نحن نجادل - انما هو فى واقع الأمر الخط الأول فى خريطة سياسية جديدة تماما للشرق الأوسط وللوطن

العربي الكبير، والخطوة الافتتاحية من خطة مستقبلية كاملة عنوانها التصفية والاسترداد والعودة، وتصفية الاغتصاب، استرداد فردوس العرب المفقود ، وعودة فلسطين، والشعب إلى الوطن والوطن إلى الشعب. ان تاريخا جديدا تماما، تاريخا بكرا واعدا مبشرا وواثقا إلى أقصى حد، قد كتب ويكتب حتى الآن بالدماء على الرمال، وان مستقبلا جديدا ليصنع الآن صنعا بقوة السلاح وبسلاح القوة على أرض سيناء والجولان ليفرض نفسه فرضا على «ارض اسرائيل» المزعومة..

فاذا بدا للبعض في هذا قليل أو كثير من التجاوز أو التفاؤل، فلنسمع معا ما يقوله الآخرون.يقول الكاتب الأمريكى ادوارد شيهان عن أكتوبر «ان هذه الحرب لم تقيم من حيث ما حققته من نتائج عسكرية، بل من حيث انها نقطة تحول تبشر بنهاية عصر التدهور العربى الذى دام أكثر من خمسة قرون». ثم يضيف أن «هذه الحرب سوف تحتل مكانة فى التاريخ العربى المعاصر، بل ربما التاريخ العربى بأكمله. فلقد تكون لها من الوجهة السياسية والمعنوية أهمية تضارع الفتوح العربية الأموية فى العصور الوسطى وهزيمة الصليبيين ومولد القومية العربية والوطنية المصرية واسترداد قناة السويس». أو فلنقرأ ما كتبته النيوزويك فى دراسة علمية وضعها أخصائيون لا يمكن ان يتهموا

بالانحياز إلى العرب: «لدى العرب الآن مشروعات تعميرية طموحة، اذا تحولت إلي واقع فقد يكون العرب بالفعل على مشارف عصر نهضة حقيقية». أو ما كتبته الديلى تلجراف: «لقد غيرت الساعات الست الأولى من يوم ٦ اكتوبر مجرى التاريخ بالنسبة لمصر وبالنسبة للشرق الأوسط كله». أو اخيرا كما قال كريستوفر ميبهيو في شهادة مقتضبة ولكنها جامعة «لقد غيرت حرب أكتوبر مجرى التاريخ العربى الحديث».

فاذا ما عدنا لنقترب من دقائق الموقف المعاصر وتفاصيله الحية، فماذا بالضبط فعلت المعركة؟ أولا وقبل كل شئ لقد مزقت حرب أكتوبر ونصر العرب شبكة العلاقات والتوازنات القديمة والقائمة فى العالم من حولنا، بكل معطياتها وفرضياتها وقيودها ونذرها، وبدأ نسيج جديد تماما يتخلق بدلا منها. وفى كلمة اختزالية واحدة، يمكن أن نلخص التغيير الجذرى كله فى أننا (ومعنا أصدقاؤنا وأنصارنا) قد تبادلنا المواقع والمواقف مع العدو الاسرائيلى (وخلفه معسكره والمتواطئون معه) وطنيا كان أو قوميا أو عالميا.

وطنيا

فوطنيا، اذا كان لنا أن نبدأ بالدائرة الأصغر ومن البسيط إلى

المركب، فجرت شرارة المعركة تيار الوطنية العارمة، صحيا قويا وغلابا .فكان نداء المعركة هو نداء الدم، وكان نداء الدم نداء الوحدة. وفى لحظة تاريخية فذة تحول الجسم السياسى فى كل قطر عربى إلى كتلة واحدة صلبة متماسكة كالبنيان المرصوص، ليس بها من الثقوب أو الثغرات الا ما اصابها من رصاص الميدان، وغير منفذة لرصاص الدعاية العدوة أكثر مما يعد الرصاص منفذا للماء.

نعم، لقد تلاحمت خيوط الوحدة الوطنية، القاعدة والقيادة، الشعب والجيش، الجبهة الداخلية والميدانية، كما لم يحدث قط من قبل فى تاريخ الصراع. فلا شئ فى الدنيا – هكذا اثبتت المعركة – كالحرب يستثير الوحدة الوطنية، ولا شئ بعدها كالنصر العسكرى يدعم ويقوى هذه الوحدة. نعم، ان الحرب هى النار التى تصهر الوحدة الوطنية، والنصر هو «الأسمنت» الذى يلحمها بعد ذلك، أما السبيكة التى صبت وصقلت فخرجت من المطهر صافية نقية من كل الشوائب فهى الشعب بكل أصالته ، والكل هو فى النهاية البوتقة العظمى المقدسة التى نسميها الوطن.

قوميا

بالمثل قوميا. لم تكد الطلقة الأولى فى المعركة تدوى حتى انطلقت

الأمة العربية بأسرها فى مد قومى طاغ، أذهل حتى العرب أنفسهم، حتى أشدهم تفاؤلا، فضلا عن الأصدقاء، ودعك تماما من الأعداء، هؤلاء الذين لم يشكوا قط ولا اخطأوا الحسابات فى أن قوة العرب فى وحدتهم وضعفهم في تفككهم، وأن قوتهم هم أنفسهم فى ضعف العرب وتفككهم فقط ولا قوة ولا مكان لهم ان اتحد العرب. راجع مثلا قول دايان «ان تناقضات الدول العربية سياج أمن يحمى اسرائيل».

وحتى بشهادة الآخرين، فان «انتصار مصر الحاسم فى حرب أكتوبر»، كما تقول صحيفة لاسويس، «عزل اسرائيل دوليا، فى حين حقق للعرب تضامنا واتحادا بالفعل والعمل، وليس بالأقوال كما كان يتصور البعض خطأ». ومن قبل كتبت النيوزويك أن «حرب اكتوبر جاءت بفجائية لا يعادلها سوى الأداء العسكرى العربى الممتاز، ووجد ١٠٠ مليون عربى أنفسهم وجها لوجه أمام حقيقة عزيزة عليهم هى الوحدة. وأيا كان، فلقد كان السبب الرئيسى لهذه الوحدة العربية هو يقيننا وقبل كل شئ ذلك النجاح العربى الذى تحقق لهم فى ميدان القتال ثم فى فرض الحظر على امدادات البترول».

لقد جاءت المعركة أعظم بوتقة وأدق كشاف لحقيقة العروبة وجوهرها الأصيل، فبرزت القومية العربية حقيقة واقعة ملء السمع

والبصر والوجدان - والميدان أيضا. فلقد ألهبت المعركة خيال العروبة وفجرت كل طاقتها الكامنة وجسمتها قوة محاربة فدائية واحدة. فتنادت كل الدول العربية إلى ساحة المعركة منذ اللحظة الأولى، وألقت كل منها بكل مواردها وامكانياتها وثقلها في الميدان، رجالا وسلاحا، مالا وبترولا. تلاشت كل الحساسيات والحسابات القديمة، وانفكت العقد الوهمية والتحفظات، تقاربت كل الأنظمة والمذاهب، ذابت دول المساندة في دول المجابهة، وانصب المغرب في المشرق. (راجع في هذا، على سبيل المثال فقط، ما قالته النيوزويك من انهم الآن في لبنان يقولون انهم عرب، بينما كانوا قبل ٦ أكتوبر يتحدثون عن الفينيقية..).

وبهذا أيضا توسعت حركة التحرير الوطني مع معركة التحرير الوطني جغرافيا ونضاليا وفكريا لتتحول من مجرد أزمة الشرق الأوسط «اللفانتية» إلى قضية العروبة بأسرها من المحيط إلى الخليج. وفي هذا الاطار برزت ليبيا وهي عمق استراتيجي فعال ومثمر جدا لمصر، بالسلاح والمال والبترول كوقود، وكطريق وكميناء بديل أمين.. الخ، مثلما برز العراق عمقا استراتيجيا ضخما ومساندا مقتدرا لسوريا، ليس فقط بتأمين ظهرها وظهيرها وفتح طريقها ولكن أولا وقبل كل شئ بسلاحه ورجاله. وكما قدمت السعودية مشاركة بترولية ومادية ومعنوية عظيمة

باذلة وباذخة، سياسيا وماليا بل وسلاحا وجنودا، قامت الجزائر الثائرة بدور قيل أكثر من رائع عسكريا وسياسيا واقتصاديا.كذلك فعلت بقية دول المغرب،ومن قبلها الكويت ودولة الامارات العربية وسائر دول الخليج. بالمثل قدمت اليمن الشعبية والشمالية معاونة استراتيجية قيمة فى حصار باب المندب بحريا ومن الناحية المادية البحتة، على سبيل المثال فقط، اذا كانت دولتا المواجهة قد صبتا فى المعركة ما لا يقل بحال عن العشرة آلاف مليون جنيه وذلك عبر سنوات الاعداد لها، فقد شاركت دول المساندة بنصيب كبير فى دعمها قدرته بعض المصادر الخارجية بنحو الثلاثة بلايين دولار، فضلا عن بليون رابعة بعد ذلك.

لقد اندغم الجميع فى جبهة حرب واحدة طولها القومية وعرضها الوحدة، وتحققت جماعية القيادة، وبدا قادة العرب كما لو كانوا «فرسان المائدة المستديرة». وبعد ان كنا نعيش (أو نعانى) معركة القومية، عايشنا قومية المعركة. فى الجبهة السورية كانت القوات العراقية والمغربية والسعودية ثم الأردنية تحارب مع الجيوش السورية المستبسلة والقوات الفلسطينية الفدائية وعلى الجبهة المصرية شارك السلاح الجزائرى والليبى فضلا عن قوات رمزية من السودان والكويت والمغرب.. الخ حتى بعض الدول العربية وزعت قواتها الرمزية على كلتا الجبهتين. انها وحدة الدم تختلط بوحدة التراب على خط النار.

وخارج جبهة القتال وإلى جـانبها، فتحت جبهة البتـرول، فبدأت دول البترول العربية حربا حقيقية. حرب البترول. بإرادة ذاتية ودون ضغوط من الأشـقاء بدأتهـا، فكانت عونا لنا وعوانا على الاعداء وانصاف الأعداء وأرباع الأصدقاء من أدعياء الحيـاد واللامبالين أو المتعاطفين مع العدو سرا، السنتهم مع العرب واسلحتهم مع العدو. ولازالت المعركة مستمرة.وهى اذا كانت تحتاج وحدها إلى وقفه خاصة مفصـلة، فان ما يعنينا منها هنـا هو مغزاها القومى الكبير العام: ما معناها؟ ومعنى وحدة العمـل العربي؟ علام يـدل هذا كـله، وإلـى أين يؤدى؟.

بغير مقدمات مطولة، هناك ثلاثة معان. أولا أن القومية العربية حقيقة واقعة، ارتفعت إلى مستوى المعركة مثلما ردت هذه لها اعتبارها لقد أعادت المعركة خلق العالم العربى، وخلقت منه «عالما جديدا شجاعا». الحرب اثبتت وحدة العرب، وحققت العرب وحدة الحرب. وهى وحدة عسكرية وسياسية، وأيضا اقتصادية واعلامية، أى وحدة واقعية تتجاوز كل مشاكل الوحدة الدستورية ولكنها تكاد تتجاوزها عمليا فى التنسيق والتضامن والتنظيم.وعلى هذا الاساس تقدم التفاعل العربى فى ظل المعركة، كما لوحظ، من وفاق عربى إلى تضامن عربى إلى وحدة عربية ومن بين الكل خرجت «القوة الذاتية» العربية وهى القاعدة الأساسية والأصولية فى المعركة والصراع جميعا.

ولقد تجلى هذا - بالمناسبة- ابلغ ما تجلى في مؤتمر القمة بالجزائر أول مؤتمر عربى منتصر منذ بدأت مؤتمرات القمة، وأول مؤتمر ناجح لا فاشل، وهجومى لا دفاعى.كذلك بدا الوطن الكبير أثناء المعركة وبعدها، ولكن اساسا من خلالها، بدا أشبه «بكومونولث عربى» تلقائى، وربما قال البعض «اتحادا كونفيديراليا» دون الاسم والشكل. ولا ينفى هذا بطبيعة الحال وجود بعض صعوبات واختلافات، الا أنها ثانوية وعارضة وضعتها المعركة على الرف مؤجلة أو مجمدة.ولا شك كذلك أنها ظاهرة ذات دلالة هامة أن جامعة الدول العربية قد بدأت مؤخرا فى مراجعة نظامها الأساسى والتفكير جديا فى تعديل وتطوير كيانها إلى مستوى أعلى يتلاءم مع التطورات الضخمة التى احدثتها المعركة فى الصف العربى .

المعنى الثانى للموقف العربى أن البترول أثبت نفسه سلاحا سياسيا من الدرجة الأولي وسلاحا قوميا فى الدرجة الأولي: لقد نجحت المعركة نهائيا فى «تسييس» البترول بعد ان كان ذلك املا بعيدا بل مستبعدا جدا فى نظر البعض . وقد تحقق هذا بفضل جهود دائبة وصامتة فى مجال العلاقات الثنائية. وبطبيعة الحال فلقد كانت هنا أيضا صعوبات ومشاق فى التخطيط والتنسيق والتنفيذ، ولكنها كلها توارت خلف الدفع القومى الباهر. ومن الواضح أن سلاح البترول لم يكن ليسبق منطقيا

وعمليا السلاح العسكرى، بل كان لابد للأخير أن ينطق ويعمل قبل ان يشرع الأول ليعمل على الفور. لقد كان توزيع الأدوار رهنا أيضا بحسن ترتيبها. وهكذا بالفعل كان.

ويبقى أخيرا معنى ثالث لا يقل دلالة وخطرا. لقد مارست مصر دورها الطبيعى والطليعى فى قيادة الصراع وادارته بالعمل الهادئ الفاعل وبانكار الذات دون ادعاء فظ غليظ منفر. فمصر، التى قدمت نحو ١٠٠ الف شهيد وانفقت نحو ١٥ الف مليون جنيه على مدى ٢٥ سنة منذ بدأ الصراع العربى - الاسرائيلى، حشدت لمعركة أكتوبر وحدها ١.١ مليون جندى تحت السلاح لمواجهة كل الاحتمالات.وهذا بالتأكيد أضخم حشد عسكرى محلى عرفته منطقة الشرق الأوسط فى تاريخها الحديث وربما القديم.وبهذا العطاء الذى لا حد له، ارتفعت إلى مسئوليتها التاريخية كقلعة العروبة، واضعة قدرها على كتفها وقلبها على يدها، فالتف العرب حولها مبايعين مزكين، واستعادت هى حجمها الطبيعى بينهم - ثلث العرب- واستردت مكانتها التى اهتزت حينا بالهزيمة، وفى الوقت نفسه وفرت لكل منهم دورا مشرفا وبناء. لقد كانت معركة آكتوبر بالنسبة لمصر بين العرب كثورة أكتوبر بالنسبة للاتحاد السوفيتى بين السلاف، وخرجت منها وهى «كروسيا العرب» لا «كبروسيا العرب» كما كان الاستعمار يزعم ويردد تمزيقا وتأليبا ومن

الناحية الأخرى اثبتت مصر ٦ اكتوبر ان الزعامة السياسية الحصيفة الرشيدة انما هى فن توزيع الأدوار، لا احتكار الأدوار، هى اولوية بين أكفاء primus inter pares، وليست منافسة فجة على الصدارة الشكلية الجوفاء.

عالميا

اذا انتقلنا آخيرا إلى المستوى العالمى ، فماذا فعل ٦ أكتوبر بالغرب والعرب؟ أول شئ ان الحرب كشفت عن مفاجاة مذهلة: نحن أقوى مما كنا نظن، ومما كان اعداونا يتصورون،بل وكذلك آصدقاؤنا! فى ساعات انهارت كل الأفكار المسبقة المهينة والنظريات المشبوهة الموضوعة (وغير الموضوعية) لتشويه وتحطيم العالم العربى سياسيا ومعنويا ونفسيا ودعائيا. ثم فى ايام فقط كانت الصورة كلها قد انقلبت بطنا لظهر. ونستطيع هنا أن نقسم دراستنا إلى عنصرين: الانسان العربى والسياسة العربية، أو المقاتل العربي والدولة العربية.

الانسان العربى المقاتل

فقد كان أول ما آثبتته المعركة أن الانسان العربي مقاتل، مقاتل ممتاز، شعب محارب قادر على قبول التحدى وعلى تحدى العصر، وفى الوقت نفسه نسفت كل دعايات العدو المغرضة عن «الشعب غير

المحارب» و «الجندى الذى لا يجيد إلا الفرار عند اول مواجهة» و«الانسان غير القابل للتعليم وغير القادر على استيعاب فنون الحرب الحديثة».. الخ لقد اعادت المعركة ثقة الانسان العربى فى نفسه كمحارب، واعادت تقدير العالم واحترامه له عسكريا، كما اعادت بعث العسكرية العربية فى أشرف صورها وأكثرها اشراقا. وفى هذا قالت التايمز «ان العرب حققوا الانتصار، وبرهنوا على قواتهم تستطيع أن تقاتل وأن تستخدم الأسلحة المعقدة بنجاح كبير، كما أن القادة العرب اثبتوا انهم يقودون ببراعة».

بل وكما اعترف عالم نفس اسرائيلى «لم تعبر العرب السويس فقط، بل انهم حاربوا جيدا أيضا ولم يفروا وقد بددوا الادعاء الاسرائيلى بأنه لا يمكن لأى قدر من العلم أن يحسن قتال العرب. لقد تذكر العالم فجأة، كما قالت صحيفة غربية، أن العرب فتحوا أوربا من قبل وغزوا العالم وأسسوا امبراطوريات وهزموا الأتراك وهددوا الاستانة..!

ومن زاوية القدرة التكنولوجية، لدينا أكثر من شهادة من محايدين وغير محايدين. فقد كتب دور ميدلتون «لقد اكدت عملية العبور المصرية للقناة أن تلك القوات قد تطورت تكنولوجيا منذ ١٩٧٦. واثبتت تلك العملية أن المصريين قادرون على الابقاء على السر، وان فى وسعهم بعد

ما حققوا من مفاجاة وبنجاح أن يتصرفوا فى انضباط». كما أضاف أن «جميع التقارير التى وصلت إلى مصادر غربية تشير إلى أن الجيوش العربية تقاتل بعناد وحماسة. وكانت القيادة على مستوى الكتائب والأسراب من مستوى مرتفع، كما كانت القيادة العامة تتسم بالفطنة والحكمة».

هذا بينما قالت الأوبزيرفر «منذ عام أو عامين كانت اسرائيل تبدو متقدمة في سباق التكنولوجيا العسكرية.وقد تنبه المصريون فيما يبدو - خلال حرب الاستنزاف عام ١٩٦٩ - إلى أهمية الدور الذى تلعبه التكنولوجيا فى القتال.. ويبدو الآن، وبعد معارك أكتوبر ١٩٧٣، أن مصر قد لحقت باسرائيل وسبقتها تكنولوجيا فى ميدان الصواريخ والالكترونيات».

وبصيغة حاسمة أيضا قالت الجارديان «لقد برهن الجيشان المصرى والسورى على انهما أفضل تدريبا وأحسن تشكيلا واستعدادا وأشد جلدا وافضل عتادا».

أما النيوزويك فقد كتبت فى نهاية الحرب قائلة ان الروح القتالية العالية والأسلحة الحديثة التى لدى الجيش المصرى كانت وراء الخسائر العالية فى الأرواح التى يصعب على اسرائيل تحملها، فضلا عن أنها «افقدتها توازنها». ثم اضافت ان الشراسة العربية فى القتال لم تقدر

حق قدرها منذ بداية الحرب، كما ان وجود عدد كبير من الكفاءات العربية وراء خطوط القتال جعل من المستحيل أن يتعرض العرب لنقص فى الرجال. «وحتى ثقة الاسرائيليين فى أن لديهم تفوقا تكنولوجيا واضحا على العرب فى مجال السلاح قد سقطت «مثل الطائرات» بفعل النجاح العربى الملحوظ فى استخدام الأسلحة المضادة للطائرات والدبابات».

حتى العدو نفسه اعترف. مثلا آرى يعرى، عضو المابام الاسرائيلى، قال ان حرب اكتوبر بمدتها ومعاركها وعدد ضحاياها قد اثبتت مدى التقدم الكبير الذى احرزته القوات العربية وقدرة مقاتليها على استخدام الأسلحة الحديثة المتطورة والمعقدة.

وهذا بينما كتبت معاريف فى حقد ولوعة «لقد سبقت السلحفاة العربية الأرنب الصهيونى». حتي قادة العدو لم يملكوا الا ان يعترفوا.

«كان الجندى المصرى يتقدم في موجات بعد موجات، وكنا نطلق عليه النار وهو يتقدم، نحيل ما حوله إلى جحيم ويظل يتقدم، وكان لون القناة مخضبا بلون الدم ومع ذلك ظل يتقدم» - هكذا تكلم جونين عيندس الهزيمة المباشر. اما من خلف الخطوط فقد جاء صوت الجنرال آوزى ناركيس المشهور بتعليقاته العسكرية ليسلم بأن «لا مفر من ان

تشهد لجهاز التخطيط المصرى بالبراعة. لقد كانت خططهم دقيقة، وتنفيذها أكثر دقة.ولقد حاولنا جهدنا إعاقة عملية العبور وردها بالقوة على أعقابها، غير اننا ما كدنا نتمثل ما حدث الا وكانت نتائجه قد تحققت لهم، كأنما أغمضنا أعيننا وفتحناها فاذا هم قد انتقلوا تحت النار من غرب القناة إلى شرقها، وفاجأونا صباح ٧ أكتوبر بخمس فرق كاملة أمامنا على الضفة الشرقية من القناة». وأخيرا هناك اعتراف آلون : «ليس هناك وجه للمقارنة بين المعارك التى خاضها المصريون فى أكتوبر والمعارك التى خاضوها من قبل، حيث كان واضحا حرصهم على عدم تكرار الأخطاء السابقة إلى حد أن كلمة «الإنسحاب» اختفت تماما من القاموس المصرى».

أما من المحايدين فإن الجنرال بوفر يلخص لنا الموقف كله فى جملة مركزة ولكنها جامعة: «لقد دخل العرب مدرسة الحرب الحديثة، وبنجاح». وفي مناسبة أخرى نراه يقول، فى شهادة واقعية بعد زيارة لميدان المعركة وما رآه حوله، أن العرب قد حاربوا «بأكفأ مستوى يعرفه العصر». والواقع أن تجربة المعركة أثبتت أن التفوق الكمى العربى أخذ فى التحول تدريجيا إلى تفوق كيفى أيضا، وأن التفوقين، هذا وذاك، هما بسبيلهما إلى الانتقال نهائيا الى العرب. أو كما قال ديفيد اليعازر «لقد فوجىء الجيش الإسرائيلى بأن الكم المصرى قد تحول إلى كيف».

وفي هذا أيضا كتب ارى بعرى يقول أن التقدم العربى فى الكيف يضاف إلى المزايا الهائلة التى يتمتع بها العرب من حيث الكم، ثم ينتهى إلى أن هذا يدعو إلى تغيير النظرية القائلة بأن إسرائيل يمكنها بتفوقها فى الكيف أن تضرب العرب فى كل جولة جديدة.

وأخيرا يصل بنا أحد المعلقين العسكريين البارزين فى الغرب إلى قمة الشهادة، وكذلك منتهى النبوءة، فيقول «إن الطريقة التى حارب بها الجندى العربي فى ١٩٧٣ ضربت التفوق الإسرائيلى المطلق، وتلك كانت واحدة من كبرى حقائق الجولة الرابعة بين العرب وإسرائيل. وهى على هذا الأساس نذير شؤم لإسرائيل فى الجولة الخامسة، ونذير كارثة فى السادسة، وقد تكون نهاية كل شيء فى السابعة».

والخلاصة التى يمكن أن نخرج بها من كل هذه الشهادات والمؤشرات هى أن المعركة قد أثبتت، أول وآخر وأخطر ما أثبتت، الروح القتالية العالية المندفعة والكامنة فى الجندى العربى، وأكدت فدائية المقاتل العربى واستبساله وإقدامه بلا تردد، لاينكص ولا يتراجع عن تحقيق هدفه مهما كان السلاح الذى يواجهه. ليس هذا فحسب، إذ أثبتت المعركة أيضا قدرة المقاتل العربى على استيعاب أعقد الأسلحة الحديثة والمتطورة والسيطرة عليها بكل كفاءة واقتدار وتطويع التكنولوجيا وتكييفها والتكيف معها والتعامل بها على كل المستويات،

كذلك الأمر مع فنون القتال، التخطيط، التنفيذ، المناورة والحركة... إلخ. فعلى سبيل المثال، أثبتت المعركة خطأ الإتهام الذى روجه العدو عنا من أن العرب لايجيدون القتال إلا من المواقع الثابتة، فأكدت للعالم تقدمهم بنجاح تام من القتال الثابت إلى القتال المتحرك. كذلك أثبتت قدرة الدبابات المصرية والسورية المتفوقة على القتال الليلى، على عكس الجولات السابقة، وبالمثل سلاح المشاة المصرى، بينما لم يشترك مشاة إسرائيل فى أى قتال ليلى تقريبا رغم تدريبهم عليه.

وفى هذا كله وغيره نسخت الحرب ونسفت إلى الأبد كل الأساطير والدعايات الشوهاء، الظالمة والكاذبة، التى ركز العدو عليها كل جهوده وأبواقه لإلصاقها بالمقاتل العربى ونوعيته، أولا لتثبيتها فى نفسيته هو ثم ثانيا لترسيخها فى عقلية العالم. (أو كما عبر كاتب أوروبى كبير بقلق أكبر «إن ماهو خطير فى تدمير خط بارليف وحصون الجولان ليس تحرير جزء من التراب العربى المحتل، وإنما هو فى تدمير صورة ثابتة عن الإنسان العربى كانت رائجة عندنا»!) فتلك الأساطير والأكاذيب، التى خرجها العدو من تجارب الماضى ودلل عليها بها، لم تكن تقوم على أى أساس من الحقيقة أو الواقع كما يدرك هو فى قرارة نفسه. فكل تجارب الماضى لم تكن اختبارا لقدرة وطبيعة المقاتل العربى كفرد أو كمجموعة بقدر ما كانت سجلا لأخطاء القيادات المهزوزة غير الناضجة أو غير المؤهلة.

فمن الثابت المقرر، كما عبر أحد كبار العسكريين المصريين أثناء أكتوبر، أن «حرب ١٩٤٨ كان فيها فقط بعض المواجهة، وحرب ١٩٥٦ قليل من المواجهة، وحرب ١٩٦٧ لا مواجهة تقريبا». الحرب الرابعة ، وحدها، كانت أول اختبار حقيقي ميداني حاسم لنوعية المقاتل المصرى والسورى كجندى محارب، وفي هذا الاختبار الأول، بقدر ماتحطمت خرافة العسكرية الإسرائيلية وانكشفت حقيقة المقاتل الصهيوني، بقدر ما أثبت هو نفسه ووجوده وتفوقه بلا حدود، أو كما قال معلق عسكري غربي، استرد اعتباره وشرفه العسكرى، وهذا تطور بالغ الخطورة والدلالة، له مابعده في المستقبل، مستقبل الشرق الأوسط كله.

حتى العدو نفسه تغيرت نظرته إلى الإنسان العربى والمقاتل العربى، واعترف. أو كما ذكر تيرنس سميث «أصبح الإسرائيليون من الجندى الذى يقف على خط النار إلى الوزير في الحكومة ينظرون إلى العرب نظرة مختلفة بعد حرب أكتوبر». أو كما كتب أزيك رولو، إن الإسرائيليين ما عادوا يستخدمون التعبير العبرى الشائع «أرافيت زى أرافيت» «أى العربى لايعدو أن يكون عربيا!» والذى يمثل قمة التهوين من شأن العرب بل والتحقير لهم، وأصبحوا الآن يقولون «لقد أجبرنا العرب بالقوة على احترامهم!» إننا نعرف الآن أن في استطاعتهم أن

يكونوا على القدر نفسه من الشجاعة، وأن في إمكانهم استيعاب الفنون العسكرية الحديثة».

بل الواقع أن من أطرف نتائج أكتوبر وأكثرها مدعاة للتفكير أن العدو نفسه لم يعترف فقط بكفاءة وندية المحارب العربي في تلك الحرب، ولكن ايضا «بأثر رجعي» عام على حروب الماضي! لقد «أعاد اكتشاف» حقيقة معدن المقاتل والإنسان العربي ـ فقط متأخرا ربع قرن! انظر مثلا ما كتبه الجنرال متتياهو بيليد في معاريف: «من الواضح حتى الآن أن الجندي المصري يظهر روحا قتالية قوية، ولم يفقد إرادته على مواصلة القتال، إننا نعرف هذه الظاهرة جيدا، منذ حرب ١٩٤٨، وخلال حرب سيناء كذلك في ١٩٥٦، لم تكن قليلة الحالات التي حارب فيها الجندي المصري حربا عنيدة، في المعارك الدفاعية وفي جميع الحالات كان المصري موجودا في تجهيزات محمية يعرفها، ولم يفاجأ بالهجوم عليه، وإذا لم يحدث انهيار في الجيش، ولم تتولد ظروف جديدة لا يلم بها إلماما تاما، فإنه سيستمر في تنفيذ مهمته بإخلاص، وهذا مايحدث الآن في جبهة القناة».

أو انظر إلى ماكتبه المدعو تيدي برديس في دافار: إن الثغرة بين التوقعات والواقع الذي نشأ هذه المرة تكمن في الحقيقة التي نسيناها، وهي أن العربي لم يكن خلال الأعوام الخمسة والعشرين الماضية مقاتلا

رديئا، بل قاتل بشجاعة وتصميم. إلا أن أصحاب شعار «هذه ليست لعبتهم» طمسوا هذه الحقيقة وشوهوها، كذلك فإنهم تناسوا نتائج البحوث السيكولوجية على الأسرى المصريين ١٩٦٧، تلك التى كانت بعيدة تماما عن الإستهتار بالجندى المصرى، الذى وجد أنه يتمتع بقوة تحمل كبيرة وكفاية جسمية جيدة وروح هجومية، ثم عدد الكاتب حالات من الصمود المصرى النادر نسيت بسبب «أقوال العجرفة والتعالى التى كانت تصدر عن القادة والسياسيين»: جيب الفالوجا ١٩٤٨، نموذجا لقوة صمود المصرى المحاصر، صمود أبوعجيلة ١٩٥٦، حيث اضطر الجيش الإسرائيلى إلى العمل ٣ آيام لاختراقهم «١٠٠ ساعة فى الوحل»، شجاعة ومهارة المصريين فى الإغلاق المتتالى للثغرات التى كانت قوة إسرائيلية مختارة تحاول شقها على مفترق طرق رفح فى ١٩٦٧..... إلخ.

الدولة والسياسات العربية

ذلك كله عن الإنسان العربى كرجل محارب بين إنسان العالم، أما من الناحية السياسية العالمية فإن الإنقلاب لايقل خطرا ولا مغزى، وهو فى الواقع مترتب مباشرة على الإنقلاب الحربى. فلأول مرة خرج عرب ٦ أكتوبر وهم صنعة التاريخ بعد أن ظلوا طويلا لعبة التاريخ، وتحولت المنطقة من منخفض سياسى إلى منطقة ضغط سياسى مرتفع مؤثر

وفعال، ومن إقليم جيوبوليتيكى سالب إلى إقليم موجب يساهم اليوم جديا فى تشكيل التوازن العالمى وتضاريس السياسة الدولية، باختصار، أصبح العالم العربى فاعلا بعد أن كان مفعولا به بانتظام أو مجرد رد فعل على أفضل تقدير. ولأول مرة فى تاريخها الحديث تقريبا، أصبح العالم العربى عاملا مهما في تحقيق التوازن السياسى فى المنطقة، إن لم يكن الأساسى، ولا نقول الوحيد، ولأول مرة يصبح مصير المنطقة معلقا بقواها الداخلية وإرادتها الذاتية أكثر مما هو متعلق أو مرتبط بعوامل وقوى من خارجها. ولأول مرة كف العالم العربى عن أن يكون لعبة السياسة الدولية المفضلة، بما فى ذلك الاستقطاب أو الوفاق، وعدا ذلك تم تصحيح ميزان القوة الذى كان قد اختل بوضوح فى غرب آسيا وتم وضع حد للإستراتيجيات الإقليمية المضادة بها، بل لقد غيرت المعركة ميزان القوة فى قارة آسيا عموما.

ليست إسرائيل وحدها إذن التى ردت إلى حجمها الطبيعى، العرب أيضا، بل العرب أكثر، والأكثر فى المستقبل، لقد انقلبت كفتا الميزان بينهما، أو بالأصح عادتا ماعتدلتا وصححتا، وكما قالت جريدة انجليزية أخيرا: «شىء واحد مؤكد الآن، أن العرب أصبحوا فى الوقت الحاضر فى مركز تفاوضى أقوى بكثير مما كانوا عليه.. وأن إسرائيل قد أصبحت في مركز أسوأ بكثير مما كان العرب أو أى أحد يعتقده ممكنا

قبل بداية الحرب». وحتى أولئك الذين يشككون فى النصر العسكرى العربي أو يقللون منه، لايملكون أن يشككوا فى نتائجه العالمية السياسية والنفسية أو آن يقللوا منها، مثلا كتبت مجلة تايم فى حديث لها مع الرئيس المصرى «إن المؤرخين سوف يتجادلون طويلا حول ما إذا كانت الجيوش المصرية قد أحرزت بالفعل انتصارا عسكريا فى حرب أكتوبر. ولكنهم ـ على الأرجح ـ لن يختلفوا حول الرأى القائل بأن نتائج الحرب قد أعادت للعالم العربى قدرا من الثقة بالنفس كانوا فى أشد الحاجة إليه وكان غائبا عنهم منذ الهزيمة المهينة فى عام ١٩٦٧».

وليس أدل على الهيبة الدولية الجديدة والمكانة المرموقة التى حققها عرب أكتوبر من نظرة العالم الجديدة إليهم. فبدل الإشفاق والرثاء الممزوج بالاستخفاف إن لم يكن ماهو أسوأ، حل الاحترام والتقدير الذى لايخلو أيضا من إعجاب، أو كما ذكرت ورقة أكتوبر «لقد رفعت حرب أكتوبر من شان العرب جميعا، وأصبح العالم كله يعترف بالوجود العربى وبدور العرب ويعمل على كسب ودهم». أو كما كتبت النيوزويك «الزمن تغير فجأة. تبدلت نظرة العالم إلى العرب، وأصبح ينظر إليهم بكل الجدية، بعد طول معاملة لهم على أنهم شعوب همجية ودول متخلفة، وبالمثل بدأ العرب ينظرون إلى أنفسهم على ضوء جديد». بل إن قطاعا

كبيرا من العالم، وخاصة من العالم الثالث، أصبح يتطلع إلى العرب ويرنو ساعيا إلى التقارب معهم. «إعتبر مثلا التقارب الإفريقى الكبير، أو فكر فى معنى ما قاله رئيس النيجر من أن فى الإفريقيين دماء عربية كما أن فى العرب مؤثرات افريقية، وأنه هو شخصيا تجرى فى عروقه دماء عربية الأصل والنسب بنسبة معينة».

وعدا هذا فلا يكاد يمضى يوم منذ أكتوبر دون أن يزور سياسى قيادى أو وفد كبير من دولة ما من دول العالم دولة عربية أو أخرى، بينما تتجول الوفود العربية بدورها بكثافة على اتساع العالم لتقابل بالترحيب والاحترام. أما عروض القروض والمعونات ومشروعات التنمية والمشاركة فى التعمير فلا تكف عن التدفق تباعا من كل الجهات، وهذا كله صورة مرآوية مقلوبة أخرى لما حدث فى أعقاب يونيو، حين كان الكل فى «زيارة للمنتصرين» وكانت الأموال تنهال على إسرائيل بغير حساب.. لقد أصبح العالم العربى بوضوح بؤرة اهتمام العالم ومحط أنظاره كقوة ضاغطة مؤثرة فيه لها وزنها وتقديرها، وورث العرب مكان إسرائيل السابق فى قلب العالم وعقله.

وحسبنا فى هذا الصدد أن نشير مثلا إلى مؤتمر القمة الإسلامى الثانى الذى عقد فى لاهور أخيرا تقديرا ومساندة من العالم الإسلامى لقلبه العربى، فعلى العكس من المؤتمر الأول الذى عقد فى الرباط منذ ٤

سنوات فى ظل الهزيمة، جاء المؤتمر فى ظل النصر فكان نجاحا كاملا، وكما جاء المؤتمر دفعة معنوية كبيرة للعرب، كان تأكيدا لانتصارهم ولنفوذهم المتعاظم فى العالم بعد النصر، وبالمثل كان دور العرب وخاصة مصر فى تحقيق التصالح والتقارب بين الباكستان وبانجلاديش داخل المؤتمر دليلا على مكانتهم المرموقة فى العالم الإسلامى.

وعلى الجانب الآخر، جانب العدو، جاء المؤتمر ضربة سياسية أخرى ومزيدا من الحصار، إقرأ مثلا ما كتبته هاتسوفيه صحيفة الحزب القومى الدينى فى إسرائيل: «إن نداء تحرير القدس الذى وجهه مؤتمر لاهور يأتى فى وقت أصبح العالم الإسلامى فيه أقوى من الناحيتين السياسية والاقتصادية بصورة لم تحدث منذ أربع سنوات» (حين عقد مؤتمر الرباط). أو إقرأ ما كتبته معاريف: «لقد أوضح مؤتمر لاهور تماما التناقض بين الواقع الذى يحيط بنا والواقع الذى نعيش فيه وبين الوحدة المتزايدة للعالم العربى والفرقة التى تنهكنا».

ليس هذا فحسب. بل إن العالم العربى نفسه «يتوسع» الآن بصورة لافتة ولايمكن أن تكون بلا مغزى، فليس من الصدفة وحدها على الأرجح أن يتم انضمام دولتين من افريقيا، موريتانيا والصومال، إلى الجامعة العربية فى وقت واحد تقريبا قبيل وبعد انتصار أكتوبر مباشرة، كأنها جميعا على ميعاد، لقد اتسعت جغرافية العروبة كما ارتفعت قامتها.

ويسترعى الانتباه هنا، كما يستدعى التفسير بإلحاح، أن تنبثق كل هذه الإنطلاقة والطفرة الإيجابية من أمة قيل عنها بالأمس فقط أنها قد أصيبت بتصلب الشرايين، إن لم يكن بالشيخوخة المبكرة أو القديمة. فكيف نعلل هذه المتناقضة إذا كانت صحيحة، وإن صحت فإلى أى حد؟ وماهو التشخيص أو التكييف العلمى الدقيق لهذا التطور؟ الإجابة تكمن فى دورة حياة الدول الجيوبوليتيكية كما وضعها العالم الجغرافى فإن فالكنبرج، تلك التى تحدد مراحل تطور الدولة كجسم سياسى وككائن عضوى بمعنى ما فى أربع: مرحلة النشأة أو الطفولة التى تنطوى فيها الدولة على نفسها ترتب بيتها من الداخل وتحمى حدودها فى الخارج، ثم مرحلة الشباب أو التوسع وفيها تنطلق إلى دور خارجى إيجابى أما من التوسع أو فرض النفوذ، ثم مرحلة النضج أو الاستقرار حين تكون قد وصلت إلى أوج القوة ولا تريد إلا المحافظة على الوضع الراهن والتوازنات القائمة، ثم أخيرا مرحلة الشيخوخة أو الانهيار التى تعجز فيها عن المحافظة على نفوذها أو حدودها فتبدأ تفقد منها تدريجيا حتى تنكمش وتتقلص وربما سقطت لتقوم دولة جديدة تبدأ دورة جديدة، وهكذا.

والدول العربية كنظم سياسية معاصرة تعتبر، ابتداء، دولا حديثة فى مرحلة النشأة، لأنها رغم عراقتها التاريخية الألفية إنما بدأت دورة

جيوبوليتيكية جديدة بالأمس القريب فقط حين تحررت من الاستعمار الاوروبى واستكملت استقلالها النهائي منذ ٢٠ سنة أو ١٠ سنوات على الأكثر أو في المتوسط، وبعض هذه الدول كمصر وسوريا والعراق كانت تزحف حثيثا نحو مرحلة الشباب وقد انطلقت بالثورة والتنمية، والبعض الآخر كان على الطريق بفضل ثورة البترول وثروته الدافقة كالسعودية وربما الجزائر وليبيا... إلخ. ولكن هزيمة يونيو ردت أكثر هذه الدول إلى الخلف كثيرا، رغم أنه كان وضعا مؤقتا معلقا بالضرورة، وهنا يأتى دور أكتوبر: إنه بالدقة والتحديد قد «جدد شباب» العرب جميعا، وبدأ مرحلة جديدة من «تجديد شباب» الدول العربية political rejuve-nation ، وخاصة منها دول المواجهة والطليعة، وهذا هو المعنى الأول والمباشر لأكتوبر في الكيان الدولى العربى، إنه بداية مرحلة جديدة فى المورفولوجيا السياسية للدول العربية.

ومن هذا المنطلق والمنطلق بالتحديد فرض العرب على العالم واحدة بل سلسلة من أكبر وأخطر «المتغيرات» في السياسة الدولية بعد أن كانت مصايرهم رهنا بالمتغيرات الدولية تتقاذفها وتعصف بها دون أن تملك هى من أمرها شيئا، لقد كان الجميع يتحدثون طويلا وكثيرا عن المتغيرات الدولية قبل أكتوبر، فأصبح أكتوبر هو أبرز المتغيرات الدولية وأقواها أثرا. وكان أوضح تعبير عن هذا هو بروز «شخصية دولية عربية» على المسرح العالمى.

عرب أكتوبر كقوة عظمى

وإذا كان من العسير القول بأن العرب يشكلون بعد «نظاما سياسيا» مستقلا فى المجتمع الدولى، فإن المؤكد إنهم أصبحوا يزحفون حثيثا نحو مركز بارز من مراكز القوة العالمية متعددة الأقطاب، وقد تحدثت الصحافة العالمية بالفعل عن العرب المنتصرين كقوة كبرى أو شبه كبرى، مرشحة بغير منازع واضح لمركز «القوة السادسة» في عالم ما بعد الوفاق. ولم يكن ذلك قطعة من الإثارة الصحفية ولا انطباعا عابرا تحت وهج المعركة. فبعد نصف عام من توقف القتال، عاد التقرير السنوى لمعهد الدراسات الإستراتيجية بلندن فأكد الحكم بصيغة موضوعية وقاطعة فقال «إن حرب أكتوبر، بسلاحيها العسكرى والبترول، قد جعلت من العرب قوة سادسة فى العالم بعد أمريكا وروسيا والصين واليابان وكتلة أوروبا الغربية». (لا داعي هنا، ولا هو من المفيد، أن نخدع أنفسنا فننساق وراء ما يزينه لنا بعض «غلاة الأصدقاء» من أننا إنما مرشحون لمركز «القوة الثالثة»!، حيث أن الصين لازالت إمكانية لم تتحقق وكلا من أوروبا الغربية واليابان عملاق اقتصادى ولكنها قزم سياسى لم تزل». هذا، وليس غريبا أن نتكلم عن العرب، وهم الذين ينقسمون سياسيا إلى ٢٠ دولة، كقوة عظمى واحدة

فإن أوروبا الغربية ـ لنتذكر ـ تقع بدولها التسع فى الوضع نفسه تقريبا.

وعند نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة كان علماء السياسة والجغرافيا السياسية لا يرون من القوى الكبرى الجديدة المحتملة الممكنة بعد الخمسة الكبار، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وأوروبا الغربية واليابان والصين، كانوا لايرون سوى الهند والبرازيل غير أن هذه النبوءة لم تتحقق إلا جزئيا بزحف الهند إلى موقع القوة شبه الكبرى بعد حرب الهند ـ الباكستان الأخيرة؛ أما الآن فإن صعود القوة العربية البازغة بعد أكتوبر يشى بخريطة جديدة تماما لتوزيع القوة فى العالم.

والواقع أن العرب يملكون كل خامات القوة الكبرى، مساحة أرض وتعداد سكان وموقعا جغرافيا وموارد طبيعية ومستوى حضاريا، بل الكثيرين ينظرون اليوم إلى العالم العربى باعتباره ـ كما يعبر بذلك حازم الببلاوى ـ «احتياطى نمو العالم ورصيد المستقبل» من وجهة نظر التنمية الاقتصادية والتطور المادى والصناعى، فبمساحته الشاسعة وتعداد سكانه الكبير، ولكن أكثر بكثافة سكانه المحدودة بحكم سيادة الصحراء على الجزء الأكبر منه، فإن الإقليم بدخوله البترولية المليارية إلى جانب انتاجه الزراعى، والصناعى يعد الآن من أغنى أقاليم العالم

ـغرافية والسياسية في مستوى الدخل القومي ووفرة رأس المال
ـكانيات التصنيع والإستثمار.... إلخ. كذلك فلقد كانت المنطقة
ـما حبلى باحتمالات الوحدة، كما كان الكل يشعر بطريقة ما بأنها
ؤهلة بالطبيعة لدور غير عادى وللبروز كقوة من قوى العالم
ساسية.

غير أن هذه العناصر الأولية كانت دائما وحتى قريب مجرد
كانيات كامنة بالقوة لا كائنة بالفعل، وكانت المنطقة دائما خطيرة جدا
السياسة الدولية وفي نظر العالم، ولكن كغنيمة ثمينة يتصارعون
يها، لا كمركز قوة ذاتي مرموق، فقد كان محور السياسة الاستعمارية
ـالمية في هذا الجزء من العالم تقليديا هو منع قيام قوة قومية كبرى
ه بأى ثمن. وكانت لعبة تمزيق المنطقة أولا، ثم عملية خلق إسرائيل
ـها ثانيا، هي أدوات تنفيذ تلك السياسة، وكان وجود إسرائيل وحده،
ـلا عن وصمة هزائمها المتتالية للعرب، ضمانا أبديا بتعقيم القوة
ربية كفيلا باستحالة ترجمة الممكن إلى واقع في هذا المجال. أو كما
ول ورقة أكتوبر «لقد كانت عناصر القوة العربية الكامنة، بالنسبة
ـالم، مجرد احتمال نظرى، بينما كانوا يرون فى إسرائيل القوة
ـعالة المؤثرة فى رسم مجرى التاريخ فى المنطقة، وتكفيله بتشكيل
ـتقبله».

انتصار أكتوبر قرر العكس، فتح الباب أمام انطلاقة عربية عظم
يمكن أن تستقر بها في النهاية في نادى الكبار. أو إذا اقتبسنا ور
أكتوبر مرة أخرى «حرب أكتوبر طرحت الإمكانيات العربية كحقي
واقعة، لا كمجرد احتمال بعيد.. وصارت أى سلطة وطنية في أى
عربى تشعر بعزة جديدة، ويعاملها العالم معاملة الند للند.. لم ي
العالم العربى غنيمة يختلف الأقوياء على أنصبتهم فيها، أو تره
مصائرها في عواصم بعيدة، بل صارت طرفا قويا يتحدث عن نفس
بنفسه».

لقد تغيرت ليس فقط خريطة الشرق الأوسط السياسية، وإنما كذ
خريطة العالم السياسية جميعا. وإذا كان هذا التغيير جنينيا فقط ح
الآن بطبيعة الحال، فالمسألة أولا مسألة وقت، وهى ثانيا مسئولية العر
أنفسهم الآن، فعليهم وحدهم ألا يكفوا لحظة عن استكمال نصر
واستثمار نتائجه الطبيعية، وقد لخصت الصنداى تايمز الموقف
كالآتى: «إن العلاقات مع الدول العربية طرأ عليها منذ أكتوبر الماض
تغير جذرى. ولم يكتف العرب باكتشاف وحدتهم الحقيقية لأول مرة
طريق استخدام سلاح البترول، بل إنهم استطاعوا أن يستخدموا قوة
الاقتصادية بما حقق لهم نجاحا سياسيا كبيرا، وسعوا عن طر
الضغط على أوروبا إلى تغيير السياسة الأمريكية نفسها إزاء إسرائ

ذلك نجحوا فى إحداث صدع فى حلف الأطلنطى بفرض حظر بترولى
ى الدول غير الصديقة، وحملوا وزير خارجية أمريكا على بدء إجراء
ار معهم اتسم بتأييد وجهة النظر العربية، وأخيرا نجحوا عن طريق
ساعفة أسعار البترول ثلاث مرات فى تعزيز سيطرتهم على النظام
قدى فى العالم».

عن مصر مثلا، إذا أخذنا نموذجا منفردا، كتبت الإيكونوميست
يرا أنها تبشر بنهضة اقتصادية كبرى، ثم قالت أن هذا الإنطلاق
سرى سببه «النجاح الهائل الذى حققته مصر فى عملياتها العسكرية
د إسرائيل في اكتوبر الماضى الذى رفع ثقتها بنفسها وبقدراتها
اتية وقدرات الأمة العربية كلها». كذلك كتبت مجلة بيزينيس ويك
مريكية أن «مصر على وشك الإنطلاق إلى ازدهار اقتصادى»، وأن
ال للإستثمار يتدفق إليها، من الدول العربية البترولية، بدافع القومية
عربية، ومن الدول الصناعية بدافع الحرص على كسب الثقة وضمان
دادات البترول العربي، كما من الإتحاد السوفييتى الذى «أصبح
جرد مجموعة أجنبية أخرى تحاول الاستثمار فى مصر». هذا بينما
أ البعض أنه لم يمض عقد أو أكثر إلا وتكون مصر قد انتقلت إلى
ئمة «الدول الغنية» فى العالم، حتى كيسنجر اعترف أخيرا بأن أمريكا
تبر مصر «قطب الرحى» فى استراتيجية الشرق الأوسط.

أما على مستوى استراتيجية السياسة الكوكبية فيمكن القول ا
الواقع أن مرحلة تعدد مراكز القوى العالمية ثم مرحلة الوفاق بعدها،
باختصار مرحلة توازن القوى الجديد على الطريقة المترنيخية المحد
وأسلوب القرن التاسع عشر المجدد، هى فى التحليل الأخير مرد
إعادة تحديد علاقات القوى العظمى بالعالم الثالث بالتحديد، ذ
الوليد الجديد الذى لم يكد يفوز باستقلاله عن قوى الاستعمار القديم
عن كل الصراع الاستقطابى حتى وجد نفسه مشوشا مضطربا مايز
بين مراكز القوة المتعددة الجديدة التى تتسابق عليه وتتجاذبه
تتنازعه.

ويمكن القول فى هذا المجال أن العالم العربى هو أول قطاع من ا
العالم الثالث يدخل ويحسم هذه المرحلة بثقة واقتدار، فهو الذى دشد
والآن يهندسها، حيث أصبح أول منطقة من العالم الثالث تصل
احتمالات القوة العظمى العالمية. وهو بذلك أيضا يفتح الباب أمام ال
الثالث لكى يتقدم إلى مكان ومكانة أكثر تكافؤا فى العالم، ويعد
الفرصة لكى يضيق هوة القوة المخيفة بينه وبين العالمين ا
والثانى، وكما حدد الرئيس السادات، فإن حرب أكتوبر هى «بالتأ
انتصار لدول عدم الانحياز، وأثبتت أننا نستطيع أن تكون لنا إر
فعالة فى عالم مابعد ٦ أكتوبر. والمشكلة الآن هى ماذا سنعمل ا

ول عدم الانحياز في هذا العالم. فالموازين الدولية قد تغيرت،
علاقات السياسية لابد أن تعاد صياغتها، وأننا نواجه عالما جديدا، لن
ن عالم ماقبل ٦ أكتوبر ولكن عالم مابعد ٦ أكتوبر».

وكأول قوة عالمية تنبثق من صميم العالم الثالث، يمكن أن يكون
الم العربي رسالة خاصة، وظيفة إقليمية، تكاد تنفرد بها بين القوى
ظمى مثلما ينفرد بين أقاليم العالم كإقليم جغرافي وتاريخي وكموقع
وستراتيجي وجيوبوليتيكي وكمنطقة حضارية وثقافية، فالمنطقة، التي
ت القوة الأعظم المطلقة في العالم يوما ما، بل لأكثر من مرة، وربما
نت لأطول فترة عرفتها منطقة مماثلة في التاريخ، يمكن بكل
سانصها ومعطياتها ومؤهلاتها الطبيعية تلك أن تكون عقدة قوة في
، العالم خالية من عقد القوة بمعناها السيىء.

إنها ـ توضيحا ـ مؤهلة لأن تكون بمثابة جيروسكوب سياسي
ة إنفتاح ماضة صدمات ومصب تيارات، أي عامل ثقل وتوازن بين
وى العظمى الأخرى يمنعها من التصادم أو الإخلال بتوازن
الم، يخفف من حدة التناقض بينها، يقرب بين بعضها البعض
ها بين القوى الصغرى، ويقارب الشرق من الغرب ويقدم الجنوب إلى
مال ويسد الفجوة بين الأقوياء والضعفاء ويضيق الهوة بين الأغنياء
قراء ويحل المعادلة الصعبة بين الأصالة والمعاصرة وبين القوة

والسلام. إنها رسالة تاريخية تحددها الجغرافيا، وانسانية رغم أصل الإقليمي.

وإذا كان هذا هو الجانب الإيجابى والمشرق من نتائج صعود بداية صعود عرب أكتوبر إلى مركز القوة العالمية، فيجب ألا ننس جوانبها الشاقة والشائكة أيضا، فللقوة ثمنها الباهظ وضريبة المستمرة التي يتعين دفعها واجبات ومسئوليات ومخاطر وأخطارا، وا قبل كل شيء صراعات وصدامات ليس فقط مع الأنداد أو الصـ وإنما حتى مع الكبار بل ربما أساسا معهم، وليست لعبة الكبار لعبا نزهة سياسية أو استراتيجية رخية هنية أو هينة، وإنما هي أسا صراع قوة، فالقوى الكبرى لاترحب ابتداء بمنافسين أو مشاركين جـ ومن المسلم به أنه ما من أحد فى العالم كان يريد لقوة كبيرة أن تنب فى هذه المنطقة الخطيرة من العالم بالذات. فإذا ما فرضت نفسـ وقامت، كما قد بدأ بحدث بالفعل، فإن عليها أن تتوقع وتتحمل مخا ومتاعب ومقاومة القوى الكبرى الأخرى، ولقد بدأت بوادر هذه المتا بالفعل، حتى مع بعض قدامى الأصدقاء الكبار، وهذا مايفرض : القادمين الجدد إلى دائرة القوة ليس فقط الحد الأقصى من الـ والتنبه، ولكن كذلك أن يرتفعوا بوعى واقتدار وبذل إلى مستوى المسئ ومتطلباتها.

وإذا كان لنا عود مفصل إلى هذه القضية فى دراستنا للعالم
مركة، فإن علينا هنا أن نسجل ثلاث ظاهرات بل حقائق أعقبت حرب
وبر وترتبت لاشك عليها، فأولا، لا سبيل إلى الشك فى أن العرب،
وا أو لم يريدوا ، أدركوا أو لم يدركوا ، فقد بدأوا يدخلون لعبة القوة
المية، أى لعبة الكبار، وبالتحديد مع القوى الكبرى، وبالذات مع
ملاقين ثم إلى حد ما مع أوربا الغربية، وبعد أن كان العرب لعبة
ء الكبار، أصبحوا هم بأنفسهم طرفا متناميا فى لعبة الكبار، وقد
ب على هذا بدء ظهور تعديلات مهمة فى علاقات العرب بالقوى
برى الخارجية، وكما كانت حرب أكتوبر هى السبب المباشر فى هذه
ديلات ، فقد جاءت أيضا المناسبة التاريخية لها، ولهذا نرى فترة ما
أكتوبر فترة تغير جوهرى فى تلك العلاقات وإعادة توجيه لها
ياغة جديدة لمعادلتها.

ثانيا، تأخذ هذه اللعبة أساسا شكل لعبة التوازن، توازن القوى،
ن لتحقيق أكبر قدر من الاستقلال والأمان إزاء كل وأى من أطراف
بة. والمعنى الجوهرى لهذا أن العرب قد بدأوا يخرجون من دائرة
ستقطاب الثنائى القديم ومناطق النفوذ النسبية التى كانت تحكمهم
لهم قبل أكتوبر إلى سياسة توازن القوى الجديدة، وبعد أن كانوا
ضعون لقواعد «لعبة الشطرنج» بين العملاقين checkmate،

أصبحوا هم الذين يمارسون «سياسة المضاربة» بينهما عن طريق ضاربة كل منهما بالآخر stalemate. ومحور هذه السياسة هو الانتقال المتوازن من الاعتماد الكامل على أحد العملاقين، وهو الاتحاد السوفييتى، إلى التعامل المتوازن والمتكافىء مع العملاقين كليهما، كسبا للواحد دون فقد للآخر، وتحييدا للعدو وتحديدا للصديق.

ثالثا، ماتراه الآن من صعوبات جديدة أو متجددة بين العرب والاتحاد السوفييتى والأخذ والرد والشد والجذب بينهما، خاصة بل أساسا على سياسة التسليح، هو إلى حد معين مظهر من مظاهر دخول العرب دائرة القوة العالمية ولعبة الكبار. فهناك خطة أو محاولة واضحة لتحديد قدرات العرب وقوتهم بتحديد إمدادات السلاح إليهم، وبالمقابل أتت خطة العرب فى تنويع مصادر سلاحهم، وتقارب العرب مع أوروبا الغربية والاتجاه إليها كمورد سلاح متطور، ثم محاولة تحسين العلاقات مع أمريكا، هى مظاهر أخرى للحقيقة نفسها ، وهى دخول العرب حلبة القوى الكبرى بصراعاتها وتوازناتها.

معركة البترول

لا سبيل إلى الفصل بطبيعة الحال بين حلقات هذه الثلاثية المترابطة: أكتوبر ـ العرب ـ البترول. ولهذا لابد من دراسة خاصة مركزة، لا لاقتصاديات البترول بالمعنى الواسع، وإنما لجيوبوليتيكا

البترول بالأحرى والأخص. نريد، يعنى، تحليل الجوانب السياسية للبترول كبعد أساسى وعنصر أصيل فى معركة أكتوبر دون أن نفقد أنفسنا أو نضيع فى خضم الأرقام والإحصائيات التقليدية التى تزخر بها الدراسات الاقتصادية عادة.

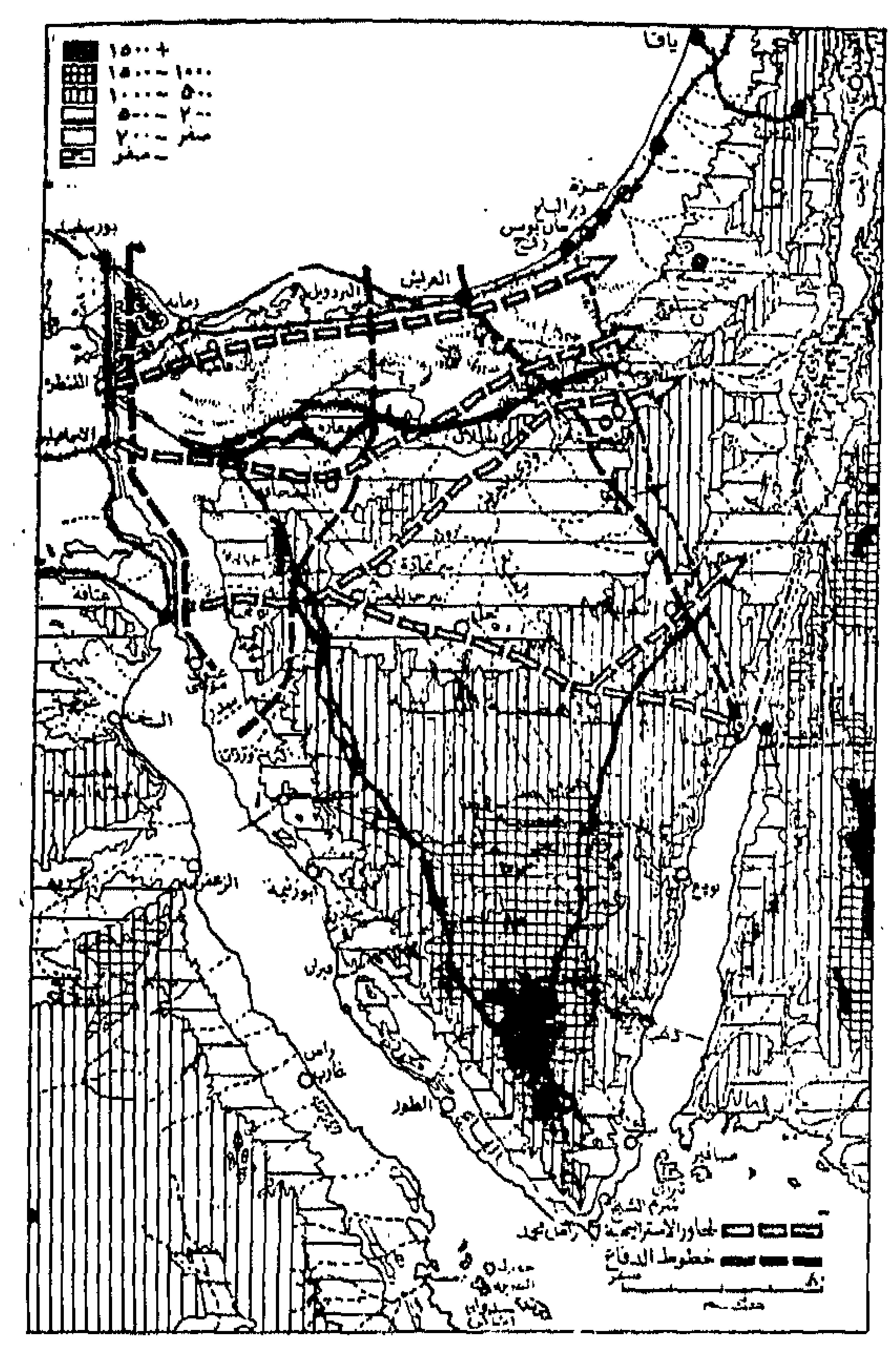
دور البترول ودورته السياسية

ولقد مرت تجربة البترول كسلاح سياسى فى عدة مراحل. فلقد طالما تكلم العرب عنه ولوحوا به، دون أن يجمعوا هم أنفسهم على رأى موحد أو موقف عملى، ودون أن يأخذهم الاخرون بجدية أو اهتمام. كذلك حاول الكثيرون عزل البترول عن السياسة وعن المعركة، بزعم أنه سلاح اقتصادى فقط لا دخل له بالسياسة، ولم يكن ذلك صحيحا على الإطلاق، فلقد كان البترول دائما فى قلب السياسة العربية ومحور السياسة الدولية فى المنطقة، بل لقد كانت كل الأخطار التى تعرض لها الوطن العربى فى العقود الأخيرة تدور حول البترول مباشرة وغير مباشرة. وكان السباق الاستعمارى رهيبا من أجل بترول العرب، وبالمثل كان صراع القوى حول هذا السباق.

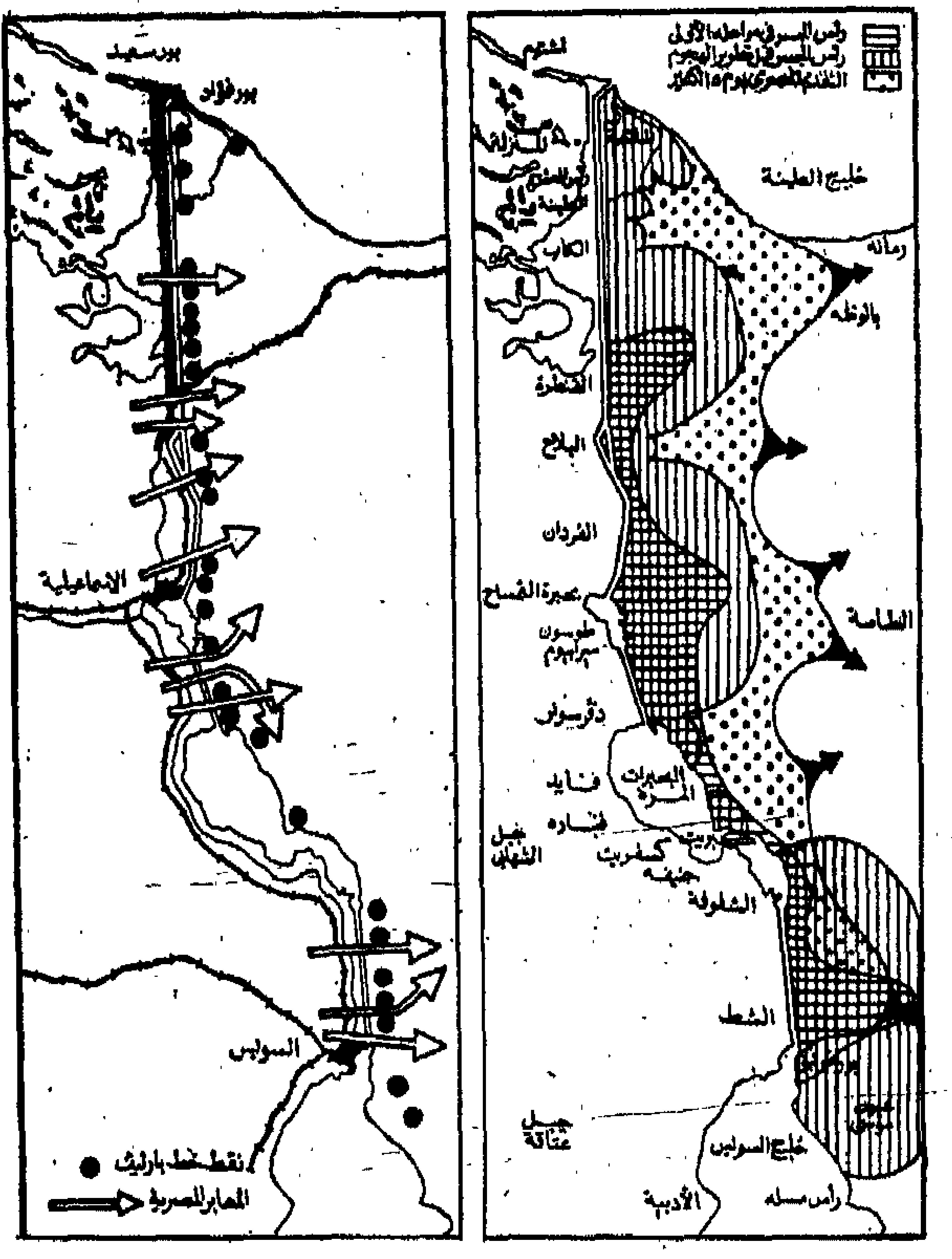
بل إن من الثابت المؤكد أن خلق إسرائيل نفسها كان على علاقة عضوية بالبترول، ومنذ البداية إلى النهاية كان الاستعمار يستخدم إسرائيل «كلب حراسة» لمصالحه فى المنطقة «ماذا سوى البترول؟

وإرهابيا مخصصا لتأديب أصحاب البترول حتى لايتمردوا على حظيرة الإستعمار البترولى يوما ما. فإلى جانب تهديد مصر والقناة، كانت وظيفة إسرائيل الأخرى باستمرار هى تهديد العرب والبترول، العرب حاملة البترول وإسرائيل حاملة الطائرات.. وآخر حالة فى هذه النقطة هى إيماءات وتلميحات ثم تصريحات إسرائيل قبل أكتوبر عن التهديد بضرب مناطق البترول العربية أما لحسابها مباشرة أو لحساب أمريكا رأسا. فى المرة الأولى حدث هذا ضد ليبيا الثورة حين تصاعدت مواقفها القومية، وفى المرة الثانية حين تفاقمت أزمة الطاقة فى أمريكا والعالم حيث قال أحد قادة إسرائيل ببساطة أنه ليس بين جيش إسرائيل والكويت سوى الصحراء.

أبعد من هذا، لقد كان البترول العربى هو شريان حياة إسرائيل المادية والاقتصادية. وتلك كانت قمة المتناقضة التاريخية والمأساة السياسية، فلو أننا حصرنا أرباح ومكاسب الاحتكارات والاستثمارات الإستعمارية فى بترول المنطقة منذ بدأت، ثم حصرنا الهبات والمنح والمساعدات والقروض المالية التى صبها الاستعمار فى جسم إسرائيل منذ كانت، والتى بدونها ما كانت لتعيش فضلا عن أن تحقق مستوى معيشة وتنمية تتفاخر به كذبا وإدعاء على العرب «المتخلفين» حولها، لو

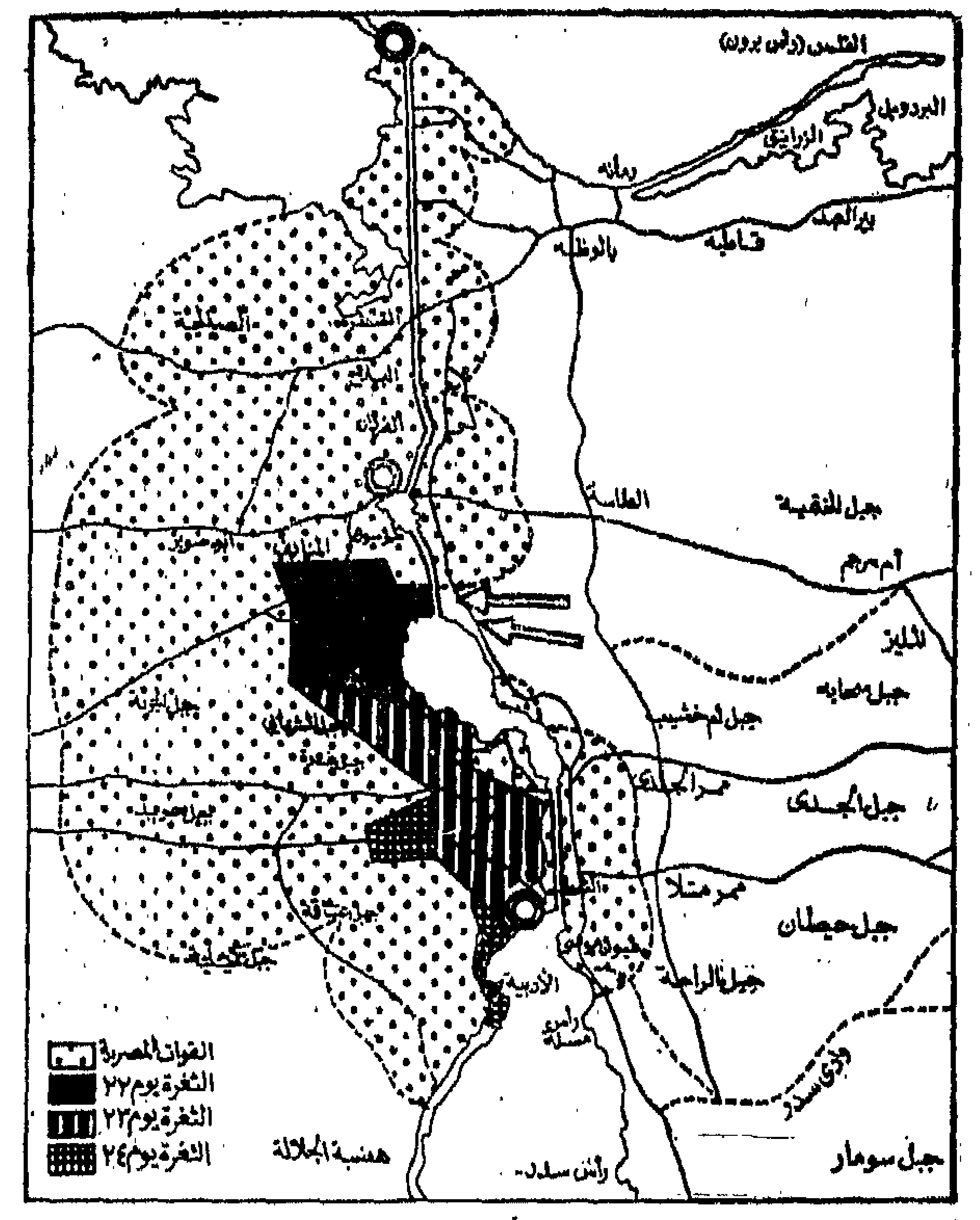


شكل ١ ــ سيناء ، بوابة مصر ومدخلها الشرقى ، ثلاثية فى مثلث ، او بدقة اكثر ، مثلث فى الجنوب يستقر على قاعدته مستطيل فى الشمال . المستطيل هو ميدان الحرب وارض المعركة الحقيقى . المعركة تحددها شبكة استراتيجية تكعيبية قائمة نسيجيا ثلاثية من خطوط الهجوم الطبيعية ، او المحاور الاستراتيجية العرضية وثلاثية مساعدة من خطوط الدفاع الطبيعية الطولية . والمحور الأوسط في كلا الثلاثيين هو اهمها . ونقط تقاطع الكل اكثر واكثر اهمية .

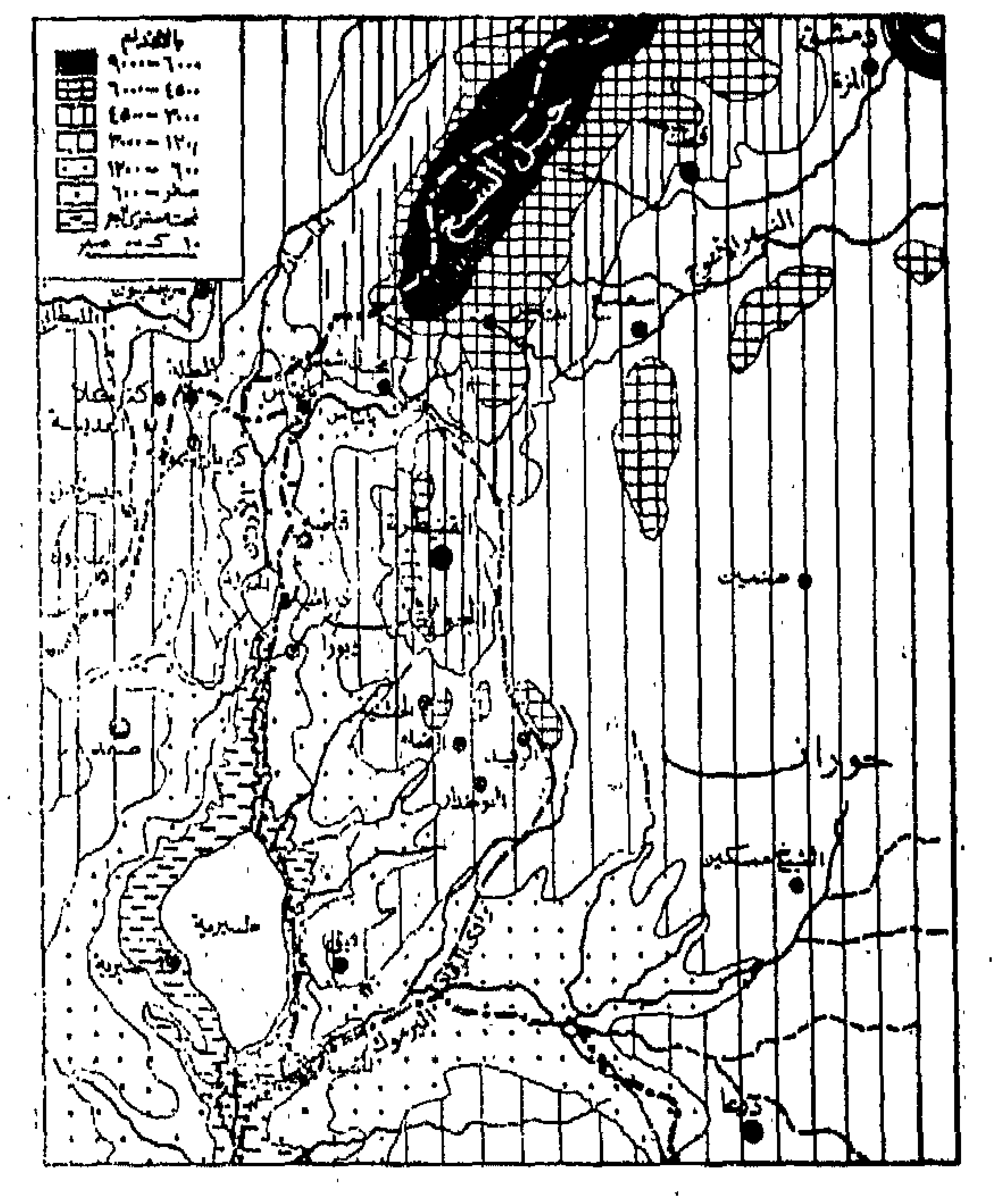


شكل ٢ ـ الى اليسار : مواقع نقط العدو القوية فى خط بارليف . لاحظ كيف تتقارب وتتكاثف فى القطاعات الهامة خاصة ازاء المحاور الاستراتيجية الثلاثة ، بينما تتباعد وتتخلخل نسبيا بعيدا عنها لا سيما امام البحيرات المرة . ثم لاحظ كيف تتوزع الكبارى والمعابر المصرية على طول جبهة القتال تشتيتا للعدو وتفتيتا لجهده .

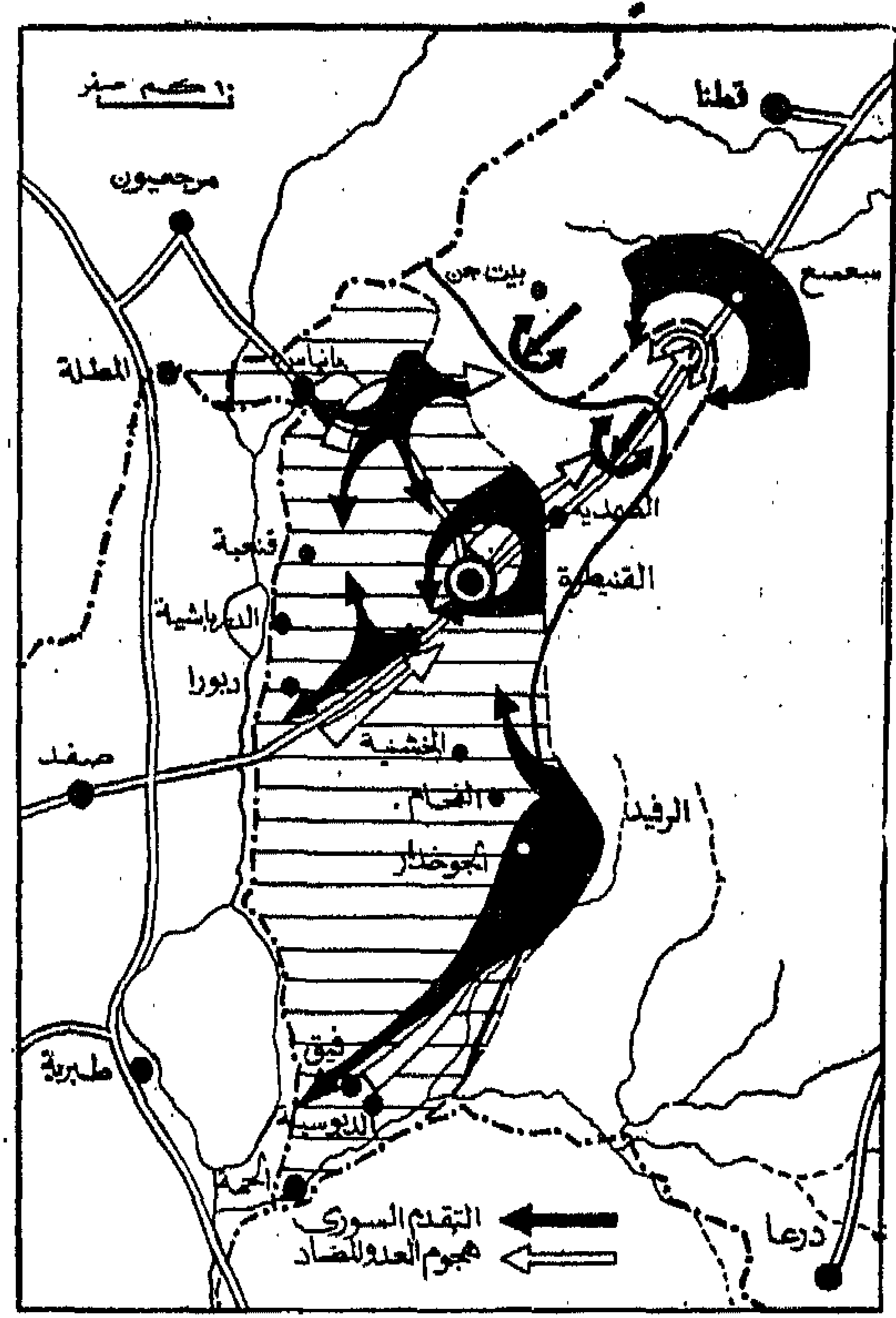
الى اليمين : راس الجسر النامى على البر السيناى يتوسع باطراد نحو الشرق حتى بلغ بضع عشرات من الكيلومترات فى اتصساه . لاحظ ارتباط زحف رؤوس الجسر بالمحاور الثلاثة الشمالى والاوسط والجنوبى .



شكل ٣ ــ قصة الثغرة فى خريطة ، أو محاولة الحصار التى تحولت الى مصيدة . الأسهم توضح مدخل أو عنق الثغرة عند الدفرسوار . التسلل بدأ فى الشمال فى ظل احتمال وقف النار ، ثم توسع بالتدريج نحو الجنوب بعد اعلان وقف النار . بدل ان يكون الجيش الثالث محاصرا ، أصبح جيب العدو هو المحاصر بين شقى الجيش الثالث فى الجنوب والثانى فى الشمال . جنب كبريت المحلى الضئيل هو وحده الموقع المصرى المحاصر ، ولكن العدو كله محاصر حوله بدوره داخل نطاق القوة المصرية الشاسع . أما حصار السويس بالتسلل الغادر فقد عجز أمام دفاع المدينة الباسلة حتى ارتد خاسئا وهو حسير بعد أن تكبد أفدح الخسائر .

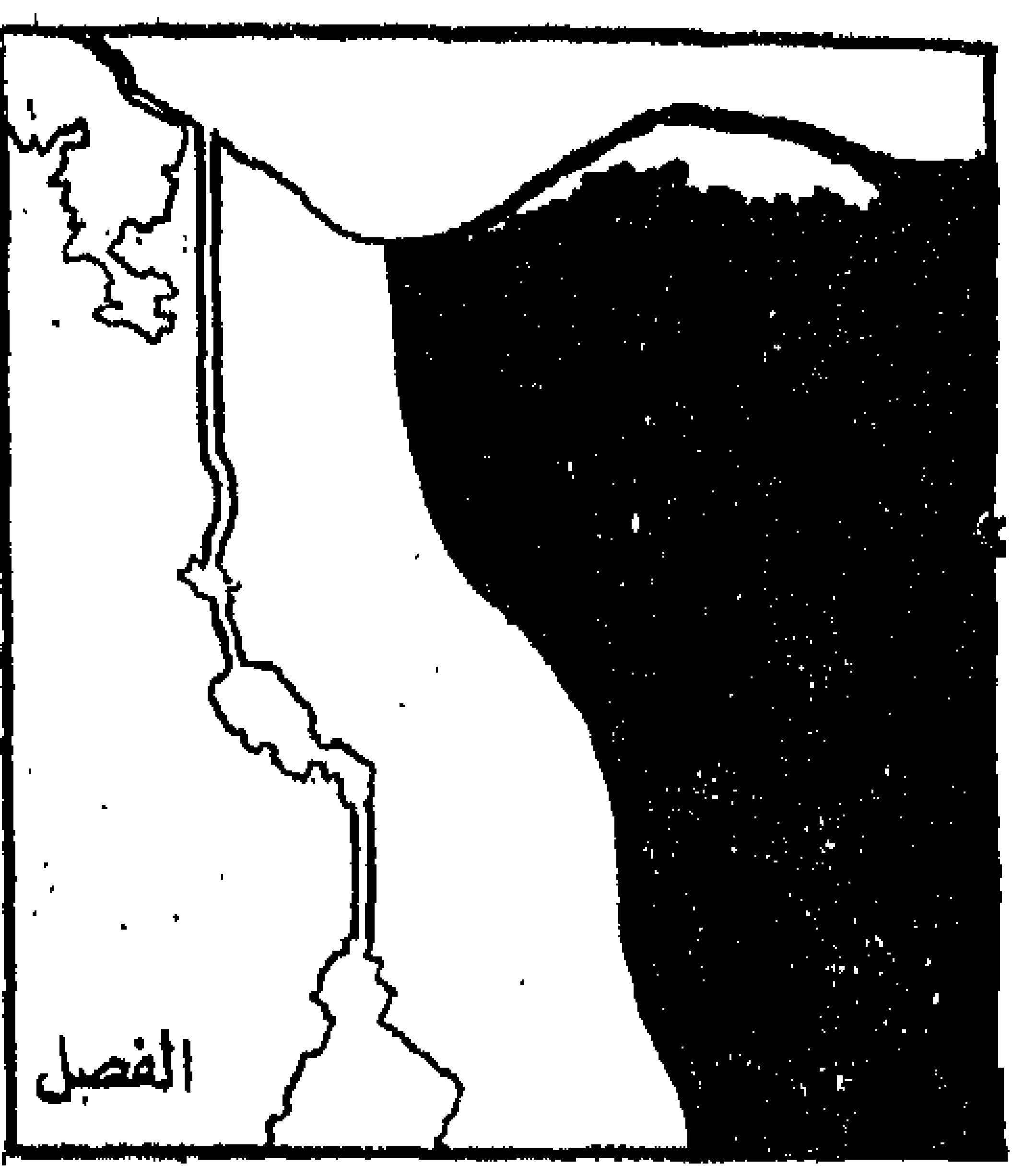


شكل ٤ ــ ارض المعركة السورية الكبرى ، او المرتفعات السورية ، او هضبة الجولان التى تؤلف قلعة جبلية شماء تهدد الشمال الاسرائيلى المنخفض . كانها منحدر القلعة او منصة المدفعية . الأرض تنحدر باستمرار من الشمال الى الجنوب ، من ذرى جبل الشيخ الاستراتيجية الحاكمة حتى منخفضات الأردن وسهول اليرموك فى الجنوب . لاحظ اخدود البقاع ـ الاغوار . ولاحظ كذلك ان بحيرة الحولة (التى جففها العدو الآن) تقع فوق سطح البحر ، ثم ما بعدها جنوبا يقع تحت سطح البحر . القطاعات العسكرية الثلاثة فى الجبهة واضحة : المنطقة الشمالية جبلية ، الوسطى هضبية . الجنوبية سهلية . على الخريطة تظهر ايضا التلال الاستراتيجية الثلاثة حول القنيطرة : شمالا بغرب ، وغربا ، وجنوبا بغرب . حرب الجولان أقرب فى طبيعتها وجغرافيتها ومناخها الى حرب الجبال والغابات ، أو عموما حروب البيئة الاوربية ، حيث حرب سيناء هى حرب الصحراء المكشوفة المثالية .

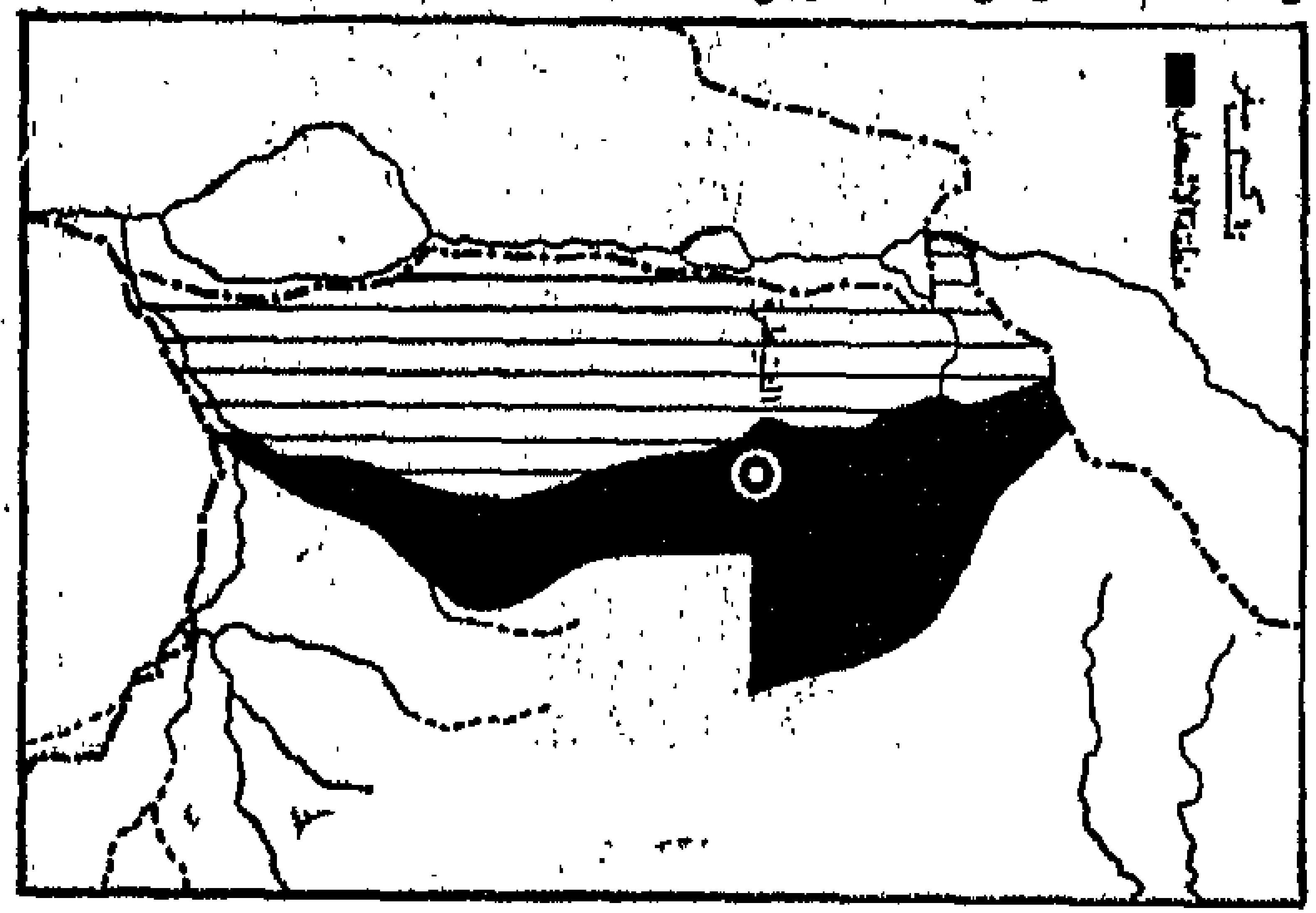


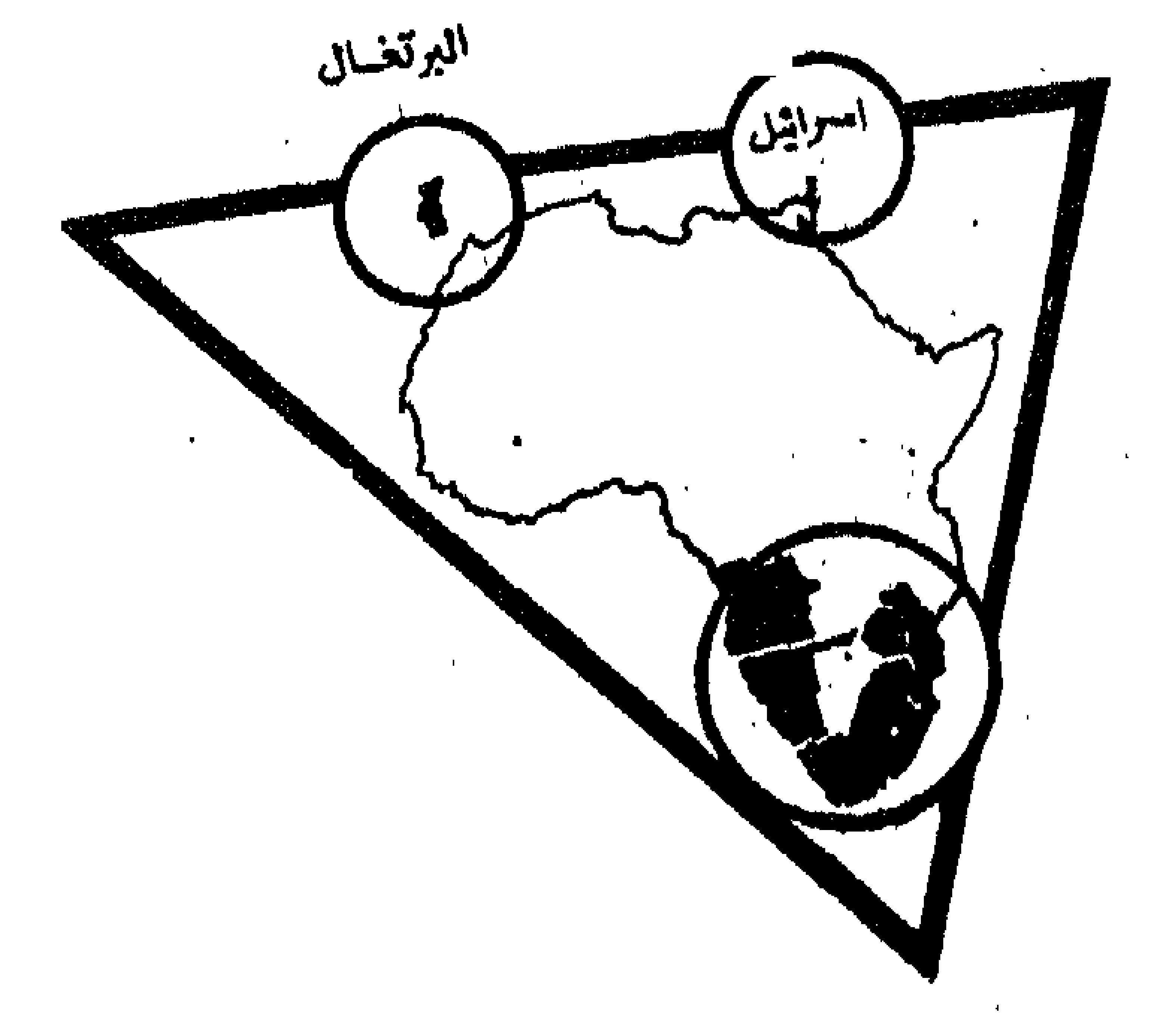
شكل ٥ — معركة التحرير السورية الكبرى . الزحف السورى العارم بدأ من الشرق بطول الجبهة ، وعلى المحاور الثلاثة الطبيعية الرئيسية ، وباتجاه الجنوب الغربى ونحو وادى الاردن وطبرية . الهجوم الاسرائيلى المضاد يأخذ اتجاهات ومحاور عكسية . تبادل الطرفان اكتساح الهضبة كليا أو جزئيا مرتين كل منهما ، بحيث كانت حركة المد والجزر مزدوجة أفقيا ورأسيا . المد السورى وصل فى أوج انتصاره الى مياه طبرية واليرموك ، وهدد بقطع لسان اسرائيل الطويل الضيق الكثيف بالمستعمرات والممتد بطول نهر الأردن الأعلى والمحصور بين كتلة الجولان شرقا والجليل الأعلى غربا . عند سعسع وضع الصمود العربى حدا للثغرة الاسرائيلية وارتد العدو جزئيا .



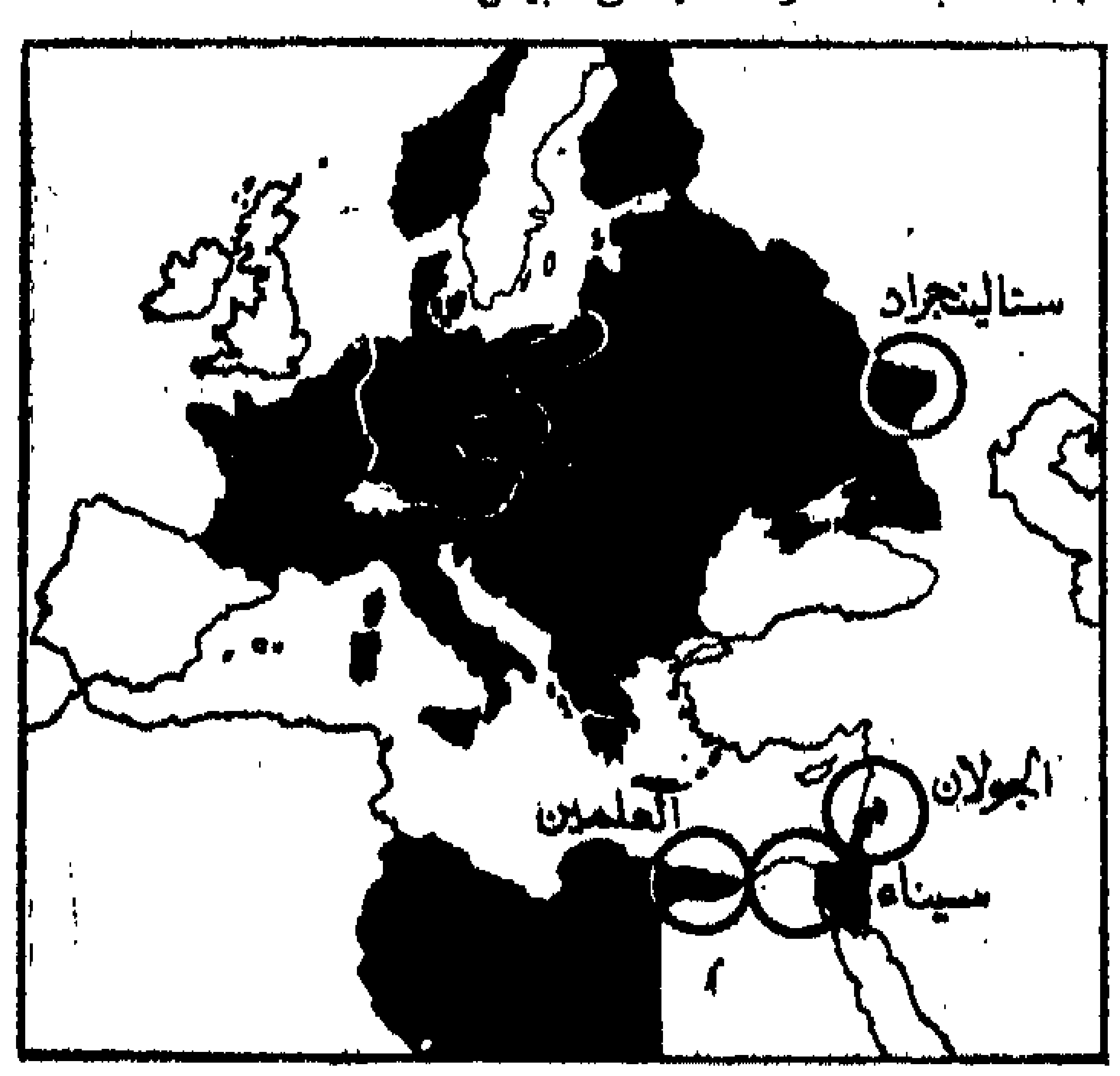


شكل ٦ ــ الفصل بين القوات . الفصل اتفاق عسكرى محض ، ولكنه (١) دليل قاطع على النصر العسكرى العربى ، (٢) نصر سياسى عربى ناصع وخطوة أولى نحو الانسحاب الاسرائيلى الشامل . اعلى : خريطة الثغرة والفصل على الجبهة المصرية كما أعلنتها وكالات الانباء . القوات المصرية تسيطر على الضفة الشرقية بصلابة تامة من رمانة فى الشمال الى راس مسلة فى الجنوب ، اى من البحر الى الخليج ، باستثناء ممر الثغرة . بالفصل ، انسحب العدو الى الشرق من خط يوازى القناة ويقع على بعد ٣٠ كم منها . اسفل : الفصل على الجبهة السورية . مساحة المرتفعات السورية المحتلة بعد يونيو (الجولان) تبلغ ٧٥٠ كم٢ ، ومساحة الجيب المحتل فى اكتوبر ٥٠٠ كم (المجموع ١٢٥٠ كم٢) ، بالفصل انسحب العدو من ٦٣٣ كم٢ ، أى من نصف الأرض المحتلة جميعا .

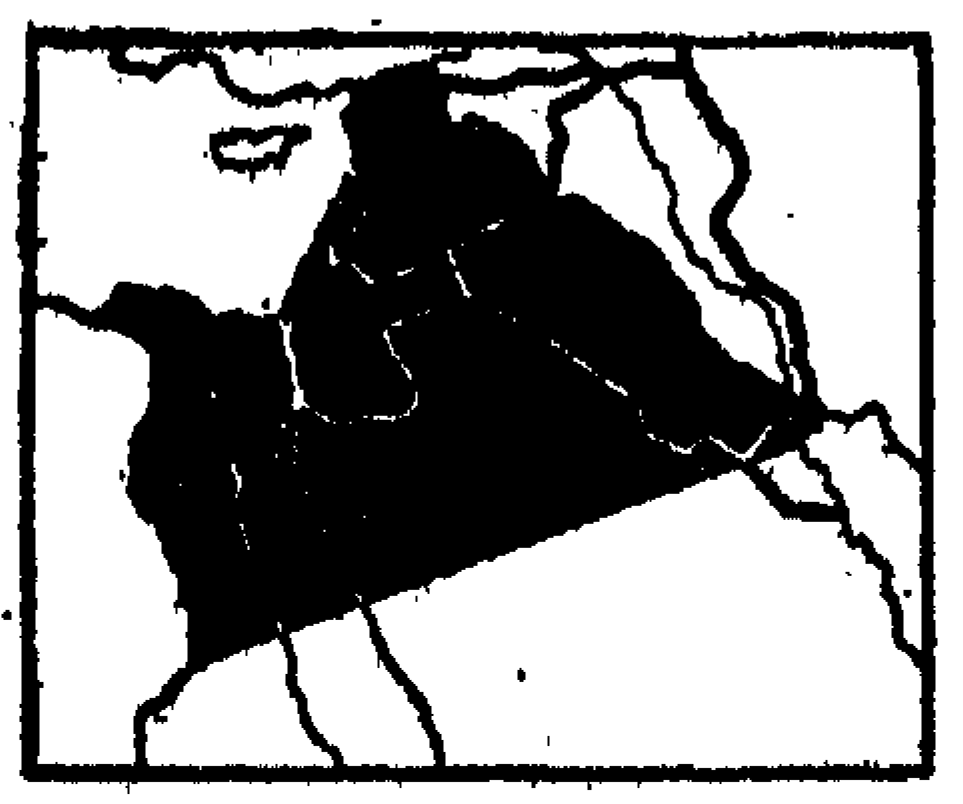


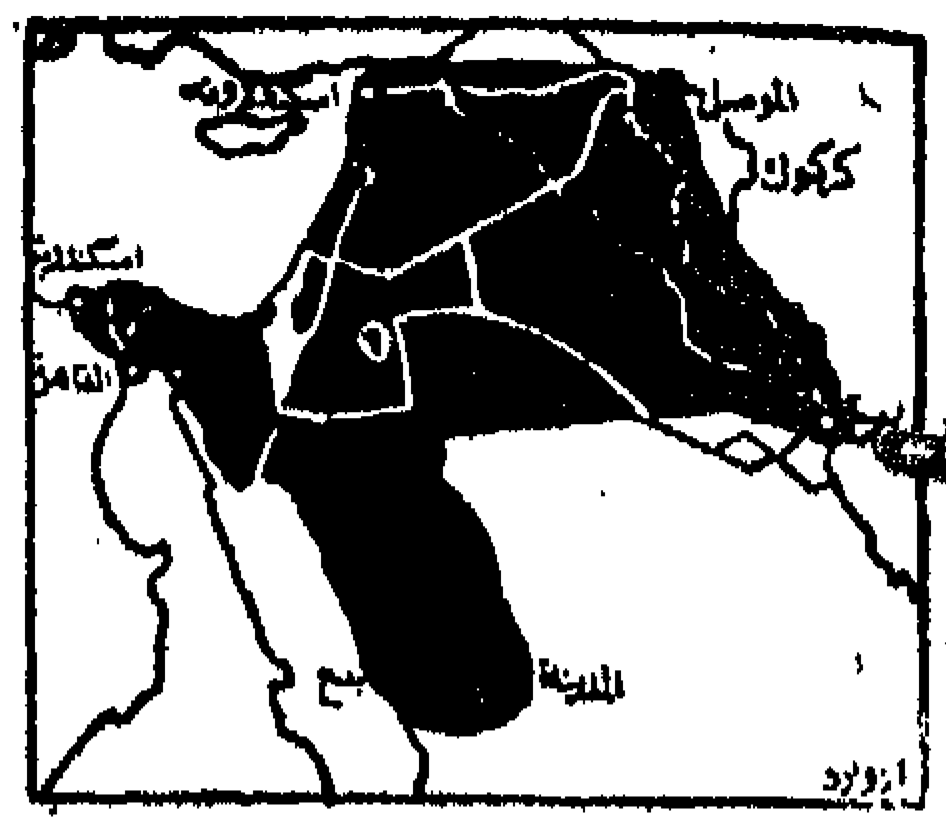


شكل ٧ — طرد اسرائيل من افريقيا اثناء اكتوبر . افريقيا تحاط على اركانها الثلاثة بالاستعمار الاستيطانى الأبيض .



شكل ٨ — خريطة مقارنة بين توسع الاستعمار النازى فى اوربا اثناء الحرب العالمية الثانية وتوسع الاستعمار الصهيونى فى الشرق الأوسط .

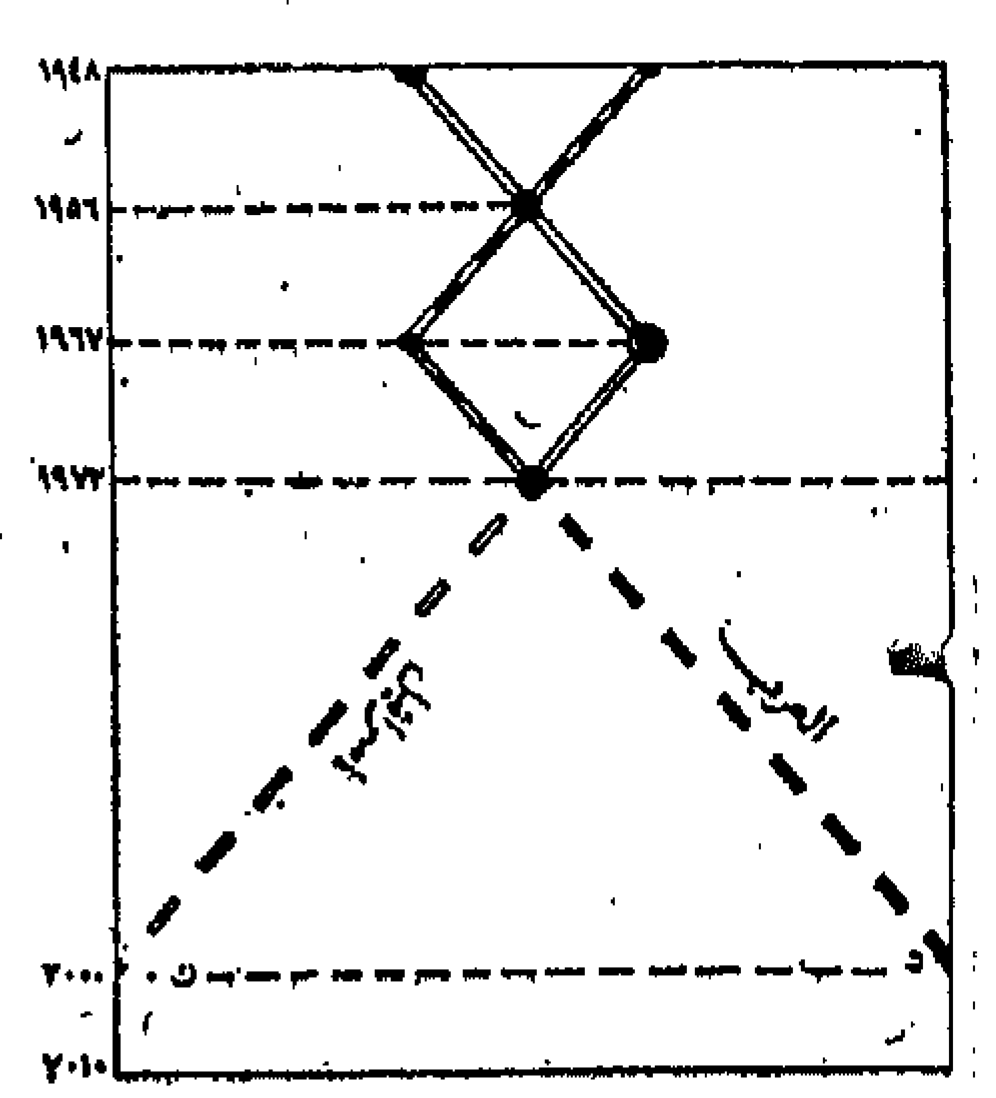




شكل ٩ ــ اسرائيل الكبرى : الحلم المجنون الذى تحطم على واقع اكتوبر . تفسيران مختلفان للاطماع الصهيونية السفيهة : الى اليمين : الأطماع تبتلع كل العراق ونصف مصر ، والى اليسار : نصف العراق وكل مصر . فى الحالين يدخل بقية المشرق العربى ، بما فى ذلك الأراضى الاسلامية المقدسة وبعض مناطق البترول !



شكل ١٠ ــ خريطة طباقية مقارنة بين الصهيونيات والصليبيات . النواة الصلبة مشتركة ، ولكن الأولى توسعت شمالا اكثر ، والثانية جنوبا اكثر . غير ان النهاية ستكون واحدة .



شكل ١١ ــ رسم بيانى تخطيطى لمنحنى الصراع العربى ــ الاسرائيلى ، ما كان منه وما قد يكون . اذا استمرت الاتجاهات بجديدة ، فقد لا تعمر اسرائيل اكثر مما عمرت حتى الآن .

أننا حصرنا هذه وتلك لوجدنا الأولى أضعاف الأخيرة، أي الاستعمار البترولي، كان يمول اسرائيل إلى حد التخمة بجزء فقط مكاسبه من البترول العربي.

فلو أضفنا بعد ذلك سيل السلاح المتطور المتدفق على إسر لتقتل به العرب (تذكر: «ادفع دولارا، تقتل عربيا»!) وتستبقيهم ر الاستعمار الصهيوني والإمبريالي وتنتزع أوطانهم بالقط لأدركنا أن البترول كان سلاحا يأخذه الاستعمار من الع باليمين ليضعه في يد إسرائيل بالشمال لتقتلهم هي به ب اليمين والشمال معا. البترول، في الخلاصة الصافية، فريدة تخرج من أرض العرب لتعود، بعد دورة غير مباشرة ول غير خافية، سلاحا في يد عدو العرب يقتلهم به في أرضهم أو يطر منها كلية.

ولما كانت أمريكا بوجه خاص هي المسيطر على الجزء الأكبر امتيازات واحتكارات البترول العربي (أكثر من ٦٠٪)، وكانت أي المورد الأساسي للسلاح والأموال لإسرائيل، فإنها بذلك كانت «الوس الأول بين العرب كضحية وبين إسرائيل كقاتل، تماما مثلما ك «الوسيط» الاكبر بتروليا بين العرب كمنتجين وأوربا كمستهلكين

ٍرر والدورة أوضح ما يكونان ، وإسرائيل تعيش وتسمن وتفرد

دماء العرب مرتين، بيدها وبيد أمريكا، مباشرة وغير

شرة ، بيولوجيا واقتصاديا، حرفيا ومجازيا، لاجئين وبترولا،

عك تماما من الاعتبار الأصغر، على خطورته الجسيمة، وهو

بتمال إعادة تصدير البترول العربى نفسه أو مشتقاته من

ترب إلى إسرائيل، تدير به آلة اقتصادها وآلة حربها ضد

لرب.

وكان لابد إذن للعرب من «تسييس» بترولهم، وتحويله من سلاح

تصادى بحت إلى سلاح سياسى مسلط، حاسم وبتار. وفى ظل

فاق العربى الحكيم، برز البترول لأول مرة «ملكا King Oil ». ومنذ

حظة الأولى فى المعركة العسكرية، ازدوجت بمعركة سياسية موازية

يقل خطرا وفاعلية.

حرب البترول النفسية

ومنذ تلك اللحظة أيضا لجأ الإستعمار إلى لعبة الحرب النفسية
أخرى. فزعم حينا أن «سلاح البترول الذى يهدد به العرب هو سـ
وهمي»، كما قالت مابير، «فلقد عرفت القيادات العربية طعم الر
الاقتصادي، وهى ليست على استعداد للتضحية بهذا الرخاء فى سـ
قضية عربية مشتركة» كما فسرت. ثم إن البترول ليس ذلك السـ
السياسى المطلق الذى يتصوره العرب، فليس أمام العرب إلا أن يبيـ
أو يشربوه كما قال أبا إيبان (!). وأضافت أمريكا بالذات أنه سـ
مفلول غير مؤثر بالنسبة لها، بزعم أنها لاتعتمد عليه إلا غرارا ولما
كما أفاضت فى الحديث عن «البدائل» ما ظهر منها وما بد
ومشروعات كبرى لتحقيق «استقلالها القومى» فى الطاقة سنة ١٩٨٠
إلخ. ثم زعم الاستعمار حينا آخر أنه لايتصور حقا أن تتحد كلمة الع
وأنهم لم يتفقوا قط إلا على أن يختلفوا، وأن الأمر كله لايعدو أن
تهديدا أجوف غير جاد، أى «تهويشا» سياسيا bluff ليس إلا. فا
لمسوا ان الخطر حقيقى ووشيك، راحوا يروجون أن العرب لن ينجـ
فى استخدام سلاح البترول بقوة وكفاءة، وأنه سوف يرتد لذلك
صدورهم، كذلك هددوا بعقوبات مضادة كتجميد إن لم يكن مصا
الأرصدة العربية فى البنوك الغربية، وكحظر توريد السلع الغذا

صناعات فضلا عن الأسلحة إلى الدول العربية، ومحاصرتها حصارا
ري أو قاريا... إلخ.

وفي النهاية، حين شعروا بعقم هذه الإجراءات التهديدية وبأنها هي
قد ترتد إلى صدورهم حيث أن أمام العرب بنوكا وأسواقا وأسلحة
في العالم الواسع، لجأوا إلى التهديد العسكرى السافر، سنحتل
لق البترول، تلك «السلعة الحضارية» ، لصالح «العالم المتحضر».
هذا المعنى تواترت الأنباء عن اتصالات بريطانية ـ أمريكية
طيط العملية، وعن مناورات حربية أمريكية على مسارح صحراوية
رب صحارى البترول، وعن تحذيرات علنية بأن على العرب ألا
تبعدوا إمكانية العمل العسكري المباشر للإستيلاء على مناطق
ترول ومنابعه.... إلخ. وقد رد العرب على الفور بأنهم على استعداد
ستغناء عن دخل البترول لسنين طويلة بل ولتدمير الآبار والعودة إلى
ياة الصحراء إذا لزم الأمر، وبالفعل، أعلن أن كلا من الكويت
سعودية قد قامت بإحاطة حقول بترولها بحزام من المتفجرات لنسف
ار عند أول بادرة غزو غربى معاد. ولا يفوتنا هنا في التهديد الغربي
سكرى مغزى كلمتى السلعة «الحضارية» والعالم «المتحضر»، فهو
نح بروح ورائحة العنصرية الكامنة والدفينة، فالصورة المتضمنة
وجهة العقل الغربى هي ببساطة أن البترول كصدفة جيولوجية
سوء الحظ فى أيدى أمة من البرابرة تنذر بأن تتحول به إلى أمة

من الوندال تخرب حضارة العالم الزاهية التي بناها بعلمه وعم
وتقدمه..

وإذا كانت أمريكا السياسية والرسمية، أكثر من أي أحد آخر، خل
كل هذه الدعايات والإدعاءات والتهديدات، فقد كان يكمن خلفها بدور
جمعات الضغط الصهيونية الأمريكية وأصدقاؤها من محترفي السيا
الحزبية هناك، ومن خلف الجميع كانت تكمن «آو تبرز؟» إسرائيل ا
حاولت عبثا مغالطة أن تصور أزمة الطاقة في العالم وفي أمريكا خا
بأنها أزمة وهمية غير حقيقية أو مهمة، وأنه على آية حال فإن أمريكا
تسمح لنفسها أن «تبيع الدم الإسرائيلي من أجل البترول العربي» (كذ
كما ردد مرارا وزيرها المغرور أبا إيبان، ولكن إسرائيل في هذا إذ
كانت تخدع نفسها فقط، والدعاية لاتغني عن الحقيقة أو تغيرها، أو كم
قال الصهيوني لاكير لم يكن في استطاعة هذه الدعاية الساذجة
«تجعل آبار البترول في السعودية وليبيا والعراق تختفي أو أن تنقل
إلي صحراء النقب».

أو إقرأ ما قاله ايتسهاك رابين في أغسطس ١٩٧٣ حين كان سفير
لدولته في الولايات المتحدة ولاحظ مافيه من دس واستعداء يطف
بالحقد: «إن هناك وعيا متزايدا هنا في الولايات المتحدة بأن ما
المسموح به للعالم المتمدين في حالة الاضطرار آن يستولى بالقوة عل
منابع البترول العربية. إن في أمريكا من يقول: إذا كان بعض النظ
التي تنتمي إلي القرون الوسطى ينوي حقا تهديد الاحتياجات البترو

لعدة مئات من الملايين في العالم المتحضر، فإن من الطبيعي حينئذ أن يلجأ الغرب إلى استخدام الوسائل الفعالة لمنع حدوث ذلك».

غير أن المعركة، وهذا من نافلة القول وتحصيل الحاصل، بددت كل الأوهام. فقد أثبتت المعركة أن البترول كسلاح سياسي قد يكون أقوى من القنبلة الذرية كسلاح حربي، ولعل مما له مغزاه أن جريدة كالصنداي تايمز اعترفت، بعد أكثر من نصف عام على انتهاء معركة أكتوبر، بأن المعركة أثبتت أن «البترول سلاح لا يعادله سوى القنابل الهيدروجينية». ثم أضافت «إنه إذا كان ماوتسي تونج قد قال أن القوة السياسية تنبع من فوهة البندقية، فقد أظهر أكتوبر أنها تنبع من برميل البترول». البترول، باختصار، أخطر وأرهف مادة استراتيجية في عالمنا المعاصر وحضارة العصر. إنه، نكاد نقول حرفيا، دم الحضارة الصناعية، وخط الحياة بالنسبة لجميع خطوط الإنتاج الحديثة، من أضخم جهاز تكنولوجي إلى أصغر منشأة هندسية، بغيره تشل الحضارة الحديثة ويتدهور مجتمع الوفرة والاستهلاك ويرتد العالم المتطور إلى حضارة ما قبل العصر الصناعي ولا نقول حضارة العصور الوسطى.

والعالم العربي من ناحيته هو «عاصمة العالم بتروليا» كما قلنا: أكثر نوعا من ثلثي احتياطي العالم بأسره، أكثر كثيرا من نصف

تجارته الدولية، وأكثر جدا من ثلث الإنتاج العالمى، وعلى هذا فإن العرب، أكبر مصدر فى العالم، فى موقف احتكارى لاجدال فيه، وفى مركز قوة تفاوضية لاسبيل إلى تجاهله، ابتداء من تحديد الإنتاج إلى ضبط الأسعار حتى سياسة الحرمان المطلق denial measure. وكل عام يمضى، بل كل يوم، تزداد فيه هذه الاتجاهات نموا وتبلورا وهذا الموقف قوة وتسيدا.

وإذا كانت هناك مناطق أو دول لا تعتمد مباشرة وبصورة حاكمة على بترول العرب فى تسيير عجلة انتاجها ودورة آلتها الصناعية، كالولايات المتحدة أساسا، فإن هناك عوالم بأسرها تعيش عليه: أوربا الغربية واليابان أساسا، الأولى بنسبة نحو ٧٠٪ فى المتوسط (تتراوح من دولة إلى أخرى بين ٥٠٪ كحد أدنى، ٩٥٪ كحد أقصى)، والثانية بنسبة ٨٥ ـ ٩٠٪ (باعتبار الشرق الأوسط كله) وبين هذين الطرفين النقيضين لاتكاد دولة فى العالم تستغني عن البترول العربى بنسبة أو آخرى، بما فى ذلك لأسباب فنية حتى بعض الدول المنتجة للبترول.

وفضلا عن هذا فإن سوق البترول العالمية. هذا السائل الإكسيرى، هو نظام مغلق closed system من الناحية العملية، أشبه فى ديناميانه بالأوانى المستطرقة، كل نقص هنا يستتبعه تغيير هناك،

والعكس، وكل برميل يحبس عن السوق تنعكس أثاره على مستهلكيه هنا وعلى غير مستهلكيه هناك، ويصدق هذا إلى أقصى حد في السنوات الأخيرة بوجه خاص حيث زاد الطلب على العرض بشدة وبانتظام، بحيث تنبأ البعض «بمجاعة بترولية» إذا استمرت هذه الاتجاهات، بينما أصبحت «أزمة الطاقة» من قبل من مفردات السياسة الدولية الدارجة والسارية والأكثر شيوعا ـ وإقلاقا أيضا..

البترول «ملكا»

في إطار هذه المعطيات الجبرية، ألقى العرب بسلاحهم المشرع والمشروع فألقوا بالعالم الاقتصادى المعادى أو اللامبالي في دوامة من الفوضى وفي اضطراب صادم بدد كل غفلة ووهم. فكما جاءت معركة أكتوبر صدمة صاعقة للعدو الإسرائيلي، جاءت معركة البترول صدمة كهربائية للغرب آفاق عليها من التنويم المغناطيسي الصهيوني (أو بالأصح الاستنامة له).

وبطبيعة الحال فإن خفض انتاج البترول العربي أو حظر تصديره لم يكن هو الذى خلق ماسمي بأزمة الطاقة في العالم أو في أمريكا، فالحديث عن هذه المشكلة سبق معركة أكتوبر بسنة وبعض سنة على الأقل. ولكن كان للمعركة، كما في كثير من جوانبها الأخرى، دور المفجر والمعجل والمضاعف multiplier .. فقد جاءت اللحظة الحرجة تاريخيا

وسيكولوجيا فضاعفت آبعادها بمعدل هندسى لا حسابى.

ومن حسن الحظ أن المواجهة جاءت بعد أن كان موقف العربى المالى العالمى قد تغير تماما عما كان مألوفا من سنين. فلقد كان تراكم لهم فائض مالى هائل فى السنوات الأخيرة أصبح يغنيهم عن لهفة انتظار الدخل السنوى وحررهم من ضغوطه الآنية. ومن حسن الحظ أيضا أن توقيت الطبيعة جاء هو الآخر متوافقا مع توقيت المعركة، فقد دشنت معركة البترول والشتاء الأوربي القارس على الأبواب، أو كما قال بعضهم فى الغرب، لقد جند «الجنرال شتاء» نفسه فى خدمة «الملك بترول»!

أما النتائج الاقتصادية المباشرة فكانت بالغة الأثر بل باترة: هزة خطيرة فى الإنتاج وضغوط انكماشية وأخرى تضخمية بعيدة المدى، بطالة متزايدة وأحيانا مخيفة، غلاء جارف وارتفاع فى الأسعار مع انخفاض فى مستوى المعيشة وفى معدلات التنمية الاقتصادية، شلل جزئى أو زاحف فى النقل والمواصلات والحركة، اختلال تام فى نمط الحياة اليومية والمنزلية.. إلخ.

أما بالنسبة للمستقبل، فقد ولت إلى الأبد ـ هكذا أدرك الغرب الصناعى ـ أيام الطاقة الرخيصة بغير حدود، «أيام العز» الذهبية the real bonanza daus، والإنطلاق الصناعى الفائق على حساب.

والعالم المتخلف، وإفراط الصناعة فيه over-industrialization كمكافىء موضوعى (أو غير موضوعى!) لتفريط الصناعة فى العالم الثالث under-industrialization ، ويمكن القول بكل ثقة أن أحوال العالم الاقتصادية على النحو التقليدى السائد حتى قريب لن تعود قط ثانية. بل أكثرها من هذا، وكما قرر بيير ميسمير رئيس وزراء فرنسا بكل جلاء، بدأ العالم يدخل الآن مرحلة اقتصادية جديدة تماما بسبب حرب أكتوبر. لقد ثورت الحرب العربية الناجحة، عن طريق البترول العربى الحاكم، هيكل الاقتصاد العالمى، مثلما ثورت بفعلها المباشر الاستراتيجية العالمية.

أما على المستوى الحضارى، فقد أثبتت معركة البترول وأكدت فضل العرب على المجتمع الصناعى الحديث، فالتجربة الواقعة أثبتت أن البترول عامة والبترول العربى خاصة هو الذى صنع الثورة الصناعية الثانية، ثورة العلم والتكنولوجيا، فى الغرب بعد أن استنفدت الثورة الصناعية الأولى، ثورة الفحم، أغراضها وعصرها، هو البترول، وخاصة العربى، الذى جعل ممكنا المجتمع الاستهلاكى ومجتمع الوفرة والرفاهية والرخاء ومجتمع مابعد الصناعة. إن البترول العربى وقناة السويس هما آخطر أعمدة حضارة أوربا الصناعية المعاصرة، إغلاق القناة خنق أوربا، وخفض البترول أصابها بالأنيميا والشلل، بل هما أيضا أعادا

إلى الماضى الغابر: الأول أعاد شبكة النقل العالمي إلى نمط العصور الوسطى حول الرأس، والثانى أعاد عصر الخيول وعربات الخيل ومواقد الخشب والفحم!

بل لقد أثارت الأزمة الأسئلة الفلسفية الأساسية عن حضارة هذا العصر وحضارة المستقبل ومستقبل الحضارة، إلى أين، وإلى متى هذا الاقتصاد الهدمي والاستنزاف النهم المسعور لموارد الطبيعة المحدودة غير المتجددة، ما جدواها حضارة الاستهلاك المحمومة هذه... إلخ؟ لقد فرضت الأزمة على الإنسان وعلى البشرية، باختصار، وقفة حضارية مع النفس قد تتمخض في أسلوب جديد للحياة على هذا الكوكب الصغير وعن فلسفة جديدة لروح العصر.

ومن الغريب، أو لعله ليس غريبا، أن الصهيونية العالمية حاولت بالحقد كله أن تنفث سموم دعايتها فى أنحاء العالم لكى تدق أسفينا بين العرب والغرب خاصة ولكي «تقلب المائدة» على العرب الذين شبهتهم «بقطاع طرق القرون الوسطى» (لاكير)!. ففى البداية، حين برزت وحدة العرب وصلابة الموقف العربى، أثارت الصهيونية نغمتها المكذوبة عن «هذه الحرب الصليبية» التى يجددها «التعصب العربى» على العالم الغربى ويشنها على الغرب المسيحى» (كذا!). ولم يكن هناك قلب للحقائق أبشع ولا أخطأ من هذا، فإنما الصهيونية وحدها هى صليبيات العصر، والعرب وحدهم هم ضحيتها.

أما فى النهاية، حين تبددت هذه الدعاية المبتذلة فى مناخ الإهمال والإزدراء، بدأ الحديث عن «الإبتزاز البترولى» العربى، وهى النغمة التى لاتزال أمريكا ترددها للآن. وتلك أيضا دعوى رخيصة مضللة، فإنما سلاح البترول العربى سلاح مشروع للدفاع عن النفس، والدعوة إلى عدم استعماله دعوة إلى الانتحار. أما الإبتزاز فهو فن قننه بل وشرعه الآخرون، وضد العرب بالتحديد، حرب التجويع وسلاح القمح ، سياسة القروض وسحب عروض التمويل، خفض أسعار الخامات... إلخ. ذلك ودون أن نذكر أن الوجود الإسرائيلى برمته ومن أساسه فى المنطقة هو ابتزاز أمريكي نووى وغير نووى، كما أن النفوذ الصهيونى فى أمريكا هو بدوره ابتزاز إسرائيلى، سافر ومستمر، بل إن آخر مظاهر الابتزاز الأمريكى هو تهديدها المتكرر بحظر صادراتها الغذائية وخاصة القمح والحبوب إلي الدول العربية والنامية كرد مضاد على حظر البترول.

استراتيجية المعركة

إن الكلاب تنبح، ولكن القافلة تسير، قافلة العرب، باقتدار وذكاء، وفى مرونة واعية وانضباط فى التوقيت والتصعيد والتهبيط، شهد بها الجميع، راح العرب يطبقون خططهم فى خفض الإنتاج وفى تصنيف الأعداء وفى تحديد الأسعار (كان أول رد فعل حانق خرج من إسرائيل

عن سرعة تحرك ومرونة العرب هى أنهم قد تعلموا فيما يبدو الكثير من الدبلوماسية مثلما تعلموا من فنون القتال منذ حرب يونيو). فأما عن الخفض، فقد بدأ أولا بقرار بتحديد الإنتاج بنسبة ٥ ـ ١٠٪ مما كانت عليه معدلات شهر سبتمبر السابق للمعركة، على أن يترك لمن يشاء من الدول العربية أن يرفع الخفض إلى ٢٥٪، تزداد بعد ذلك بنسبة ٥٪ كل شهر.

غير أنه بتلقائية فذة، قفز معدل الخفض فورا وعند الجميع إلى نسبة «السقف» المحدد، ٢٥٪. لهذا، وحين أتى الخفض آثاره وأحس الجميع بوطأته، ومنعا لحدوث أى شرخ أو مضاعفات فى العلاقة الجديدة الناشئة مع أوربا الغربية، عاد العرب فقرروا تهبيط نسبة الخفض إلى ١٥٪ ابتداء من يناير ١٩٧٤، وذلك باعتبار هذه النسبة الحد الكافى للتأثير دون الإضرار.

أما عن التصنيف، فلم يكن سلاح الحرمان عشوائيا بلا تمييز، ولو قد كان، ووضع الكل فى سلة واحدة لجمع الكل أنفسهم فى جبهة ومواجهة واحدة ضد العرب، وهذا بالدقة ما حاولته أمريكا حين راحت تضغط على أوروبا الغربية واليابان بخاصة لتكوين جبهة من المستهلكين تقاوم ضغوط المنتجين العرب، «اتحاد المستهلكين» المقول الذى يكاد يذكرنا سياسيا واقتصاديا «بجمعية المنتفعين» سيئة السمعة والمصير

التى حاولوا فرضها إبان أزمة السويس ١٩٥٦ .. ولم تخف أمريكا أغراضها الحقيقية، من هذه الدعوة، إذ وضحت أن هدفها هو «إرغام» الدول العربية على تخفيض أسعار البترول أولا وضمان تدفقه ثانيا، لقد تزعمت أمريكا حملة العداء ضد العرب وحرب البترول المضادة، فهل نجحت؟ .

تحت ضغط المصالح البترولية الحقيقية، ورغم كل الضغط الأمريكى السافر والمباشر، تباعدت اليابان بحذر شديد عن هذه اللعبة الخطرة، وأعلنت للعرب، وهي التي يعتمد اقتصادها اعتمادا شبه كلى على بترولهم والخليج، أنها حريصة كل الحرص على عدم التورط فيها، كما تباعدت بوضوح عن إسرائيل سياسيا واقتصاديا، فأعلنت تأييدها السياسى لحقوق العرب العادلة وقرار ٢٤٢، وطبقت قواعد المقاطعة التجارية للمصالح الإسرائيلية وذلك رغم تهديدات الصهيونية الأمريكية بمقاطعتها عالميا، كذلك تقدمت إلى العالم العربى بعروض القروض والمساعدات الاقتصادية ومشروعات التنمية والمشاركة فى الإنتاج الصناعى وإعادة التعمير وتصنيع البترول.... إلخ.

وهنا يمكن القول بإطمئنان أن أزمة الطاقة التى تعرضت لها اليابان قد فرضت عليها موضوعيا أن تخرج من عزلتها السياسية لتلعب دورا عالميا لأول مرة منذ الحرب الثانية، وكان الشرق الأوسط هو مسرحه

الأول والأساسى، وعلى هذا يمكن القول أيضا بثقة وتأكيد أن العرب وأكتوبر بالتحديد هى المناسبة التاريخية كما هى العوامل الضابطة أو الضاغطة التى ساعدت هذا العملاق الاقتصادى الذى كان قزما سياسيا تقليديا أن يرتفع سياسيا إلى مستواه الاقتصادى، يتخلص أكثر من وقر الوصاية الأمريكية الكاتمة، ويقترب أكثر وأكثر من مكانه المحجوز له فى نظام تعدد المراكز في العالم، وهذا أثر آخر من آثار أكتوبر المحققة على هيكل السياسة العالمية.

هذا عن اليابان . أما عن أوروبا الغربية، التى لاجدال فى دور أكتوبر فى تعميق، استقلالها وتباعدها عن أمريكا، والتى تقود فرنسا معركتها للإستقلال القارى والوحدة الأوربية، فقد عارضت اقتراح اتحاد المستهلكين الأمريكى وأوضحت بإصرار أن هذا إجراء سيعده العرب عملا عدائيا وسيعطيهم الإنطباع بالتحدى والمواجهة ولن يفعل فى النهاية سوى أن يوسع الهوة ويضاعف الأزمة بدل أن يحلها، وكاقتراح مضاد، طلبت فرنسا تشكيل اتحاد من المنتجين العرب والمستهلكين فى الغرب للتنسيق والتفاهم. وفى الوقت نفسه قاومت فرنسا كل الاتجاهات الانتهازية داخل السوق الأوربية التى حاولت أن تتلاعب بالموقف العربى أو أن تدور من حوله.

ومن الضرورى هنا أن نلاحظ بموضوعية أن الموقف الأوربى يمتاز مع ذلك بثلاث ظاهرات حتى الآن، أولا أنه غير متجانس تماما، فلا زالت هناك دول مترددة أو غير متجاوبة مع الحق العربى، وعلى الأقل فإن دولة واحدة معادية للعرب علنا (هولندا). ثانيا، أنه لايخلو جزئيا من انتهازية بادية، وربما من تلاعب غير مخلص، وهو فى كل الأحوال موقف اضطرارى أكثر منه عن قناعة وعدل، ثالثا، وأخيرا، أنه لم يزل يقدم الكلمات والبيانات أكثر من الأفعال والضغوط، بزعم أنه لايملك وسيلة لذلك على أى من أمريكا أو إسرائيل.

ومن الناحية الأخرى فقد بدأت بعض الدول الأوربية تعقد عقودا مباشرة وطويلة الأجل مع بعض الدول العربية لضمان حصولها على البترول بكميات ضخمة ولعشرات السنين المقبلة، وأول وأبرز مثال لذلك فرنسا مع السعودية، بينما يبدو أن بريطانيا واليابان تحاولان تكراره، ومن هنا فقد تتمخض الأزمة فى النهاية عن نتيجة تاريخية حاسمة وهى إعادة إقامة العلاقات البترولية بين العرب وأوربا الغربية على أساس مباشر يستبعد دور الشركات الأمريكية، وسيط استغلالى طفيلى.

ولعل هذا بالدقة ما تخشاه الحكومة الأمريكية وما تصارع ضده صراعا محموما، فالخوف عندها هو أن تتمخض المواجهة عن «أبعادها» من العالم العربى بتروليا بأوضاعها الاستغلالية المفروضة القديمة،

وحلول أوربا الغربية محلها برغبة العرب وبشروطهم وبأوضاع جديدة من وضع العرب أنفسهم، فلو حدث هذا لانقلب الموقف الذى كان قائما بين المتنافسين فى حرب ١٩٥٦، حين انتهزت أمريكا الفرصة لتطرد «الإستعمار القديم» من المنطقة وترثه فيها كاستعمار جديد، والفارق الأساسى في الحالة الجديدة إذا تحققت هو أن التقدم هذه المرة سيكون من صيغة «الاستعمار الجديد» إلى صيغة «الوفاق الجديد».

ومهما يكن من شيء، فالواضح حتى الآن أن السياسة الأمريكية البترولية المضادة للعرب قد فشلت، وكان التخطيط العربى أبرع، وبدلا من أن تشق أمريكا الصف العربى شق العرب الصف الغربى. ذلك أنهم صنفوا المستهلكين حسب مواقفهم من القضية العربية ومن إسرائيل إلى ثلاث فئات: الأصدقاء، ولهم أن توفر كل حاجاتهم المشروعة من البترول دون ما فرص للتسرب أو التسريب، من هؤلاء فرنسا وبريطانيا ثم بعض دول أخرى من أوربا الغربية، فضلا عن الدول الإسلامية والافريقية ودول عدم الانحياز التى وقفت بجانب العرب. ثم هناك المحايدون الذين كفوا عن الانحياز إلي العدو أو السير فى ركاب الولايات المتحدة. وعلى هؤلاء يسرى التخفيض، ولكن دون حرمان. هنا وضعت بقية دول أوربا الغربية، كما كانت تأتى اليابان التى حسنت موقفها كثيرا فنقلت إلى قائمة الأصدقاء، وأخيرا فإن هناك الأعداء،

على رأسهم أمريكا، الهدف الأساسى لحرب البترول فى الصراع العربي ـ الإسرائيلى جميعا. أما فى الذيل فدول توابع أمثال هولندا والبرتغال وغيرهما. والحرمان الشامل هو هنا الحد الأدني الممكن من العقاب الواجب.

وربما حاولت هذه الفئة الأخيرة، وغيرها، أن تخترق حاجز الحرمان أو أن تتسلل حول حائط المقاطعة بطريقة أو بأخرى، وهناك فعلا إشارات غامضة وشواهد متواترة علي وجود بعض ثغرات فى تنفيذ الحظر كانت تؤدى إلي وصول بعض التسرب إلى معسكر الأعداء. بل لقد أعلنت أمريكا رسميا عن «تزايد» امدادات البترول العربى الواصل إليها دون أن تفصح عن مصادرها وكيفيتها، ولاشك فى أن الشركات الأمريكية العاملة في المنطقة العربية هي التى كانت تقف وراء هذا التلاعب، ومن الضرورى التنبه لهذه الثغرات وسدها مهما كانت ثانوية ـ ويبدو أنها ليست كذلك تماما.

كذلك كان لابد من ضبط معدلات التخفيض فى الإنتاج والتصعيد فى الأسعار بحيث لايتأثر الأصدقاء في الغرب الصناعى أو فى العالم الثالث الفقير أكثر مما يتأثر الأعداء، وحتى لايضار الاقتصاد والعملات والنقد الأوربى واليابانى أكثر من الاقتصاد والدولار الأمريكى، كما حدث بالفعل على مايبدو حيث حققت أمريكا مكاسب

ملتوية من أزمة الطاقة محليا وعالميا وتحسن وضع دولارها على هذا الأساس.

والواقع أن هناك من يرون أن التكتيك الذى نفذت به استراتيجية تحديد ضخ وتصدير البترول لم يلحق ضررا كبيرا أو مؤثرا بأمريكا بقدر ما أضر بأصدقاء العرب الأوربيين، فالشركات الإمريكية المنتجة في العالم العربى هى تلقائيا شركاء فى لعبة الأسعار، بل الشركاء الأكبر، وهي مستفيدة منه بالضرورة، بل إن لها مصلحة فى رفع الأسعار، وأكثر من ذلك ثبت أنها كانت تناور منذ مدة وتتلاعب بالأسعار وأنها حققت بالفعل أرباحا في العام الأخير أكثر مما حققت في أى عام مضى.

وهناك أيضا مؤشرات على أن أمريكا رحبت فى قراراتها بالأزمة من حيث أنها شلت الاقتصاد الأوربى واليابانى المنافس لاقتصادها، ووجدت فيه كذلك بالتالي أداة لإعادة سيطرتها السياسية على أوربا الغربية وإخضاعها لضغوطها من جديد، وبهذا كله فقد يكون من المحتمل أن أمريكا أفادت من معركة البترول بدرجات متفاوتة اقتصاديا وسياسيا، إلى جانب معاناتها وخسائرها بالطبع . أو فلنقل أفادت بقدر ما أضيرت سواء على هذا المستوى أو ذاك .

معركة الأسعار

تبقى أخيراً معركة الأسعار . لقد أضير المنتج العربى للبترول فى السنوات الأخيرة بسبب سلسلة تخفيضات قيمة الدولار الأمريكى وغيره من العملات الغربية ، ونزلت برءوس الأموال العربية ودخول البترول العربية خسائر فادحة فى يوم وليلة تقدر بمئات الملايين من الدولارات ، فضلا عن الزيادات المحمومة والمفتعلة فى أسعار السلع الصناعية والمنتجات الغذائية التى فرضتها الدول الصناعية على صادراتها إلى الدول العربية وغير العربية فى العالم الثالث . وقد وصلت هذه الزيادات فى بعض السلع إلى نحو ثلاثة وأربعة الأمثال فى بضع سنين فقط . ومعنى هذا باختصار أن العرب كانوا يصدرون دم حياتهم إلى أمريكا والغرب ، فتصدر أمريكا إليهم التضخم وهبوط العملة وانخفاض مستوى المعيشة .

من هنا كان طبيعيا أن يقترن خفض انتاج البترول العربى منذ المعركة برفع أسعاره ، أولا اعادة للتوازن بين أسعار الخامات والمصنوعات فى دورة التجارة الدولية ، وثانيا تعويضا عن نقص الدخول البترولية الناشىء . بل أن المقدر أن القيمة الحقيقية لدخول الدول البترولية قد تقصر ، حتى بعد كل زيادة أسعار البترول الأخيرة ، دون مثيلتها منذ سنوات بل وحتى أيام المناصفة ، وذلك لانخفاض قيمة

العملات من جهة وارتفاع أسعار الواردات الصناعية والغذائية من جهة أخرى .

على أية حال ، فلسوف يسجل التاريخ لمعركة اكتوبر فضلا كبيرا على العرب ، مثلما سجل للعرب فضلا كبيرا عليها . ليس فقط أنها قد ضاعفت من دخولهم البترولية بصورة صاروخية ، ولكن – وهو الأهم – أنها فتحت أمامهم عصر «التحرير الاقتصادى» على أوسع أبوابه . فلقد كانت المعركة مناسبة ملائمة جدا لأن يحقق العرب استقلالهم الفعلى عن شركات البترول الاحتكارية التى كانت تتولى تحديد أسعار البترول المعلنة وتتلاعب بها تلاعبا فاضحا ، وهذا عدا ما كانت تفرضه عليها من معـــدلات ومستويات لا ترتبط بالقيمة الحقيقية للسلعة فى السوق العالمية . فلأول مرة فى تاريخ البترول العربى انتزعت الدول المنتجة حق تحديد الأسعار من جانب واحد .

هكذا ، من دولارين أو اكثر قليلا بالكاد قبيل المعركة ، قفز السعر للبرميل إلى ١٤ ، ١٥ دولارا بل وإلى ١٨ دولاراً فى سقفه الأعلى ، وإلى ١١ دولارا فى المتوسط ، وذلك فى غضون شهرين تقريبا . وعموما قدرت الزيادة بنحو ٤٠٠٪ فى الشهور الثلاثة الأخيرة . لقد أنفق العرب منذ نهاية الحرب الثانية أكثر من ٢٥ سنة وهم يكافحون ويصرخون ليزحف ثمن البرميل من بضعة شلنات إلى دولارين كحد أعلى ، فإذا به

بفضل أكتوبر يتضاعف من هذا الحد إلى تسعة أو عشرة الامثال فى أقل من ٥٠ يوما ! وفى أعقاب العرب توا ، ابتداء من أندونيسيا إلى ايران ومن فنزويلا إلى بيرو ، جاء بقية المنتجين .

بهذا أجد ، من الناحية الحسابية البحتة ، أن الدول العربية البترولية قد تضاعفت دخولها من البترول عدة أضعاف بفضل المعركة ورغم خفض الانتاج ، هذا الخفض الذى حافظ أيضا على رصيدها للمستقبل البعيد بعد النزح المقنن والمنتظم الذى مارسته الشركات عقودا . ويكفى فى هذا الصدد رقم واحد : قبل حرب اكتوبر بلغ مجموع دخل الدول العربية من البترول يوميا نحو ٣٠ مليون دولار ، وبعد الحرب ورغم خفض الانتاج والصادر بنسبة ١٥ - ٢٠٪ تقريبا قفز مجموع الدخل اليومى إلى ١٠٠ مليون دولار ، أو بنسبة ٣٣٣ ٪، أى أكثر من ثلاثة الأمثال . وهكذا أيضا حققت دول العرب البترولية لحسن الحظ وبفضل المعركة أرباحا مباشرة تعادل أضعاف ما دفعوه فى تمويلها من دعم ومساندة (يقدر البعض نسبة هذا التمويل إلى هذه الأرباح بنحو ١٪) . وبهذا جاءت المعركة نصرا اقتصاديا لدول المساندة ، كما جاءت نصرا عسكريا لدول المواجهة ، وكما جاءت نصرا سياسيا للجميع .

وفيما عدا هذا فلقد يرى البعض ، موضوعيا ، أن هناك من كان يحاول أن يستغل الفرصة لصالحه اكثر منها لصالح القضية المصرية ، أو أن بعض الدول البترولية غالت نوعا في رفع الأسعار ، أو أن هناك خطرا من الفصل أو محاولة الفصل بين حرب البترول وحرب اكتوبر بالتدريج جريا وراء المكاسب المادية . والمهم على أية حال أن يظل المبدأ المسود هو أن البترول في خدمة المعركة وليست المعركة في خدمة البترول .

ومن هذه الزاوية ، لم يعد هناك شك أن مشكلة العالم الآن لم تعد تدفق البترول بقدر ما أصبحت ارتفاع أسعاره . وهناك حسابات مفصلة يقدمها الغرب عن الخسائر والأضرار المادية التي ستلحق باقتصادياته وانتاجه نتيجة لأسعار البترول الجديدة ، وتقدر هذه الحسابات بمئات المليارات من الدولارات سنويا . كذلك رأى البعض أن خطر التهديد العسكرى – الأمريكى أساسا – لمناطق البترول قد زاد وأصبح واردا بعد موجة رفع الأسعار بالذات ، وأن على العرب أن يأخذوا ذلك التهديد بجد واهتمام . وفى المقابل ، أعربت بعض الدول العربية عن اقتناعها بأن تلك الزيادة فى أسعار البترول كان مبالغا فيها بعض الشيء ، وأبدت رغبتها فى تخفيضها نوعا ، ولو أن البعض الآخر يعارض ويربط بين أى تخفيض فيها وبين تخفيض الدول الغربية لأسعار

منتجاتها الصناعية والغذائية . وعلى الجملة يبدو أن المرونة والحذق اللذين اتسمت بهما سياسة الضخ والانتاج قد تمتدان أيضا إلى سياسة رفع الأسعار .

انقلاب تاريخى وكوكبى

وعلى أية حال ، ومهما تكن التطورات المقبلة ، فيبقى أن المجابهة الحادة قد تركت بصماتها عميقة إلى الأبد على عالم البترول وغيرت هيكل العلاقات الاستغلالية التقليدية التى سادت طويلا وصفتها إلى غير رجعة . كيف ؟ من ناحية لقد تحرر العرب من ابتزاز الشركات فحرروا معهم سائر المنتجين ، وبذلك حطم عالم البترول كل محاولات الغرب لفرض الوصاية الاقتصادية عليه . لقد أعطى العرب ، كأمر واقع ، قيادة ناجحة وشجاعة للعالم الثالث، ستمتد آثارها ومضاعفاتها لا شك إلى بقية دوله ، وأعطى البترول نموذجا طموحا وقادرا لكل المواد الأولية الخام فى العالم .

ومن تحصيل الحاصل بلا ريب أن نقول أن البترول كسلعة استراتيجية مطلقة الحاكمية هو المادة الخام الوحيدة بين خامات العالم التى كانت قادرة على أن تعطى ، وأعطت بالفعل ، تحديا وتهديدا وندية حقيقية لأقوى صناعات العالم التكنولوجية الغلابة والعالم الصناعى المسيطر . ومن السخرية لا شك أن يصور الغرب الموقف كله بالمقلوب ،

فيحاول أن يتباكى على مصالح الدول النامية وامكانيات تنميتها نتيجة رفع أسعار البترول العربى . ولكن الحقيقة أنه انما يحاول أن يدق اسفينا بينها وبين الدول العربية يشق به جبهة العالم الثالث الموحدة ويقلب بذلك المائدة على العرب .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى أثبت العرب بمعركة البترول حقيقة انقلابية مذهلة بقدر ما تبدو شاذة . فلقد الفنا أن نتحدث عن الاقتصاديات العربية كاقتصاديات تابعة economies dominées تابعة يعنى لاقتصاديات الغرب السائدة dominant economies . الآن فإنه العكس تماما أو تقريبا : تبدو الدول الصناعية الفائقة التقدم وكأنها «التابعة» لدول البترول العربية على شدة تخلفها ! بل أن البعض ليتنبأ بأن المصالح العربية فى دول الغرب الكبرى هى التى قد تتعرض من الآن فصاعدا لاحتمالات «التأميم» ، بعد أن كان التأميم هو الخطر المعلق فوق رءوس مصالح تلك الدول المتقدمة والموجودة فى العالم العربى المتخلف ! لكنما هو البترول ، عصب الحضارة الحديثة ومانح الحياة للصناعة .

وحقيقة الأمر كله إذا نظرنا إليه ، كما ينبغى ، فى إطاره الواسع ، هى أن معركة البترول التى فجرتها معركة اكتوبر هى الطلقة الأولى فى معركة اقتصادية كوكبية أوسع مدى بكثير هى معركة الصراع بين

الخامات ودول الخامات من ناحية وبين الصناعات ودول الصناعات من الناحية الأخرى ، وبالتالي بين العالم الثالث والعالم المتقدم . وهذه المعركة هي بدورها تعبير عن تغير هيكل العلاقات الجذرية بين هذين العالمين في عصر ما بعد التحرير وتصفية الاستعمار ثم عصر الاستقطاب فالوفاق وما بعدهما .

لقد كنا نقول دائما أن عصر الثورة الصناعية كان عصر الصراع على الخامات والأسواق . أما الآن فإن عصر الثورة التكنولوجية المعاصرة ، بما حققته من وفرة الانتاج المثيرة ورفع مستوى المعيشة الباذخ مع استهلاك فاحش وضغط رهيب على الموارد الطبيعية المتناقصة لعالم متزايد العدد ، هو عصر يعلو فيه الصراع من أجل الخامات على الصراع من أجل الأسواق . إن الغرب المعاصر ، بطفرته الانتاجية المذهلة وبمجتمع الوفرة والاستهلاك والرخاء المفرط ، لم يعد ينظر إلى العالم الثالث كسوق إلا نظرة ثانوية بالنسبة لسوقه هو المشتركة ذات الامكانيات والأبعاد الهائلة . غير أنه ، على النقيض تمام ولكن للسبب نفسه ، عاد ينظر إليه بكل اهتمام وتكالب كمستودع للخامات . إنها عودة الصراع على الخامات إلى بؤرة السياسة العالمية ، وذلك أيضا في ظل توازنات قوة جديدة . والبترول

هو رأس الحربة فى هذا الصراع الكوكبى الجديد ، كما أن العالم العربى هو رأس حربة العالم الثالث فى معادلة القوة العالمية الجديدة .

والخلاصة ؟ الخلاصة لقد أتت معركة اكتوبر ثورة بالبترول وفى البترول وعلى البترول ، سياسيا واقتصاديا وماليا ، عربيا وعالميا . فجرت أولا مشكلة الطاقة العالمية بعد أن كانت كامنة أو شبه ذلك ، وضعت حضارة العالم المعاصر وحضارة الاستهلاك وجها لوجه أمام مشكلة المستقبل والبقاء وجدوى فلسفتها الأساسية ذاتها ، وأخيرا قلبت سوق النقد الدولية وكشفت عجز النظام النقدى العالمى الراهن وضرورة تغييره . وفى النتيجة فلقد غيرت المعركة أيضا موازين القوى فى عالم البترول بين المنتجين والمستهلكين ، بين دول الخامات المتخلفة ودول الصناعة المتطورة ، أو بين «الذين يملكون والذين لا يملكون HAves & HAve No's ، وذلك نحو قدر أكبر من العدالة والتوازن . أو كما عبر الرئيس السادات فى حديث له إلى مجلة نيوزويك «لقد غيرت أحداث ٦ أكتوبر كثيرا من الأمور فى العالم . بل أنها فرضت «اعادة النظر» بطريقة جذرية على العلاقات بين الدول الغنية التى «تملك» والدول الفقيرة التى «لا تملك شيئا» فى جميع انحاء العالم» .

بهذا كله بدأت الهوة السحيقة بين المتقدمين والمتخلفين وبين الشمال والجنوب ، تضيق نسبيا ، وأخذ الانحدار الجيوبوليتيكى الرهيب بين الطرفين يقل تدريجيا . أنه نمط جديد وثورى من أنماط القوة فى عالم ما بعد اكتوبر ، ربما يشى بانبثاق «نظام عالمى جديد» ، المعركة وحدها والعرب اساسا هم مهندسه الأول والأخير . أو كما تقول ورقة اكتوبر «أن الدول النامية أخذت بعد حرب اكتوبر تحدس بأنها تملك عناصر قوة تتمثل في مواردها من المواد الأولية ، وأن صوتها فى المجتمع الدولي يجب أن يسمع ، وأن مصيرها يجب أن يتحدد بمعرفتها وليس بقرارات تؤخذ فى غيبتها» .

حرب عادلة

أخيراً ، لنا أن نتساءل : هل حقق سلاح البترول أغراضه ؟ البترول بطبيعتـه كأداة سياسية سـلاح طويل المدى بطىء المفعـول ، يحتاج لاعماله بفاعلية مؤثرة إلى جرعـات متتابعة متصاعدة وغير متباعدة من أعمال القوة وسـائر الضغوط السياسية . ولكن المثير أن أثر البترول قد ظهر بأسـرع مما كان مقدرا . إن البترول هو أداة الحل السـياسى ، حيث القتـال هو أداة الحل العسكرى . وقد كانت الاستراتيجية العظمى فى بترول العرب هى أن يضغطوا به على أصدقاء اسرائيل وامريكا لعزلهما أولا ، ثم ليضغطوا هم ثانيا على امريكا حتى

تضغط هي على اسرائيل لكي تنسحب من الأراضي المحتلة . ولقد قلبت معركة البترول الموازين السياسية والديبلوماسية ضد اسرائيل كما قلبت الموازين العسكرية والاستراتيجية معركة الميدان من قبل .

وإذا كان قطاع كبير ، الأكبر في الواقع ، من العالم قد تعرض لمتاعب وصعوبات شديدة أو محدودة في العملية ، فلم يكن القصد من ذلك عقاب أحد ولا الاضرار بمصالح واقتصاديات أي أحد . ومع ذلك فإن العالم كله مسئول عن خلق اسرائيل ثم السكوت عليها وعلى ارهابها «وفتوحاتها» ، دع عنك أولئك الذين يؤازرونها ويشجعونها على العدوان بكل وسيلة منظورة وغير منظورة . على هذا العالم – ولنقلها ولا نخف – يقع دم الفلسطينيين والعرب من الضحايا واللاجئين والمشردين ، وعليه وزر اضطهادهم وتشتتهم . أنه لمن أبسط مبادىء العدالة الانسانية – أليس كذلك ؟ .. أن يتذوق هؤلاء جرعة مما يجرعه الفلسطينيون والعرب كخبز يومي بانتظام واستمرار على مدى ربع قرن من الزمان .

إن تجربة معركة البترول تنبيه عادل للعالم أن العدالة لا تتجزأ ، كما أن السلام لا يتجزأ ، أو كما قال السادات «رسالة حاولنا أن ننقلها إلى العالم كله ، وهي أن العرب بعد السادس من اكتوبر يستحقون مكانهم تحت الشمس» . أو كذلك كما قال بومدين «أننا كنا ننتظر ولا نزال

ننتظر أن تعيد أوربا تقييمها لعلاقاتها مع الأمة العربية ، لا على أساس أنها مصدر الطاقة ولكن على أساس أنها مجموعة بشرية لها قيمتها ولها حقها في الحياة» . المعركة حث للجميع على الضغط على أمريكا ، والمطلوب من أصدقاء البترول العربي الآن المزيد من الفعل لا القول ، والضغط لا البيانات . عليهم أن يحاصروا أمريكا ديبلوماسيا إلى حد الارهاق والاتهام والادانة .

أما هذه ، فقد كانت هناك أسلحة أخرى أن احتاج البترول إلى أسلحة معاونة ، هناك الأرصدة العربية الضخمة في بنوك الغرب . هناك التجارة الواسعة النطاق . مع أمريكا .. إلخ . وإن آجلا أو عاجلا كان على أمريكا أن تختار بين بترول العرب أو فتوح اسرائيل ، بين الاستثمار البترولي أو الاستثمار الاسرائيلي . ومنطق المصالح الحقيقية يقول أنه لا خيار أمامها في الحقيقة ، ويوما ما ستتصادم حتما مع محميتها - أو معنا . وهذا فعلا هو ما بدأ يتحقق إلى حد أو آخر . فلقد سلمت أمريكا أخيرا في اتصالاتها مع العرب بحقوقهم وتعهدت بتغيير موقفها المتحيز للعدو وبأن تعمل على فرض الحل السلمي العادل في وقت معقول . وعلى هذا قرر العرب في مارس ١٩٧٤ رفع الحظر البترولي عن الولايات المتحدة ، بالإضافة إلى وقف الخفض والغائه عن الدول الأوربية الصديقة ، واستمرار حرمان هولندا ، على أن يعاد النظر في الموقف البترولي كله في يونيو .

غير أن هناك نقطة هامة فى موضوع البترول ، وإن كانت أدخل فى باب المستقبل . لقد تحول البترول العربى من مجرد سلاح اقتصادى إلى سلاح سياسى ، وأغلب الظن أنه لابد يتحول فى المستقبل إلى سلاح عسكرى . لقد رأينا كيف أن الصراع العربى - الاسرائيلى صراع لن يحسمه فى النهاية وعلى المدى البعيد الا المجابهة العسكرية ، وأن مناط المواجهة العسكرية الناجحة هو أساسا السلاح المتقدم الوفير ، وأن هذا السلاح محكوم بسياسات عليا للدول الأعظم ، وأن اختراق هذا الاطار يكمن فى غزو أسواق جديدة حرة مفتوحة للسلاح المتطور ، وأخيرا أن هذا لا يعنى الا غرب أوربا فى الدرجة الأولى والتحليل الأخير .

الآن لا سبيل إلى فتح هذه الأسواق ، المغلقة أمامنا حاليا بدعوى الحياد ، الذى هو حياد بين المعتدى والمعتدى عليه ، إلا بالضغط ، والضغط البترولى أساسا . ولهذا لابد أن يأتى اليوم الذى يطلب فيه العرب أن يتم تبادل سلعتهم الاستراتيجية بسلع استراتيجية مكافئة ، البترول بالسلاح . إن هذا هو التحدى المستقبلى الذى على العرب أن يستعدوا له يوما ما فى القريب العاجل أو غير العاجل . وهو تحد لا نشك أن النصر فيه مكفول لمن يملك زيت الحياة الصناعية وزبدها . والمفهوم أن هذا قد بدأ يتحقق بالفعل ، وأن كان فى مراحله الأولى .

الفصل الثامن

٦ أكتوبر والعدو الاسرائيلى

من يونيو إلى أكتوبر

حين اختلس العدو نصره السهل الرخيص فى يونيو ١٩٦٧ ، كان تقديره أن تلك هى «آخر الحروب» وأنهم قد أصبحوا سادة المنطقة نهائيا وإلى الأبد ، وأن حالة اللاحرب واللاسلم باقية لعشر سنوات قادمة على الأقل ، وأن العرب على الطريق إلى التسليم وتوقيع صك الاستسلام . وعليه ، جلس إلى جانب التليفون فى انتظار مكالمة من المهزومين يضعون بما أنفسهم تحت تصرفه . أو كما وضعها دايان ، صاحب تلك الكلمات الشهيرة ، «إنها الحرب التى انهت كل الحروب ، ولم يبق أمام العرب إلا طلب المقابلة لتقديم فروض الطاعة ، لا سيما أنهم يعرفون رقم التليفون والعنوان ، ٣١ شارع كابلان ، القدس» .. وهكذا لم يعد السؤال الذى يؤرق العدو هو ما إذا كانت اسرائيل قد «وجدت لتبقى» ، بل أصبح ما إذا كانت الامبراطورية الصهيونية هى التى بقيت لتوجد . لقد فتحت سيناء والضفة الغربية والجولان – هكذا

وقرفي قرارة العدو - الطريق «من النيل إلى الفرات» وإلى «أرض اسرائيل» أو «اسرائيل الكبرى» .

غير أن الصمود العربى ورفض الهزيمة - على سلبيته الآنية - حرم العدو من جنى ثمار العدوان ، فوجد أن أصابعه إنما تتقبض على نصر عسكرى ساحق ولكنه عقيم بلا نصر سياسى يتوجه . وعلى الفور أصبحت سياسة العدو الفعلية - المعلنة أو المبيتة لا يهم - هى سياسة «الأمر الواقع» ، سياسة «الضم الزاحف» أو «الضم البطىء» كما وصفها بعض قادته . وكان من الواضح تماما للجميع أن العدو قد قرر البقاء إلى ما لا نهاية فى الأراضى المحتلة الجديدة ، وأن الأمر ليس الا دورة آخرى من دورات التوسع الاقليمى «العقدى» المرسوم ، لا رجعة فيها ولا عودة إلى حدود ما قبل يونيو .

والواقع أن العدو بدأ يشعر باطمئنان لا حد له ، وأن الأمر استتب له إلى الأبد . يقول الكاتب الصهيونى وولتر لاكير فى كتابه «المواجهة» : «لقد كان المراقبون الأجانب والاسرائيليون على حد سواء متفقين تماما على أنه لم يسبق لدولة فى التاريخ أن شعرت بهذا القدر من الأمان ، ولم تكن فرص الحرب في يوم من الأيام أقل مما كانت عليه ، وكانت اسرائيل تعتقد أنها القوة العسكرية الوحيدة فيما بين فرنسا والهند» .

وعلى هذا الأساس أخذ العدو فى صمت وسرعة يخلق «الحقائق الجديدة» على الأرض والطبيعة : تفريغ السكان بالطرد والابادة والتهجير الجبرى ، ابتلاع الأرض بوضع اليد والمصادرة ، التوطين والتهويد ، تغيير التركيب الجغرافى والديموغرافى وتهويد اسماء الأماكن ، محو القرى العربية وزرع المستعمرات الاسرائيلية (نحو ٥٠ مستعمرة) ، فرض «السلم الواقعى» كبديل عن «السلم القانونى» .. الخ . وهذه ، للذكرى ، بعض تصريحات العدو : دايان : «يجب علينا أن نثبت الأمر الواقع بالنسبة للأراضى التى احتللناها ، دون أن نجهر علانية بضمها الينا .. إن أفضل وسيلة لتحقيق ذلك هو أن نوطن اليهود بالسرعة القصوى فى المناطق المحاذية لنهر الأردن وفى مرتفعات الجولان وأن نقيم مراكز زراعية فى سيناء» ، «وفى جميع الحالات التى نقرر فيها انشاء قرى اسرائيلية ، فإن علينا أن نأخذ فى الاعتبار أن هذه المناطق ستظل تحت سيطرتنا ، كما ينبغى أن تنضم إلى الحدود الجديد للبلاد بعد إبرام معاهدة الصلح» . مايير : «على اسرائيل أن تحتفظ بجميع الأراضى التى احتلتها فى حرب يونيو ، عدا تلك المناطق التى تضم كثافة سكانية عربية» . دايان : «الضفة الشرقية للقناة وشبه جزيرة سيناء هى حدود اسرائيل الآمنة مع مصر» . آلون : «اسرائيل

ليست بحاجة إلى طلب الاذن من أحد قبل أن تقدم على اقامة مستوطنات لها فى الأراضى المحتلة» ... الخ .

هذا فى الأراضى المحتلة . أما على مستوى العالم العربى فقد كانت فترة ما بين الحربين بحق فترة العربدة و «البلطجة» الاسرائيلية المثالية بلا رادع وبلا حدود ، أو كما كانوا يسمونه «دور رجل البوليس» فى المنطقة . فقد وصل الغرور والصلف ، وكذلك الارهاب . الاسرائيلى إلى الذروة . غاراته الجوية وقرصنته المدنية وحملاته «التأديبية» وعملياته التخريبية لم تنقطع على الدول والأهداف العربية المحيطة . أضف تهديداته العلنية من حين إلى حين بغزو واحتلال العواصم العربية وبضرب مناطق البترول ، ثم حديثه المستمر عن «ذراع اسرائيل الطويلة» «ويدها القوية العليا» وقدراتها العقابية التى لا حد لها ... الخ ، تلك وحدها تملأ مجلدات . بالمثل تصريحات قادة العدو وساسته عن خططهم ومشاريعهم فى اقتطاع الأرض العربية ورسم خريطتها النهائية .

حسبنا هنا فقط أن نقول أن العدو ، الذى أحرز سمعة سياسية لا شك فيها فى العالم ، والذى رفعه النصر من مرتبة التابع الذيلى للولايات المتحدة إلى مرتبة الشريك الأصغر ، هذا العدو وصل به غرور القوة وصلف التسلط إلى حد يتاخم جنون العظمة السياسى والتأله

الدولي ، أحيانا بصورة تدعو إلى السخرية . فمن ناحية بدأ العدو يمارس ترف الوصاية التي لم تطلب منه على العالم الخارجي ودور الناصح المتبرع له . أو كما قالت مجلة «نيو ستيتسمان» ، كنا نرى الاسرائيليين دائما مغرورين يعطون دروسا للجميع ، يقولون للانجليزى ماذا يتعين عليه أن يفعل لحل المشكلة الأيرلندية.، وللامريكى ماذا يفعل لحل مشكلة الزنوج .. الخ .

ومن ناحية أخرى ، أخذ العدو يتصرف باعتبار اسرائيل «الدولة الأولى primate state » ، الحاكمة والمتحكمة المعترف بها عالميا واقليميا فى الشرق الأوسط ، هى التى تقرر مصيره وتفرض عليه وصايتها ، وتل أبيب هى عاصمته السياسية العليا أو عاصمة العواصم super-capital التي تتعامل باسمه مع العالم . ومن ناحية أخرى فإن العدو لم يلبث أن ذهب إلى حد اعتبار نفسه على المستوى الاقليمي «قوة عظمى super-power ، أى القوة الأعظم في الشرق الأوسط بل وفى البحر المتوسط . ومن الغريب أن العدو لم يتورع ايضا عن أن يعلن أنه أقوى من أى دولة فى أوربا باستثناء فرنسا ، التي عاد فأغفلها من الاستثناء ! الأغرب أن أحدا فى أوربا لم يعلق بكلمة على هذه الوقاحات الزرية . ويكفي هنا أن نقتبس الجنرال شارون . قال أولا «اسرائيل قوة عظمي عسكريا ، قادرة على غزو المنطقة من الجزائر حتى بغداد فى

مدى اسبوع واحد» : ثم عاد في مناسبة أخرى فردد ما قاله ديان «يمكن لاسرائيل أن تهزم جيوش الدول الاوربية مجتمعة» ! وأخيرا قال أن اسرائيل تعتبر أقوى دولة في العالم ما بين أمريكا وروسيا ! ثم جاء رابين فأضاف بدوره أن لدى اسرائيل مخططا لكل الاحتمالات ، «حتى لاحتلال القطب الشمالي» !

الاغرب من الكل أن جنون العظمة وغرور القوة بلغا باسرائيل حد تهديد القوتين الأعظم ، نعم الأعظم . فلعل منا من يذكر تصريح دايان بعد ٥ يونيو مباشرة بأنه على استعداد لمحاربة «الروس» (كذا !) ، وكلنا لا شك نذكر ما نزال تصريحه أيضا بعد اكتوبر باستعداده «لمقاومة» الولايات المتحدة إذا ما أرادت أن تفرض ارادتها على اسرائيل . وفيما بين التصريحين أضاف عزرا وايزمان «أننا نستطيع آن ننتصر في مواجهة القوات السوفيتية نفسها» ! وهو تصريح ، على أية حال ، أشد تواضعا من تصريح وزير البوليس شلومو هيليل بعده عن استعداد اسرائيل «لمحاربة العالم كله إذا اقتضى الأمر» ! .. ولكن أليس سلاح الطيران الاسرائيلي هو «أكفأ سلاح طيران في العالم» (كذا) ، أو ليس جيش الدفاع الاسرائيلي هو «الجيش الذي لا يقهر» ، ثم أليست اسرائيل هي داوود الصغير الأسطورة والعالم هو جوليات الجديد ، الشعب المختار والجوييم على الترتيب ؟

ليس مبالغة إذن تشخيصنا لاسرائيل بجنون العظمة . ولا تجنيا كذلك . فلسنا وحدنا الذين نقول بذلك . إنه لا أقل من رجل الدولة الأمريكي - اليهودى - كيسنجر الذى يقولها بل ويمارسها . فلقد أعلن أخيرا مؤرخ اسرائيلى - يقال له ياكوف تالمون - أن كيسنجر يعتبر اسرائيل دولة مصابة بمرض جنون العظمة ويعاملها كما يعامل طبيب نفسانى مرضاه من المجانين ، وخاصة عندما يعالجهم بالصدمات الكهربائية .. وقد أضاف تالمون هذا أن الدول المجاورة لاسرائيل تلفظها وترفض الاعتراف بشرعية وجودها ، وهى مضطرة لذلك إلى القيام بتصرفات ترفضها المنطقة المحيطة بها . وقديما اتهم الرايخ الثالث كدولة بجنون العظمة سياسيا ، بينما اتهم به هتلر عقليا ..

غير أننا نخطىء كثيرا إذا رددنا كل هذا الغرور إلى مجرد النرجسية الحادة أو جنون العظمة . العدو أخبث ، ونحن أذكى ، من ذلك . فالحقيقة أن تلك كانت قطعة مزدوجة من الحرب النفسية المخططة بإحكام وعناية . فمن ناحية كان العدو بتهديداته الراعدة تلك واستعراض عضلاته الرادعة على هذا النحو الفج إنما يحاول أن يزرع فينا ويخلق «مركب نقص وطنى» ، نشعر معه بالضعف والعجز ازاءه ، فنسقط له بسهولة . ومن الناحية الأخرى فقد كان «مركب العظمة» الذى

يعاني منه العدو انما هو فى واقع الأمر ، وكما هو واقع كل مركب عظمة، «مركب نقص مقلوب inverted inferiority complex » . فلقد كان العدو يدرك فى قرارة نفسه أنه هو ، وليس الجندى العربى ، المتهم فى نوعيته كمحارب والمطعون والمشكوك فى حقيقة قدراته القتالية . وبهذه الدعاية المزدوجة كان يحقن نفسه أيضا بأقصى جرعات ممكنة من التحصين النفسى ضد هذا الشعور الداخلى . ولدينا فى هذا شهادة قاطعة لبن جوريون نفسه : «لقد كان علينا بعد اقامة اسرائيل» ، قال هو فى الخمسينات الباكرة ، «أن نبرز حقيقة تاريخية ونقضى على خرافة ، هى أن اليهودى جندى رديء ، غير قادر على حمل السلاح» .

كذلك لابد أن نضيف من آسف أن نتائج جولات الصراع المسلح منذ بدأ وحتى يونيو كانت كلها تشجع العدو على المضى إلى آخر المدى فى خداع نفسه وخداعنا . فإذا نحن نظرنا إلى الخط البيانى للصراع المسلح بيننا وبين العدو منذ ١٩٤٨ لوجدناه دائما فى اتجاه واحد صاعد باطراد لمصلحة العدو . فاسرائيل ، كسيدتها أمريكا، لم تهزم قط عسكريا . وهى لم تضرب قط على أرضها منذ ١٩٤٨ ، مثلما لم تطأ أمريكا قدم غاز منذ ١٨١٢ . وهى دائما كأمريكا على جانب الهجوم سياسيا وعسكريا ، بينما نحن على الدفاع أبدا . وهى كأمريكا لم

تخسر سلاحا أو رجلا أو بيتا على أرضها طوال حروبها ، كما لم تزد كل خسائرها في الأرواح منذ ١٩٤٨ وحتى يونيو ١٩٦٧ عن ٦٠٠٠ فقط .

أكثر من هذا ، كان حجم نصر العدو فى تصاعد مطرد من جولة إلى أخرى . ففى ١٩٤٨ هزمتنا اسرائيل بصعوبة أكثر مما وجدت من صعوبة في هزيمتنا سنة ١٩٥٦ ، ١٩٥٦ بصعوبة أكثر مما وجدت فى ١٩٦٧ . وفى كل جولة لاحقة كانت اسرائيل تجد أن عدد الدول العربية المحاربة أكبر ، وعدد أيام القتال أقل ، وحجم نصرها أكبر . ولم يكن فى ذلك كله ما يقنع العدو بالتعقل أو بمراجعة النفس أو كبح جماح غروره المستشرى . ولهذا كان منطقيا مع نفسه ، هكذا اعتقد من وجهة نظره ، حين قدر للحرب القادمة ساعات لا أكثر !

معنى ٦ أكتوبر

فى الثامنة والدقيقة الخامسة من مساء السادس من اكتوبر ، كان هذا الصرح الشاهق من البارانويا السياسية قد انهار وتقوضت أسسه وجذوره . انهارت الأسطورة وبناتها مرة واحدة والى الأبد فى ساعات ست تاريخية غيرت وجه التاريخ بل والجغرافيا ، نسخت الماضى بكل سواليه وسوءاته ، ونسجت المستقبل بكل آماله المشرقة . لهذا كان لابد أن يعد ٦ أكتوبر نقطة التحول العظمى فى

تـاريخ الصـراع العربى - الاسـرائيلى جـميعـا ، مـا كـان منه ومـا سيكون .

لماذا أيضا ؟ باخـتـصـار شديد وبتـحـديد قـاطـع ، لأن «مـبرر وجـود» اسرائيل يتـعرض لأول مرة منذ قيامها غير الشرعى «لاختبار أحماض» حـاسم وباتر ويوضـع لأول مـرة موضـع الشك والتساؤل والتهديد . نعم، مبرر الوجود raison d'etre . فاسرائيل لم تقم ولم تستمر ولن تبقى إلا على أساس واحد ووحيد ، منه استمدت وجودها وبغيره تفقده . هذا الأساس هو القوة ، القوة المسلحة ، القوة العسكرية بالتحديد . وفيما عدا منطق القوة وعامل القهر العسكرى ، فإن اسرائيل لا تعدو أن تكون خرافة جيوبوليتيكية ، مجرد حزمة مفككة واهية وملفقة من الأكاذيب الدينية المتهافتة والأوهام العنصرية البارانوية والانحرافات التاريخية المريضة . إن القوة ، بالنسبة للوجود الاسرائيلى ، هى شرط البقاء ، بل هى البقاء ذاته ، وبغير القوة تفقد اسرائيل مبرر وجودها الحقيقى ومعه صميم وجودها نفسه . وتلك حقيقة يعلمها علم اليقين كل قادة اسـرائيل ، بل كل قطيعها البشرى ، صقورا وحمائم ، ذئابا وأبناء آوى ، مجرمى حروب أو تجار حروب .. الخ .

الآن ، ولأول مرة منذ قيام دولة اليهود المزيفة ، فإن عامل القوة هذا يجابه برد فعل مقتدر ومتحد من القوة المضادة لها فى الاتجاه والمماثلة

لها فى الطاقة . الآن ولأول مرة منذ ١٩٤٨ تذوق اسرائيل طعم الهزيمة العسكرية الحقيقية ، وتتحطم اسطورة التفوق العسكرى المطلق التى اختلقتها اختلاقا بالحرب النفسية الرهيبة والدعاية المرسومة الكاسحة والتى ساعدنا من آسف على تجسيمها وتضخيمها بقصورنا نحن وتقصيرنا وأخطائنا آمداً طويلا .

الآن ولأول مرة منذ ١٩٤٨ يتحقق توازن قوى جديد ، عسكريا وسياسيا ونفسيا وتكنولوجيا . فالهزيمة العسكرية الأولى سوف تكون حدثا تاريخيا أعظم ، سيفرض تداعيات بالغة الخطر والنتائج . ونحن الآن ولأول مرة إزاء صراع انقلبت أوضاع أطرافه رأسا على عقب ، وازاء معادلة قوة تعدلت أوزان حديها جذريا . منذ الآن سنحارب اسرائيل جديدة ، اسرائيل ردت إلى حجمها الطبيعى وقامتها القميئة بعد أن جردت من عقدة النصر المركبة ومركب التفوق العسكرى ووهم التأله الحربى المغرور أو المرسوم . باختصار ، سنحارب اسرائيل انكسر «عمودها الفقرى النفسى» ، فلم تعد ذلك العدو «الذى لا يقهر» ، وانما القابل للهزيمة بل والذى بالفعل هزم . منذ الآن ستكف اسرائيل ، «طفل أمريكا المدلل enfant gaté » ، عن أن تكون «طفل العرب المرعب enfant terrible » أو عصا الاستعمار الغليظة فى المنطقة . وحتى إذا عادت الأوضاع الاقليمية إلى ما كانت عليه يوم ٤ يونيو

١٩٦٧ ، فستكون اسرائيل غير ما كانت : قبله كانت دولة لم تهزم قط ؛ وبعده ستكون دولة مهزومة . وذلك – في ظروفها – كيان منهار ستنخر في عظامه ونخاعه جرثومة الهزيمة ، ولن يفلت من ضغوط التآكل والتمزق الداخلي التي ستعريه وتكشف زيفه الكامن وجوهره المصطنع أكثر من أي شيء آخر وأكثر من أي وقت مضى . لقد أثبتت حرب اكتوبر أن اسرائيل هي الدولة – المشكلة في الشرق الأوسط . وليس الشرق الأوسط هو المنطقة – المشكلة في العالم ، أو على الأقل فإنه ليس كذلك إلا بها وبوجودها . اسرائيل ، لا العرب ، هي الآن مشكلة العالم ، كما كانت بالأمس جذر المشكلة ، وتصفية الأخيرة إنما تكمن في معالجة الأولى على نفس الأساس . لقد تحول ، ولا نقول نهائيا تحدد ، مصير اسرائيل .

فإذا بدا هذا كله ادعاء عريضا أو نبرة عالية بالغة الحدة مسرفة في الحماس والتفاؤل ، فيكفي أن نورد شهادة فرانسوا ميتران ، الزعيم الاشتراكي الفرنسي والصديق القديم لاسرائيل . «أن حرب اكتوبر» – قال ميتران أخيرا – «مرحلة هامة ، إذ أوضحت لاسرائيل أنه لا ينبغي لها أن تعتقد أن بإمكانها تحقيق كل شئ . إذ أوضحت لإسرائيل شجاعة الجندية المصرية لاسرائيل أن هناك حقائق وقوى لا يمكن أن تتجاهلها» . ثم يضيف «لقد وضعت اكتوبر حدا للنزعة الحربية في

اسرائيل منذ ١٩٦٧. وهى العلامة التاريخية لانهاء هذه الطريقة من التصرف . والتوازن الجديد فى المنطقة لا يمكن أن يتم على أساس استمرار واستقرار وضع الغزو والاحتلال» . بالمثل يقول الجنرال بوفر أن «الجيش الاسرائيلى لم يعد يتمتع بالتفوق الساحق الذى كان يتمتع به سابقا . وتلك حقيقة لا تقبل الجدل ، واعتقد أنهم قد فهموها تماما» . ثم يضيف «وإذا لم ترضخ اسرائيل للحل الوسط فإن عليها أن تواجه حروبا أخرى» .

فإن عدّ هذا غير كاف ، فإننا نقول أن الأحداث الكبرى تتطلب فكرا كبيرا وحسا تاريخيا ملهما ، بمثل ما أن التحديات الكبيرة هى التى تصنع الأمم الكبيرة ، وفضلا عن هذا فإن تجربة التاريخ تعلمنا أن كل حرب منتصرة أو منهزمة ترسم وحدها مستقبل أى أمة لعشرات وربما مئات من السنين . إن الحرب هي أعظم محدد للتاريخ ، بمثل ما أن النصر هو أروع ملحمة فى تاريخ الشعوب . ولا يصدق هذا على صراع فى التاريخ مثلما يصدق على الصراع العربى الاسرائيلى نظرا لطبيعته الخاصة جدا والرهان الفادح الذى ينتظمه . نعم ، أعطنى نصرا عسكريا واحدا ، لا أقول ساحقا بالضرورة أو صاعقا ، يكفى فقط أن يكون محققا ، ليكون نقطة انكسار بل وانعكاس لكل أوضاع المنطقة ، اعطنى فقط نصرا عسكريا واحدا ، أغير لك مصير الصراع ، مصير مصر ، والعرب .

وإذا كان لنا من تحفظ استدراكي بعد هذا كله ، ورغم خطر التكرار ، فإننا نعود فنقول أن معنى ٦ أكتوبر كما يتحدد من هذا المنظور معلق بشرط ضمني ولكنه جوهرى جدا وهو أن ينتهى كما بدأ بالنصر القاطع المحدد . ولقد حققنا حتى الآن انجازات عسكرية وسياسية رائعة ونصرا محققا ومعقولا ، ولكن مازالت أمامنا معارك أقسى وأشق وأطول بالتأكيد . إن كل شيء الآن معلق بأن نتم ما بدأناه ونستكمل نصرنا إلى مداه .

ونستطيع الآن ، بمزيد من التحديد والتحليل ، أن نحصر النتائج الموضوعية الايجابية والممكنة لأكتوبر سواء بالنسبة للعدو أو بالنسبة للعلاقات المتغيرة بينه وبين العرب . وبصيغة جامعة مانعة ، يمكن أن نقول أن اسرائيل والعرب ، أو أن يونيو وأكتوبر ، قد تبادلوا المواقع ، بكل ما تعني هذه من أوضاع وتوازنات وتداعيات ، عسكريا وسياسيا ونفسيا ومصيريا ، آنيا ومستقبليا ، ابتداء من السلاح المحطم والأرض المفقودة والجنود الفارة وطوابير الأسرى إلى المعنويات المنهارة وسخرية «الأحذية» العسكرية المتروكة (!) إلى البلاغات الحربيّة والدعائية الكاذبة وفجوة الثقة والتصديق العالمية وحتى الأغاني الشعبية ... إلخ .

ففي كل هذه الجوانب وغيرها يمكننا بسهولة تامة أن نقول عن اسرائيل أكتوبر ما قيل عن عرب يونيو ، بحذافيره وطبق الأصل احيانا .

أنها كما قد نقول صورة مرآوية معكوسة enantiomorph ، أو كما وضعها أحد الكتاب الصحفيين في الغرب بصورة شيقة كما هى دقيقة أن حرب اكتوبر هى «حرب المرآة» . «فهناك بالفعل ما يغرى بهذه التسمية ، ذلك أنك إذا أمسكت بمرآة لحرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ ، فإن الصورة المعكوسة ستكون من نواح عديدة هى الصورة نفسها التى يراها المرء بعينيه في مسرح الحرب القائمة» ، حرب اكتوبر ، باختصار ، لقد انعكست الأدوار فى الحربين وتبادل جدا معادلة القوة طرفيها المتناقضين كل مكان الآخر . وفى إطار هذه الصيغة العامة الشاملة ، هناك موضوعان اساسيان للدراسة : انقلاب التوازن الاستراتيجى ، انهيار نظرية الأمن الاسرائيلى .

انقلاب التوازن الاستراتيجى

هذا أبرز نتائج المعركة وأكثرها مباشرة . فلقد قلبت المعركة ميزان القوة الاستراتيجي لصالح العرب لأول مرة وضد اسرائيل إلى الأبد . ولأول مرة تصبح اسرائيل مفعولا به والعرب فاعلا ، بعد أن ظل العكس هو القاعدة التى لا استثناء لها أبدا . فالحرب قد أثبتت بما لا يدع مجالا للشك ، كما قال زعيم الشعب الفلسطيني المناضل ياسر عرفات ، إن «التوسع الاسرائيلى ليس قرارا اسرائيليا ، وانما الوجود الاسرائيلى نفسه رهن الارادة العربية» .

لقد تغيرت خريطة المنطقة ، بل وصورة العالم ، ودفن الماضى تماما يوم ٦ اكتوبر ، ولن يعود الماضى قط ، ولن تعود منطقة الشرق الأوسط إلى ما كانت عليه أبدا . ومهما حدث أو يحدث فلن تعود الأوضاع والتوازنات القديمة فى المنطقة . أو كما قالت التايمز «ان خسائر اسرائيل الأساسية هى فى سمعتها كدولة لا تقهر ، والكسب الأساسى للعرب هو الثقة بالنفس وثقة الآخرين بهم عسكريا . ولن يغير أى عمل اسرائيلى من أحد الأمرين» . أو كذلك كما قالت الديلى تلجراف مهما كانت النتيجة النهائية لمعارك الشرق الأوسط ، فإن الأمور لن تصبح كما هى مرة أخرى . وهذا يسرى على الجانبين . ثمة تغير نفسي لابد من وقوعه » .

لقد انتهت الأسطورة الباهرة المتفوقة ، تحولت إلى مجرد خرافة ضخمة ، وعادت دولة عادية جدا ، ارتدت إلى حجمها الطبيعى المجرد بغير تورم أو انتفاخ مصطنع ، وكفت نهائيا عن أن تكون مركز الثقل فى المنطقة أو مقررة مصيرها . أو كما اعترف الجنرال أوزى بن أرى «لقد كان شعورا مصيريا فظيعا . كان شعورا بأننا نتضاءل ، وبأنهم ، المصريين ، يتضخمون» . بل لقد نقل الصحفى تيرنس سميث عن بعض كبار المسئولين الاسرائيليين قولهم إن اسرائيل لا تشعر بأنها حرة التصرف كما كانت ، وانهم عرفوا حدود المساحة التى تستطيع اسرائيل

أن تناور فيها ، وذلك فى عالم تحكمه ديبلوماسية القوى الكبرى . «ونحن واعون تماما - هكذا اضافوا - بأن اسرائيل لم تعد سيدة مصيرها كما كانت - أو على الأقل كما كان يبدو - بعد حرب ١٩٦٧» .

ولقد كان الكل دائما فى اسرائيل على وعى تام بحقيقة ومدى وعمق اعتمادهم على الولايات المتحدة ، ولكنهم الآن - ربما لأول مرة - يعترفون بذلك علنا . والفضل فى ذلك يرجع إلى اكتوبر . ففى قلب المعركة وقف دايان فى الكنيست ليقول لمعارضى وقف اطلاق النار «كيف يمكن معارضة دولة ترسل اليكم الذخيرة فى الصباح لاطلاقها بعد الظهر ؟» أما بعدها فقد قال : «الذين يطالبوننا بشن حرب جديدة من أجل الأسرى عليهم أن يعرفوا أن اسرائيل لا تستطيع أن تحارب مرة أخرى ما لم تكن مستندة إلى تأييد أمريكا السياسى والمادى» . كذلك صرح مسئولون اسرائيليون أثناء محادثات الفصل بين القوات على الجبهة المصرية بكلام صريح واضح : «لقد تأكد لنا أننا لا نستطيع إلا أن نجادل حول التفاصيل الصغيرة ، ولكننا مرغمون - فى التحليل الأخير - على السير فى الطريق الذى تريده الولايات المتحدة» . هذا بينما كتبت هاآرتس تقول «إن اهتمامنا بأمن بلادنا لا ينبغى أن يذهب بنا إلى حد قيام مواجهة بيننا وبين الولايات المتحدة تضاف إلى مواجهتنا مع الدول العربية .

ومن ناحية أخرى كتبت الفيناشيال تايمز تقول أن الاسرائيليين قد ادركوا مدى سيطرة الولايات المتحدة على اسرائيل ، لأنه لولا المساعدات العسكرية الأمريكية لاسرائيل أثناء الحرب لتعرضت اسرائيل لكارثة . ثم أضافت الصحيفة أن هذا الادراك يعد من أكثر العوامل اثارة للكآبة لدى الاسرائيليين . ونقلت عن صحفي اسرائيلي قوله «إن الساسة قد يخفون ذلك ، ولكن كل انسان في اسرائيل يعرف أننا خاضعون للولايات المتحدة» . وقد صرح يشاياهو ليبوفيتش ، عالم اسرائيلي ، بأنه «أصبح من المؤكد أمامنا جميعا أن اسرائيل ليست سوى وكالة لأمريكا فى الشرق الأوسط . إننا مثل الكلاب التي وضعت لحراسة المصالح الأمريكية في المنطقة . وأن وجودنا هنا يعتمد اساسا على مدى نجاحنا فى تنفيذ ما يطلب منا » . وترجمة هذا كله هو أن حرب اكتوبر قد عرت تبعية اسرائيل لأمريكا مثلها عرضتها لعوامل التعرية .

وحقيقة ما حدث ، وهو أسوأ ما يؤرق اسرائيل بل ويفزعها ، هو أزمة انكماش وضمور عضوى ووظيفي وعملية تقلص تاريخي . فالذى حدث في اكتوبر هو وضع حد نهائى ونهاية غير محدودة «للدور الخاص» الذى حاولت اسرائيل أن تقوم به فى المنطقة ، ومعه ذلك «الوضع الخاص» الذى حاولت فرضه عليه وانتزاع الاعتراف به منها .

ولقد كان هذا الدور «التاريخي» المأمول دورا غير طبيعي بلا ريب ، بل وشاذا على التحقيق فقد كان فضفاضا وأكبر جدا من أن يتناسب مع حجم اسرائيل أو طاقتها الحقيقية . غير أن هدفه ودافعه كان المجد وبريقه وحب العظمة والفخار وهالة الشهرة السياسية . ولقد كانت اسرائيل تبدو في هذا الدور كقزم يتبختر فى ثوب فضفاض ، ولكنه فى أكتوبر تعثر فى هذا الثوب وسقط ، ولم يعد ينتظره الآن إلا مستقبل شاحب باهت في الظل وعلى الهامش ، ووضع عادى كنكرة خامل الذكر بلا ضجيج ولا بريق . وما التشنجات الداخلية فى اسرائيل الآن ، والتى تكاد تصل إلى حد الصرع ، إلا آلام هذا التقلص القابض والمقبض وهذا الانكماش الحاد العنيف . لقد تمت - أو كادت - دورة كاملة من قيام وسقوط أو صعود وأفول القوة الاسرائيلية ، وعبرت دولة اسرائيل خط الزوال ، ولعلها مهما طال الأمد فى الطريق إلى مرحلة الشفق ولا نقول الغسق .

أما حلم الامبراطورية الصهيونية من النيل إلى الفرات فقد انتهى إلى الأبد ككل حلم «فاوستي» مجنون ، إذ أن اسرائيل قد انتقلت بصورة قاطعة من مرحلة التوسع إلى مرحلة التوقف ثم الانكماش . منذ السادس من أكتوبر ، لنا أن نقول ، انتهى «سفر التكوين» وبدأ «سفر الخروج» ، وتحولت سيناء إلى «تيه جديد» لاسرائيل . أو كما قال فيكتور

سيجلمان ، فى مقال يقرأ من عنوانه «نهاية دولة اسرائيل الكبرى» ، أن الفكرة الثابتة والعقيدة الراسخة التى سيطرت على اذهان الاسرائيليين تماما وعاشوا فيها وعاشت فيهم حتى شهور مضت قد «اختفت تماما دون أن تخلف آية آثار .. ومن الواضح الآن أن المواطن الاسرائيلى قد تخلص من عقدة «القوة العظمى» فى وجه الدول العربية ، وهى العقدة التى تقمصت شخصيته فى أعقاب حرب يونيو ، ثم جاءت حرب اكتوبر لتبددها نهائيا . وعاد المواطن الاسرائيلى إلى طبيعته ، الصغير ، الوحيد ، الخائف» .

وإذا كان من المسلم به إن اسرائيل ستظل باقية إلى أمد لا يمكن التنبؤ به ، فإنه لن تصبح بعد الآن ذلك السرطان الأخطبوطى المدمر الذى كانته ، بل ستتقلص إلى مجرد بؤرة صديدية مزمنة ، أو قرحة حادة على الأكثر . وعموما يمكن القول بأن المعركة ، التى هى نقطة التحول فى الصراع كله بلا جدال ، هى نقطة انعكاس لا مجرد انكسار فى منحناه العام . وإذا كان عمر الضلع الصاعد من المنحنى هو ٢٥ سنة تقريبا ، فقد لا يزيد عمر الضلع الساقط عن هذا المدى نفسه ، وإن كان الجزم صعبا ، أو كما تقول الفيجارو «مصر وخلفها ٧٠٠٠ سنة من الحضارة تشتبك فى حرب طويلة الأمد مع اسرائيل التى تكافح اليوم لكى تعيش غدا ، ثم لا تفكر قط فيما قد تئول اليه بعد ٢٥ سنة مثلا» .

وإذا كان البعض منا لا يرى أن المعركة تثير مسألة بقاء اسرائيل ويتساءل عما إذا كان مثل هذا السؤال صحيحا أو مبررا علميا وموضوعيا على ضوء أبعاد المعركة ونتائجها ، فمما لا شك فيه أن السؤال غير وارد على المدى القريب أو المتوسط ، ولكن الأمر ربما اختلف على المدى البعيد ، كما أن العدو نفسه يثيره . أو كما قالت الصنداى تايمز «أن هذه الحرب (تعنى حرب اكتوبر) قد جعلت بقاء اسرائيل حتى نهاية القرن موضع تساؤل» . وعلى الأقل فليس هناك شك أن الحرب قد اثبتت أن اسرائيل تفتقر إلى مقومات البقاء الذاتى أو الاستمرار الذاتى . والواقع أن حرب اكتوبر كان لها من الآثار أعمق مما توقع لها الجميع . والخطر على الكيان الاسرائيلى نفسه مثار ، ليس لأن العرب يتحدثون عن تدميرها ، ولكنهم هم أنفسهم الذين يتساءلون ويتوجسون . الصحفى الصهيونى جوزيف كرافت ، مثلا ، تحدث عن «الزلزال الذى زعزع إسباب بقائها كله» . كذلك جاء أخيرا فى تقرير لروبرت سليتر مراسل اليونايتيد بريس من اسرائيل أن المفكرين الاسرائيليين أصبحوا الآن يفكرون فى مستقبل اسرائيل : بشعور من القلق لم يكن يخطر لهم ببال من قبل ، بل أن الزعماء الاسرائيليين مرغمون الآن على أن يلقوا نظرة جديدة على استراتيجية بقاء اسرائيل ، كما يعكف صانعو السياسة الآن على تحديد موقفها

على خريطتها الجديدة ، وهو ليس بالأمر الهين . وفي ذلك قال هازكابى أن الخطأ الأساسى التي وقعت فيه اسرائيل قبل اكتوبر هو أنها لم تدرك مأزقها فى العيش فى بيئة معادية ، وأنها كانت تقلل دائما من أهمية مشكلاتها مع العرب .

فإن هذا حدث ، والاتجاهات الجديدة استمرت ، فقد لا يأتى على اسرائيل سنة يقال لها سنة ٢٠٠٠ ، أو يفتتح القرن الحادى والعشرون ولا مكان على خريطة الشرق الأوسط لشيء يقال له اسرائيل . وأيا ما كان ، فلقد فقدت اسرائيل ماضيها بقدر ما فقدت الأمل فى المستقبل ، عادت دلة بلا مستقبل مثلما بدأت دولة بلا تاريخ . وبالمقابل ، فإن مستقبل الصراع عربى بقدر ما كان ماضيه اسرائيليا .

انقلاب التوازن العسكرى

ذلك فى بروفيله العام هو انقلاب التوازن الاستراتيجى ، نستطيع الآن أن نحلله إلى عوامل أولية خمسة : انقلاب التوازن العسكرى ، انقلاب الاستراتيجية الاقليمية ، الانقلاب السياسى ، الانقلاب النفسى ، الانقلاب الاقتصادى . فأما انقلاب التوازن العسكرى ، أولا ، فإن الحرب الرابعة - أو الرائعة إن شئت - قد جاءت لتنهى اسطورة العسكرية الصهيونية والقوة الاسرائيلية «التى لا تقهر» . فبعيدا جدا عن

أن تأتي الحرب الثالثة «آخر الحروب» في الصراع ، كما تاهت وتباهت اسرائيل طويلا ، جاءت آخر نصر عسكري تختطفه ، بينما خرجت من الحرب الرابعة وهي مهزومة فعلا بصورة أو بأخرى . بل خرجت منها وقد اتضح للاسرائيليين ، كما يقول اريك رولو ، «أن العرب كادوا أن يدمروا اسرائيل كلها لولا طائرات النقل الأمريكية التي نقلت اليهم الذخيرة والطائرات والأسلحة الحديثة . فلولا هذه المساعدات العاجلة لما أمكن لاسرائيل أن تواصل الحرب» . بل لولاها ، كما يضيف تقرير معهد الدراسات الاستراتيجية في السويد ، لكان الطريق إلى تل أبيب نفسها ورأسا مفتوحا أمام القوات المصرية تماما مثلما كان الطريق إلى القاهرة مفتوحا أمام القوات الاسرائيلية في ١٩٦٧ . لقد أثبتت المعركة أن اسرائيل ليست «فوق الهزيمة» ، وانما قابلة للهزيمة ، بل ومهزومة فعلا . أو كما وضعها البعض في سخرية بليغة كما هي لاذعة «أخيرا ، أثبتت حرب اكتوبر أن «الله ليس يهوديا» ، على الأقل إله الحرب! » ... أو كما تساءل حتى لاكير «ترى هل حدث للجيش الاسرائيلي ما حدث للجيش البروسي في عهد فردريك الثاني ، حيث كان أفضل جيش في أوربا لمدة عشرين سنة ، ثم انهارت بروسيا بعد موت ملكها في يينا وأورشتات؟» ..

والواقع أن من أخطر ما أثبتته حرب اكتوبر حقيقة نكاد لفرط ما بها من مفاجأة وبداهة معا أن ننساها ، وهي أن اسرائيل أضعف مما كان الجميع يعتقدون ، بما فيهم وعلى رأسهم اسرائيل نفسها . وإذا كان الاعتراف سيد الأدلة ، فإن اعتراف دايان سرا أثناء الحرب هو - بحكم منصبه - سيد الاعترافات . «ان الحرب قد أظهرت للعالم - صرح هو للصحفيين - أننا لسنا أقوى من المصريين ، وأن هالة التفوق والمبدأ السياسي والعسكري القائل بأن اسرائيل أقوى من العرب ، وأن الهزيمة ستلحق بهم إذا اجترأوا على بدء الحرب ، هذا المبدأ لم يثبت .. أننا سوف نضطر إلى أن نتعايش مع حقائق حياتنا ، مع شعبنا ، ومع العالم ، ومع العرب» .

هذا ولما كانت الحرب قد أثبتت أيضا بدء تحول التفوق العربي الكمي إلى كيفي ، فلا أمل أذن أمام اسرائيل في «الحل العسكري» قط بعد الآن . وإذا كانت القوة ، والقوة العسكرية بالتحديد ، هي أساس الوجود الاسرائيلي ، فالواضح المؤكد أن الطريق قد أصبحت مسدودة أمام العدو على المدى الطويل . لقد فقدت اسرائيل دورها الوحيد ، دور رجل البوليس المحلي ودور الرجل القوي («البلطجي») في المنطقة ، أو دور كلب الحراسة . البلطجي شاخ وهرم ، والكلب فقد أسنانه . وعلى أحسن الفروض ، لقد تحولت اسرائيل عسكريا من نمر ، لا

نقـول من ورق ، إلى ذئب ، إن يكن ضـاريا فـإنه قـابل للتـرويض وإلا فالتدمير .

وفى خـتـام هذا الموضـوع ، قد يكون من المفـيـد أن نسـرد بعض اقتباسات من بعض المصـادر العالمية ، بغض النظر عن مدى حيادها ، وكذلك دون تعليق منا ، فما أغناها عنه . قـالت النيوزويك «أن كل يوم يمر يحطم الأسـاطير التى بنيت منذ انتصـار اسـرائيل الساحق عـام ١٩٦٧ . ولقد كانت هناك اسطورة تقول أن العرب ليسوا محاربين وأن الاسرائيلي سوبرمان ، لكن العرب اكتشفوا أن الاسرائيلى رجل عادى» . وقالت الفيجارو «كل شىء حدث كان غير متوقع ، ولن تبقى الأمور بعد الآن كما كانت فى الماضى إن الاسرائيليين لم يعودوا سادة الموقف فى الشرق الأوسط . والعرب لم يعودوا المهزومين التقليدين» . والمعنى نفسه تقريبا تؤكده لاستامبا الايطالية : «ظلت اسرائيل تبدو كالقوة المسيطرة فى الشرق الأوسط حتى حرب يوم الغفران ، فى أكتوبر التى أكدت أن هذا الوضع قد انتهى» .

كذلك كتب الجنرال جاللو يقول «لقد حقق العرب انتصارا سياسيا ومعنويا مهما تكن النتيجة النهائية للحرب . فإذا ما انتصرت اسرائيل عسكريا (وهو ما لم يحدث) فإن ذلك سيكون الحرب الأخيرة التى تنتهى بانتصارها» (وهو ما لم يعد فيه شك) . وبالمثل كتبت الديلى تلجراف

«لقد أصبح من المستحيل أن تلحق اسرائيل بالعرب هزيمة حاسمة . ولقد جاءت الحرب الأخيرة نذير شؤم لما سوف تجلبه مواصلة اتباع السياسة الاسرائيلية الحالية . كما أن الخصم العربى كفء وقوى على نحو متزايد . كل هذا بالإضافة إلى معاناة اسرائيل من جرح سوف يستنزف كل قواها» . ولعل خير ما نختتم به هذه الاقتباسات ما قاله الرئيس بومدين بتحليل صائب كما هو ثاقب : «لقد ثبت أن انتصار اسرائيل فى الحرب مستحيل ، ولن تكون الكلمة لها فى معركة قادمة لأن عوامل نصرها تتناقص يوما بعد يوم» .

انقلاب الاستراتيجية الاقليمية

هذا الانقلاب أصبح حقيقة واقعة بفضل المعركة وحدها أيضا . فمنذ حرب ١٩٥٦ حين نفذت اسرائيل من مضيق تيران إلى البحر الأحمر والبحار الجنوبية وتسللت إلى افريقيا ، ولكن بالأخص منذ حرب ١٩٦٧ حين انفتح امامها طريق الجنوب على مصراعيه بلا رادع ، والعدو يحاول أن ينسج استراتيجية اقليمية واسعة طموحا ، لا يتخطى بها نطاق الحصار العربى فقط ولكن ايضا يضرب بها حصارا مضادا قاريا وبحريا حول العالم العربى ذاته جميعا . فمن خلال وجوده المتوسع والمستشرى فى افريقيا المدارية ، كانت اسرائيل تسعى لفتح جبهة عريضة فى ظهر العرب وظهيرهم القارى قل على

غرار ما حاولت البرتغال بصورة ما فى عصر الكشوف الجغرافية فى مناورة التفاف تضع بها العرب المسلمين بين فكى كماشة من شمال وجنوب .

وفي فترة ما بين الحربين ، ٦٧ - ١٩٧٣ ، ركزت اسرائيل على القطاع الشمالى من الجبهة في الشرق الأوسط والبحرين المتوسط والأحمر . وكانت خطتها العظمى أن تطوق العرب بمثلث تتوسطه هى وترتكز رءوسه على الأسطول السادس الامريكى في البحر المتوسط من ناحية وبعض الدول الصديقة فى القرن الافريقى والخليج العربى من الناحية الأخرى . وداخل هذا المثلث ، كانت تحلم بتحويل البحر الأحمر إلى «بحيرة اسرائيلية» أو خاضعة للسيطرة الاسرائيلية بالاشتراك مع الولايات المتحدة . وعلى هذا الاساس رسمت استراتيجيتها البحرية فى الأحمر ، وسعت إلى السيطرة على مدخله الجنوبى . ومنذ أوائل السبعينات كثر الحديث عن قواعد لها مؤجرة أو محتلة ، بحرية وجوية ، فى بعض جزر ذلك المدخل .

هذه الاستراتيجية الاقليمية كلها تحطمت على صخرة المعركة فى يوم وليلة . فمن قبلها ، ولكن أساسا أثناءها ، بدا «شلال» جارف من قطع العلاقات الديبلوماسية بين الدول الافريقية مع اسرائيل ، بحيث تم «طردها» من القارة تقريبا . ومن الناحية الأخرى مدت البحرية المصرية

المتفوقة ظلها وسيطرتها على البحر الأحمر ، وفرضت بالتعاون مع اليمن الجنوبية الشقيقة حصارا بحريا محكما على مضيق باب المندب . وقد أفقد هذا شرم الشيخ قيمتها الاستراتيجية على الفور ، وأثبت أن ليس لها كل تلك الأهمية الكبرى التى كانت اسرائيل تدعيها وتبنى عليها أطماعها التوسعية فى سيناء . أو كما قال القائد العام للقوات المصرية «إن شرم الشيخ لم تعد مفتاح ايلات ، وانما «نزل» المفتاح إلى أقصى الجنوب» عند باب المندب . ولقد اعترف بعض الاستراتيجيين الاسرائيليين بالفعل بأن المعركة «أثبتت أن شرم الشيخ لم تعد تعتبر حيوية لأمن اسرائيل» . ويمكن أن نضيف كذلك أنها أفقدت اسرائيل حرية الحركة البحرية تماما نحو الجنوب وتركتها «حبيسة» حقيقية للبحر الأحمر .

هذا الحصار المحكم ما معناه ؟ المعنى الأول أنه عقم ميناء العدو ايلات ، «نافذة الجنوب» ، وعطل حركة تجارة المزور على الطريق البرى بين البحرين . كذلك فإنه أوقف حركة التصدير والاستيراد جنوبيا ، وأخطر منه أوقف امداد العدو بالبترول الايرانى . وما فتئت اسرائيل تصرخ من هذا الحصار ، دون جدوى . ودون جدوى كذلك جاءت تحركات الأسطول الأمريكى فى المحيط الهندى وحوض بحر العرب ، البوابة الجنوبية للشرق الأوسط ، تلك التحركات - التحرشات التى

تحمل طابع التهديد الاستفزازى والتلويح بالتحدى للحصار المصرى لباب المندب .

والخلاصة الصافية هي أن مشاريع الحصار الاسرائيلى القارى والبحرى القديمة قد انقلبت رأسا على عقب لتقع هى فى حصار عربى مطبق برا وبحرا ، شمالا وجنوبا ، افريقيا وأسيويا . إنها صورة مرآوية معكوسة حتى التفاصيل ، ونمط جيوستراتيجي مقلوب ظهراً لبطن .

الانقلاب السياسى

أبرز ما انعكس اكتوبر داخل اسرائيل ، انعكس على الحياة السياسية . فمنذ اكتوبر تعيش اسرائيل فى أزمة سياسية خانقة ومزمنة ، تتعاظم كل يوم وتتفاقم ككرة الثلج . فالصراعات والتصدعات الداخلية ممثلة فى الصدامات الحزبية وتضارب جماعات المصالح والضغط وتحولات الرأى العام ثم أنهيار مكانة المؤسسة العسكرية أصبحت كلها نظام الحياة السياسية اليوم ، ووصلت فى وقت ما إلى حد احتمالات انقلاب على الطريقة الاسرائيلية ، أى انقلاب عسكرى صامت بلا رصاص ، انقلاب ائتلافى أو غير ائتلافى فى الحكم . ولئن كانت الانتخابات الأخيرة لم تحقق هذا الاحتمال ، فإن كل الدلائل الراهنة تشير إلى أنه لم يستبعد بعد تماما .

وفي ظل هذه الفوضى النيابية المربكة ردد البعض ، مثل عضو الكنيست شموئيل تامير ، أن أخطاء الحكومة القاتلة التى أدت إلى كارثة يوم الغفران مازالت قائمة ، بينما دعا البعض الآخر علنا . مثل رئيس تحرير ايديعوت آحرونوت، إلى «اقامة حكومة عسكرية وإلى الغاء جميع الحريات الديموقراطية» . بل لقد أشارت وكالات الأنباء الامريكية مرة إلى مؤامرة انقلاب يعدها دايان بتأييد امريكا للاطاحة بمايير (؟) .

ومن جهة آخرى وصلت أزمة الحكم وصراع السلطة إلى حد البحث في قيام أول حكومة أقلية في اسرائيل منذ نشأتها ، وذلك بعد أن هوت المعركة بالأغلبية البرلمانية لحزب العمل الحاكم إلى الحد الأدنى وبعد تفسخ الائتلاف الوزارى المتراخى تحت وقر المشاكل المصيرية التى أثارتها الهزيمة . وقد كانت تلك هى الأزمة الطاحنة التى شقت حزب العمل وهددت بتمزقه وباعتزال دايان، الذى طالب الكثيرون برأسه، ثم مايير التى صرحت (أو صرخت!) وقتئذ أن الحزب «ينتحر على طريقة الهاراكيرى» . ولم تسو الأزمة مرحليا بعودة الحكم الائتلافى إلا كحكومة انقاذ وتحت ضغط الموقف العسكرى المتفجر على جبهات القتال وبخاصة الجبهة السورية.

غير أن الأزمة لم تلبث أن عادت متجاوزة كل الحدود والأبعاد والأغماق المتوقعة وغير المتوقعة بل وغير المتصورة . وكان نشر تقرير لجنة تحقيق اجرانات هو زناد التفجير ، وان كانت هزيمة أكتوبر هي بالطبع القنبلة الموقوتة الكامنة أسفل هذا كله . فقد أدانت اللجنة رئيس المخابرات زئيرا ورئيس الأركان اليعازر وحملتهما مباشرة مسئولية النكسة ، فاستقالا ، ولكن بعد أن نقل اليعازر الاتهام إلى دايان ، الذى نقله بدوره ولكن بطريقة ملفوفة إلى مايير ، بينما عممت المعارضة الاتهام على الحكومة بأكملها باعتبارها مشتركة دستوريا في المسئولية الوزارية ، وأخيرا ألقى شعب إسرائيل بدوره بالاتهام على الحكومة والمعارضة جميعا باعتبارهما معا طبقة الساسة والحكام المحترفين.

وهنا عاد الصراع يتركز داخل الحكومة ، واستقطب بالتحديد داخل العسكريين ، أى داخل المؤسسة العسكرية . بين القيادة العليا والدائرة المحيطة مباشرة ، أو بين دايان فى جانب والوزراء العسكريين الثلاثة بارليف ورابين وياريف فى الجانب الآخر، وكان صراع العسكريين هذا ، كما صرحت مايير ، هو الذى فجر الحكومة من الداخل . وهنا لم تملك مايير إلا أن تعلن أنها قد وصلت إلى نهاية الطريق وأنها لم تعد قادرة على الاستمرار فى حكم هذا البلد «الذى أصبح من الصعب جدا على

رئيس حكومة أن يتولى أموره» ، وقدمت استقالتها لتعتزل إلى الأبد . غير أنها عادت فاضطرت إلى الاستمرار كحكومة انتقالية مؤقتة ريثما ينجح خليفتها المرشح رابين، الذى ظفر بالترشيح على منافسه بيريز، فى تشكيل حكومة جديدة ، الأمر الذى ظل معلقا لفترة طويلة.

فبغض النظر عن الأطماع والمنافسات الشخصية لآخرين فى الرياسة، فان هناك الخلافات الحزبية الأساسية الحادة . كتلة ليكود المعارضة عرضت نفسها بالفعل على رئيس الدولة لتولى الحكم كبديل عن حزب العمل المنقسم والمعراخ المهدد . والحزب القومى الدينى يشترط اشراك ليكود فى الحكومة الجديدة لتكون ائتلاف وحدة وطنية شاملة . كذلك يفعل الأحرار المستقلون الذين يرفضون رياسة رابين ولو بالائتلاف القديم . هذا على حين لم تقبل مايير مطلقا برابين مرشحا لخلافتها .

وعدا هذا فلقد حذرت مايير مرارا، من بعد كما من قبل فى الانتخابات، من اشراك ليكود بأى صورة ، إذ أنها «واثقة تماما أنه إذا وقعت زعامة الدولة فى أيدى ليكود فان هذه ستكون كارثة حقيقية بالنسبة لإسرائيل»، لماذا ؟ - لأن «تشكيل حكومة وحدة وطنية تشترك فيها كتلة ليكود اليمينية المعارضة من شأنه أن يخلق أزمات جديدة بين

الولايات المتحدة وإسرائيل» . لماذا مرة أخرى ؟ - «لأن الولايات المتحدة ، المورد الأساسي للأسلحة لإسرائيل ، لن ترتاح إليه». وعلى النقيض تماما من هذا ، كان هناك رأى يقول «يجب ألا تتركوا مابير تقود الحزب ، لأنها لو بقيت أكثر من ذلك فسوف تسلم البلاد إلى كتلة ليكود» !

وهكذا ، سلسلة من المتناقضات والتضارب لا تنتهى . وإذا كان حزب العمل قد قرر نهائيا تشكيل حكومة أقلية ، لأول مرة فى تاريخ إسرائيل ، وبدون الحزب القومى الدينى لأول مرة أيضا ، فان هذا الوضع الجديد لا يبدو مستقرا أو قابلا للاستمرار طويلا. ولازالت إسرائيل تبحث عن حكومة ، والحكومة عن رئيس . فإذا لم تنجح ، فقد ترغم على العودة إلى الانتخابات من جديد فى غضون شهور فقط من انتخاباتها العامة الأخيرة . ولازالت الأزمة مستمرة . . ان إسرائيل معلقة سياسيا فى الداخل ، تماما كما هى فى الخارج .

والسؤال الآن : ما معنى أزمة الحكم والسياسة المستعصية هذه، وما هو مغزاها الصراعى بالنسبة لنا ؟ من أطناب التزيد وحده بالتأكيد أن نقول أن هذه الأزمة هى النتيجة الحتمية والنهائية لمعركة أكتوبر ونكسة إسرائيل فيها . ولئن كانت إسرائيل قد انفقت شهورا ترفض

الاعتراف بالهزيمة أو تقاوم الاعتراف الكلى بهـا ، فان هـذا الشرخ السياسي العميق انما هو الآثار المتخلفة belated effects للزلزال الاستراتيجي الذى صدع الكيان الإسرائيلى بعد عملية «البركنة» العسكرية العربيـة المدمرة . لقد تحـولت الصدمة التى هزت إسرائيل إلى صدع ، والصدع إلى صراع ، ثم الصراع إلى صرع !

إن سقوط حكومة مايير هو سقوط وزارة الحرب وحكومة المعركة، وهو أول ظهور كامل وعلني لنتائج أكتوبر . وهو كذلك دليل على مدى فداحة الشرخ الذى فلق البناء السياسي الإسرائيلي ، الصرح والأساس ، أى الكيان برمته . وهو ليس شرخا بسيطا أو خللا سطحيا ، بل هو انكسار متعدد الأعماق والمستويات والشقوق ، رأسي وأفقي ، بالعرض والطول ، سطحي وجذرى ، غائر وزاحف ، موضعي وجسدى .. إلخ . والحقيقة أنه لا يقل عن إنقلاب سياسي كامل، يأخذ شكل إنقلاب عسكرى بالتحديد ، وانما على الطريقة الإسرائيلية ، وربما بصيغة جديدة . ولهذا فالأزمة ليست أزمة فرد (دايان) ، ولا حكومة (مايير) ، ولا نظام (المؤسسة العسكرية) حتي كيان (إسرائيل)، وانما هى أزمة هذا كله .

فعلى المستوى الفردى ، لقد سقط دايان أخيرا نهائيا وإلى الأبد ، ليس منذ رشح رابين للخلافة دونه، ولكن منذ طالب ياكوف شابيرو لأول مرة باستقالته ، بل بالأحرى منذ وطئت قدم أول جندى مصرى أرض سيناء. ولقد تعرض دايان منذ ذلك الوقت لهجمات قاسية ولحملات تحقير لا تتصور، فى حرب الجنرالات ، فى معركة الحزب ، فى كواليس مجلس الوزراء ، فى أروقة الكنيسيت ، فى الشارع ، من رؤسائه ومرءوسيه ، من المعارضة ومن أتباعه وحوارييه ، من المجندين والمدنيين ، ومن الشباب والشيوخ. وأصبح حامى إسرائيل وملكها السابق يوسم ويوصم علنا «بوزير العار» «ورمزا لكل ما هو خطأ فى إسرائيل» ، موضع سخط الجميع والمشجب التى تعلق عليه كل الأخطاء .

وقد حاول دايان أن يقدم اليعازر كبش فداء لينجو برأسه أو بجلده ، ولكنه لم يلبث أن أصبح الضحية ، وإن جر معه مايير وحكومتها إلى المذبح . وإذا كان دايان قد ظل هكذا يقاوم الموت ويتشبث بحلاوة الروح حتى آخر رمق وإلى آخر لحظة ، فالحقيقة أنه انما كان يحتضر أثناء المعركة ، وبعدها مباشرة مات ميتة طبيعية ، وإن لم يدفن إلا بالأمس القريب فقط حين صدر تصريح الدفن باستقالة مايير . وكما ولد فى سيناء — هو من مواليد ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ — دفن أيضا فى سيناء ، سيناء

آكتوبر . على أنه يستطيع الآن أن يستريح فى قبره، بعد أن أطاح برأس الحكومة مثلما فقد رأسه ، محطما المعبد على رأسه وعلى رءوس اعدائه .

أما عن الحكومة ، الائتلافية ، فقد كانت حلبة للصراعات الفردية والحزبية الضارية من كل نوع وعلى كل مستوى . ولقد اعترف ايبان أن «هناك أزمة ثقة ، ليس فقط فى المعراخ وحده ، بل داخل كل الأحزاب». وهذا صحيح ، ولكنه دون الحقيقة . فحزب العمل يتفتت ويتآكل من الداخل بالصراع بين السياسيين والعسكريين ثم بين العسكريين والعسكريين ، وكان هذا الاخير هو الذى أسقط الحكومة مباشرة . وبسقوطها سقط «الحرس القديم» . ذلك الذى حكم الدولة منذ أقامها ، والذى تكون من شيوخ المهاجرين القدامى وأبناء الأجيال المخضرمة أمثال مايير وسابير وجاليلى (ومن قبل بن جوريون وشاريت وأشكول).

ولقد كان ذلك أيضا رمزا ونتيجة لصراع الأجيال المزمن والحاد فى إسرائيل . فلقد كان الشباب ينظر إلى القيادات الحاكمة على أنهم أولئك المهاجرون من الروسيا وبولندا منذ ٤٠ سنة ، الذين تحجرت عقولهم وعقائدهم على قوالب عتيقة عاجزة عن التطور ولم تعد قابلة للحياة ولا بقادرة علي أن تتناغم مع متغيرات العصر ومن المشكوك فيه الآن أن

تتغير أو تتعلم . والانتقال الآن من زعامة مايير إلى زعامة رابين، إذا تحققت ، هو انتقال من قيادة جيل الرواد المهاجرين إلى جيل الصابرا من شباب مواليد فلسطين المحتلة.

وبينما يحدث هذا داخل الحزب الحاكم ، فانه يحاصر باطراد من الخارج ويكاد يختنق بمنافسة الأحزاب الأخرى التى تحمله مسئولية الكارثة التى حلت بإسرائيل ، وتتربص به وتنتظر سقوطه . ولكن تلك الأحزاب نفسها تعانى هى الأخرى من الداخل وتتقلب صفوفها وتختل ولاءاتها التقليدية. والكل يعمل - يبدو - بمبدأ «علىّ وعلى أعدائى» . لقد انكشف زيف اسطورة الديموقراطية الشكلية الإسرائيلية ، عرتها حرب أكتوبر وأزالت القشرة الهشة عن مجتمع الحكم العسكرى الكامن فى كيان الدولة.

لكن هذا كشف بدوره عن أزمة النظام . أزمة المؤسسة العسكرية الحاكمة . فهذه المؤسسة، التى تمثل قمة السلطة الحقيقية فى إسرائيل وحاكمة الحكومة ودولة فوق الدولة، قد تلقت ضربة قاصمة بالهزيمة العسكرية، وأصبحت مكانتها موضع تساؤل بل وشجب صريح من كل الأحزاب والسياسيين والطوائف والأجيال والمدنيين بل والمجندين . هوت إلى الحضيض سمعتها ، بينما هوت آلهتها وأصنامها إلى الأبد، ابتداء من دايان إلى شارون ، فلم يعد، ولن يكون بعد ، فى إسرائيل ملك ولا

بطل ولا منقذ ولا «موسى» جديد . ولكن المؤسسة العسكرية تحارب بشراسة من أجل الحفاظ على مصالحها ووجودها وسيطرتها . ومن أجل هذا دار الصراع داخلها ، وبسببه سقطت الحكومة الائتلافية.

ولكن الغريب أن الحكم سقط كالثمرة الناضجة فى أيدى المؤسسة . فلعل أبرز مغزى لانتقال الحكم - إذا الأمر تم - من مايير إلى رابين هو انتقال قمة القيادة من أيدى السياسيين المدنيين إلى أيدى الساسة العسكريين. فإذا نجح رابين فى تشكيل حكومة ، فسيكون أول رئيس وزارة عسكرى يحكم إسرائيل منذ انشائها . ولهذا فان الأزمة السياسية الخطيرة التى تعيشها إسرائيل الآن أدنى أن تكون بالفعل انقلابا عسكريا على الطريقة الإسرائيلية وانما بصيغة جديدة مختلفة عمل حدث عشية حرب يونيو مثلا .

لقد تلقت المؤسسة العسكرية فى إسرائيل أول لطمة مهينة ومزلزلة فى تاريخها ، ولكنها للغرابة والدهشة برزت منها وهى على قمة السلطة . وان دل هذا على شىء فانما يدل يقينا على أن الكيان الإسرائيلى في جوهره كيان عسكرى لا غنى له عن مؤسسته العسكرية منتصرة كانت أو منهزمة. غير أنه أيضا مؤشر بليغ إلى اتجاهات المزاج الإسرائيلى الكامنة واحتمالات حركته فى المستقبل ردا على الهزيمة.

كذلك فلعل «عودة» المؤسسة إلى الصدارة على هذا النحو المتناقض هو نوع من الاعتراف والتعويض الصامت بأن الخطأ لم يكن خطأها وحدها، بل خطأ جهاز الحكم ونــواة الدولة كلها، عسكريا وسياسيا وغير ذلك . ولكن الذى لا يبدو أن الإسرائيليين قد فطنوا إليه بعد واستوعبوه جيدا هو أن مثل هذا الاعتراف انما يعنى أن الخطأ الجوهرى كامن فى الكيان ذاته ، فى الوجود الصهيوني ومبدأ الدولة اليهودية على أرض فلسطين المغتصبة واستراتيجية إسرائيل نحو العالم العربي . غير أن هذا موضوع آخر، وهو بالدقة ما سيقرر مصير الدولــة فى المدى البعيد ، فضلا عن احتمالات المستقبل في المدى القريب.

ولكن هذا الانقلاب السياسى الضارب فى أطناب العدو ، ماذا يعنى فى النهاية من المنظور العربى ؟ كما قال المناضل ياسر عرفات في حديث له إلى مصطفى نبيل بالمصور أنه لا يعنى إلا «عمق الأزمة التى ولدتها حرب رمضان ، والتفسخ والضعف اللذين تمر بهما إسرائيل» . وهنا يجدر بنا أن نسجل ملاحظة هامة . لقد عشنا طويلا وسياسة القوة والردع «والحملات التأديبية» الإسرائيلية تتحكم أحيانا بل كثيرا فى السياسات العربية الداخلية البحتة ، تحدد حريتها فى الحركة والعمل داخل ذات حدودها، وتفرض عليها بطريق غير مباشر أن تفعل هذا ولا

تفعل ذاك، بل وفى النهاية تسقط الوزارات وتقيمها .. إلخ . حدث هذا مثلا فى محاولة تحويل مجرى نهر الأردن قبل يونيو حين أجهضت إسرائيل المشاريع العربية بتهديد القوة، وحدث بعد يونيو فى صورة اسقاط أو تشويه زعامات عربية كانت عتيدة ، وحدث في لبنان حيث تعدد سقوط الحكومات بصورة مؤسفة تحت ضربات إسرائيل وعربدتها العسكرية بحرية كاملة داخل الحدود .. إلخ.

لكننا الآن ولأول مرة نشهد المشهد معكوسا : المسرح السياسى فى إسرائيل أصبحت القوة العربية المنتصرة هى التى، على البعد ، تؤثر فيه وتحكم اللعبة السياسية وتلعب بالسياسات الحزبية إلى حد ما وتعكس ظلها على أزمات الحكومة فى إسرائيل بدرجة أو بأخرى. انقلاب هام كما هو دال ! ولعل آخر وأبرز مثال له هو أزمة الحكم الأخيرة فى إسرائيل وتشكيل الوزارة الجديدة بعد الانتخابات . فلقد كان تفاقمها آثرا مباشرا من آثار معركة أكتوبر ، كما كان الاسراع المهرول إلى احتوائها بأى ثمن نتيجة مباشرة لضغوط الجبهة السورية التى لم يتم الفصل بين القوات عليها بعد . وأخيرا كان سقوط وزارة مايير ، وتعثر تأليف وزارة بعدها على يد رابين ، لوقت طويل ، ثم ضعف هذه الوزارة البادى، تعبيرا عن عمق الطعنة التى وجهها العرب إلى قلب إسرائيل السياسى . لقد أسقط العرب الحكومة الإسرائيلية لأول مرة منذ ربع قرن.

الإنقلاب النفسى

من المظاهرات الدالة ، والتي لا تخلو من مؤشرات طريفة ومسلية أيضا ، أن الميزان النفسى وتوازن المعنويات قد انقلب هو الآخر ما بين العرب وإسرائيل نتيجة للمعركة ، فقد انعكست كل الأوضاع والأحوال والملابسات والأدوار بين الطرفين فيما قبل أكتوبر وبعد أكتوبر أو بالأصح فيما بعد يونيو وبعد آكتوبر . فكما يقول لاكير : «ربما كانت أهم نتيجة درامية لحرب الأيام الستة هى المحصلة النفسية. فقد كانت إسرائيل تعانى من مرض الاختناق فى الأماكن المغلقة . وعندما تحولت إلى دولة أكبر اختفى الشعور بأنهم محاطون بسور من كل جانب . وكان هذا أول تغيير كيفى ، وكانت هناك رغبة جارفة فى عدم العودة إلى الاختناق القديم». ولكن حرب أكتوبر عادت فقلبت الميزان النفسي وأعادت الشعور القديم بالاختناق والحصار مضافا اليهما الانكسار.

فهم الآن الذين يعيشون فى بكائية وطنية كبيرة بحيث تحولت إسرائيل كلها إلى «حائط مبكي واحد» . «ان الشعور بالأسى» ، أذاعت وكالة أنباء من تل أبيب «يسود شوارع إسرائيل حيث الوجوه مقطبة وجامدة . ولم يحدث من قبل أن تركت حرب مثل هذا الشعور بالحسرة والمرارة فى إسرائيل ، وما عاد يتردد فى إسرائيل اليوم سوى حديث

الموت هنا وهناك». يحدث ذلك بعد أن كانت الأراضى المحتلة هى «مبكى العرب الكبير» ، كما وصفوها هم أنفسهم بعد يونيو سخرية وشماتة . وهم الآن الذين يقولون أنها حرب حياة أو موت والذين يتساءلون – حرفيا – «أن نكون أو لا نكون» ، السؤال الهاملتى الشكسبيرى الذى كنا نردده بعد يونيو . وأخيرا وليس آخرا فانهم هم الذين يعانون بصورة فادحة وصارخة من تمزق وانهيار الوحدة الوطنية، فى الوقت الذى تلاشت فيه هذه المشكلة من المجتمع العربى نهائيا وأصبح التلاحم الوطنى فيه أقوى منه فى أى وقت مضى.

وفيما عدا هذا ، فيبدو أن المراحل النفسية الدرامية والمأساوية التى مررنا نحن بها بعد يونيو ، تعيشها إسرائيل الآن تباعا مرحلة بعد أخرى! فبعد صدمة الذهول التى أحدثتها الضربة العربية التاريخية ، تلك التى وصفها الرئيس بأنها «ضربة لن تنساها إسرائيل إلى الأبد» ، اجتاحت العدو ، فضلا عن الحقد المكبوت والمكتوم ، موجة كثيفة من الحزن والقهر والكمد الكظيم أو المتفجر . وأغلب الظن أن إسرائيل الآن لا تزال فى مثل المرحلة التى مررنا نحن بها عقب يونيو مباشرة حين كنا بين تصديق وتكذيب لم نزل وحين لم نكن قد وعينا بعد المعنى الرهيب للهزيمة بكل ثقلها ووقرها وضغوطها المخيفة وبكل محمولاتها وتداعياتها وأخطارها البعيدة المدى. وحين تفيق إسرائيل من آخر بقايا أوهام

الماضي ، فستدرك تمـــاما ذلك المعنى ، لتدخل به مرحلة جديدة قد تكون أشد خطرا هي مرحلة اعادة التفكير في الذات والغوص في الأعماق . وحـين تفعل ، فستكون أعمق هذه الأعماق هي فكرة «الأمن» ، العمود الفقري في الوجود الإسرائيلي، والكلمة التي أدمنت إسرائيل ترديدها في العالم منذ نشأتها أكثر بالتأكيد من أي كلمة أخرى في قاموس السياسة العالمية جميعا ، وربما إلى درجة الملل والغثيان بالفعل .

أما الآن فانها مرحلة الانهيار النفسي الداخلي وتعذيب الذات بعد مرحلة الانبهار الذاتي والنرجسية المفرطة والبارانويا السادرة التي أزمنت طويلاً. وأصبحت إسرائيل نموذجا مجســما للباثولوجيا النفسية والاجتماعية إلى جانب كونهـا أصلا دراسة في البـاثولوجيـا السياسية والاستراتيجية . وهكذا بدأت سلسلة الاعتراف بالخطيئة وعملية الاستبطان الداخلي بل والنــدم وان يكن الـشانيء لا التائب . ولدينا في هذا الصدد مجمــوعة من الاعترافات «والبكائيات» بأقلام العدو ، كتبها صحفيون وساسة وعلماء نفس . وكلها في غنى عن التعليق ، ويكفينا منها مجرد السرد والاقتباس . ولعل من المناسب، مـا دمنا نتكلم عن الانقلاب النفسي ، أن نبدأ بعلمـاء النفس والسيكولوجيين.

تعددت شهادات هؤلاء الاخصائيين ، ولكنهم أجمعوا على أن إسرائيل خرجت من حطام الحرب وهى تشعر بالتوتر والقلق والاضطراب أمام مستقبل غير مؤكد ولا مضمون ، وان هذه الحالة العصبية انعكست في شكل زيادة ملموسة في عدد المترددين على مراكز الصحة النفسية والعصبية أثناء الحرب وبعدها . وقال طبيب نفسي بارز في جامعة تل أبيب إنها حرب مريرة حتى أن الناس لا يشعرون بسعادة إذا بلغتهم أنباء طيبة، ثم تنبأ بأن الأثر النفسي للحرب على الإسرائيليين سيكون أشد وأقوى على المدى البعيد لأن «جميع زعمائنا الأحياء الذين كنا نؤلههم قد خذلونا . بل وخذلتنا الأفكار كذلك» . وأضاف المصدر نفسه أن العرب نتيجة للحرب قد «زاد احترامهم لأنفسهم ، بينما كف الإسرائيليون عن أن يعتبروا أنفسهم من طبقة الإنسان السوبرمان والعرب أقل منهم مستوى على الدوام».

وقال عالم نفسي آخر أن الحرب قد أعادت إلى أذهان الإسرائيليين شيئا يعرفونه دائما ولكنهم كانوا يؤثرون تجاهله في الماضي، وهو أنهم يعيشون في دولة صغيرة يحيطها «أعداء» . وأرجع العالم خطورة الاستجابة العربية في أكتوبر إلى الاستفزاز الإسرائيلي الغر. فقال «لقد بنينا جيشا كبيرا ولكننا في الوقت نفسه خلقنا جو الحرب والتحدى لجيراننا . وكنا نسألهم : ألا تستطيعون أن تكونوا مثلنا ؟ أليس في

قدرتكم أن تقاتلوا مثلما نقاتل ؟ قالوا بلى ، نستطيع . وهذا ما فعلوه . وأعتقد أن الحرب الأخيرة كانت دورهم ليصبحوا الأبطال، وليغيروا الصورة التى كانت فى أذهاننا».

فإذا انتقلنا من علم النفس إلى عالم الصحافة ، وجدنا العينات بلا حصر. مثلا كتب كاتب منهم أن معركة أكتوبر «نسخت كل المفاهيم السياسية والعسكرية التي اكتسبناها من يونيو» . وقال آخر انها «أعادت شعورنا بالخوف على حقيقة كياننا كما كنا سنة ١٩٤٨»، وأضاف ثالث «إننا نحس كما لو كنا نعيش بعد زلزال أصاب بلادنا» . وفى المعنى نفسه قال معلق إسرائيلى معروف «اتضح لنا فى النهاية أن مجتمعنا الصغير الأنيق كان يعيش داخل قشرة بيض سهلة الكسر». أما صحيفة معاريف فقد كتبت ما مؤداه أن إسرائيل كانت تعيش في «جنة البلهاء fools' paradise »، فأتت حرب يوم الغفران كضربة مارد جبار أو كصاعقة البرق فأيقظتها منها. وقالت هاآرتس «السؤال المطروح، إذن ، هو : إذا كنا قد عجزنا عن تدمير المعدات «السوفيتية» (كذا) وابادة الجيش المصرى، فما الذى أحرزناه إذن ؟» ثم أجابت قائلة «أن المكسب المهم ، والوحيد ، لنا هو العبرة من حرب يوم الغفران. لن يكون هناك مجال لعدم المبالاة والتبجح ولا للحديث عن الاستعداد لامتصاص الضربة الأولى». وباللهجة نفسها كتب شبتاى نيفيت ، وهو

معلق عسكرى ، يقول «لقد لقن الجنود العرب إسرائيل درسا بأنها بالغت إلى حد السفه فى الثقة بالنفس» وبالمثل قال ميكونس عضو الكنيست انه بعد مرور ٢٥ سنة من غسيل المخ المنظم والعامد أصبح يسود إسرائيل الآن شعور بعدم الثقة .

كذلك نشر أخيرا فى إسرائيل كتاب عن محنة أكتوبر وضعه مجموعة من الصحفيين ، اعترفوا فيه أولا بأنهم كبقية الكتاب الإسرائيليين قد «شاركوا فى نشر الاستخفاف والاستهتار العام بالعدو ، والثقة المبالغ فيها بالنفس، فكان ذلك مساهمة فى الخلل العام الذى أدى إلى الحرب ونتائجها» . أما عن هذه فقد قالوا «لقد رأينا الحرب ووجهها الخفى عن الكثير من الأعين. وعدنا من الحرب جزءا من شعب مهموم قلق تلاحقه علامات الاستفهام. ووقفنا مشدوهين أمام أولئك الذين يحاولون الاستمرار وكأن شيئا لم يحدث وكأن الحرب التى وقعت لم تغيرنا جميعا . وقفنا مذهولين أمام محاولات التغطية والتضليل واخفاء الحقائق التى أدت إلى هذه الحرب، وأوهام القادة الذين يحاولون التنصل من المسئولية الرهيبة : ونحن لا نريد المساهمة فى مؤامرة الصمت التى أدت إلى هذا الزلزال».

أما على المستوى السياسى فقد اعترفت مايير بأن صدمة حرب اكتوبر قد غيرت الحياة فى إسرائيل وتركت آثارها «على أفكارنا

وأعمالنا وطريقة حياتنا في جميع المجالات». وقبيل سقوط حكومتها نهائيا عادت إلي النغمة نفسها قائلة ان إسرائيل قد تلقت صدمة عنيفة وقوية، «ولن تعود إسرائيل قط كما كانت». ويكاد دايان أن يكرر المعني نفسه . «كانت حرب آكتوبر» قال هو في ديسمبر ١٩٧٣، «بمثابة زلزال تعرضت له إسرائيل . وما حدث في هذه الحرب قد أزال الغبار عن العيون وأظهر لنا ما لم نكن نراه قبلها . وكل هذا أدى إلي تغيير عقلية قادة إسرائيل . غير أن أيام إسرائيل العصيبة القصوى لم تحدث بعد ، وعلينا أن نبقى صامدين خلال فترة المحنة التى ماتزال أمامنا».

أما ايبان فقد قال «لقد كنا نعيش في وهم الدولة القوية منذ ١٩٧». وايبان بالتحديد واحد من أكثر من تحدثوا بلا تحفظ عن اسراف الإسرائيليين في الاعتقاد فى تفوقهم والتفاخر الفج الأجوف بقوتهم ، ودعا الإسرائيليين إلى التواضع وعدم المبالغة فى أسلوب «البلاغة الوطنية» . ففى أكثر من حديث له قال ان كل شيء قد تغير بالنسبة لإسرائيل بعد حرب أكتوبر ، فقد تمكن العرب من أن يقنعوا العالم كله بقدرتهم على حمل السلاح ، وتمكنوا من استعادة كرامتهم. ثم أضاف أن نتائج حرب يونيو كانت قد خلقت «اقتناعا فكريا خطيرا» بان إسرائيل لا تقهر، ولقد «جعلنا ذلك مغالين أكثر مما ينبغي في الثقة

بانفسنا وأكثر عنفا مما ينبغى ، كما اننا أدلينا فى أحيان كثيرة بخطب رنانة تفتقر إلى التروى».

غيـر أننا لا شك نصل إلى ذروة الاعتـراف مع كـاتزير، رئيس إسرائيل. «ان إسرائيل» ، قال هو فى حديث موجه لمواطنيه ، «كانت تعيش فيما بين سنتى ١٩٦٧، ١٩٧٣ فى نشوة لم تكن الظروف تبررها. بل كـانت تعيش فى عـالم خـيالى لا صلة له بالواقع . إن هذه الحالة النفسية مسئولة عن الأخطاء التى حدثت قبل حرب أكتوبر وفى الأيام الأولي للحرب ، لأنهـا كـانت قـد تفـشت فى كل المجالات العسكرية والسياسية والاجتماعية وأحدثت بها مواطن ضعف خطيرة يجب أن يشترك الإسرائيليون جميعاً فى تحمل مسئوليتها .. يجب علينا أن نتعلم بعد هذه الحـرب الفظعـيـة أن نكون أكثر تواضعـا وأقل نزوعا إلى المادية .

ولعل هذه الاقتباسات – الاعترافات فيها الكفاية آو أكثر من الكفاية لتصـور حقيقة السيكولوجية الإسرائيلية بعد الهزيمة ، سيكولوجية الهزيمة. وواقع الامر أن إسرائيل، التى أسكرتها خمرة النصر مرارا وطويلا، كـانت كأى مدمن مزمن تعيش فى أحلام يقظة وفى حالة من الغيبوبة السياسية – الوطنية أفاقت منها فقط على وقع الحقائق الصادمة والصدمة السيكولوجية القاسية.

ولسوف يكون لهذا الوعي المسترد ما بعده . فإذا كانت الضربة العسكرية التى تلقتها إسرائيل بمثابة العوامل التكتونية، أى انفجارات الأرض الباطنية من زلازل وبراكين بلغة الجيولوجيا ، فان آثار الهزيمة النفسية وفعلها هى بالضبط بمثابة عوامل التعرية في التشبيه ، بطيئة سارية وخبيثة، ولكنها مؤثرة ومدمرة إلى أبعد الحدود ، تتسلل وتتسرب إلى الأعماق فلا تنتهى إلا بالتقويض الجذرى والانهيار من الداخل. إنها حرب المدى البعيد والنفس الطويل.

الانقلاب الاقتصادى

قبل حرب يونيو ١٩٦٧ كانت إسرائيل تمر بأزمة اقتصادية حادة ومستحكمة ، كان من أبرز أعراضها تضخم شديد أدى إلى سلسلة من خفض العملة وبطالة قدرت بنسبة ١٠٪ من مجموع القوة العاملة وتدهور في مستوى المعيشة وتزايد في عجز الميزان التجارى وميزان المدفوعات ثم تواتر فى الاضرابات المتلاحقة، وحتى الهجرة الخارجة فاقت تقريبا الهجرة الداخلة . وكما كانت الأزمة دافعا جوهريا من دوافع الحرب ، وكانت الحرب مخرجا مقصورا من الأزمة ، جاءت الحرب فعلا بموجة من الرخاء الشديد . فلقد تدفقت القروض والمساعدات على إسرائيل المنتصرة، وتكاثرت بها «مؤتمرات المليونيرات» من يهود العالم ، وانهالت عليها الهبات ومشاريع

التنمية المشتركة ، كما عاد ميزان الهجرة اليهودية فانقلب لصالح اسرائيل.

ونتيجة لهذا كله ارتفع معدل التنمية ونمو الإنتاج والدخل القومى فى إسرائيل حتى وصل فى بعض السنوات إلى ١٠٪، ١١٪، كما تحققت العمالة الكاملة، بل واستوعبت أكثر ما استطاعت أن تستقطبه من الأيدى العاملة العربية في داخل الأراضي المحتلة، وارتفع مستوى المعيشة بصورة ملحوظة ، وبدت إسرائيل كلها وكأنها مشروع استثمارى ناجح للغاية لا ينقصه حتى مغانم الحرب الدسمة وموارد الأراضى المحتلة الجديدة ابتداء من بترول ومنجنيز سيناء إلى برتقال وحمضيات غزة وفواكه وخضراوات الضفة الغربية إلى أسماك البردويل والعقبة.. إلخ . لقد اثبتت التجربة مرة أخرى أن إسرائيل «تعانى» من «حالة» السلام اقتصاديا مثلما تعانى سياسيا واجتماعيا ، بينما تفره على العكس وتزدهر على حالة الحرب وذلك في تلك المجالات كلها على السواء . وبدأت السنوات السبع السمان.

هذه القاعدة القديمة جاء أكتوبر ليكسرها ويقلبها رأسا على عقب. فكأول هزيمة عسكرية حقيقية تلحق بإسرائيل، انكشف الاقتصاد الإسرائيلى على حقيقته، وتعرضت إسرائيل لأسوأ أزمة اقتصادية وحالة انكماش عرفتها منذ نشأتها . فالخسائر الجسيمة فى السلاح

والمعدات ثم نفقات استعاضتها بجديد ونفقات القتال والتعبئة وانخفاض الإنتاج مع تناقص الصادرات وتزايد الواردات، كل هذا أدى إلى تفاقم الحالة الداخلية وأصبحت الحياة اليومية تختنق بالضرائب الباهظة والغلاء الفاحش وبالتالي بالاضرابات المتلاحقة .. إلخ . وعلى الجملة فلقد ولت بلا تحفظ أيام الرخاء . وبعد السنوات السبع السمان بدأت السنوات العجاف، كم لا ندري بعد ، ولكنها ستطول بلا شك .

ويبدو كذلك أن الهجرة قد بدأت تتأثر هي الأخرى بعد أن أصبحت إسرائيل بيئة حياتية طاردة أو على الأقل غير جاذبة. فقد أعلن المكتب المركزي للاحصاء في إسرائيل أن عدد النازحين في ١٩٧٣ بلغ نحو ١٢ ألفا، وأن معدل الهجرة النازحة بلغ قمته في أواخر العام، بينما انخفضت أرقام المهاجرين إلى إسرائيل خلال يناير ١٩٧٤ عن مثيلاتها في يناير ١٩٧٣. كذلك سجلت أرقام هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل في الشهور الثلاثة الأولى من ١٩٧٤ انخفاضا بنسبة ٢٥٪ عن مثيلاتها في ١٩٧٣. وفي إبريل ١٩٧٤ وصل الانخفاض إلى نسبة ٥٠٪. وخلال الشهور الأربعة مجتمعة هبط عدد المهاجرين الروس إلى ٦٧٠٠ مقابل ١١ ألف في الفترة المماثلة في ١٩٧٣.

وفي مارس ١٩٧٤ نشرت هاآرتس نتائج استطلاع للرأي كشفت الكثير عن احتمالات الهجرة من إسرائيل فقد ظهر أن شخصا من كل

عشرة يفكر فى الهجرة من اسرائيل نتيجة لارتفاع الأسعار والاستياء من نتائج حرب أكتوبر. والتفكير في الهجرة أقوى بين الجيل الجديد . فمن بين البالغين الذين اشتركوا فى الاستطلاع، قرر ٥ر٦٪ الهجرة بالفعل ، بينما يفكر فيها بجدية ١ر٥٪ . أما بين مجموعة العمر ١٨ - ٢٩ سنة ، فان ٢ر٢٠٪ ذكروا أنهم يفكرون فى الهجرة . وكشفت استطلاعات أخرى تالية أن ١٥٪ على الأقل من جيل الصابرا - مواليد إسرائيل - يريدون الهجرة منها فورا أن أمكن . على أن نقطة الهجرة هذه ينبغي أن تنتظر مزيدا من المؤشرات ومزيدا من الوقت.

ليس هذا فحسب ، بل لقد انقلبت الصورة كذلك بالنسبة للعرب . فإذا كانت سوريا ومصر قد وضعتا الكثير من مواردهما وميزانيتهما فى المعركة، وتعرضتا لخسائر عديدة فى الممتلكات والمنشآت ، وكلفتهما الحرب مع سائر الدول العربية عدة بلايين من الدولارات، فقد استطاع الاقتصاد العربى بعامة أن يمتص صدمة الحرب وأن يتكيف معها بل وأن يخرج منها باقل قدر من الخسائر وأكبر قدر من المكاسب، وبعد اقتصاد الحرب القاسي والتقشف الصارم فيما بين الحربين ٦٧ - ١٩٧٣ ، انفتح باب التوسع أمام الاقتصاد العربى الذى انفتح هو الآخر على العالم بلا قيود أو معوقات. ولن نكرر هنا مكاسب أسعار البترول

الجديدة، ولا عروض القروض ومشاريع التعمير والاستثمارات العالمية التي تدفقت على الدولتين المحاربتين وغيرهما . ولكن يكفى أن نقارن هذا بما فى إسرائيل اليوم وبما كنا عليه بعد يونيو لكى ندرك أن انقلابا اقتصاديا حقيقيا قد وقع في منطقة الشرق الأوسط عموما نتيجة لحرب أكتوبر.

فى هذا الإطار الأساسى، نستطيع الآن أن نفصل خسائر العدو الاقتصادية بشىء من التحديد. ومن واقع تصريحاته هو وأصدقائه، خلال الأيام الخمسة الأولى فقط من المعركة أنفقت إسرائيل، هكذا أعلن وزير المالية سابير، نحو ٢ بليون دولار، أى بمعدل ١٠ ملايين دولار في كل ساعة قتال فعلي (٥ - ٦ ساعات يوميا) . وبعد انتهاء الحرب ذكرت معاريف أن قيمة خسائر المعدات والأسلحة بلغت بليون دولار ، كما بلغت بليونا آخر قيمة تكاليف التحصينات التى دمرت ونقص الربح الناتج عن انخفاض الإنتاج. ولكن وكالة اليونايتد بريس عادت فذكرت أن الرقم الأخير وصل إلى ٢ بلون دولار ، وأن مجموع خسائر إسرائيل العسكرية والاقتصادية خلال الأسبوعين الأولين من الحرب تصل بذلك إلى ٣ بلايين دولار. وعلى هذه الأسس كان المقدر أن الحرب قد كلفت إسرائيل فى شهر ما يعادل ميزانية عام بأكمله.

لكن مرة أخرى عاد سابير فأعلن أن تكاليف الحرب قد زادت عن المقدر سابقا وهو ٣ مليارات دولار، وأن العجز التجارى المقدر لسنة ١٩٧٤ قبلا وهو ٥ر١ مليار سوف يرتفع إلى ٥ر٢ مليار. وجاء التوضيح في النيوزويك التي ذكرت أن التقدير الاجمالي النهائي لتكاليف الحرب من ذخيرة ووقود وصل إلى ٥ر٥ مليار دولار ، وهو ما يوازى عدة أضعاف قيمة الميزانية الكلية للدولة . ولكن مسئولين إسرائيليين آخرين صرحوا بأنه ليس من مصلحة إسرائيل الافصاح عن الأرقام الحقيقية لخسائرها في الحرب لأن هذا يخدم العرب، بينما قدر مسئولون آخرون مجمل النفقات بنحو ٧١٠٠ مليون دولار . وقد عاد سابير بعد ذلك فأعلن بالفعل أن حرب أكتوبر كلفت إسرائيل واقتصادها (خسائر الإنتاج والاستثمار) ٧١٤٠ مليون دولار، وأن ثلث الميزانية سيوجه للدفاع، ومن جهة أخرى قدر سابير أن تكاليف الحرب كانت تكفى لشراء ١٢٠ مليون طن من القمح، أى حاجات إسرائيل منه لمدة ١٢٠ سنة مقبلة ، أو ما يعادل ٥٠٠ مليون طن من الوقود بأسعار سنتين مضتا . كما أعلن سابير بعد ذلك أن إسرائيل اشترت ما قيمته ٧ بلايين دولار من الأسلحة منذ ١٩٧٠.

وقد لخص تقرير لإحدى لجان الكونجرس الأمريكي اقتصاديات الحرب الإسرائيلية بعد انتهاء المعركة، فذكر أن الحرب قد كلفت

اسرائيل ٢٥٠ مليون دولار يوميا، وهو ما يزيد عن ١٠ أضعاف ما تحملته في عام ١٩٦٧. وأشار التقرير إلى أن ما استوردته إسرائيل للاغراض الحربية والدفاعية في ١٩٧٣ يعادل ما استوردته في ١٩٦٧ نحو ١١ مرة، وأن هذا يمثل ثلث جميع الواردات الإسرائيلية ونحو ٤٠٪ من الدخل القومي. أما المديونية الخارجية لإسرائيل فقد قدرها التقرير بنحو ٥ بلايين دولار، أى بمعدل ١٥٠٠ دولار للفرد الواحد، وهو أعلى معدل مديونية في العالم. وانتهى التقرير إلى أن الحرب قد كلفت إسرائيل غاليا وباهظا، وانهم أدركوا نهائيا أنهم لا يمكنهم خوض حرب جديدة كل عدة سنوات كما كان الحال في السابق.

ورغم التغطيات الكثيفة التى ترد من الخارج - أكثر من ٢ر٢ مليار دولار قيمة سلاح بديل شبه مجانى من أمريكا، ومئات الملايين من الدولارات من اليهود الأمريكيين .. إلخ - فقد قدر أن إسرائيل تحتاج إلى ما قيمته ٣٠٠٠ مليون دولار من العتاد الحربى لتعويض خسائرها. ولذلك ينتظر أن ترتفع الميزانية العسكرية لإسرائيل إلى حوالى ٣٠٠٠ مليون دولار سنويا، يغطى نصفها المشتريات العسكرية من الخارج والنصف الآخر الامدادات والخدمات العسكرية، وترتيبا على هذا فسيكون على أمريكا أن ترفع معونتها العسكرية لإسرائيل من معدلات

ما قبل الحرب التي تقدر بحوالي ٤٠٠ مليون دولار سنويا إلى ١٥٠٠ مليون دولار سنويا .

وقد عبر عن هذا الوضع كله بطريقة أخرى وزير المالية سابير، الذى قال ان الخطط التي كانت موضوعة قبل حرب أكتوبر كانت تخصص ١٧٪ فقط من اجمالي الناتج القومي لنفقات الأمن. ولكن هذه الخطط «قد سقطت من النافذة نفسها التي سقطت منها الافتراضات القائلة بأن العرب لن يتجاسروا على مهاجمة إسرائيل». ثم أضاف أن الضغوط المالية للحرب قد قفزت بنفقات الدفاع إلى ٣٠٪ ثم إلى ٤٨٪، أى نصف اجمالي الناتج القومي. وفي ظل هذه الظروف - تعلق اليونايتد بريس - تجد إسرائيل نفسها تعتمد الآن ، أكثر من أى وقت مضى، على أمريكا لمساعدتها على البقاء «وانقاذها من الغرق في البحر الأحمر». ولا تأتي هذه المساعدات فقط من جانب اليهود الأمريكيين الذين يطلب منهم أن يحفروا في جيوبهم بعمق أكثر من ذى قبل، وإنما كذلك من جانب الكونجرس الأمريكي. وهكذا أثبتت المعركة مرة أخرى وأكثر من أى وقت مضى صحة كلمة الرئيس السادات من أن إسرائيل تعتمد على الولايات المتحدة في كل شيء «ابتداء من رغيف الخبز حتى طائرة الفانتوم».

واضح إذن تماما أن الحرب إن لم تكن قد دمرت أو خربت اقتصاد اسرائيل ، فقد أصابته بضربة في الصميم. وبتعبير سابير «وان الأيام السعيدة قد انقضت». اننا الآن في حالة حرب من الناحية الاقتصادية، أو بتعليق اليونايتد بريس «أن الحرب التي اندلعت فى أكتوبر لم تنته، وانما انتقل ميدان المعارك من الجبهة المصرية والجبهة السورية إلى أرفف المحلات التجارية بإسرائيل». فلقد ارتفعت أسعار كل السلع والخدمات، ووصل الارتفاع أحيانا إلى ١٠٠٪، وأصبحت الأحزمة مشدودة إلى أخرها على البطون. فقد تأثرت جميع خطوط الإنتاج «من المقابر إلى الصناعة، ومن المزارع إلى الفنادق السياحية». وانتشر الكساد وقل السياح وأفلست بعض المؤسسات كما توقفت شركات أخرى مثل شركة زيم للملاحة . وفي الوقت الذى ارتفعت الضرائب إلى حدها الأقصى، ارتفعت أسعار كل السلع والخدمات بشكل حاد، وبذلك تحولت الأزمة، أو امتدت بالأحرى، من المجندين إلى ربات البيوت ومن المنتجين إلى المستهلكين. وأخيرا أعلن المكتب الحكومي للاحصاءات في إسرائيل أن العجز في ميزان المدفوعات خلال الربع الأول من ١٩٧٤ قد بلغ ٤٣٦ مليون دولار ، أي بزيادة ٩٠٪ عن الرقم المماثل في العام الماضي.

أما عن المستقبل فان الصورة ليست أكثر اشراقا. فإلى أمد طويل ستظل التعبئة الجزئية قائمة تحرم الإنتاج نسبة معلومة من الأيدى العاملة، كما ستبقى كثير من خطوط الإنتاج موجهة نحو الاقتصاد الحربى. فمثلا بينما كان نصف إنتاج الصلب والالكترونيات ووسائل النقل يصب فى مجال الدفاع، يقدر أن هذه النسبة سوف ترتفع فى العام القادم إلى نحو ٧٥٪. وقد قدر اقتصادى إسرائيلى معروف يدعى بوفال اليتسور أنه لا مفر من تخفيض مستوى المعيشة الإسرائيلى بعامة خلال السنة القادمة أو السنتين بنحو ١٠٪ على الأقل، كما قرر بصفة جازمة عن الاقتصاد الإسرائيلى أن «الظروف التى سادته قبل ٦ أكتوبر ١٩٧٣ لن تعود ثانية».

ولقد لخصت النيوزويك الموقف برمته بدقة حين عقبت قائلة أن الحرب قد كلفت إسرائيل غاليا . ولولا وقف إطلاق النار لوجدت تلك الدويلة حياتها وقد اقتصرت على الكفاف. لقد خسرت إسرائيل - نحن نلخص - الجبهة الاقتصادية كما خسرت الجبهة العسكرية، وإسرائيل اليوم دولة مأزومة كما هى دولة مهزومة. ان طفل الشرق الأوسط المدلل قد أصبح طفل المنطقة العليل، ولا نقول رجلها المريض ، وتحول ما كان يعد بلغة الاستعمار العصا الغليظة إلى ما يمكن أن نسميه بالتعبير التوراتى «بالقشة المكسورة broken reed .

انهيار نظرية الأمن الإسرائيلى

نصل الآن إلى حجر الزاوية وركن الأساس فى حود الإسرائيلى جميعا، قضية الأمن التى أغرق العالم بها حديثا وتفسيرا. ما هى بالضبط فى النظرية والتطبيق؟ وماذا فعل بها ٦ أكتوبر، وإلى أى حد بالدقة عصف بها؟

إذا بدأنا من البداية، فسنجد باختصار أن قضية الأمن مشكلة تاريخية قديمة تطارد «اليهودى التائه» نفسيا وماديا فى الشتات عبر القرون والقارات. وأيا كانت الدوافع أو الأصول المعقدة، الحقيقية أو الوهمية، فقد أصبح الأمن عقدة مزمنة، ملازمة لعقدة الاضطهاد. وقد كان «الجيتو» هو الرد، ولا نقول الحل، التقليدى، ذلك الحى الغامض المعزول المسور والمحصن المتقوقع داخل المدينة، فيها وليس منها، يحقق الرغبة المرضية فى التباعد وعدم الاندماج أو الذوبان فى مجتمع الجوييم العريض دون أن ينفصل مع ذلك عن مصالحه ومعاملاته بل والتطفل على خدماته وموارده.

ومنذ ظهرت الصهيونية السياسية فى القرن الماضى، لم يكن «الحل الصهيونى» «المشكلة اليهودية» إلا تكبيرا أو تعظيما maximization لعقلية الجيتو تلك. ولم يكن يستهدف إلا تجميعا مجسدا فى بقعة واحدة للآلاف من خلايا الجيتو المبعثرة والمبثوثة فى تضاعيف الشتات. وإذا كانت

فلسطين، بمنطق أسطورة غيبية محرفة بقدر ما هى منحرفة ، قد أصبحت الضحية، فقد كان معنى هذا أن تتحول بعد تفرغ من أصحابها الأصليين والشرعيين إلى جيتو واحد أعظم يختزل ويختزن كل جيتوهات العالم المفتتة.

بذلك اجتمعت الأسطورة الدينية مع العنصرية العرقية مع الاغتصاب الاستعمارى لتكون الدولة - الجيتو أو الجيتو - الدولة ، إسرائيل. وبذلك أيضا تحول الوجود اليهودى فى فلسطين . بالتسلل فالهجرة ثم بالاغتصاب فالغزو ، من لاجئين «وييشوف» (جسم المجتمع اليهودى فى فلسطين الانتداب). إلى مستوطنين ومستعمرة ، ثم أخيرا إلى دولة ومشروع امبراطورية! ولم يكن شعار الصهيونية لأرض بلا شعب شعب بلا أرض» إلا تزييفا فاجرا وقلبا وحشيا للحقيقة وغطاء للاغتصاب، أما صحته هذا الشعار المزعوم فهى «أرض شعب لشعب الأرض» (أى فلسطين العرب ليهود العالم على الترتيب).

ومنذ اللحظة الأولى ، أصبحت مشكلة إسرائيل الأولى والأخيرة هى مشكلة «الأمن» المزعوم، وتحول الأمن إلى دعوى عريضة جدا، فأصبح محور كل شىء فى الوجود الإسرائيلى، بل فى كل الدنيا، وأصبح أصغر حدث جار وأبسط حقائق الحياة اليومية فى إسرائيل أو خارجها يترجم إلى صيغة آمن ويقيم باعتبارات الأمن ومقاييسه . باختصار ،

اصبح أمن إسرائيل هو «بقرتها المقدسة» وهو «عبء الرجل الإسرائيلي»، بل يكادون يقولون عبء العالم أجمع!

غير أن دعوى الأمن الإسرائيلي هذه فيها من الادعاء والدعاية بل ومن المغالطة بقدر ما في الكيان الإسرائيلي نفسه من خطأ أساسي أو خطيئة أصلية . وحقيقة الأمر أن الأمن قد أصبح تبريرا للقتل، بمثل ما أن الصهيونية نفسها تبرير للسرقة. والأمر كله تحول إلى حلقة مفرغة مفزعة، حلقة لولبية صاعدة أبدا ، بدايتها الأمن ونهايتها الأرض.

كيف ، ولماذا ؟ تفسير ذلك أن إسرائيل ، ككيان عدواني غاصب وكاستعمار استيطاني احلالي مطلق في الأصل والأساس، تجد نفسها جزيرة مقتطعة محاصرة ببحر شاسع خضم من العرب أصحاب الأرض الشرعيين، متفوق في المساحة والعدد والثروة خارج كل مقارنة. وهي من ثم تجد الأمن شرط البقاء، والقوة صمام الأمن ، والأرض عصب القوة، ومن هنا أصبح الأمن مرادفا للأرض ، أي للتوسع ، أي للغزو والامبراطورية في نهاية المطاف

وبعبارة أخرى فان إسرائيل، بصميم كيانها وتكوينها المجلوب، لا يمكن أن تعيش داخل حدود الأرض المغتصبة في الأراضي المقدسة بغير توسع وإلا اختنقت. وهي بالاحرى لا يمكن أن تكون - بالتعريف

الصهيوني = «دولة اليهود» في العالم «والوطن الطبيعي لليهودية شرطالعالمية» إلا اذا كانت دولة توسعية بالضرورة . فالتوسع البقاء كما هو شرط الأمن ، ومن ثم فان «إسرائيل الصغرى» ليست سوى النواة «لإسرائيل الكبرى» من النيل إلى الفرات. والمشرق العربي بذلك هو «المجال الحيوى Lebrnstaum » الحتمى الذى لا سواه لإسرائيل كما كان وسط أوربا بالنسبة للنازية ، وعليها ان تقيم فيه «نظاما جديدا New Order» تابعا وخاضعا مثلما أقامت النازية في اوربا أثناء الحرب الثانية.

الأمن = التوسع

ومنذ نشأت الصهيونية ، لم يخف صهيوني واحد ابتداء من هرتزل عبر وايزمان وجابوتنسكى وبوبر إلى بن جوريون واشكول وجولدمان وحتى مايير ودايان وبيجين وسائر المعاصرين ،لم يخف واحد منهم أن التوسع هو لب الصهيونية وأسها وأساسها كما هو شرطها ومقياس نجاحها . ومن المستحيل تماما أن نحصر كل تصريحاتهم السافرة في هذا الصدد ، ولكن لمجرد الذكرى والتاريخ لابد أن ننتخب عينات ممثلة

هرتزل ، الذى قال ابتداء لمن سالوه عن جدوى وعد بلفور «بوطن قومى لليهود» لاينص على «دولة» لليهود أن «كل صهيوني سيفهمه على

انه يقصد دولة» ، قال بعد ذلك وقبله «كلما حصلنا على مزيد من الارض نكون على استعداد للقيام بتضحيات أكبر» ، كما قال «كلما آزداد عدد المهاجرين زادت حاجتنا إلى الأرض» . «والرجال المستينسون الذين هم أفضل الغزاة» سيكونون عماد الجيش الصهيوني ، بينما سيكون العرب «قطيعا من الوحوش علاجه الوحيد هو الآبادة الجماعية» -هكذا أيضا كتب هرتزل . ولا يكاد يختلف عن هذا ما قاله وايزمان أو زانجويل . وعند مناحم شاينكين كذلك .. أن «المرء لا يشترى أرضا بل يستولى عليها ويأخذها بنفسه ولنفسه» . أما نبى الإرهاب الصهيونى جابوتنسكى فهو القائل «عليكم إن تحتفظوا بالسيف ، لأن القتال بالسيف ليس أختراعا ألمانيا ، با هو ملك لأجدادنا الاوائل إن التوراة والسيف أنزلا علينا من السماء» . وبعد هذا قال بوضوح تام «المنطقة المفتوحة للاستعمار اليهودى والمزمع إقامة الوطن القومى اليهودى على آرضها فيما بعد لاتنحصر من حيث المبدأ فى منطقة الإنتداب البريطانى» .

أما تلميذ جابوتنسكى وخليفته فى الإرهاب مناجم بيجين فقد أعلن بلا مواربة آنه «لن يكون سلام لشعب إسرائيل ولا لأرض إسرائيل ، حتى ولا للعرب ، مادمنا لم نحرر وطننا بأكمله ، حتى ولو وقعنا معاهدة صلح» . وأخطر من ذلك قال : «كن أخى أو أقتلك» وأشهر منه قال :

«أنا أحارب ، إذن أنا موجود» ، ومعناها الحقيقى «أنا أتوسع ، إذن أنا موجود» . كما يمكنك دائما أن تقرأها بالمقلوب : «أنا موجود ، إذن أنا أحارب» ، «أنا موجود ، إذن أنا أتوسع» ، وبالمعكوس أيضا : «أنا لا احارب، إذن أنا غير موجود» ، «أنا لا أتوسع ،إذن أنا غير موجود» .. إنها مرة أخرى تلك الحلقة اللولبية الجهنمية .

حتى جولدمان ، السلامى وداعية التعقل كما يوصف (!) ، يقول «لاتوجد أى دولة أخرى فى العالم يعيش ٩٠٪ تقريبا من شعبها خارج حدودها» . وقد وضعت النقط على هذه الحروف الخطة الأستراتيجية للجيش الإسرائيلى المنشورة فى عام العدوان ١٩٥٦ حيث قالت بلا لبس «ان المهمة القومية التى تضطلع بها دولة إسرائيل - وهى جمع شتات الجاليات اليهودية المبعثرة فى العالم وتهجيرها إلى إسرائيل - تستدعى هجرة متصلة تستمر على الأقل لمدة جيل واحد (٣٠ عاما) : وعلى الدولة الإسرائيلية أن تؤمن الأحوال الطبيعية لحياة هؤلاء السكان .. ولهذا فإن مهمتنا هى احتلال الأراضى العربية وتوطيد سيطرتنا عليها» .

ولقد كان من أجل جلب وحشد هذه «الأغلبية المغتربة» ، وما تحتاجه من أراض جديدة بالتأكيد مضافة بالتوسع والفتح والغزو ، حرص إسرائيل نفسها منذ البداية وعن عمد وتخطيط على أن تكون دولة بلا حدود ، وذلك على عكس كل الدول السوية التى نعرف . وليس محض

صدفة أن بن جريون الذى وضع هذه السياسة هو نفسه القائل «أن الجيش الإسرائيلي هو خير مفسر للتوراة» ، وهو كذلك الذى شبه الصهيونيين في فلسطين بالغزاة الفاتحين الأسبان في العالم الجديد Conquistadores .

الآن ، وعلى هذه الأسس ومن أجل هذه الأهداف بالضبط ، تحددت إستراتيجية الأمن الأسرائيلي المقول .فالأمن هو أساسا «سياسة القوة» ، صيغة منتهى القوة ، وخطة «صعق الفئران» كما سموها . أما طريق ذلك فهو تحقيق التفوق العسكرى المطلق والدائم على العرب مجتمعين . وهذا هو المعنى الوحيد المقبول لتوازن القوى مع العرب . فبمثل هذا الميزان المختل المعوج يمكنها دائما أن تطالب «بالحدود الآمنة» ، ثم تمارس «الحرب الوقائية بحرية كاملة وبطريقة خاطفة ، بحيث تحقق سياسة «الأمر الواقع» في المنطقة ، وتضمن أن تقع الأرادة العربية أسيرة خطة الترويع والتهديد ثم الردع والتأديب . وبذلك كله تفرض في النهاية «السلام الإسرائيلي» بعامل القوة وبقوة السلاح .

السلام الإسرائيلى = سياسة القوة

ولكن ، قبل أن نمضى فى مناقشتنا إلى أبعد ، ماهو بالدقة معنى هذا السلام الإسرائيلى المزعوم والمفروض ؟ إنه الاستسلام ولا سواه ،

من جانب العرب ولا سواهم . السلام الإسرائيلي هو الإستسلام العربي : وذلك جوهر المعادلة المطلوبة بلا زيادة ولا نقصان . «كن اخي او اقتلك» إنما ترادف «كن عبدي أو أقتلك» . إنه السلام القائم على الظلم والقهر ، سلام القوة والأقوى ، وسلام السادة والأرقاء .من هنا كان صميم نقيض السلام الحقيقي وتورية وقحة عن الحرب . إنه قلب كامل وغطاء مقلوب لسياسة الدم والحديد والتوسع والعدوان .

ولقد أرغمت هزيمة اكتوبر بعض مثقفي الإسرائيليين على الإعتراف بهذه الحقيقة بكل سفور . فمنذ أسابيع كتب أستاذ بالجامعة العبرية ، يقال له ليبوفيتش ويقال أن له مكانته في إسرائيل ، كتب في ها أرتس يقول : «لقد كان الخط القائد لسياستنا ، ولايزال ، هو الرأي القائل بأن وضعا دائما من اللاسلم واللاحرب مع حرب كامنة هو أفضل وضع بالنسبة لنا وينبغي المحافظة عليه بكل وسيلة .. وبذلك وضعت مشكلة الأمن في مركز كل تفكير وكل نشاط سياسي واقتصادي واجتماعي ثقافي .. لقد سادت هذه السياسة الأجرامية والشريرة طوال ٢٥ سنة .. حتى وصلت بنا إلى الأزمة التي نعيشها الآن .. إننا لم نسع إلى

السلام طوال ٢٥ سنة ، وكل التصريحات بهذا الصدد ليست إلا تصريحات متلونة وكذبا عامدا».

ذلك هو السلام الإسرائيلي وموقعة في نظرية الأمن . ومن أجل هذه الإستراتيجية العظمى كانت «عسكرة» إسرائيل ، كما تسمى ، تلك السياسة التي حولتها إلى ثكنة وترسانة مسلحة حتى الأسنان ،وجعلت منها مجتمعا عسكريا أساسا ، صلبه وقلبه هو المؤسسة العسكرية الحاكمة والمهيمنة . وجسمه هو مجموع سكان البلد من الناحية العملية . ولقد كان في هذا المعنى بالتحديد ماقيل من أن إسرائيل لم تعد دولة لها جيش وإنما جيش له دولة .. والواقع أن إسرائيل منذ وقت مبكر أصبحت دولة جيشها هو تقريبا شعبها وشعبها هو عمليا جيشها . بمثل ما أصبح جيشها بدوره هو حدودها وحدودها هي عمليا مدى ما يصل إليه جيشها على الأرض وعلى الطبيعة ، أو كما وضعها دايان بكل سفور وقحة «حدودنا ماتصل إليه مدرعاتنا» .

والحقيقة أن أحدا لن فهم الكيان الإسرائيلي إذا فهم دور الجيش فيه كما يفهم دور الجيش في كل دول الأرض العادية التي نعرف . وأحد كذلك لن يفهم الجيش الإسرائيلي إذا فهم الكيان الإسرائيلي كما يفهم كيان أي دولة عادية سوية معروفة على وجة الأرض . فالوجود

الإسرائيلي ، كاغتصاب قائم على القهر والسلب ، لايجعل من الدولة دولة العنف والقوة من حيث المبدأ والبداية فقط ، ولكنه يجعل العنف والقوة بحد ذاتها أيديولوجية قومية ضرورية لضمان وتكوين الشخصية القومية والذاتية الوطنية نفسها .

وعلى هذا فإن وظيفة الجيش في الوجود الإسرائيلي ، كالوجود الإسرائيلي نفسه ، وظيفة غير عادية ، بل ويمكن بلا حرج أن تقول شاذة . إنه سبب ونتيجة فى أن واحد ، مبرر وجود ومقرره معا ، غاية ووسيلة على حد سواء . وإسرائيل دولة عسكرية تماما كما هي دولة دينية . وكلتا الصفتين مترتبتان على بعضهما البعض مثلما هما مرتبطتان بعضهما البعض ، وإسرائيل لاتتصور بدون أى منهما .أن «جيش الدفاع» هو كالصهيونية نفسها ، بل اليهودية ، عقيدة وديانة ، إلا إنها علمانية ، والحرب هي صناعة الأمة الحقيقية بمثل ما أنها هي من صناعة الحرب.

ليس ذلك لأن الجيش هو الذى خلق الدولة وهو الذى يحافظ على بقائها ويوسعها فقط ، ولكنه أيضا هو وحده الذى يخلق الذاتية اليهودية والشخصية القومية من عدم الشتات وعجز الماضى ، فالجيش بوتقة إسرائيل ، تلك «الأمة» من المهاجرين ، فيها تنصهر أشتات الشتات بكل

أخلاطها وتنافراتها ، وبفضلها ومن أجلها «تؤمم» الخلافات والتناقضات والصراعات الاجتماعية والطبقية والطائفية ، ومنها تتخلق في النهاية الوحدة الوطنية الجديدة المنشودة .

وهكذا فإن وظيفة الجيش في الكيان الإسرائيلي ودوره مزدوج : داخلي وخارجي ، رأسي وأفقي ، أو كما نقول إسرائيلي « وعربي» . الجيش هو عمود إسرائيل الفقرى وذراعها الطويلة كما هو قلبها وكبدها الحيوى ، هو صلب الجسم السياسي ومعظم الجسم البشرى ، في الداخل أداة الوحدة الوطنية ، وفي الخارج أداة التوسع .

عن الجانب الأول ، أنظر مثلا ما يقوله مناحم بيجين «أن الأرهاب والحرب وحدهما هما اللذان استطاعا أن يحولا هذه الغرائب الشاذة ، التي لم تكن في ظاهرها تبشر بأى أمل بشعب قادر ، وأن يرفعا عن اليهود إنحطاطهم التاريخي الذى وصل بهم إلى قيمة التراب . ذلك أن الكراهية هى الدافع للارتقاء في تاريخ عالمنا ، وأننا عندما نحارب فقط فإننا سوف نستشعر للوهلة الأولى وجودنا» .

أما عن الجانب الثاني فيقول آلون «سوف يبقى الجيش الإسرائيلي ونظرية الأمن العنصرين الأساسيين لتحقيق الشخصية الوطنية الجماعية .. إن المحارب الإسرائيلي هو وحده الذى يقف متحديا للقيد الديمقراطي على إسرائيل الذى يفرضه تعدادها

المحدود .وهو وحده الذى يقف متحديا مشكلة العمق الجغرافى المحدود لإسـرائيل» . (الاقتباسان من مقال للأستاذ مكرم محمد أحمد بجريدة الأهرام) .

والواقع التاريخى والسياسى من جانبه لايدع مجالا لأى شك فى حقيقة هذه الفلسفة العدوانية التوسعية وتلك الأستراتيجية العظمى المخططة والمبيتة . فلقد فرضت إسرائيل على المنطقة أربع حروب فى عضون ربع قرن ، حتى جعلت منها «بؤرة حرب» مزمنة . ومنذ ١٩٤٨ ، اثبتت التجربة الإسرائيلية الدموية أن «مع الأكل تأتى الشهية» ، ومع الوقت تتحول الشهية إلى شهوة ، ومع الاثنين تتحول الشهوة إلى شره . أو إن شئت فقل أثبتت أن نظرية الأمن هى كمن يشرب ماء البحر ليرتوى . فلا يزداد إلا ظمأ ، فيشرب أكثر فيظمأ أكثر ، وهكذا إلى حد الإنفجار .

وتعبيرا عن فلسفة الردع العسكرية وروح التوسعية الإقليمية هذه ، جنبا الى جنب مع غرور القوة المتغطرسة ، يمكن أن نقتبس هنا بعض تصريحات العدو وتهديداته بعد يونيو ، ففى تلك الفترة بالذات تبلورت كل مفاهيم نظرية الأمن الإسرائيلى وبرزت فرضياتها ومعالمها تماما . «إن الأمل الوحيد فى ردع العدو حتى لايفرض حربا على إسرائيل» ، قال آلون ، «يرتبط بقوة جيش الدفاع وبطريقة استخدامها» . أما هذه

الهمة وهذه الطريقة فقد حددهما بارليف بوضوح في أن «القوات التي تحتل المراكز الأولى في سلم الأولويات هي السلاح الجوي ، والقوات المدرعة ، والقوات المحمولة جوا . أما عناصر قواتنا المسلحة الأخرى فهي إلى حد كبير عناصر مساعدة» . وفي مناسبة أخرى عاد ألون يقول «أن هدف هذه القوات الصريح والمعلن هو ردع العدو عن بدء حرب جديدة . فإذا قامت الحرب رغم ذلك ، فإن علينا أن نضمن النصر الإسرائيلي بأكبر قدر من السرعة والكفاءة مع أقل قدر من الخسائر» .

أما المعلق العسكري زيف شيف فكتب يقول بعد يونيو «لقد تخلصت اسرائيل بفضل الوضع الجغرافي -الاستراتيجي الراهن من مخاوفها القديمة وهي أنها ان لم تكن البادئة إطلاق النار فقد تهزم أو تضطر إلى دفع ثمن فادح من الضحايا» . وفي الخط نفسه أعلن ديان أن «هدف إسرائيل هو تحويل خطوط وقف إطلاق النار إلى سلام دائم مع العالم العربي . وللوصول إلى ذلك علينا حماية حدودنا الجديدة بطريقة تبدد أدنى أمل قد يطوف بأذهان أعدائنا بالقدرة على طردنا بقوة السلاح» .

واستطرادا للمنطق نفسه قالت مايير «إن أعداءنا يحافظون على وقف إطلاق النار لا عن رغبتهم في السلام وإنما من خوفهم من

الدبابات والجنود والطيـــارين الإســـرائيليين» . وردد المعنى نفســـه موردخاي هود قائد الطيران الأسبق حين قال «لقد تمت المحافظة على الهدوء النسبي المستمر منذ سنتين بفضل قوة الردع التي يمتلكها جيش الدفاع . إن قوة الردع التي يملكها جيش الدفاع تنبع من لياقة هذا الجيش واستعداده وقوة سلاح الطيران» .

إلى هذا المدى بالفعل وصلت فلسفة «عبادة القوة» عند إسرائيل ، وجها آخر منطقيا وحتميا «لعبادات الذات» - فسياسة القوة إنما هي المكافيء الموضوعي لسياسة العنصرية . وفيما بين الاثنتين ، عبادة القوة وعبادة الذات ، أصبح التوسع «حقا طبيعيا» ، إن لم يكن حقا «الهيا مقدسا» (!) لإسرائيل ، ورسالة الأجيال المباركة . ولم يكن هذا خافيا على الكثيرين فديجول مثلا واجه الإسرائيليين في ١٩٦٨ بقوله «يعتقد الإسرائيليون أن كل شيء مباح لهم . أنهم يتسوعون خارج حدودهم سعيا وراء أعداء حقيقيين أو وهميين» . ثم اعتبر في هذا مثلا قول دايان المشهور بعد يونيو : «الجيل السابق أقام الدولة ، وجيلنا أمتد بحدودها إلى خطوط أمنة ، وعلى جيلكم أن يحمل هذه الحدود إلى حيث أمال الأجداد في أرض إسرائيل الكبرى» ..

وعند هذا الحد أيضا يكتمل لنا بروفيل دقيق للكيان الصهيوني في إسرائيل . فهو بتركيبه النفسي والعنصري والعسكري والجغرافي يكرر

وبجمع في آن واحد وفي جسم واحد ملامح مدينة قمة التل أو اكروبوليس» العصور القديمة التي تتحكم من عل في السهل تحت أقدامها ، ووضع قلعة العصور الوسطى المحصنة التي تنقض على الريف المحيط بغاراتها من وقت لآخر ، ثم دور بروسيا - «بروسيا الشرق الأوسط» - بسياسة الدم والحديد والضم ، ثم أخيرا حالة ألمانيا النازية بعنصريتها الأستعلانية وعسكريتها التوسعية ومجالها الحيوى وأستراتيجيتها الأثيرة في الحرب الخاطفة . والحقيقة أن إسرائيل الفاشية المتحجرة بدأت ببربرية العصور القديمة ولانقول الحجرية ، وانتهت تلميذة مخلصة لجلادها النازى فلسفة ووجودا ووسائل .

وعدا هذا ، تدل كل وقائع ومؤشرات السنوات الأخيرة على أن غرور القوة وصلف التسلط وصلا بإسرائيل إلى حد يتاخم جنون العظمة السياسي كما رأينا .. فهي وقد بدأت بفكرة «الشعب المختار» وعقدة العرق والتفوق العنصرى ، فقد انتهت إلى أن تعتبر نفسها «الجنس السيد» أو السوبرمان (كذا) بالقياس إلى الإنسان العربي . وبدعوى التقدم الحضارى والتفوق التكنولوجى على العرب انتهت إلى الأعتقاد بأنها تمثل «المدينة» والعالم المتقدم في الشرق الأوسط ، حيث العرب هم الريف» أو عالمه الثالث على الترتيب . وعلى هذا الأساس وذاك عدت

ـــبها الدولة السيدة أو السائدة والقائدة في المنطقة ، ومنها قفزت كما رأينا إلى دعوى القوة العظمى في المنطقة Super State أيضا .
وهكذا : ثلاثية مريضة ، من مركبات الاستعلاء تدور حول محور معنوي واحد هو التسيد وتشترك في مقطع لغوي واحد هو أعلى :
سوبرمان ، دولة سوبر ، سوبر باور!

٦ أكتوبر وأمن اسرائيل

لقد سبق أن تعددت المواجهات العسكرية بين العرب واسرائيل دون أن تكون أى منها نقطة تحول جذرى أو تحول أكثر من محلى، لأن نتائجها الميدانية كانت من اسف تسير فى اتجاه واحد، رتيب كما هو كئيب، يتفق تماما مع موازين القوى العالمية السائدة ومضارباتها.لكن حرب اكتوبر وحدها تأتى لتقلب التوازنات المحلية ونتائج الصراع الميدانى، ليس فقط لأول مرة فى تاريخ الصراع، ولكن أيضا لأول مرة في ظيل الوفاق الدولى الجديد ومناخه. من هنا جاءت المعركة أول «اختبار قوة» حقيقى للعدو المباشر ومعسكره.

ففي هذه المعركة الفاصلة نالت اسرائيل صدمة كهربائية، ان لم تكن صاعقة مدمرة بصورة مباشرة ، فانها باثارها غير المباشر والبعيدة المدى قد ألقت ظلالا كثيفة وكئيبة على بنائها التحتى والقومي على السواء وسلطت ذبذبات عميقة ومخلخلة على صميم كيانها وعلى جذور هيكلها المادى والايديولوجي جميعا.

وبصفة محددة فان هذه الاهتزازات استقطبت فى نظرية أمنها المقولة بكل معطياتها وفرضياتها وادعاءاتها المزعومة، وكانت محصلة نتيجتها الصافية هى فشل وافلاس بل وانهيار هذه النظرية ومعها فلسفة الردع.

فلقد اثبتت المعركة أن الأمن ليس بالأرض، وأن الأرض ليست بالقوة، وأن القوة ليست بالسلاح، وأن السلاح لا يفرض السلام، كما أن السلام لا يفرض. ولما كان دور الجيش في الوجود الاسرائيلى هو ما رأينا، وكانت نظرية الأمن عنده تعنى ما تعني، فيمكننا أن ندرك أى ضربة قاصمة تلقتها اسرائيل فى صميم عمودها الفقرى وجهازها العصبى المركزى بل وجسمها وكيانها كله.

ولدينا فى هذا مجموعة شهادات واعترافات قاطعة من العدو نفسه. يقول يونيل ماركوس: «لقد أصيبت ثقة الجمهور بضربة قوية، حين بدأ يتضح لنا أن نظرية سياسية كاملة متعلقة بالأمن قد انهارت». ويقول بنيامين كادر، أستاذ بالجامعة العبرية، فى رسالة إلى مايير «.. كانت أياما صعبة لأن نظريات أساسية قد انهارت خلالها، ولأن بديهيات قد تحطمت عشيتها ولأن اساطير كثيرة قد إنتهت بعدها». ويقول شبتاى تيفت: «كانت قوة الردع هى القيمة العليا فى مفهوم أمن اسرائيل وكانت جوهره . ولكن ثبت أنه كلما قويت ضربات جيشنا، كلما قوى فى قلوب

العرب الاصرار على تنمية قوتهم ومجابهتنا من جديد». هذا بينما حذر أمنون روبنشتاين قائلا «لقد أثبتت حرب أكتوبر أن علينا أن نفهم أن لقوتنا حدودا، وأن نحسب قوة الآخرين ومشاعرهم. ومن يقترح علينا غير ذلك فهو يقترح على اسرائيل مصيرا أسود». وأخيرا يأتي اعتراف وزير العدل الأسرائيلي السابق، الذى استقال احتجاجا على بقاء دايان بطل النكسة في الحكم، ليلخص الموقف كله: «إن الحرب ليست الوسيلة التي يمكن بها فرض اسرائيل على العرب» . والمعنى نفسه أكدته الجارديان حين قالت «ان اعتماد اسرائيل في علاقاتها مع العرب على قوتها العسكرية كان باهظ الثمن في الماضي، وقد يؤدى إلى الكارثة في المستقبل».

انهارت، اذن، نظرية الأمن الاسرائيلي، ولا سبيل إلى الشك في هذا ذلك مجمل الحقيقة. أو كما وضعها جميس شلزينجر وزير الدفاع الأمريكي نفسه «لقد فشلت نظرية الأمن الاسرائيلي.. والاسرائيليون يدركون الآن أن أمنهم لا يمكن أن يتحقق بمجرد الاحتفاظ بالتفوق العسكري، ولقد أصبحت الآن هالة الدولة التي لا تقهر موضع تساؤل». أو كذلك بعبارة ناداف سافران في مجلة فورين أفيرز، فان الحرب لقنت اسرائيل درسا جديدا في الأمن، وربما تعلم الاسرائيليون شيئا جديدا عن أساس أمنهم.تلك هي خلاصة الخلاصة. أما تفصيلا فنحن نستطيع

أن نرصد ونسجل لأكتوبر المؤشرات الثلاثة الآتية: خطر القوة غير الذاتية ، وقصور الأمن الجغرافي، وهم التفوق التكنولوجي.

خطر القوة غير الذاتية

أثبتت المعركة خواء وعجز منطق القوة كمحور لنظرية الأمن الاسرائيلي. فأسطورة الجيش الذي لا يقهر، والقلعة التي لا تقتحم، وسلاح الطيران سيد سماء الشرق الأوسط، وآلة وآلهة الحرب الاسرائيلية، ونوعية المقاتل الاسرائيلي والسلاح الاسرائيلي، إلى آخر كل هذه المقولات الدعائية كلها قد ضربت في الصميم مرة واحدة وإلى الأبد على يد القوة العربية المضادة - ويمكن أن نضيف بالاستدلال: والمتفوقة أيضا.

والسؤال الذي يقفز على الفور هو: لماذا، وما الذي حدث هنا والآن بالدقة خلافا لما أوحت به تجربة الماضي فيما قبل أكتوبر؟ والرد الوحيد هو أن التحدي العربي الجاد كشف لأول مرة عن حقيقة فائقة الأهمية والمغزى وان لم تكن جديدة في حد ذاتها.

هذه الحقيقة هي أن القوى الاسرائيلية هي أساسا قوة مستعارة منحولة وليست أصيلة، قوة غير نابعة من الذات ولا من عند نفسها، وإنما مستوردة من خزان القوة الأمريكية وبحرها المحيط . فحين

جوبهت القوة المستعارة بقوة مكافئة لها وأصيلة على الجانب المضاد كان أمرا مقضيا آن تتصدى الأولى وأن تتهاوى.

إن اسرائيل ككيان جيوبوليتيكى وجيوستراتيجى هى بوضوح كيان «محكوم عليه» بالجغرافيا والتاريخ، بكثافة السكان، بكثافة الانتاج، بالكثافة الحضارية.. الخ. ولم يكن وجه الغرابة أن تنكشف وتتعرى خرافة القوة الاسرائيلية التى بنتها وضخمتها إلى حد التورم والانتفاخ آلة الدعاية الصهيونية. الغرابة الحقيقية انها لم تنكشف من قبل، وأن القوة العربية الحقيقية لم تكشف جوهرها الكامن منذ البداية. ان الهزيمة الاسرائيلية فى ٦ أكتوبر ليست استثناء لقاعدة، ولكنها عودة إلى القاعدة الأصولية والطبيعية، عودة إلى الطبيعة، إلى الجغرافيا، «قدر الدول السياسى كما وضعها ديجول ذات مرة».

قصور الأمن الجغرافى

وعلى ذكر الجغرافيا، فلعل وأبلغ ما اثبتته حرب أكتوبر أن فكرة الأمن ليست، ولا يمكن أن تكون، فكرة جغرافية محضة فى عصر العلم والتكنولوجيا. الأمن ليس جغرافيا صرفا، أو هو لم يعد بالجغرافيا وحدها.

فحين اجتاحت القوة المصرية الطافرة والظافرة عائق القناة واقتحمت من بعده خط بارليف القوى الذى أسرف العدو فى تحصينه

وأسرف على نفسه في الدعاية له، وحين اعتلت القوات السورية العازمة والمقدامة مرتفعات الجولان الوعرة واقتحمت معاقل خط ألون ودشمه ومخابئه وأوكاره ودكت خطوط دفاعه فيها، فانها في تلك اللحظة نفسها فجرت ونسفت إلى الأبد دعوى «الحدود الآمنة» (اقرأ: الحدود الآثمة!) التي ملأ العدو بها الدنيا ضجيجا وتضليلا. ولعل مما له مغزاه العميق هذا التساؤل الذي شاع أخيرا في اسرائيل: أليس من المفارقات الغريبة أن تنتصر اسرائيل في ١٩٦٧ من «حدود غير آمنة»، بينما تنكسر في ١٩٧٣ من «حدود آمنة»؟

خذ مثلا، كمجرد نموذج، تعريف ايجال آلون في كتابه «الأمن الاسرائيلي»، ١٩٥٨، للحدود الآمنة. «إن الحدود الآمنة – يقول بالنص – هي تلك الحدود السياسية الدفاعية التي ترتكز إلى عمق اقليمي وإلى موانع طبيعية تحول دون تقدم جيوش برية مسلحة بالمدرعات وتوفر وسائل الانذار الفعالة ضد اقتراب الطائرات المعادية. ومن ناحية أخرى فإنها الحدود التي يمكن أن تستخدم كقواعد للهجوم المضاد». والتفسير الحقيقي الوحيد لهذا التعريف هو إن الحدود الآمنة هي تلك التي يمكن منها القيام بهجوم جديد: ان الحدود الآمنة عند اسرائيل هي «الحدود الهجومية».

لعل من الواضح الآن جيدا أن دعوى الحدود الآمنة هذه هى دعوى ملفقة ونظرية حتمية بالية بعثها العدو من جبانة الفكر العسكرى المنقرض لتكون مبررا للاغتصاب وابتلاع الأرض المحتلة ووضع اليد عليها نهائيا. فالحقيقة أن ادعاءات العدو الاقليمية ومطالبته بحدود آمنة يمكن الدفاع عنها أن هى إلا فكرة عتيقة تمت إلى تاريخ العسكرية الغابر وإلى عصر ما قبل المدفعية على الأقل وهذا بالضبط ما أثبتته حرب أكتوبر، وما فرض نفسه على بعض الكُتّاب الاسرائيليين.

مثلا كتبت صحيفة هامودبع تحت عنوان «الأمان المفقود» «لقد خلق العمق الاستراتيجى الذى حصلت عليه اسرائيل منذ حرب الأيام الستة فاصلا طبيعيا بين الجبهة والمؤخرة. وحتى فى ذلك الوقت كانت البلاد كلها جبهة، وليست القدس وحدها التى تقع على خط الحدود وكانت تتعرض لعمليات القصف التى وجهت ضد السكان المدنيين، بل وحتى مدن السهل الساحلى المنخفض كانت قريبة من الجبهة. وهكذا لم يكن هناك فصل بين المؤخرة. غير أن هذا الفاصل لم يكن الا للرؤية فقط. وحقيقة أنه لم تسمع فى مدن اسرائيل ومستعمراتها أصوات المدافع، ولكن ذلك لم يقلل من احساس الشعب بأنه فى حصار».

حتى نظرية مستعمرات الحدود ومستوطناتها فى الجولان كدرع دفاعية واقية لاسرائيل، وكذلك نظرية الفراغ العمرانى والبشرى فى سيناء كعامل مساعد على صد الهجوم المصرى، كلتاهما قد سقطتا كما قال ديفيد شليف فى دافار. فعن الأولى، اذا كان ديفيد اليعازر قد قال أن هناك أهمية قصوى من ناحية الأمن لسلسلة المستعمرات المقامة فى الجولان تكاد تقارب أهمية الجيش الاسرائيلى نفسه، فقد اتضح فى الجبهة السورية - يقول شليف معارضا - أن مستوطنات مدنية قليلة السكان، كما فى هضبة الجولان، ليست بقادرة على صد وايقاف هجوم واسع النطاق للمدرعات السورية تشترك فيه مئات الدبابات ويشارك فيه القصف المدفعي والصاروخي البعيد المدى.

أما عن النظرية الثانية فقد أثبتت المعركة أن الفراغ العمرانى لم يجد اسرائيل شيئا، حيث أن غياب السكان المدنيين فى سيناء وقطاع القناة لم يمنع الغزو المصرى وعبور القناة. «لقد تبددت فى حرب يوم الغفران كما يبدو، هاتان النظريتان».

وعند العالم الخارجي أيضا أن نظرية الحدود الآمنة بالمفهوم الإسرائيلى قد ماتت وشبعت موتا. «أن الأحداث الخطيرة التى تجرى الآن فى الشرق الأوسط - كتبت الايمانيتيه فى ذورة المعركة - توجه ضربة قاتلة إلى نظرية الحدود الآمنة كما يفهمها حكام تل أبيب». وبالمثل

وفى نفس الوقت كتبت الديلى تلجراف أن «أسطورة الأمن الاسرائيلى قد تحطمت تماما. وعلى اسرائيل منذ الآن أن تتخلى عن فكرة أن أمنها يمكن أن يتحقق بمجرد احتلال قطعة من الأرض دون أي برنامج سياسي». أما السناتور الأمريكى المعتدل فولبرايت فلم يكن يقل وضوحا ولكنه كان أكثر عمقا، اذ قال «من المحتم على اسرائيل أن تتخلى عن خرافة الأمن العسكرى المطلق عن طريق احتلال الأرض، مع الاعتراف بأن الأمن العسكرى المطلق لدولة ما يعنى عدم الأمن المطلق للدولة المجاورة لها». وفي مقال له في الموند يصل موريس ديفيرجية إلى القمة في كشف وتفنيد مفهوم الحدود الأمنة الاسرائيلى. «ولكن ما هى الحدود الآمنة؟.. إن مفهوم الحدود الآمنة عند هؤلاء الاسرائيليين يرتبط بمفهوم «المجال الحيوى»، ومعناه المجال اللازم لاسرائيل لكي تتمكن من تعبئة جنودها المستوطنين لمواجهة هجوم ما.. وبهذا المعنى فان الحدود الآمنة لن تكون آمنة إلا لفترة وجيزة محدودة بتقدم الوسائل الحربية التي يتبناها الخصم».

وأى طالب للجغرافيا العسكرية، فضلا عن الجغرافى الأكاديمى، يدرك تماما أن كل العوامل الجغرافية والحواجز الطبيعية والعوائق التضاريسية هى سلاح ذو حدين، وأنه ليس ثمة شئ «كحدود طبيعية» و «كحدود آمنة» في عصر الطيران والذرة والمدفعية عابرة الدول

والصواريخ عبارة القارأت. أو كما قالت التايمز «اذا أريد لاسرائيل أن تتخلى غن الأسطورة القائلة بأنها لا تقهر، فان عليها أن تصل إلى القناعة بأنه لا توجد حدود عسكرية آمنة». إن الأمن في عصر التكنولوجيا الحديثة– لتعلم اسرائيل الآن ان لم تكن تعلم – وليس بالطبوغرافيا، ولا المنعة والحماية هى الجغرافيا كذلك، بل ليست حتى بالتكنولوجيا ذاتها بعد ذلك جمعيا.

وهم التفوق التكنولوجى

نعم، ليس الأمن بالتكنولوجيا هى الأخرى، وهذا ما ينقلنا إلى الضلع الثالث والساقط من مثلث نظرية الأمن الاسرائيلى. لقد روجت اسرائيل وحماتها طويلا لفكرة تفوقها التكنولوجى «الخرافى» بالقياس إلى تخلف العرب «المخيف». بل لقد وصل الأمر باسرائيل إلى حد أن قدرت أن العرب لن يعبروا تلك الهوة التكنولوجية ويلحقوا بها قبل منتصف القرن الحادي والعشرين على الأقل! وكان التفوق الجوى بالذات هو نقطة ارتكاز هذه الفكرة الغشوم. لماذا، وعلى أى أساس؟– لأن العرب – هكذا نظر العدو – عقلية يدوية غير آلية، ويدوية لأنها بدوية، وبدوية لأنها بدائية وصدق الكثيرون هذه السذاجات أو السماجات، بحيث وقع حتى وقر فى روع البعض، حتي منا، أنه لا ندية ولا تكافؤ وأن الهوة سحيقة والصراع عقيم.

وكان هذا بالضبط هو هدف العدو من تلك النظرية التى لم تكن قطعة من العلم الموضوعى بقدر ما كانت قطعة من الاعلام الدعائى والحرب النفسية.

فبعيدا عن التهوين أو الاستخفاف، فلقد كان فى تلك الدعاية، كما فى كل دعايات العدو الجهول، من الخديعة أضعاف مما بها من الحقيقة. وكان ذلك جزءا لا يتجزء من طبيعة الحرب النفسية كما هو كامن فى سياستها. ومهما يكن، فلقد جاءت المعركة لتحيل تلك النظرية أو النظرية ركاما وأطلالا مع حطام الطائرات الفانتوم والميراج المتساقطة بالمئات، فضلا عن قلاع الدبابات المحطمة بالآلاف، والتى استحالت بها صحراء سيناء ومرتفعات الجولان جبانة كبرى «للحديد الخردة، وارد أمريكا» كما سخر البعض، أو رمزا حيا (أو ميتا!) للمقولة الشهيرة «مصر مقبرة الغزاة» كما قد نضيف نحن. أو كما قالت النيوزويك «لقد سقطت ثقة اسرائيل فى تفوقها التكنولوجى على العرب، تماما مثلما تهاوت طائرات بفعل شبكة الصواريخ المصرية العملاقة».

وتفسير ذلك ببساطة أن الحرب أثبتت، أولا، أن الانسان لا السلاح هو الأساس والفيصل، فالسلاح بالرجل وليس الرجل بالسلاح، وثانيا، أننا أيضا نملك السيطرة على التكنولوجيا وعلى حضارة العصر وروحه، وأن التفوق التكنولوجى ليس حكرا على العدو أكثر مما يعد التخلف

فرضا أبديا على العرب. وحين تحقق هذا، أصبح فى حكم المحتوم أن يتحول التفوق العربى العددى الهائل إلى تفوق كيفى أيضا أشد هولا وخطرا. وهذا بالفعل ما حدث فى أكتوبر، وبأكثر منه سيحدث فى المستقبل.

وعلى هامش القضية، بل فى صميمها اذا كنا نعنى حقيقة أن الصراع معركةحضارية إلى جانب كونه معركة عسكرية وسياسية، ولابد أن نلفت النظر إلى مغالطة مزدوجة، ساذجة بقدر ما هى جذرية، فى منطق العدو ودعايته. فحتى تفوقه التكنولوجى المزعوم، والذى أن صح لم يكن الا منحولا منقولا من الغرب عامة وأمريكا خاصة، لم يكن ليحتم انتصاره فى الصدام بالضرورة. فما أكثر فى التاريخ قصص الغارات المتبربرة المنتصرة على مراكز الحضارة العريقة الكثيفة. بل لقد كان موت معظم الحضارات التاريخية الكبرى على يد أمثال تلك الجماعات المتخلفة البربرية التى لا تملك سوى القوة الحربية الصرف. فالتفوق التكنولوجى الحربى لا يرادف بالضبط أو بالضرورة التفوق الحضارى.

وأغلب الظن أن العدو كان يدرك هذه الحقائق فى قرارة نفسه، بل انه ليدرك يقينا أنه هو نفسه بقدر ما يبدو متفوقا تكنولوجيا وماديا يعد متخلفا حضاريا وثقافيا وانسانيا وايديولوجيا. غير انه كان يخدع نفسه

كما يخدعنا كجزء من حربه النفسية ضدنا. وعلى أية حال فقد اضطر العدو إلى أن يعترف في النهاية. ففي كتابه «المواجهة» يقول لاكير عن العلاقة بين الجيش والمجتمع أو بين التفوق التكنولوجي والتقدم الحضاري «كان ثمة تحليل لحرب الأيام الستة يقول ان مرجع النصر فيها هو التفوق التكنولوجي والنظام لطرف حارب ضد أناس متخلفين تعليميا واجتماعيا. وقد اثبتت هذه الحرب (أكتوبر) أنه يمكن بناء جيش متقدم جدا عن القاعدة الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والتكنولوجية التي ينتمي اليها. وربما كان ذلك هو أخطر دروس الحرب على الاطلاق!».

مهما يكن، وعلى أية حال، فلقد كان من المغالطة السافرة الحديث عن التفوق الاسرائيلي الحضاري على العرب بصفة مطلقة ودون عنصر النسبية والنسب الصحيحة. فعلى الأقل، فان الدول العربية مجتمعة تملك بحكم الحجم المطلق عددا حقيقيا من العناصر والأفراد العلميين والفنيين والتكنولوجيين أضعاف ما تملك اسرائيل بلا شك،بل ربما أضعاف مجموع سكانها بلا تحديد. بل لعل مصر وحدها، بحسبانها كبرى الدول العربية، تملك من هذه العناصر عددا يعادل ان لم يفق ما تملك اسرائيل. إن التفوق الكيفي، حتى إن صح، عارض مرحلي جدير بأن يذوب في بحر التفوق الكمي بحكم العصر وقوانين الاحتكاك الحضاري والتنوير.

الفصل التاسع

العـــــالم والمعـــركة

أن يقول أحد آن معركة أكتوبر هى نقطة التحول الحاسم فى تاريخ العرب الحديث، أو أنها خط التقسيم التاريخى الفاصل فى الصراع العربى – الاسرائيلى، فتلك على الأقل فرضية معقولة تتناسب مع أبعاد المنطقة المحلية والاقليمية، إن لم تكن حقيقة واقعة تثبتها عشرات الأحداث والشواهد والمؤشرات اليومية الجارية. أما أن نقول أيضا أنها أخطر نقطة تحول فى تاريخ العالم المعاصر والسياسة العالمية فى عطر الوفاق أو منذ الحرب الباردة، فمقولة قد تبدو للبعض فضفاضة أو ادعاء عريضا.

الحقيقة، مع ذلك، هى هذا بالضبط. إنها نهاية عصر وبداية عصر، على المستوى العالمى كما هى على المستوى الاقليمى والمحلى. وبالتحديد نهاية عصر ما بعد الحرب الثانية أو الحرب الباردة وبداية عصر ما بعد الوفاق. فأثار ٦ أكتوبر ونتائجه السياسية تتجاوز تماما النطاق الاقليمى لتترامى إشعاعاتها وانعكاساتها على النطاق العالمى بأسره تقريبا بحيث تلقى بظلالها وأصدائها على الأفق الكوكبى بغير مبالغة. سوف

يثبت المستقبل - نحن نرجح، ولا نقول نقطع - أن حرب أكتوبر هي أخطر حدث كوكبي في توازنات القوى الجديدة في العالم منذ أزمة كوبا، وربما منذ حرب فيتنام، وربما كذلك منذ الحرب الكورية، وقد نضيف الحرب العالمية الثانية نفسها. يكفي أنها أكثر من أي عامل آخر قد عمقت من اتجاه العالم إلى تعدد المراكز وظهور مراكز قوة عالمية بازغة أو نامية على حساب الولايات المتحدة بصفة خاصة.

فاذا بدا في هذا قليل أو كثير من التجاوز أو الترخص والتضخيم أو التفخيم بالقياس إلى حجم المعركة ومقياسها المباشر، فالرد هو أن العبرة إنما هي باللحظة التاريخية للحدث وكثافة الملابسات والعلاقات المتشابكة فيه ومغزى الضوابط والضواغط المتفاعلة معه ثم أخيرا بمدى الاستقطاب والاختزال الذي يفرضه هو على كل هذه المعطيات والمتغيرات.

ومن هذه الزاوية يمكن أن نقرر بلا مخاطرة أن حرب أكتوبر قد أثبتت نفسها أكبر محول ومفاعل، أكبر مكثف ومختزل، سياسي في الاستراتيجية العالمية. فما نعرف تقريبا حربا محلية محدودة منذ الحرب العالمية الثانية ثرية في آثارها وثورية وثرى بنتائجها الدولية كأكتوبر. إنها على أقل تقدير أكبر المتغيرات العالمية منذ وبعد الوفاق، وهي

بدورها قد فرضت متغيرات عديدة على كل المستويات العالمية والاقليمية والمحلية. إنها - هذه الحرب العجيبة سياسيا كما هى عسكريا - نقطة الاختزال وبؤرة التكاثف لتطورات وتغيرات عصر بأكمله وعالم بأسره. وعلى هذا الأساس وحده - نحن نجادل - ينبغي أن تفهم وأن تحلل.

وليس أقطع ولا أوضح فى هذا التقدير العالمى من شهادات القيادة العربية العليا المسئولة التي يتوافر لدينا نخبة جامعة منها. فلنستمع أولا إلى تقييم الرئيس السادات. «انها ببساطة - قال سيادته مخاطبا الصحافة العالمية في مؤتمر لاهور - معركة ٢٠٠٠ دبابة خلال ١٧ يوما فقط من القتال...

معركة يعترف العالم كله اليوم بأنها نقطة تحول فى تاريخ العالم. ولن يعود العالم إلي ما قبل العاشر من رمضان، ولا عسكريا ولا اقتصاديا. كل شئ لابد أن يتغير. وقد بدأ فعلا هذا التغير فى موازين القوى».

وبالمثل يقول الرئيس الأسد «حرب أكتوبر سطرت صفحة مشرفة فى التاريخ العربى.. حرب أكتوبر خلقت أوضاعا جديدة، ليس فى اقتصاد الوطن العربى فقط، بل وفى الاقتصاد العالمى أيضا». كذلك صرح وزير الخارجية المصرى للصحافة العالمية قائلا «لا أبالغ فى القول أن هذا التاريخ يعتبر نقطة تحول جديد، لا فى تاريخ المنطقة العربية فحسب، وإنما فى أوضاع وموازين القوى المعاصرة».

ويبقى فقط أن نجيب أولا على السؤال المنطقي والحتمي: كيف، ولماذا لننظر اذن إلى خريطة السياسة العالمية من منظور الصراع العربي – الاسرائيلي قبل المعركة، نحدد معالمها وتضاريسها ومؤشراتها، ثم نرصد ما طرأ عليها من تغيرات وانقلابات بعدها. ومن حجم الفارق بين الخريطتين يتحدد لنا الحجم الحقيقي لدور المعركة.

خريطة اللاسلم واللاحرب

إن للقضية أبعادا دولية تتعدى حدود المنطقة وأطراف الصراع المباشر، فذلك أمر طبيعي فى عالمنا المعاصر الذى أصبحت فيه كل المشكلات المحلية بحكم طبيعة العصر نفسه مشكلات دولية بدرجة أو بأخرى. وليست قضيتنا باستثناء ولا هى بشذوذ. الفارق فقط هو فى الدرجة لا النوع. فهنا يجتمع البعدان المحلى والدولى ويتشابكان فى تداخل مربك ومعقد كما لم يحدث فى أى مشكلة محلية أخرى. وهذا التداخل العميق هو أعقد ما فى القضية، بل هو عقدتها الصماء وهو يعنى أن القضية ليست ثنائية مطلقة، بل هناك رباعية تتألف من القطبين المحليين العرب واسرائيل، والقطبين الأعظم الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة، فضلا عن إطار كامل من الأطراف والمؤثرات الثانوية والجانبية.

ولئن كان هذا يرجع فى جزء منه إلى الطبيعة والأصول العالمية للعدو الصهيونى ثم سياسته المخططة فى مرحلة ما فى تدويل الصراع، فان جزءا آخر يرجع إلى، كما يدل على، عجز أى من الطرفين المحليين حتى الآن عن حسم الصراع لصالحه مرة واحدة وإلى الأبد. ويتضح هذا الوضع الأخير فى «متناقضة» حرب يونيو، حيث حقق العدو نصرا عسكريا حاسما وفشل فى انتزاع النصر السياسى، فى حين انهزمنا نحن عسكريا ثم صمدنا سياسيا.

والشئ المهم هنا، كأنه القانون، هو أن الجانبين الدولى والمحلى فى القضية يتناسبان تناسبا عكسيا. فكلما ضعفنا، ضعف الجانب المحلى وزاد عنصر الدولية فى القضية، وكلما زاد هذا الأخير فقدنا حرية الحركة وخرج زمام الأمر والمصير من أيدينا حتى ليمكن فى حده الأقصى أن يفرض علينا الحل من الخارج. وعلى هذا فان مستقبل الصراع كله يتوقف فى النهاية على تغليب هذا الجانب أو ذاك على الآخر.

وبالتالى فان كل شئ يتوقف فى نهاية النهاية على مدى قوتنا أو ضعفنا، فهذا هو العامل المحدد. فالملاحظ مثلا أننا فى مراحل قوتنا نسبيا نريد القضية محلية ولا نريد تدخل العالم، بينما فى مراحل ضعفنا، كما كان الحال بعد هزيمة يونيو، نريدها قضية دولية حماية لنا

من مخططات العدو الاسرائيلي الذى يحاول تثبيتا لأمره الواقع واستغلال لنصره أن ينفرد بنا وبمصير الصراع وأن يقنع العالم أن القضية مجرد صراع محلي وليست قضية دولية تهدد السلام والأمن العالمي وأنه قد فرض الحل المحلى بنجاح ولا مبرر لحل أو تدخل دولي .

والعدو الاسرائيلي، وهو عدو حياة وجد فرصة عمر فى غفلة من زمن كانت أطماعه بعد يونيو قد اتخذت خطا تصاعديا بانتظام لاشك فيه.لقد ظفر بنصر، أيا كانت اسبابه أو ملابساته، يتعدى أعرض أحلامه هو نفسه وأكثرها وحشية، حتى لقد كان على استعداد فيما يبدو بعد ذهول المعركة مباشرة لأن يقبل الحد الأدنى أو الأوسط من المكاسب، كالأمن مثلا مقابل الأرض، أى الاعتراف مقابل الانسحاب.

ولكن مع ترسخ الاحتلال، تورمت نفسيته ومعها أطماعه وغروره وأصبح يطلب الأمن والأرض معا، كل شئ - يعني - مقابل لاشئ وبتعبير مباشر: أصبح يطلب الاستسلام الكامل علنا، وبغير قيد أو شرط تقريبا - «المفاوضات المباشرة» التى كان يطالب بها لم تكن الا غطاء مقنعا أو مقنعا لتوقيع صك الاستسلام. ولن نقتبس هنا أيا من تصريحات زعماء العدو، اذ لاحصر لها كما لاحاجة لنا بها. المهم أنه

بدأ يضع موضع التنفيذ كل مشاريعه وخططه الاستيطانية لتحويل الأمر الواقع الجديد إلى حقيقة جغرافية وسياسية أبدية.

وفى الاتجاه التصاعدى (أم هو التنازلى؟) نفسه، جاء الخط البيانى لتحرك الولايات المتحدة السياسى. فبعد أن «مررت» قرار الأمم المتحدة بشأن التسوية السلمية لأزمة الشرق الأوسط، ركزت استراتيجيتها الدولية على تمزيقه وتعويقه حتى أصبحت فى النهاية تتجاهله تماما وتحاول ارغام العرب على التنازل الواقعى عنه والبدء من لا شئ، أى من حقيقة الأمر الواقع وثقل الهزيمة فقط. وبالمثل فعلت بمهمة يارنج حتى أصيبت بالشلل الزاحف فالنصفى فالكلى. وبالمثل أيضا جرت المناقصة السياسية على مبادرة روجرز: من «صفقة» حل شامل package deal، إلى حلول منفصلة منفردة، إلى حل جزئى، إلى حل ميكروسكوبى تقلص بل تقزم إلى عملية فتح القناة وبقاء كل شئ كما هو تقريبا!

من هنا تعثر الحل السلمى، الحل السياسى كما يوصف، بالسكتة القلبية مات، والأصح أن تقول ولد ميتا ولم يكن اعلاننا فى مرحلة ما أن «القتال هو قرارنا» الا تصريحا بالدفن. أما لقاء القمة فى موسكو بين نيكسون والزعماء السوفيت فلم يزد بالنسبة لأزمة الشرق الأوسط عن «جلاسبره روسيه»، اتفق فيها الطرفان على انهما اختلفا أو على ألا

يختلفا. وكل قيمته الحقيقية أنه قطع على أعلى مستوى كل شك باليقين في صحة تصريح الدفن. والشئ نفسه يقال عن لقاء القمة الثانى فى واشنطون.

وعند هذا الحد، وبعد أن طاردت الولايات المتحدة دور الأمم المتحدة فى حل الأزمة حتى طردته، ثم دور الأربعة الكبار من بعده، ثم لم تنجح مع ذلك كله فى «أمركة» القضية نهائيا، فان الخطر الذى بات يتهددها كان هو الوقوع فى مأزق الاستقطاب الثنائى لتصبح جزءا صغيرا وجزءا لا يتجزأ من لعبة الصراع الثنائى stalemate الذى اتجه عالميا إلى التعايش السلمى والتعاون السلمى على أساس من «الحالة الراهنة» والحلول السلمية والوسطى، التى قد لا تعنى فى حالة الشرق الأوسط إلا «الأمر الواقع».

واذا كان خطر أمركة القضية هو ضياعها فى النهاية، فقد كان الخطر فى حالة الاستقطاب الثنائى هو تجميدها، وضعها فى «التجميد أو التبريد العميق»، «على الرف» أو «تحت البساط» كما تعددت الإوصاف والتوصيفات وقتئذ. ولعل هذا هو بالتقريب ما كانت تمثله مرحلة اللاحرب واللاسلم التى سادت إلى ما قبل أكتوبر. وكما أن احدا فى العالم باستثناء العرب أنفسهم لا يريد ذهاب اسرائيل كدولة، فلم يكن فى العالم قبل أكتوبر باستثنائهم أيضا من يريد أو يجد مصلحة فى وضع نهاية لذلك الوضع المريح والملائم للجميع..

واذا كان لنا أن نلخص الموقف كله فى تلك المرحلة، فيمكن أن نضعه كالآتى. قضية الصراع العربى - الاسرائيلى، أو أزمة الشرق الأوسط كما تسمى تجاوزا أو تبسيطا، متعددة الأطراف والمستويات والأبعاد بطبيعتها، لكن يتجاذبها أساسا فى علاقة عكسية، رهيفة ولكنها رهيبة، محوران أو قطبان متنافران: الطرف المحلى والطرف الدولى. وبين قوتى الشد والجذب هاتين، فانها ظلت أزمة عالقة ومشكلة معلقة. وتتذبذب متأرجحة بين حالة من التميع وأخرى من الرهو الممض، لم تكن تمثلها كما مثلتها مرحلة اللاحرب واللاسلم. وتلك المرحلة بدورها لم تكن تعنى مثلما كانت تعنى تحويلها من قضية حية ملتهبة ومتفجرة فى قلب حلبة الصراع العالمى وفى عين اعصار السياسة الدولية، إلى مجرد مشكلة هامشية روتينية، راكدة راقدة، موضوعة «فى النفتالين» ومودعة فى ارشيف الديبلوماسية الدولية الرتيب.

ولأسباب معقدة جدا، أكبر بكثير وأقوى بكثير جدا من أبعاد القضية المحلية لأنها تتعلق بهيكل النظام العالمى برمته، الفوقى والتحتى، فقد كاد الحل الدولى يكون إما فاقد وإما مفقود، إما لا حساب له واما على حسابنا وفى النتيجة، وفى الظروف، فلم يكن ليفض ذلك الوضع المعلق الا الحل المحلى. من هنا فقط، من أرض المعركة، من المعركة المحلية، كان يمكن للامل أن ينبثق. لقد كان مصيرنا «معلقا»، ولكنه - للغرابة والدهشة! - كان «معلقا» بارادتنا..

العرب ، اسرائيل، والوفاق

اسرائيل هى آخر دولة خلقها الاستعمار القديم، وبعده عاشت فى حماية الاستعمار الجديد، لكنها أيضا أول دولة خلقت فى العصر النووى. هى اذن بنت ونبت الحرب الباردة منذ نهاية الحرب الثانية، بل لقد ولدت فى أوج القوة الأمريكية وذروتها حين كانت هذه تنفرد بالقنبلة النووية ومن ثم بالسيطرة العالمية شبه المطلقة. ومنذ ولدت اسرائيل على يد الاستعمار القديم إلى أن انتقلت مسئولية بقائها إلى الاستعمار الجديد وهى تعيش تحت ظل الحماية والرعاية الأمريكية، ولكنها فى الوقت نفسه كانت تفره وتسمن على التناقضات والصراع بين المعسكرين وبين العملاقين. فقد أفادت اسرائيل افادة كبرى من مناخ الحرب الباردة وفى ظل الاستقطاب الثنائى وبفضل الشلل النووى، وذلك فى ضمان أمنها وفى تأمين بل وتعاظم قوتها. وتلك بالدقة كانت المشكلة الأسية والأساسية أمام العرب.

ولقد كان أمل اسرائيل أن تكسب أيضا، بل أن تكسب أكثر، فى ظل الوفاق الأخير بين الدولتين الأعظم. ولاشك أن الوفاق هو أهم وأخطر المتغيرات الدولية التى شهدها العالم منذ الحرب الثانية، وضع نهاية للحرب الباردة، وبدأ حالة من الاسترخاء العسكرى والسلام السياسى بين الكتل، فغير المناخ السياسى الدولى، وفوق ذلك أحدث

سلسلة كاملة من المتغيرات المترتبة تمثلت فى مجموعة من الوفاقات والتقاربات الأصغر بين أجزاء كثيرة من العالم.

ولقد تعرض الوفاق لكثير من التشكيك والحملات، سواء عن حق أو غير ذلك، وتساءل البعض، سواء عن حسن نية أو عن نية مغرضة، عما اذا لم يكن يتعارض مع أهداف ومصالح حركة التحرير الوطنية فى صراعها مع الامبريالية والاستعمار فى العالم عامة والعالم الثالث خاصة والعالم العربى بالأخص. وبعيدا تماما عن الاتهام غير الصحيح قطعا بأن الوفاق كان يعنى (التخلى) الجزئى من جانب الإتحاد السوفيتى عن حركات التحرير الوطنية فضلا عن الاتهام ، الظالم والخاطئ كلية «بالتواطؤ» مع الامبريالية الأمريكية، فالأرجح عند البعض أنه ألقى ظلالا معينة على امكانيات الصراع ضد الامبزيالية والاستعمار، وربما وضع كذلك حدودا لها.

من المحقق أن الوفاق لا يعني توقف الصراع بين القطبين أو الكتلتين، وانما هو قد قدم شكلا جديدا محكوما ومضبوطا من الصراع السلمي يتحاشى أساسا أن يصل إلي حد الصدام أو المواجهة النووية التى تهدد سلام العالم أجمع. غير أن هذا بالدقة فتح الباب للولايات المتحدة لكى تمارس سياسة الابتزاز النووى ضد القوى الوطنية والتحررية فى العالم.

وبالنسبة للعالم العربى، فقد كان معنى هذا أن تنطلق اسرائيل بلا رادع لتطبق سياستها فى ابتلاع الأراضى العربية المحتلة منذ يونيو وتفرض سلام الأمر الواقع وسلام القوة.

وقد كانت قضية التسليح هى مدار الخلاف بين سياسة الوفاق وسياسة التحرير فى المنطقة. فبينما صعدت أمريكا سياسة تسليح اسرائيل حتى الأسنان بكميات لا حد لها وبنوعيات متطورة إلى أقصى حد، التزم الاتحاد السوفيتي فى تسليح الدول العربية بحدود معينة. ورغم أن مصر توجهت إلى الاتحاد السوفيتى بحديث خاص على لسان رئيسها «أننى انبه الأصدقاء السوفيت إلى أن محاولات الحل السلمي بغير القوة وهم وخداع، وأن استمرار وقف اطلاق النار لا يخدم فى النهاية الا اسرائيل وحليفتها امريكا» فقد تحفظ الاتحاد أكثر من مرة على طلبات السلاح المصرية كما وكيفا وتوقيتا.

وبهذا استغلت أمريكا الوفاق لفرض الابقاء على الوضع الراهن فى المنطقة من خلال ما تسميه سياسة المحافظة على التوازن العسكرى فى المنطقة وبدا، على الأقل على السطح، أن الوفاق بقدر ما أفاد اسرائيل عسكريا وسياسيا وزاد من تلاحمها وتقاربها مع أمريكا، قد ضاعف من صعوبات العرب التحريرية وألقى عليهم مزيدا من الأعباء النضالية، مثلما باعد بينهم وبين أصدقائهم الكبار إلى حد أو آخر. وبقدر ما

خرجت اسرائيل وهى أكبر المنتفعين بالوفاق فى العالم، بدا العرب لحين وهم نسبيا الأخسرون منه فى العالم.

ولما كانت أزمة الشرق الإوسط هى كبرى ازمات العالم المستعصية والمتبقية وأشدها خطرا وتفجرا، فقد بدا للبعض أن حالة اللاحرب واللاسلم المفروضة عليها كانت تتفق تماما مع الوفاق، كما بدا هذا الأخير للبعض وفاقا على بقاء وأمن اسرائيل بالتحديد أساسا وفى الدرجة الأولى. والواقع كما أوضح الرئيس السادات فيما بعد «أن أمريكا تضمن أمن اسرائيل، وأن روسيا أيضا تضمن أمن أسرائيل». وأن المجتمع الدولى كله حين لا يذهب إلى أبعد من قرار مجلس الأمن يضمن أيضا أمن اسرائيل».

كذلك فقد أشاع الوفاق الدولى، شأن كل مرحلة انتقال، حالة من الفوضى المربكة والاضطراب المقلق فى العلاقات الدولية المستقرة. فلبعض الوقت كانت التشكيلات السياسية والتوازنات والمحاور والاستقطابات الدولية قد اهتزت واضطربت وتداخلت كرد فعل للوفاق الأعظم. وبالتالى تغيرت كثير من المفاهيم التى كانت مستقرة وتعرض بعضها، عدم الانحياز مثلا، للتساؤل واعادة التقدير والتقييم أو التقويم. وبالنسبة للقضية العربية، فلقد كانت النتيجة الصافية هى قدر أو آخر من التميع والغموض فى مواقف الدول المختلفة من الصراع.

وفيما غدا هذا، فلقد خلق الوفاق روحا عامة من الاتجاه إلى التسويات وحل المشاكل بالتنازلات. وفى هذا المناخ وجدت حالة اللاحرب واللاسلم المخيمة على الشرق الأوسط بيئة ملائمة للتجمد وحده وغير ملائمة للتسخين على الأطلاق. ورغم تحول قطاع كبير هام من الرأى العام العالمى إلى جانب الحق العربى بفضل الجهود الديبلوماسية والاعلامية التى بذلتها التحركات السياسية العربية المتتابعة بلا كلل، فقد بات واضحا أن أحدا لايريد الحرب عامة، حتى للتحرير الوطنى أو كانت حربا عادلة مشروعة. لا أحد يريد للعرب أن يحاربوا ليستردوا أرضهم، باختصار لا أحد يريدنا أن نحارب، الأصدقاء كالأعداء. الكل ينصح بالحل السياسى، والحل السياسى - الكل يعلم - ليس بمستطاع. والحقيقة أنه كما كان هناك استهتار اسرائيلى باد بنا وبقوتنا عسكريا، كان هناك إلى حد ما استهتار عالمى بحقنا سياسيا.

وفى وجه هذه المتغرات الجديدة، كان الحل المنطقى هو اعادة تأكيد البعد المحلى للقضية بالنسبة للبعد الدولى، وذلك «باستراتيجية الاقتطاع» التى تقتطع القضية بقدر الامكان من دائرة الاستقطاب الثنائى. وهذا لايكون إلا «بالحل المحلى» الذى يعيد الحياة والحرارة إلى جبهة القتال. ولايعنى الاقتطاع هنا المقاطعة أو الانسلاخ أو الانعزالية عن العالم وقواه وضوابطه، فهذا مستحيل كما هو ضار، ولكنه يعنى

التنسيق الدقيق الوثيق مع أصدقائنا الكبار على نحو ما فعلت الهند مثلا فى صراعها الناجح الأخير.

وعلى هذا الأساس لم يكن سوى «القوة الذاتية» العربية متغيرا مضادا تشرعه الدول العربية فى وجه المتغيرات الدولية، بمعنى الانتقال من الاعتماد على توازن القوى إلى الاعتماد على القوة الذاتية أساسا. إنها «الثابت» الحقيقى الوحيد فى التحليل الأخير وعلى المدى الطويل وفى وسط كل المتغيرات الكامنة أو الكائنة أو الممكنة. هى «الجيروسكوب» الوحيد المضمون لسفينة العرب فى بحر المتغيرات المتلاطم والبوصلة التى لا تضل ولاتضلل فى عصر الوفاق الضبابى الباهت.

وخامات القوة الذاتية العربية المباشرة فى المعركة أكبر وأوفر مما نظن وأشهر من أن تكرر: القوة البشرية (خاصة المصرية) كسلاح ووقود عسكرى معوض عن أى نقص تكنولوجى، البترول (خاصة فى المشرق) كسلاح سياسى قاطع فى عصر أزمة الطاقة، الأرصدة العربية (خاصة البترولية) فى عصر أزمة النقد الدولية. غير أن الارادة والوحدة، الارادة العربية الموحدة باختصار، هى وحدها الروح التى يمكن أن تمنح الحياة والحركة لهذه المادة الخام.

واذا كان الحل العسكرى وحده لايكفى نظرا للحقد الأمريكى الضارى الذى يتحول إلى حقن لاسرائيل لا حد له بالسلاح المتفوق، وكان الجهد المصرى وحده لايكفى لجسامة الموقف وتعقده، فان «الحل الذاتى» المثالى هو ذلك الذى يجمع فى اقتدار وتناغم بين الحلين العسكرى والسياسى: الأول ضد اسرائيل أساسا، والثانى ضد أمريكا أساسا، الأول بيد وسلاح مصر أساسا، والثانى بيد وبترول العرب أساسا. ان التحرير ان يكون «عبء الرجل المصرى» فى الدرجة الأولى وبالمعنى الميدانى المباشر، فانه أيضا «عبء الرجل العربى» بدرجة لاتقل خطرا وفاعلية وان كانت بمعنى أقل مباشرة. وهذا ما ينقل البؤرة فورا إلى وحدة العمل العربى.

ومن هنا كان «الوفاق العربى» هو الرد المنطقى والحتمى على «الوفاق الدولى». فلقد أثبتت سنوات ما بعد يونيو أن الخطر الاسرائيلى مسلط على العرب جميعا بلا استثناء، وأن العداء الأمريكى موجه للعرب جملة وتفصيلا. أنهم جميعا مهددون فى حاضرهم أو مستقبلهم. انهم جميعا شاءوا أو أبوا فى «مركب» واحدة ، والعالم بالفعل ينظر اليهم كشئ واحد ويضعهم فى «سلة» واحدة. والحقيقة أنهم بغير الوحدة يمكن أن يكونوا فى عصر الوفاق أضيع منهم فى أى وقت مضى، ولا نقول أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام. والوحدة وحدها هى العاصم والضمان وصمام الأمن والأمان.

والوحدة التى نقصد هنا ليست بالضرورة الوحدة الدستورية، فهذه عمل وقت السلم أكثر منها عمل وقت الحرب، المقصود الآن هو وحدة العمل التحريرى، وحدة الحرب، وحدة الجبهة والمجابهة ووحدة الموقف السياسى والعسكرى.

وهناك عوامل وقضايا عديدة وشائكة باعدت بين العرب وقسمتهم فى وقت ما إلى جبهات صراع مرير ومحاور استقطاب حاد. ومن المسلم به أن من أبرز تلك القضايا الجدل الايديويوجى والصراع المذهبى. وتلك كانت «الحرب الباردة» بين العرب. وكما قسمت الحرب الباردة الشرق والغرب إلى المعسكرين الاشتراكى والرأسمالى، فقد انقسم العالم العربي أيضا إلى معسكرين مماثلين.

وسواء كانت الحرب الباردة العربية انعكاسا محليا بدرجة أو بأخرى للحرب الباردة الكبرى أو لم تكن، وسواء صح ما يقال أحيانا من أن هذه الأخيرة انتهت كنتيجة لتغلب التكنولوجيا على الايديولوچية ، أو المصالح على المبادىء ، أو الاستهلاك على التسلح ، وسواء صح كذلك أو لم يصح ما ردده الغرب عن «نهاية الايديولوچية» وانتهاء عصرها أو عن التطورات الداخلية فى بنيات المذاهب الايديولوچية جميعا ، فالمحقق أن الوفاق الأعظم وضع

نهاية مؤقتة للجدل المذهبى أو هو على الأقل قد خفف من حدته ووضعه فى الظل .

لهذا فلم يكن من المستكثر - أليس كذلك ؟ - أن يؤجل العرب بصفة مؤقتة هذه القضية إلى أن يتم التحرير على الأقل . ذلك لا يعنى التراجع عن المثل التقدمية والمبدأ الاشتراكى قط ، بل وذلك دون المساومة على مبدأ المزيد من الاشتراكية فى المستقبل ، ولكن أيضا دون أن تضيع قضية التحرير فى غمار الجدل المذهبى ، والأرض والمصير بسبب قضية الفكر والعقائديات .

وإذا كان الوفاق الأعظم يمثل تقارب الأضداد ، الولايات والاتحاد يتقاربان ، وكذلك الولايات والصين ، وكانت الكتل الدولية تذوب بالتدريج فأوربا الغربية والشرقية تتقاربان ببطء بينما يتحرر أعضاؤهما بحذر من قبضة القطبين الأعظم ، اذ كان ذلك كذلك ، فلماذا لايتقارب العرب فى وجه العالم ومتغيراته دون تفريط بالضرورة فى المواقع والمواقف المبدئية الأساسية ؟

لاسيما أن القطبين الأعظم قد أخذا ، أيضا ، يتباعدان عن أصدقائهما من العرب بقدر ماتقاربا من بعضهما البعض ، ففى فترة

المساجلات والمساومات البترولية التى «سبقت حرب أكتوبر ، كان من الواضح مثلا أن آمريكا ابتعدت عن السعودية بمقدار ما ابتعد الاتحاد السوفييتى عن مصر منذ سحب الخبراء العسكريين ومشاكل التسليح .. الخ . وكان من حسن الحظ أنه بالقدر نفسه تقاربت مصر والسعودية من الجهة الأخرى . وذلك هو النمط الذى أخذ يسود العلاقات العربية عامة بعد الوفاق الدولى بالتدرج . فاذا كان الاستقطاب الثنائى القديم بين الكتلتين قد شجع على تعرض العرب لحركة طاردة مركزية ، فقد وجب الآن - هكذا شعر العرب - آن يخضعهم الوفاق الثنائى لحركة جاذبة مركزية . كان المطلوب - يعنى - وفاق عربى ، ليس بأى شكل مضادا للوفاق الدولى فى ذاته ، ولكن كمصل مضاد لأعراضه وأمراضه . المطلوب ببساطة تجميد الخلافات العربية حتى يتم التحرير .

ولقد كان هذا بالفعل يتفق مع أولويات شعارنا القائد: حرية ، وحدة ، اشتراكية . فرغم أن هذه الثلاثية تؤلف مثلثا متساوى الاضلاع، بمعنى أن لكل بعد من آبعاده قيمة متكافئة ، فان المتغيرات الدولية الزلقة كانت تفرض علينا آن نضغط على الحرية - وهى هنا لاتعنى إلا حرية الأرض ، آى التحرير ، أى الأرض المحتلة وفلسطين - كهدفنا الأول والأعظم . ورغم أن قوميا عربيا واحدا ليس على استعداد لأن

بعقد موازنة أو يجرى اختيارا بين الحرية والوحدة ، فكلتهما أمل شاهق عزيز ، فلا شك مع ذلك أن التحرير يأتي أولا ، قبل التوحيد وقبل المذهب . وتلك كانت الصيغة العملية التي قام عليها الوفاق العربى الجديد ، ومنها تقدم إلي المعركة فى أكتوبر .

أكتوبر آخر وأخطر المتغيرات

عند أول طلقة يوم السادس من أكتوبر اهتزت الأرضية السياسية العالمية ، تلك الأرضية الصعبة الوعرة غير المواتية للقضية العربية ، اهتزازا عنيفا ، وتغيرت تضاريسها ومعالمها كما لو أصابها زلزال . كذلك لم يلبث المناخ الدولي «الانقلابى» الملبد أن انقلب الى طقس «اعتدالى» موات . وكان «أروع مافى حرب رمضان هو قرار الحرب نفسه . كان قرارا عربيا ، لا شرقيا ولا غربيا » كما قال ياسر عرفات بحق وبلاغة معا . أو كما وضح الرئيس السادات نفسه بعد ذلك «كان قرار القتال مصريا ١٠٠٪ وبإرادة حرة ١٠٠٪ .. كان قرارنا بأن نواجه قدرنا بأنفسنا قرار مصريا ـ سوريا خالصا» مثلما كان نصرنا فيما بعد «نصرا عربيا بكل الوضوح اللازم» . ويمكن على هذا الأساس أن نحدد ثلاث نتائج مباشرة للمعركة العسكرية في مجال المعركة السياسية . أنها فرضت القضية على العالم فرضا ، حددت اتجاه الرأى العام

العالمي ، وفرضت على دول العالم تحديد مواقفها من الصراع بوضوح ، ولنحلل هذه النتائج تباعا بشيء من التفصيل .

المعركة تفرض القضية

كانت أسرع نتيجة للمعركة أنها فرضت نفسها على العالم كله فرضا ، رفعت درجة حرارة القضية من نقطة الصفر وخط التجمد وبرودة الصقيع الى سخونة النار الملتهبة ، ونقلتها من زاويا النسيان وهوامش اللا مبالاة فوضعتها فى قلب العالم وعلى رأسه . وبعد أن كان العالم قد اقتنع بان أزمة الشرق الأوسط قد «استنقعت» ولم يعد للعرب إلا الاستسلام ، «وضعت حرب اكتوبر كل العواصم فى العالم فى حالة تعبئة عامة ، شعر كل فرد فجأة ، سواء كان فى باريس أو فى ألاسكا، فى طوكيو أو نيروبى ، بانه مستهدف ، وهذا يعنى أن دور المتفرجين قد انتهى» ، كما كتبت ـ ولو من موقف العداء ـ فرانسوازجيرو .

وبعد أن كانت الدول العربية تسعى عبثا وراء الرأى العام العالمى وتخطب ود الدول الكبرى وتستثير نفوذها ومساعيها الحميدة فى الأمم المتحدة وخارجها . اصبح الكل هم الذين يسعون وراء الدول العربية ويخطبون صداقتها . وبعد أن كنا نكافح بلا جدوى فى سبيل تطبيق قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ وفى سبيل تفسير نصوصه وصيغه الملتوية،

فرضت المعركة على الجميع وعلى رأسهم أمريكا الاعتراف بالقرار بتأكيده وتصحيح تفسير نصوصه .

لقد أثبتت المعركة للعالم أنه لايستطيع أن يتجاهل القضية ، وفرضت عليه الالتزام بمسئوليته الدولية عن المساهمة في حلها ، بل وفرضت عليه الاعتراف بالشعب الفلسطيني ووجوده وحقوقه ووضعته وجها لوجه أمام هذه المسئولية بصورة جادة كما هي قاطعة ، وإذا كانت المعركة قد أثبتت بذلك صحة المبدأ الجوهري الذي لم يغب لحظة عن العقيدة العربية وهو أن «ما أخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة» فقد كان من النتائج الهامشية بل الأساسية للمعركة أنها أعادت للشرعية الدولية معناها واحترامها بعد أن ضيعتها مرحلة اللاحرب واللاسلم ، وللأمم المتحدة وجودها الذي عبثت به اسرائيل وكادت تقضى عليه عمليا رغم أنها هى الدولة الوحيدة التي تدين لها بوجودها .

ومن المثير أن نلاحظ هنا مفارقة غريبة حقا ولكنها مفهومة جدا مع ذلك . لقد رأينا أن القضية صراع وعملية شد وجذب بين البعدين المحلى والعالمى . فور ابتداء المعركة وأثناءها أصبح البعد المحلى هو السائد والمسيطر ، اذ بات الحسم يتم علي أرض الصراع مباشرة ، بينما تراجع البعد العالمى الي حده الأدنى .. ومع ذلك لم تكن القضية عالمية ، بمعنى الاهتمام العالمى بها ، أكثر منها منذ تلك اللحظة . لكنما هى

طبيعة الاشياء وحقيقة السياسة الدولية . فالعالم لا يحترم الا الأقوياء ولايعرف الا القوة ولا يعترف إلا بالأمر الواقع .

والواقع ان استراتيجية الحل السلمى التى تبنيناها بعد هزيمة يونيو كانت استمرار بطريقة آخرى لاستراتيچيتنا ازاء استشراء وتوسع الخطر الصهيونى فى العالم وخاصة فى العالم الثالث كالقارة الأفريقية واللاتينية. فلقد كانت تلك الاستراتيجية تقوم علي محاصرة أطراف الاخطبوط لا ضرب الرأس .. وقطع الاطراف ، على ضرورته ، لا يقتل الرأس ، بل لقد كانت الاطراف دائما تنمو ، كما فى أفريقيا ، من جديد ، حيث كان العدو يواجهنا بحصار مضاد . أما الاستراتيجية الفعالة فهى . اضرب الرأس ، تمت الاطراف ، اضرب النار ، تمت المحاولات العاجزة والشوهاء ، ابدأ المعركة العسكرية بنجاح ، تصحح المعركة السياسية نفسها بنفسها . وهذا بالدقة وماحققته اكتوبر من أول طلقة .

المعركة تحدد الرأى العالمى

انعكس تأثير المعركة مباشرة وبلا فاصل زمنى آو ساتر اصطناعى على الرأى العام العالمي ، وخلاصة التفاعل بين المعركة والرأى العام العالمى هى آنها باختصار كسبته بقدر ماكشفته ؛ وبلورته بقدر ماشكلته، كشفته ، لانه كان الى حد معين علامة استفهام معلقة ، فتحيز

الرأى العالمى الى جانب اسرائيل ، ذلك الذى وصل الى درجة هستيرية محمومة بل مجنونة حقا خلال حرب يونيو ، لم يكن مستبعدا تماما عند تفجر المعركة رغم التحولات المهمة والخطيرة التى حدثت مابين الحربين. فبعيدا تماما عن أن تكرر التجربة الظالمة نفسها ، كان هناك كثير من النار تحت الرماد لم يزل . ولاشك أن اسرائيل كانت قد فقدت جزءا كبيرا من تعاطف العالم القديم معها ، وفقدت معه قطاعا أكبر من الرأى العالمى ، وتغيرت النظرة العامة كثيرا الى الحق العربى ومال الميزان العاطفى الى كفتهم بدرجة كبيرة ، ولكن ظل السؤال الأساسى هو : آجذرى landslide هو أم جزئي هذا التحول؟ أهى عزلة دائمة أم موقتة ؟

كذلك فلا جدال أن الدول العربية أجادت بعد مرارة التجربة القديمة فن مخاطبة الجماهير العالمية وأحسنت إدارة تحركاتها السياسية مع الدول الأجنبية بحيث غيرت الكثير من المواقف والمفاهيم ، ومن المحتمل هنا أن الدول العربية أفادت قبل المعركة من تجربة الهند الناجحة فى حربها الأخيرة مع الباكستان حيث لجأت الى سياسة حملة السلام الدبلوماسية والاتصالات الهادئة مع دول العالم دون الحديث عن الحرب او التلويح بها ، وفى الوقت نفسه وضعت الخصم فى موقف يحتم عليه هو التهديد وحديث الحرب غير الأثير لدى الرأى العالمى . وهكذا بالفعل

صنعت الدول العربية ، حتى أحكمت عزلة اسرائيل فى العالم وعن الرأى العام الى حد غير مألوف .

ومع ذلك كله فقد كشفت المعركة عن عدة حقائق دالة . أولا ، حدوث نوع من «الردة» بقدر معلوم في الرأى العام العالمى فور أنباء المعركة ، لاسيما أيام الانتصارات العربية الباهرة والكاسحة في البداية . ولقد عكست الصحافة العالمية بلا مواربة كثيرا من الترقب واكثر منه من القلق على اسرائيل في تلك المرحلة ، كما عكسته الإستفتاءات العامة التى أظهرت انحيازا غالبا لإسرائيل وإن لم يكن على مثل درجته المحمومة أيام يونيو . بل لقد عسكته أيضا مواقف وتصرحيات بعض الحكومات الغربية التي ظلت محايدة نسبيا ، اذ سرعان ماكشرت فجاة عن أنيابها ولم تخفها إلا بعد أن اطمأنت في النهاية على «بقاء ووجود» اسرائيل . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على وجود نواة صلبة دفينة من المتعصبين للعدو ، تمثل فى الواقع أحقادا دفينة - تاريخية ربما ؟ - لا سبيل الى اقتلاعها فى يوم وليلة فضلا عن تجاهلها آو التقليل من شأنها . والحقيقة أن العالم لازال بعضه يفكر ويتصرف عنصريا بوعى أو دون وعى، تحت الجلد أو فوق السطح .

ثانيا ، كشفت المعركة عن نوع من الازدواجية والانفصام فى الرأى العام فى دول العالم المختلفة مابين الحكــومات ومابين الشعوب ، ففى اوربا بينما اتخذت بعض الحكومات الغربية مـواقف محايدة أو شبه محايدة بدرجات متفـاوتة من التحفظ أو الحذر ازاء الصراع المسلح فى الشرق الأوسط ، اخذت شعوبها كما أوضحت استفتاءات الرأى الجماهيرية درجات أكبر وأعنف من الميل الى العـدو الاسرائيلي ، ويرجع هذا فى جزء منه الى أن الحكومات كأجهزة مسئولة ، أكثر ارتباطا بالمصـالح وحساسية لها ، بينما أن الشـعوب أكثـر ارتباطا بالعواطف وتعكس المشاعر والكـوامن التلقائية بحرية أكثر غير أنه يرجع أيضـا الى حرص الحكومات على أن تمسك العصا من الوسط .

وإذا كان هذا هو الوضع العام في دول أوربا الغربية ، فقد يكون العكس صحيحا بدرجة أو بأخرى بالنسبة للدول الأفريقية . فرغم التقاربات المهمة والخطوات المتقدمة التى حققتها العلاقات العربية - الأفريقية بشأن صراع الشرق الأوسط عبر سنوات ماقبل المعركة ، فلقد كان لبعض الحكومات الأفريقية قدر من التحفظ والحذر والتردد فى حين كانت شعوبها نسبيا اكثر تعاطفا وتدفقا مع الحق العربى . لقد كانت

الشعوب بعامة أقرب ميلا من حكوماتها الى القضية فى حالة أفريقيا ، بينما كانت الحكومات بعامة أقرب من شعوبها فى حالة أوربا .

المعركة تحدد مواقف الدول

أيا كانت اختلافات الميول الداخلية أو حدود المواقف الخارجية فى مجال الرأى العام العالمى ، فقد جاءت المعركة لتفرض على الجميع أن يقترب من الموقع العربى قدر ما أرغمته على الابتعاد عن موقع العدو الإسرائيلى . ثم جاء أعمال سلاح البترول ليؤكد هذا الاتجاه ويدعمه . وبذلك ازدادت التحولات الكمية فى موقف الرأى العام العالمى ، ثم تطورت التحولات الكمية الى تحولات كيفية لصالح العرب . ويمكن أن يقال إن المحصلة الصافية لمعركة الرأى العام هى كسب العرب لها على الجملة وبالقدر نفسه اكتمال واحكام عزلة اسرائيل . ذلك يصدق على أوربا الغربية كما يصدق على أفريقيا ، وعلى دول عدم الانحياز كما على العالم الثالث .

واذا كان لهذا التحول من معنى ، فهو أن معركة الرأى العام العالمى هى جزء من المعركة السياسية التى سبقت المعركة العسكرية ولحقتها . وكجزء من المعركة السياسية ، فانها تخرج فى التحليل الأخير وهى مثلها صراع قوة ، تحكمها مثلها حقائق القوة وحدها وأساسا . أنها معركة ضغوط متبادلة ومصالح مشرعة . واذا كان لهذا الموقف بدوره

عن درس عام يعلمه . فهذا الدرس هو أن الرأى العام بطبيعته هلامى حول قلب ، لا ضمان له ، ونكاد نضيف : ولاضمير أيضا . فهو ـ كرأس المال ـ جبان الى حد ما ، يتبع الاقوى غالبا ، ويخضع للأمر الواقع ربما أكثر مما يقاومه ، وهو لايقود السياسية بقدر ما يتبع السياسة ، الرأى العام العالمى لايعترف فى نهاية الأمر الا بمن يفرض نفسه عليه ، بالامر الواقع ، بالقوة ، بالنصر ، يضعه ازاءها فجأة ووجها لوجه . أنك لاتكسب المعركة العسكرية فى الميدان بالرأى العام العالمى ، ولكنك تكسبه اذا كسبتها ، وهذا بالدقة مافعلنا فى اكتوبر .

ثالثا ، كانت النتيجة النهائية للمعركة «أو الفورية ، أو الاثنتان معا اذا شئت ، سيان» هى أنها بعد أن صهرت التجمد جمدت التميع ، اذ فرضت على الجميع أن يحدد موقفه بغير هلامية أو مواربة أو التواء ، وبالأفعال والوقائع يثبتها لا الأقوال والكلمات المتعاطفة أوا لمتقاطعة أو المعسولة أو المخادعة ، فليس خافيا أن كثيرا من المواقف المتعاطفة قبل المعركة كان ادعاء «نصف قلبى» والبعض تحركات شفاه وألفاظ ألسنة ، فاتر وفطير ، بينما كان البعض الآخر مشبوها بادى الانتهازية على وجه اليقين . أولئك هم من سماهم بهاء الدين ببلاغة «أصدقاء العطف» قلوبهم فى أعماقهم .. ليست مع حقوقنا ، وعقلهم الباطن يخشى

انتصارنا ! وقد خانت البعض مشاعرهم بالفعل ، فوجدناهم يتوجسون النصر العربى» .

والحقيقة أن فترة اللاحرب واللاسلم كانت قد وضعتنا لبعض الوقت - أو هكذا توهم البعض - تحت تكرم ، ولانقول رحمة ، كل ذى شأن وكل غير ذى شأن فى العالم ، يتبرع مهما كان وزنه أو عجزه بالتدخل والحكمة واقتراح انصاف الحلول وأشباه الحلول ، يبدي الصداقة وهو ألد الخصام ، والاهتمام وهو يبحث فقط عن دور عالمى يلعبه أو هيبة دولية يكتسبها على حساب القضية وتحت ظل استراتيجية الحل السلمى.

المعركة ، بضربة واحدة ، نسخت هذا كله ، ألزمت كل واحد أن يكشف أوراقه ، وفرضت على الكل أن يحدد موقفه بصراحة . وكان المعنى المباشر لهذا هو عملية «فرز» تحدد بها العدو من الصديق وأعادت تشكيل المعادلات العالمية وتوازن القوى الدولية . ومن المسلم به، حتى من الأعداء ، أن العرب قد أداروا هذه العملية بذكاء واقتدار ، تعلموا من أخطاء الماضى واستفادوا من تجارب الآخرين ، واستلهموا حقائق العالم الجديدة ومتغيراته. قال دايان بعد المعركة : «لقد وضعوا - يقصد العرب - فى حسابهم أيضا المناخ الدولى والدور الذى يمكن أن يقوم به الاتحاد السوفييتي ، وأهمية الوفاق بين الأمريكيين والسوفييت .

لقد أدرك العرب متغيرات العالم فى عام ١٩٧٣ . ويمكننا نحن أيضا أن ندركها » .

عملية الفرز الناجحة تلك ، يمكن القول بصيغة شاملة أن نتيجتها ، بعد عزل الاعداء الاصلاء ، هى حركة تصعيد أو ترقية عامة Up – grading فى مواقع ومراتب الآخرين : الأعداء الثانويون حيدوا ، والمحايدون صادقوا والأصدقاء صدقوا ، المواقف البازغة نميت ، والنامية طورت ، والمتطورة تبلورت . فممن حيدوا بعض دول أوربا الغربية المذبذبة لاسيما منها الدول الصغيرة والتى كانت شديدة الولاء لاسرائيل ، وممن صادقوا الدول الأفريقية التى اكتمل عدم انحيازها وانتقلت بصورة نهائية وجماعية من معكسر العدو أو من الأرض المشتركة الى معسكر العرب . وممن صادقوا أيضا بدرجات متفاوتة بعض دول أوربا الغربية الكبيرة ، خاصة فرنسا وبريطانيا التى أظهرت فى أعين اسرائيل «جانب حياد يتاخم العداء» أما الذين صدقوا فدول المعسكر الاشتراكى وعلى رأسهم الاتحاد السوفييتى الذى اثبتت صداقته منذ أول طلقة في المعركة بعد اختبار صداقة شاقة استمر قبلها لسنوات . ولقد كانت لنا «وقفة مع الصديق» فحولتها المعركة على الفور الى وقفة للصديق معنا . هذا كله بطبيعة الحال عدا الدول الصديقة تقليديا كدول عدم الانحياز والعالم الإسلامى ، فضلا عن قوى التقدم

في العالم الثالث والعالم أجمع . وحتى أمريكا اللاتينية اتجهت أثناء الحرب صوب موقف محايد .

وعلي الجانب الآخر من التل ، انعزل تماما معسكر الأعداء الأصلاء والضالعين معهم من توابع المعسكر ، اسرائيل وأمريكا وحولهما بعض الدول الرجعية والعنصرية في أوربا وآفريقيا مثل هولندا والبرتغال وجنوب آفريقيا وروديسيا . لقد تحققت نبوءة ديجول فى ١٩٦٨ من أن الاسرائيليين «اذا استمروا في تعنتهم هذا ، ولم يكتسبوا فضيلتى التواضع والقناعة . فسينفض الجميع من حولهم» لقد اكتملت عزلة اسرائيل ، تلك التى عبرت عنها جولدا مائير بقولها «من المؤلم والمحزن حقا أن تكون صغيرا ووحيدا فى الوقت نفسه» ولو انها أيضا لم تنس ان تضيف فى صرخة هيستيرية «ويل للعالم اذا توقف عن دعم اسرائيل» وردد ايبان المعنى نفسه «إن مايؤلمنا فى الأوضاع الدولية الراهنة هو هذا التخلى الكامل عنا » مضيفا على الفور «أننا أمام ميونيخ جديدة» ولكن اسرائيل لم يجدها شيئا توابع المعسكر ، بل عبرت عن ذلك بنفسها حين كتب كاتب فيها يقول «منظر الأصدقاء أحيانا أكثر مدعاة للاسف من منظر الأعداء» .»

أما ديان فقد صور هذا الوضع بقوله «سياسات الدول المختلفة فى العالم تجاه المسائل المتعلقة بمنطقتنا قد تغيرت .. لقد خسرنا كثيرا في

الحرب ، فضلا عن أن أفريقيا وأوربا باعتا اسرائيل بثمن بخس» «كذا» ثم فسر هذا بأن «العالم فى ١٩٧٣ أصبح ساحة شديدة التعقيد ، فيها دول عربية أقوى وأكثر طموحا ، وفيها أزمة للطاقة ، وفيها سياسة بترولية عربية أكثر نسبيا عن ذى قبل ، وتدخل مباشر من جانب القوى الكبرى ، كما فيها مستقبل الوفاق السوفييتى الأمريكى» وفى مناسبة أخرى كرر نفسه قائلا : «يوجد عرب كثيرون ، ولديهم وفرة من البترول، وهناك أصدقاء كثيرون للعرب ، وأصدقاء للبترول» «حقا ، أن العالم بعد اكتوبر» كما تقول ورقة أكتوبر ، «غير العالم قبله» !

وغنى عن الذكر كم هاجمت اسرائيل والصهيونية أصدقاء العرب ونعتتهم بأفحش ألوان القذف والسباب . فأوربا ، التى وقفت «كما لو كانت اسرائيل على كوكب أخر .. قد اظهرتها الازمة على حقيقتها .. انتهازية .. ضد سامية ، ولامستقبل لها ، وأشبه بالمعادلة التى تقول أن ٩ فى صفر تساوى صفرا . وأى قيمة لأوربا اذا كانت ترتجف أمام شيوخ الخليج» .. الخ .. الخ .! أما افريقيا «فمرتشية ، ومواقفها عاهرة»! «التعبيرات كلها لوولتر لاكير» وبطبيعة الحال فان ذلك لم يغير من الواقع ، ولكن بذلك كله اكتملت معالم الخريطة السياسية للعالم أثناء المعركة ، غير أن هذه الخريطة الخطيرة تستحق وحدها وقفة خاصة ، ولهذا فلتكن هى موضوع بحثنا التالى . وهناك أربعة مواقف أساسية

يهمنا أن نحللها ونحدد علاقتها بالمعركة : الوفاق الدولى ، أوربا الغربية، أفريقيا المدارية ، وأخيرا وفى الجانب المضاد الولايات المتحدة .

الوفاق والمعركة

فأما الوفاق بين الدولتين الأعظم ، فرغم أنه سياسة عالمية تغطى العلاقات المتعارضة والمتعايشة بينهما على امتداد الكرة الأرضية جميعا، فان مشكلة الشرق الأوسط تحتل منها موقعا مركزيا ، بؤريا ، محوريا، نظرا لخطورتها القصوى بما تمثل من مصالح حيوية للقطبين وبما تحمل من اخطار الصدام المباشر بينهما ، والحقيقة أننا اذا استعرضنا المشاكل المأزومة فى العالم بين القطبين لوجدنا الشرق الأوسط في الصدارة المطلقة ، فهو الآن الوحيد الذى يمكن أن يؤدى - كما صرح نيكسون مرارا - الى صدام نووى . فحتى غرب أوربا توصلت الى مرحلة التسوية والتهدئة والوفاق . إن هنا فقط آخر بقايا الاستقطاب الثنائى وآخر مخلفات الحرب الباردة .

وحتى بعد انتهاء الحرب بشهور ، وفى مناسبة الحديث عن السلام ، كرر الرئيس الأمريكى أن «الشرق الأوسط أهم من فيتنام بالنسبة للولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى كما أنه ينطوى على احتمالات حدوث مواجهة بين الدولتين الأعظم أكثر مما كان عليه الموقف فى

فيتنام ، وليس يمكننا أن نخاطر بمواجهة بين الدولتين الأعظم فى تلك المنطقة ، إن الشرق الأوسط من المناطق الساخنة فى العالم ، ومن مصلحة أمريكا وروسيا أن تعملا من آجل تحقيق السلام هناك ، وان كانت مصالحهما لاتتوافق دائما» الشرق الآوسط هو الاقليم الذى بآخر تعبير لنيكسون «يمكن أن يصبح بلقان السبعينات بغير الدور الذى قامت به الولايات المتحدة » .

ومشكلة الوفاق أن أحد الطرفين ظل يمارس سياسة عدوانية استفزازية وهجومية داخله ، هى سياسة «الابتزاز النووى» لصالح حليفه فى المنطقة . فالسياسة الأمريكية العلنية والعنيدة كانت وتظل هى اغراق اسرائيل بالسلاح المتفوق والمتطور ، لا لتضمن به التوازن في المنطقة كما كانت تزعم بخبث ساخر ، ولكن لتؤمن به التفوق الإسرائيل الدائم على العرب وتفرض الأمر الواقع فى المنطقة الى الأبد ، وهو احتلال الأراضى العربية . فاذا ما تقدم الاتحاد السوفييتي لامداد العرب بسلاح مكافىء كما وكيفا ، أو حتى مقارب ، هددته أمريكا ولوحت فى وجهه بالصدام النووى ، فأحجم أو تردد قليلا أو كثيرا .

وفى النتيجة فلقد فرضت آمريكا كأمر واقع تصعيدا مستمرا كاللولب الصاعد فى حجم الصراع وأخطاره ، لا المحلية فقط بل

العالمية أكثر . وبهذا أيضا أصبح الصراع المحلى في الوقت نفسه محكوما ومضبوطا بسياسة الوفاق . غير أن درجة الضبط والتحكم هذه تختلف بالنسبة للعرب عنها بالنسبة لاسرائيل .. فبينما تعربد هذه تسليحيا في المنطقة بلا حدود ولا رادع مثلما تعربد أمريكا وفاقيا ، يجد العرب يدهم مغلولة أكثر أو قل أقل حرية وقدرة . ومن هنا بدا للبعض في حين ماسواء خطأ أو صوابا أن الوفاق قد قيد حرية العرب وقدرتهم على الحركة ، وأنهم لذلك «محاصرون» بالوفاق ، دون أن نذكر الرأى المتطرف الذى كان يضيف أنهم هم «ضحيته» الوحيدة.

ولم يكن ذلك كله صحيحا تماما بطبيعة الحال ، كما لم يكن بعيدا كل البعد عن الصحة كذلك . فقد كان الوفاق كأكبر المتغيرات الدولية منذ الحرب الثانية هو مجرد صيغة جديدة ومنضبطة للصراع العالمى ، قد يستحيل اختراق حاجزه اختراقا تاما مطلقا ، ان لم يكن الشىء فلمجرد أنه مصدر التسليح الأساسى والوحيد تقريبا فى كل صراع محلى وبالأخص الصراع العربى - الإسرائيلى - ولكنه بالتأكيد لايمنع فضلا عن أن يلغى الارادات المحلية تماما ولا الحروب المحلية أيضا . هناك داخل حدود الدائرة الواسعة للوفاق الأعظم ، مجال كبير للحركة وللعمل المحلى يمكن «اقتطاعه» منه دائما . الاختراق ، بعبارة أخرى ، مستحيل ، ولكن الاقتطاع ممكن . والسياسة الناجحة هى تلك الأقدر

على الاستفادة من الوفاق ، والفاشلة هي وحدها التي تبرر عجزها بقيوده البعيدة ، وهذا ما عبر عنه بايجاز وزير خارجية مصر حين قال «إن الوفاق الدولي كان يمكن أن يضر بنا لو قبلنا الأمر الواقع ، ولكننا تحركنا في جميع المجالات» .

ولكن خير من شخص الموقف وعبر عنه هو بلا شك الرئيس السادات نفسه الذي وضح في سلسلة من الأحاديث الصحفية والخطب السياسية كيف كان قرار المعركة معركة في حد ذاته ، فاشارة لقاء القمة الأول بين دولتي الوفاق الى «الاسترخاء العسكري» في المنطقة أمر «كان يعني حينئذ ان حالة اللا حرب واللا سلم التي سادت المنطقة والتي سببت لنا الكثير من المتاعب والمآزق .. والتي كانت كفيلة بأن تحقق لاسرائيل على المدى الطويل كل ما تريد دون أن تطلق طلقة واحدة .. يراد لها أن تستمر» وفي اللقاء الثاني سارت القوتان الأعظم خطوة أخرى في الاتجاه نفسه ، وتأكد أن المشكلة يراد لها أن تتجمد من جديد «لأن الدولتين الأعظم كلتيهما كانت تريدان تجميد الوضع برمته» فالبيان الذي صدر «يؤكد بما لايدع مجالا لأي شك أو لبس على تجميد القضية ، انتظارا لحل سلمي» .

وهكذا كان مغزى اللقاءين «فإن الاتفاق على عدم الصدام في أي جزء من العالم لايعني الا الاتفاق على عدم الصدام في الشرق الأوسط،

لأن كل ماعداه قد تم تصفيته وانتهى» هذا فضلا عن أن «العملاقين الكبيرين ، روسيا وأمريكا ، يحرصان على وجود اسرائيل ويتصرفان كل بطريقته للحفاظ علي ذلك. فأمريكا تعطى التفوق الكامل لاسرائيل علي العرب مجتمعين تحت اسم نظرية توازن القوى ، والسوفييت من جانبهم يضعون قيودا علي مايقدمون للعرب من السلاح والتكنولوجيا التي هي مباحة من جانب أمريكا لإسرائيل بالكامل» .

وعلى هذا الأساس يمضى الرئيس ملخصا موقف العملاقين .. «كان الموقف الأمريكى يعتبر العرب ، مصر والعرب ، جثة هامدة .. وكان الاتحاد السوفييتي على اصراره أن نستبعد المعركة العسكرية تماما وأن تنتظر القضية حلا سلميا .. كان العملاقان يعتقدان أن دخول مصر الحرب انتحار» . من هنا «كان قرار القتال مصريا ١٠٠٪ وضد ارادة العملاقين، وبارادة حرة ١٠٠٪» وجاءت الحرب مفاجأة كاملة للاصدقاء كما كانت للاعداء .

بل أكثر من هذا كشف الرئيس أن أمريكا كما حاولت أن تفرض على العرب وقف القتال منذ ساعاته الأولي والعودة الى الخطوط السابقة رغم انتصارهم ، ثم كررت المحاولة عدة مرات خلال الأيام الأولى مع الوقوف علي الخطوط الجديدة ، فكذلك أبلغ الاتحاد السوفييتى مصر بعد ست ساعات من بدء القتال والنصر أن سوريا طلبت وقف اطلاق

النار ، ولكن سوريا نفت ذلك بشدة ، وتكرر هذا أيضا عدة مرات . «وهنا لا نجد اسخف ولا أكذب من ادعاء الصهيونية - وولتر لاكير مثلا - عن «أن الروسيا كانت متورطة فى الحرب وأعدت لها وعلمت بها» وأنها كانت قبيل المعركة تناقش مع العرب تفاصيل الاستعدادات الأخيرة للهجوم وو...الخ!» وبالمثل تسقط الى الأبد «نظرية التمثيلية» تلك التى شاعت حينا وأشاعت أن المعركة لم تتم الا بترتيب وكاتفاق بين القوتين الأعظم بل وبينهما وبين طرفى الصراع المحليين «!» .

هكذا لم يكن الوفاق يريد الحرب ، وحين قامت حاول أن يوقفها وحين حاول تغلبت الارادة المحلية الحرة . أو كما خلص الرئيس «كان قرار ٦ أكتوبر قرارا حرا ، وكان ضد ارادة الدولتين الكبيرتين اللتين قررتا فى مؤتمرين متتاليين تجميد مشكلة الشرق الأوسط ، ثم عادت الدولتان واحترمتا قرارنا وإرادتنا» وهكذا «بالتأكيدات أثرت حرب ٦ أكتوبر فى سياسة الوفاق الدولي ، ولكن فى أى اتجاه ، هذا مانريده أن نراه» .

من هذا الموضع ، موضع الإرادة المحلية الحرة والقدرة الوثيقة ، تفاعل العرب مع مركب الوفاق ، فبعد أن كانوا محاصرين «بالوفاق الأعظم» الى حد أو آخر ، فرضوا عليه «بالوفاق العربى» استراتيجية الاقتطاع . لقد فرضت الحرب نفسها على الوفاق ، ففرضت عليه أن

يحدد أبعاده وأعماقه الحقيقية . وبذلك جاءت معركة أكتوبر أول «اختبار أحماض» قاس لصيغة الوفاق الجديد الفضفاضة ، فكانت هى التى نقلت المعادلة الدولية الجديدة مما بدا للبعض حالة مقلقة من التميع الهلامى والغموض السديمى الى حالة من التبلور المعقول وتحديد الحجم الطبيعى والنسب الصحيحة .

أو كما قال الجنرال بوفر ، كان فى الحرب شىء «كشف عن الانطباعات الخادعة التى كانت تحجب المتناقضات السوفييتية ـ الأمريكية وعدم الاستقرار الذى يكتنف التقارب بينهما» وبالمثل قال اليك دجلاس هيوم وزير خارجية بريطانيا «إن الاحداث التى تلت وقف اطلاق النار وبينها اعلان حالة التأهب بين القوات الأمريكية والسوفييتية قد أظهرت أن الطريق مازال طويلا أمام الوفاق قبل أن يمكن القول بأنه قد أمكن تحقيقه ، وأن سياسة الوفاق ماتزال بحاجة الى مزيد من التدعيم قبل اعتبارها سياسة لارجوع فيها» وكذلك كتبت فرانس سوار أن «ماحدث يوضح الى أى مدى يعتبر الوفاق هشا» .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول إن المعركة قد حددت بدقة «زاوية الانفراج» فى الوفاق بعد أن بدت وكأنها قد تجاوزت الحد بدرجة أو بأخرى لقد «قننت» المعركة حدود الوفاق بأن انقذته من احتمالات ، لانقول مزالق ، التطرف والاندفاع أو فقدان التوازن والاتجاه . إنها

هى التي صححت مساره ومنحت سفينته «جيروسكوب» ثقيلا يحفظ توازنها وبوصلة هادية ترشد وترشد توجيهه في بحر الصراع القطبي المتلاحم الخوان ، لقد أصبحت المعركة من المتغيرات الدولية المؤثرة ، اخر المتغيرات ، فرضت نفسها على أكبر المتغيرات منذ ربع قرن وهو الوفاق، فعدلته وغيرت من معطياته وأثرت فيه بقدر ماتأثرت هى به .

وبطبيعة الحال فان هذا لم يكن بالعملية السهلة ، بل تم من خلال صراعات قوى رهيبة وعاتية وصدامات ارادات غير تقليدية وفوق عادية ، أعنى بالتحديد نووية . وفي البداية لم يكن هناك من رمز للصراع سوى ذينك الجسرين المتعامدين بحرا وجوا من التسليح الكثيف كأنهما سيفان متقاطعان فى مبارزة سلاح تاريخية عبر البحر المتوسط ، وأحد عرضى من أمريكا الى إسرائيل ، والثانى طولى من الاتحاد السوفييتى الى العرب ، الأول يدور مع عقارب الساعة، كما قيل، والثانى عكسها .

لكن الأزمة بين القطبين إنما وصلت الى الذروة حين شرعت أمريكا سياسة الابتزاز النووى لمابدت هزيمة اسرائيل ماثلة على أفق سيناء . فقد اغرقتها على الفور بمدد جديد وخطير من السلاح المتطور ، كما هددت بالتدخل العسكرى بطريقة سافرة . فقد أعلن نيكسون أن «موقف

الولايات المتحدة من أزمة الشرق الأوسط الآن تمليه الاعتبارات نفسها التي أملت الموقف الأمريكي تجاه أزمة لبنان سنة ١٩٥٨ وأزمة الأردن سنة ١٩٧٠» . هذا بينما صرح كيسنجر في ١٢ أكتوبر بأن «الشرق الاوسط قد يتحول الى منطقة تدفع بالقوى النووية العظمى الى المواجهة، إن الصعوبة التي يواجهها كل منا هو أن كلا من الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة ينظر الى أزمة الشرق الأوسط من خلال منظاره الخاص .. فالأمريكيون بنوا صداقة تقليدية مع اسرائيل ، بينما بنى الروس صداقة مع بعض الدول العربية» .

وقد دعا هذا كله الاتحاد السوفييتي الى الانذار بالتدخل المباشر لم لم تتوقف اسرائيل عن القتال بعد أن تقرر وقف طلاق النار .. وهدد هذه الأخيرة بأنها ستتعرض «للتدمير» . ورغم أن حدود هذا التدخل غير معروفة بالضبط ، فليس هناك شك فى جدية الاتحاد السوفييتى واهتمامه . وفى هذا قال دايان بوضوح «كانت موسكو جادة تماما فى تهديدها بالتدخل ضدنا اذا لم ننسحب» . وقال أيضا «لست أشك الآن في استعداد السوفييت واصرارهم على التدخل العسكرى المباشر ضدنا اذا دعا الموقف الى ذلك» هذا بينما أعلنت مايير أن «التهديد السوفيتي هذه المرة لم يكن أقل فعالية من تهديد ١٩٥٦ ، وربما أشد» كما صرحت بعد تسوية الأزمة بأن «بلادها قد نجت من خطر كبير» .

كذلك اعترفت دافار بأن «الضغط الأمريكي علينا كان نتيجة للضغط السوفييتي على أمريكا» .

أمام على الجانب الآخر ، فسواء كان «التشنج النووى» الأمريكي حقيقيا أو «تهويشا» ـ والأخير الأرجح ، وسواء كان خالصا لوجه الصراع أو تحويلا للأنظار عن مشاكل الحكم الداخلى «فضيحة ووترجيت» ـ والأخير الأرجح أيضا ـ سواء هذا أو ذاك فقد كان خطر التصعيد قائما وخطأ العزة بالاثم ماثلا كالشبح المخيم والمخيف .

فقد فاجأت أمريكا العالم باعلان حالة التأهب النووى القصوى فى كل قواعدها حول الكرة الأرضية بدعوى أن «الأمر بالتأهب صدر لنظهر للاتحاد السوفييتى أننا لانستطيع أن نقبل اجراء من جانب واحد ، من جانبهم ، لتحريك قوات عسكرية الى مسرح الصراع بين اسرائيل والدول العربية» . وكانت الاشارة فى هذا هى الى أن الاتحاد السوفييتى ـ كما أدعت أمريكا ـ قد وضع ٧ فرق محمولة جوا على أهبة الاستعداد لارسالها فورا الى الشرق الأوسط . وفي وجه هذ الاستفزاز الحرج اتخذ الاتحاد السوفييتى موقفا يتسم بالحزم دون التهور . فأعلن «أن هذه الخطوة لاتساعد على الانفراج الدولى ، وأنها اتخذت بوضوح فى محاولة لارهاب الاتحاد السوفييتى ، وأن الذين اتخذوها عليهم ان يدركوا أنهم قد اخطأوا العنوان» .

في تلك الساعات المصيرية توترت العلاقات بين القطبين الى حد مذر ، وبات العالم يخشى على الوفاق من حرب أكتوبر آما تصادما عسكريا نوويا والا فعودة الى الحرب الباردة ، ولكن «أمريكا وروسيا» كما قال إليك دجلاس هيوم : «تمكنتا في الوقت المناسب من الحيلولة دون تدخل عسكرى في الشرق الأوسط وذلك لتجنب مواجهة نووية بينهما» ثم اضاف «عنصر الحظ كان له دور في تمكين البذور الأولى لسياسة الوفاق بين آمريكا وروسيا من تحقيق وقف إطلاق نار فعال ولكنه متوتر في الشرق الأوسط» .

أو كما قال نيكسون نفسه «أعتقد أنه بدون الانفراج ربما واجهنا نزاعا ضخما في الشرق الاوسط ، غير أننا تجنبناه بمساعدة الانفراج» أو كذلك كما أعلن برچينف فيما بعد على منبر البرلمان الهندى «أن الأمور كانت ستختلف اذا لم يكن هناك عامل الانفراج فى العالم والذى ظهر خلال العامين أو الثلاثة الأخيرة . ولو كان النزاع الحالى قد اندلع في وضع التوتر الدولى الشامل وتفاقم العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فلربما صار الصدام فى الشرق الأوسط أكثر خطورة ولما كانت هناك امكانية لمبادرة مشتركة بين الاتحاد والولايات كتلك التي أدت الى قرارات مجلس الأمن المعروفة والتى جعلت ممكنا وقف اطلاق النار» .

هذا من ناحية ولكن من الناحية الأخرى تعرض الوفاق لكثير من الشك فى صلابته وحتى امكانية بقائه ، بل وصل البعض الى حد القول بأن الوفاق «ذهب مع الريح» وانتهى ، أو كما قال الصحفى الأمريكى برنارد جيرتزمان «لقد أدى نشوب القتال فى ٦ أكتوبر الى تزايد النقد لسياسة الوفاق والى انتشار رأى فى واشنطن مؤداه أن الوفاق قد مات» ولاشك أن من أبرز أصحاب هذا الرأى أو المروجين له الصهيونيين الأمريكين الذين كانوا يعادون الوفاق منذ البداية لحساب اسرائيل ، فعلى سبيل المثال كان السناتور هنرى جاكسون ، من أصدق أصدقاء اسرائيل ، هو الذى اتهم نيكسون وكسينجر بأنهما «يبيعان اسرائيل من أجل الوفاق والمحافظة عليه» «كذا!» . وعلى العكس من هؤلاء ، أكد شلزينجر أن النتجية النهائية كانت اعترافا بقوة الوفاق .

على أن الحرب ، فى الواقع الملموس لم تؤد الى انهيار الوفاق ، فقط أصابته بارتجاج واهتزاز عنيف أثبتا أنه ظاهرة تحت التكوين لم تزل ، لم تتحدد قسماتها وملامحها وأبعادها بعد بصفة نهائية .. ومن هذه الزاوية بالدقة لعبت هى دورها ذاك فى تشكيله وتحديده . وأهم من ذلك أنها أثبتت من خلال المواجهة بين العملاقين أن أحدا منهما ليس على استعداد للتراجع أمام الآخر بعامة أو التخلى عن أى من مواقعه

فى العالم بخاصة او عن صديقه فى الصراع المحلى بالشرق الأوسط بالأخص .

ففيما يختص بالجانب الامريكى - الإسرائيلى فان أمريكا عمليا تكاد تعتبر اسرائيل جزءا منها . أما فيما يختص بالجانب العربى - السوفييتى فان البعض يرى أن صوابا أو خطأ أن أى تخل من السوفييت عن العرب يؤدى الى القضاء على مكانتهم وهيبتهم ومراكزهم المكتسبة فى الشرق الأوسط كله ، لصالح الصين خاصة ، وربما لصالح أمريكا نفسها أيضا ، بل أكثر ، ولكن تجربة المعركة والمواجهة أثبتت ، فعلا وعلى العكس ، أن الاتحاد السوفييتى ، وان كان يمكن أن يبذل أكثر ويؤيد أكثر ، لم يتخل ، بل تدخل ، ولم يتراجع ، بل تماسك وتمسك ، بل لقد أعلن الاتحاد فى تلك الفترة أن محور الاستراتيجية السوفييتية الخارجية هو العالم الثالث ، ومحور العالم الثالث هو العالم العربى ، ومحور العالم العربى هو مصر ، أبعد من هذا ، أثبتت الأزمة أن الوفاق ليس «تواطؤا» بأى معنى ، ولا هو قيد على حرية الشعوب النامية والتحرير ، وأنه لا تعارض بين حركة التحرير الوطنية وبين الوفاق ، على العكس قد يكون الوفاق قيدا مفيدا وصحيا على سياسة التهديد والابتزاز الأمريكية وضابطا لاحتمالات تدخلها مباشرة ضد العرب ولصالح اسرائيل ، وأن مناخ التعايش

السلمى هو الذى يخلق ظروفا أكثر ملاءمة لحل عادل للمشاكل الدولية المهمة .

تلك كانت ملحمة المواجهة الرهيبة والرهيفة ، واذا كان السلام العالمى قد خرج من أزمة الوفاق سليما بالكاد ، وخرج الوفاق من أزمته أكثر واقعية وتحديدا وبلا أوهام ، وخرجت أزمة الشرق الأوسط من الوفاق بضمان لحلها حلا حاسما ، فقد كان على العرب أن يستخرجوا النتائج الضرورية من التجربة برمتها، فما هو الدرس الأساسى الذى يعلو فوق كل التفاصيل والدقائق ؟ لقد تمخضت المعركة عن تغيرات مهمة في العلاقات بين كل من طرفى الصراع المحلى وبين كل من طرفى الوفاق ، نتيجة لما بدا من تحويلات أو تحفظات أو توترات فى مواقف أساسية ، وكذلك كرد فعل توازنى أو تعويضى للمتغيرات الدولية التى سبقت المعركة وتلتها .

فقبل المعركة كان الشرق الأوسط «مستقطبا بين اسرائيل والولايات المتحدة من ناحية ، ومصر والاتحاد السوفييتى من ناحية أخرى» «السادات» وكانت أمريكا واسرائيل قد نجحتا كذلك فى أن تصورا للعالم أن «كل من يقف مع اسرائيل فهو يقف مع الغرب ضد الخطر السوفييتى ، وكل من يقف مع العرب فهو يفتح الباب أمام هذا الخطر» «بهاء الدين» ولكن حرب اكتوبر انهت هذا الوضع وهذا

التصور وفرضت تغيرات ومتغيرات جديدة أثارت كثيرا من التأزم والحساسية في علاقات بعض تلك الأطراف من القوى المحلية والقوى الأعظم ، كما أثارت أكثر منها من التساؤل واللغط في بعض الأوساط العربية بحيث تحتاج الي وقفة خاصة وتوضيح شامل .

فمن ناحية غيرت امريكا موقفها من العداء المطلق للعرب والانحياز التام لاسرائيل الى قدر معقول من الحياد النسبي أو العملي ، على نحو ماسنرى في دراستنا للموقف الأمريكي ، وبينما حدث هذا التقارب أو التفاهم النسبي مع أمريكا ، حدث على العكس بعض التوتر والتأزم والتباعد النسبي وسوء الفهم أو التفاهم مع الاتحاد السوفييتي . ولم يكن هذا لاحقا للمعركة فحسب بل سبقها بعدة سنوات ، ولكن في كل الاحوال لم يكن غير مسألة السلاح محورا له وأساسا .

فقبل المعركة حجب الاتحاد عنا كما رأينا بعض أنواع الأسلحة خاصة الهجومية كما حدد من حجم الباقي ، واذا كان قد عاد أثناء المعركة فأرسل السلاح بلا توان ، فلم يكن ذلك بغير حدود وشروط ، كما تقاضى ثمن بعضه مقدما «دفعت الجزائر للاتحاد ١٠٠ مليون دولار للبدء في شحن الأسلحة» . كذلك عادت القيود والتحديدات على السلاح بعد المعركة .

وقد دعا هذا البعض الى التساؤل عما اذا كان الاتحاد صديق العرب التقليدى قد «خاض الحرب معنا كمجرد تاجر أسلحة ، ولولا المال العربى لتوقف هذا السلاح» وعما اذا كان «قد أراد لنا نوعا من النصر يكون دعاية للسلاح الروسى ، ولكنه خذلنا قبل النصر النهائى» كذلك جرى التساؤل عما قيل من أن الماريشال جريتشكو صرح لأحد القادة العرب أنه «لو دخلتم تل أبيب لما عدتم بحاجة الينا ولأخرجتمونا من المنطقة» «من حديث الصحفية اللبنانية علياء الصلح الى الرئيس السادات ».

كذلك فلقد اعتبرت مصر أن مسألة الأسلحة أصبحت من أسف «أداة لممارسة سياسة النفوذ» للتأثير على تصرفات مصر والضغط عليها . وقد دعا هذا مصر الى اتخاذ قرار بالكف عن ، والتحلل من ، الاعتماد الكلى على الاتحاد للحصول على جميع حاجاتها من الأسلحة وتنويع مصادر تسليحها .

وفى هذا السبيل اتجهت مصر إلى أسواق السلاح فى أوربا الغربية، كما أعلن رئيسها للنيويورك تايمز أنه «سيكون سعيدا للغاية اذا كانت الولايات المتحدة على استعداد لأن تبيع لنا السلاح» مضيفا فى الوقت نفسه أنه «سيكون سعيدا أيضا اذا رغب الاتحاد السوفييتى فى التفاوض من أجل مبيعات جديدة» .

وإذا كان من الثابت المعلن أن العرب بدأت بالفعل تحصل على سلاح أوربى ، فان الاخبار التى وردت عن الحصول أو محاولة الحصول على سلاح أمريكى لم تزل فى مرحلة التكهنات ، غير أن شلزينجر وزير الدفاع الأمريكى ألمح الى أن احتمال بيع الأسلحة الي مصر «سيبحث بعناية» وأن أمريكا ستنظر «بتعاطف» الى أى طلب من مصر لشراء أسلحة ، ولو أنه لم يجزم بأن أمريكا قد تلقت مثل هذا الطلب ، ومن جانبها ، فان الايماءات المصرية وان لم تكن قاطعة ، لم تستبعد الاحتمال كلية .

ومن ناحية أخرى وكخطوة أبعد ، تبحث مصر منح الأساطيل الغربية ومنها الاسطول الأمريكى تسهيلات مماثلة للتسهيلات التى يحصل عليها الاسطول السوفييتى فى موانيها ، علي غرار ماتفعل يوجوسلافيا ، وذلك تحقيقا للتوازن الاستراتيجى فى البحر المتوسط .

وإذا كان السلاح هو محور الخلاف بين مصر والاتحاد ، والسلاح أهم عنصر منفرد فى مركب القوة والصراعات العسكرية، فان هناك عناصر خلاف أخرى على مايبدو ، وأن أتت كعوامل من الدرجة الثانية أو كنتائج مترتبة . فليس سرا أن توتر العلاقات قد تكرر حتى كان يزمن لعدة سنوات قبل المعركة ، كما كان واضحا أن سياسة تهجير

اليهود السوفييت الى اسرائيل والسماح بها كانت قد أصبحت ورقة ضغط خافت ولكنه غير خاف . وبعد المعركة اثار الاتحاد موضوع ماسماه ابتعاد او انحراف مصر عن الاشتراكية ، «وأيضا الانفتاح الاقتصادى قيل عن ماقيل» غير أن هذا كله موضوع داخلى ، فضلا عن انه غير صحيح .

ولعل الأهم منه ومن الكل خشية الاتحاد من تزايد النفوذ والوجود الأمريكى فى المنطقة بعد أن تزايد التقارب او الانفراج بينهما ، ومن ثم خشيته علي وضعه فى المنطقة ومصالحه الاستراتيجية فيها ودورهم بها . وقد زاد هذا القلق بصفة خاصة بعد النشاط الدبلوماسى غير العادى لكسينجر ، الذى سرق كل الأضواء فى الشرق الأوسط ، والأمر بهذا جزء لايتجزأ مباشرة من صراع القوى العظمي والقوتين الأعظم داخل الوفاق .. ولم ينكر حقيقته ولاحاول اخفاء خطورته أى من الاطراف المعنية .

فاما الاتحاد السوفييتى نفسه فلم يخف من جانبه استياء الكرملين ازاء التقارب المتزايد بين مصر وأمريكا ونظرته القاتمة تجاه الخطوات الجزئية الأمريكية ونشاط كيسينجر ، كما لم يخف خشيته من تضاؤل نفوذه فى المنطقة .. وقد نقلت وكالات الأنباء على لسان «دبلوماسى شيوعى كبير فى لندن» أن الاتحاد سيطلب من أمريكا «الحد من

السياسة الامريكية فى الشرق الأوسط» لأن غضب السوفييت من انحسار نفوذهم فى المنطقة قد تحول الى خوف على ماتبقى من مواقع اقدامهم ، وأن الكرملين مصمم على الاحتفاظ بمواقعه فى المنطقة ولو بثمن غال اذا اقتضى الأمر . وحذر المصدر من أن السوفييت جادون فى ذلك ، لأن المصالح الاستراتيجية الأساسية للاتحاد فى خطر ، وكذلك مراكز الشخصيات الرئيسية فى القيادة السوفييتية ، ثم أضاف المصدر نفسه أن اتفاق الفصل بين القوات فى سيناء وماترتب عليه من صداقة بين مصر وامريكا قد أثار مخاوف السوفييت لما له من آثار مدمرة على مركزهم فى الشرق الأوسط .

وقد خلص المعلقون الغربيون من هذا الى أن المتشددين فى موسكو قد وجهوا انتقادات حادة لما يجرى فى الشرق الأوسط ودور أمريكا فيه ، ولكن الرغبة فى استمرار الوفاق حالت دون خروج السوفييت علنا ضد هذا القرار . غير انهم أصبحوا الآن مصممين على العمل من أجل استعادة مراكزهم المفقودة . والمفهوم أن الاتحاد ، الذى كان يتوقع هذه الصعوبات مع مصر ، تحرك بسرعة لتقوية مركزة فى العالم العربى ، وذلك أساسا بالعمل الوثيق مع سوريا عن طريق تقديم شحنات أسلحة متطورة وسخية إليها وحثها على اتخاذ موقف أكثر تشددا فى حل مشكلة الشرق الأوسط واتمام الفصل بين القوات على الجبهة السورية

على غير نمط الفصل على الجبهة المصرية ثم الاصرار على اشراك موسكو فى كل خطوات الحل .

وأما الاعلام الامريكى فقد تساءل ، كما فعل فى حديث له مع الرئيس المصرى ، عما اذا كان نشاط الدبلوماسية الأمريكية فى المنطقة قد أثار شعور السوفييت بالقلق .. فصرح الرئيس من جانبه بأنه فى الواقع يعانى من ذلك منذ أول زيارة لكيسينجر حيث «أصيب علاقاتى بالسوفييت بالتوتر الشديد بعد ذلك التاريخ» أو أصبحت «مشدودة بعض الشىء» . فقد «تسبب نجاح كيسينجر فى حساسيات كبيرة بالنسبة للسوفييت ، وأصبح كيسينجر يسبب لهم نوعا من الحساسية» .

أما الصحافة العالمية ، ربما إثارة ومبالغة ، أو ربما محاولة لتوسيع الفجوة أو لدق اسفين نهائى أو للصيد فى الماء العكر ، فقد اعتبرت الموقف المصرى «ضربة للاتحاد السوفييتى» التايمز «وإنهاء للعلاقة الخاصة بين مصر والاتحاد السوفييتى» «الهيرالدتريبيون» بينما اعتبرته الايمانيتية «نقطة تحول ومرحلة جديدة من التدهور البطىء فى العلاقات الذى بدا ملموسا غداة حرب أكتوبر ، وأخر سلسلة الأزمات التى كانت دائما تصل الى ماقبل حافة الانهيار الكامل مباشرة» .

هكذا نرى أنه اذا كانت قد نشأت للاسف فجوة أو جفوة بين الاتحاد ومصر . فالواضح أيضا أن هناك من له مصلحة في نشوئها ومن يسعى الى تحويل الفجوة الى هوة والجفوة الى قطيعة وأكثر من هذا وأخطر ، حاول البعض أن يصور الموقف على أنه تغير إستراتيجي وانقلاب أساسى فى التوجيه الخارجى لمصر ، بل وصلوا الى حد الزعم بأنه تبادل كامل فى المواقف والمواقع فيما بين مصر والقطبين ، بمعنى أن مصر انتقلت من صداقتها السابقة للاتحاد السوفييتي الى صداقة الولايات المتحدة ، فاصبح الصديق القديم عدوا والعدو القديم صديقا «كذا!»

وفى تأويل أخر انه علي الاقل تبادل جزئي في المواقف والمواقع فيما بين مصر واسرائيل من ناحية والاتحاد والولايات من الناحية الأخرى ، بمعنى أنه اذا كانت علاقات مصر بالاتحاد قد شابها التوتر والتحفظ بدرجة أو بأخرى وتقاربت مع الولايات بدرجة أو بأخرى ، فقد شاب العلاقات الإسرائيلية ـ الأمريكية هى الأخرى قدر من الحذر والتحفظ بينما قد تأخذ العلاقات السوفييتية ـ الإسرائيلية فى الانفراج بقدر ما بالمقابل .

غير أن هذا برمته ليس صحيحا على الاطلاق .. وكانت مصر حريصة جدا على أن توضح ذلك وأن تحاصر الخلاف مع الاتحاد

بحصره وألا تخرج به أو تسمح لأحد أن يخرج به عن حجمه الحقيقي أو يسيء تصويره وتفسيره . ولهذا بادرت في سلسلة من التصريحات والخطب على لسان رئيسها الى تصحيح الصورة وتحديد الموقف بدقة وحزم . وبالاستعانة بالاقتباسات الدالة من هذه الخطب يمكننا أن نلخص حقيقة الموقف في النقاط الآتية .

فأولا ، ليست الخلافات مع الاتحاد بجديدة ، فهي تسبق ٦ أكتوبر ، بل وتسبق ٥ يونيو . فقد حدثت علنا في ١٩٥٩ . وهي اذا كانت قد تجددت أثناء وبعد اكتوبر ، فلقد كانت مصر حريصة كل الحرص على ضبط النفس وعدم الاستجابة لأي استفزازات . أنها لاتريد أن توسع الفجوة، وتعمل جادة على رأب الصدع .

وثانيا ، فان مصر التي أعلنت مرارا صداقتها مع الاتحاد السوفييتي ليست صداقة مرحلية بل هي استراتجية وأساسية ، ماتزال حريصة على هذه الصداقة «إننا لا نريد أبدا أن نفرط في صداقة الاتحاد السوفييتي ولا أن ننقص من رصيدد لدينا . ونحن قد نختلف عن وجهة نظرنا لا لحساب أحد» .

ثالثا : إن بوصلة السياسة المصرية هي مصلحة مصر أولا وأخيرا ، فهي الثابت الأساسي بين كل المتغيرات «ومن مصلحة مصر ألا يكون لها أي صراع مع قوة كبرى أو أي قوى أخرى ، إلا اذا بادرتنا هذه

القوى بالعداء أو بالصراع .. ولا مصلحة لنا فى أن نعادى أحدا .. علاقاتنا لابد أن تكون طيبة مع الكل لصالح مصر».

رابعا : وعلى هذا الأساس ، وفى ضوء المتغيرات الدولية المعاصرة ، فان «الموقف هو أننا نمر الآن بنقطة تحول في هذه المنطقة» فنحن «فعلا فى مرحلة اعادة تشكيل علاقاتنا على أساس مبادئنا وهى الحياد الايجابى الواضح الكامل بين المعسكرين فى هذا العالم .. ونحن نريد اتباع سياسة عدم انحياز متوازنة» واذا كان هذا هو المفهوم الصحيح لعدم الانحياز منذ كان ، فإنه الآن أصبح مايكون فى عصر الوفاق الدولى .

خامسا : «نحن لانريد صداقة أحدا على حساب أحد . بصراحة نحن لانصادق أمريكا على حساب الاتحاد السوفييتى ، ولن نصادق الاتحاد السوفييتى على حساب أمريكا .. وتحسن العلاقات مع واشنطن لايستوجب أن يسفر عن توتر مع موسكو» .

وقد فصل الرئيس هذا التعميم فى حديث له الى محطة التليفزيون الأمريكى قائلا «إننى اعتمد على القوتين الأعظم وأنا أحاول تحقيق التوازن فى علاقاتى معهما .. وقبل ذلك كانت لنا علاقات غير متوازنة ، فكانت علاقاتنا معهم أكثر ودا ، وكان هناك نوع من المواجهة بيننا وبينكم . أما الآن حينما أحاول تحقيق التوازن فى علاقاتنا يصاب

السوفييت بالتوتر والحساسية ، هذا هو التفسير الحقيقي للموضوع برمته ، وأنا لا أغير موقفي ، فأنا لا أعتمد مثلا على السوفييت يوما ثم انتقل الى الاعتماد على الأمريكيين في اليوم التالي . ليس الأمر كذلك اطلاقا .. ولكنني أحاول أن أحقق التوازن في علاقاتي» .

نحو علاقات أفضل

تلك إذن هي قصة متغيرات الوفاق الذي أبرزتها معركة أكتوبر، ومعها قصة العلاقات المتغيرة بين مصر وطرفي الوفاق ، ولنا الآن أن نتساءل : مامغزاها ، مامداها ، والى أين ؟ لنقرر أولا ، اذا لم نكن ندرك جيدا ، أن علاقات الصداقة بين الدول هي في جوهرها علاقات مصالح ، وبالتالي علاقات قوة تحت السطح ، ومن ثم وفي التحليل الأخير صراع قوة ، الا أنه صراع حميد . صداقة الدول ، باختصار ، ضغوط حميدة متبادلة ، وبغير هذا المفهوم فان الصداقة بين الدول ، لاسيما اذا كانت بين طرفين غير متكافئتين كما بين الدول العظمى والصغيرة ، يمكن أن تحمل أو تتردى في شبهة التبعية ومناطق النفوذ ، ومصر قد كافحت بمرارة وبطولة ضد الاستعمار والامبريالية لتخرج من مناطق النفوذ ، وهي منطقيا ليست على استعداد لأن تستبدل نفوذا بآخر .

وإذا كانت علاقاتها بأصدقائها الكبار ، الاتحاد السوفييتي ، قد تعرضت لبعض التأزم والتوتر من أجل تصفية العدوان الإسرائيلىء قبل وبعد اكتوبر ، وفى ظل الوفاق وبسببه ، فإنها بعد النصر أقدر على «تقنين» علاقاتها معهم . وليس هناك شك في أن موقفنا الصلب في ازمتنا الأخيرة مع الاتحاد ، تلك التى لم نكن نريدها أو نسعى اليها ، هى تعبير عن بروز القوة العربية وعلى رأسها القوة المصرية بعد اكتوبر، ودليل على أنها قد دخلت دائرة القوة ولعبة الكبار وأصبحت طرفا موجبا فيها بعد أن كانت طرفا سالبا ، وبعد أن كانت مهددة بحصار الوفاق اذا بها تحتويه وتحيده وتوازنه. والأزمة التى نشأت مع الاتحاد السوفييتى هى رمز للضغوط الايجابية التى استطاعات مصر القوية أن تفرضها عليه .

ورغم كل الصعوبات والمتاعب التي ترتبت علي هذ الأزمة ، ففى يقيننا أنها تطور صحي ومفيد ، كان لابد منه لمصلحة الطرفين ، وستخرج منها صداقتهما وهى أوضح أساسا وأكثر صحة كما هى أكثر واقعية وكرامة فمن الأكرم للاتحاد أن تكون علاقاته وصداقته مع مصر قوية عزيزة محررة لاضعيفة محتلة ومع مصر منفتحة على العالم الواسع المتغير لا منغلقة في دائرة ضيقة مغلولة يدها .. وإذا كان على مصر أن تحرص كل الحرص على صداقة الاتحاد ، ليس فقط تقديرا

للماضي ولكن كذلك تاهبا للمستقبل ، فان على الاتحاد أيضا أن يدرك انه لم يعد في الامكان ان تظل علاقات الصداقة بين الكبار والصغار تابعة لعلاقات الكبار والكبار وخاضعة للعبة توازن القوى بينهم . والصداقة الخالصة المخلصة لاتحتمل تحفظات ولاشبهات أو شكوكا ، كما أنها لايمكن أن تكون في اتجاه واحد أو من طرف واحد ، وإنما هي في الاتجاهين ومن الطرفين تجيء .

وأخيرا فان هناك مؤشرات على أن هذه السياسة المصرية الصلبة سوف تنجح وأنها على وشك أن تعطي ثمارها ، فخشية أن يفقد الاتحاد هذه الصداقة المؤثرة ، ابدى مؤخرا دلائل على التفهم والرغبة في التقارب وهناك حديث عن اتصالات لعقد مؤتمر قمة يبدأ صفحة جديدة مشرقة .

وبالنسبة للمستقبل ، يجدر بالعرب ، من ناحية ، أن يعيدوا توطيد علاقتهم مع أصدقائنا الكبار السوفييت على أسس جديدة وثيقة ، وألا يسمحوا لأحد مطلقا أن يدق بيننا وبينهم اسفينا لابعادنا عنهم . ليس ذلك فقط لأن الاتحاد هو المصدر الأساسي لتسليحنا المتطور ، ولكن أيضا للمساعدة في اقامة صناعة سلاح متطورة متقدمة على الأرض العربية . وكذلك لأغراض التنمية والتطوير الحضاري الضرورية .

ومن ناحية أخرى ، علينا أن ننفتح على أوسع جبهة ممكنة من الاصدقاء في العالم ، لضمان مورد تكميلي واضافي للسلاح المتطور وللتكنولوجيا الحضارية والصناعية الحديثة ، وكذلك لكسب أكبر قطاع من التأييد السياسي .

وهذا يعني في المقام الأول دول غرب أوربا ، وهو ماينقلنا أيضا الى موضوع أوربا الغربية والمعركة .

أوربا الغربية والمعركة

لم تنفصل أوربا الغربية قط عن صراع الشرق الأوسط منذ بدا ، ولكن طبيعة تلك العلاقة تغيرت مرتين على الأقل ، مرة تغيرا جذريا بعد نهاية العصر الأمبريالي وتصفية الامبراطورية الأوربية في العالم العربي، ومرة تغيرا تدريجيا ولكنه مطرد منذ حرب يونيو .. في المرحلة الأولى كان انحياز أوربا الغربية لإسرائيل بديهية ديبلوماسية ، فهي التي خلقتها أصلا تاريخيا وسياسيا بل ومنها استمدت هذه جسمها البشرى نفسه .. وفي المرحلة الثانية كانت قد زالت أسباب العداء الأوربي العربي التقليدي المتحكم بتصفية الاستعمار وخروجه من المنطقة، ولكن كانت أوربا بعيدة عن الحياد لم تزل في الصراع العربي ـ الإسرائيلي ـ وقد انعكس هذا بصورة صارخة وأليمة في موقف أوربا الحكومات والشعوب من حرب يونيو .

بين أوربا والعرب

ولكن بعد يونيو نتيجة للجهود العربية السياسية الصبورة والدؤوب ، ونتيجة أيضا للمتغيرات الدولية الشاملة ، بدأ البندول يتذبذب تدريجيا نحو قدر أو نوع من الحياد ، المتحفظ أحيانا أو الجزئي أحيانا .. وأصبحت أوربا الغربية ميدانا لمعركة سياسية حادة بين قوى الشد والجذب المضادة العربية والإسرائيلية . وقبيل أكتوبر كان العرب قد نجحوا في جذب فرنسا خاصة ثم بريطانيا الى حد أقل نحو موقف أكثر ملاءمة وتوازنا من قضية مطالبة اسرائيل بالانسحاب من الأراضي المحتلة وتنفيذ قرار ٢٤٢ كما اتسع نطاق هذا الموقف تدريجيا ليشمل دول السوق الأوربية المشتركة ، ولو بدرجات متفاوتة .

وعموما فلقد تمت عزلة إسرائيل عن أوربا الغربية بدرجة دعتها كثيرا الى مهاجمة دولها وأحيانا الي اعتبارها «معادية» ورمتها أحيانا أخرى «بعداء السامية» وأحيانا كذلك «بالجبن والخيانة .. الخ» وكانت فرنسا ، التي رادت الاتجاه الجديد وقادته منذ ديجول ، هي مصب غضب وتهجم اسرائيل الأكبر ، وبعبارة موجزة ، يمكن أن نلخص الموقف المتغير في أنه بينما كانت أمريكا في علاقاتها العربية قد تحولت بوضوح من نمط الاستعمار الجديد الى جوهر الاستعمار

القديم ، كانت أوربا الغربية قد انتقلت من الاستعمار القديم الى الاستعمار الجديد .

وتتخلص استراتيجية المواقف الازائية بين أوربا الغربية وكل من العرب واسرائيل فى مجموعة من قوى الشد والجذب المتبادلة والمتعارضة وفى سلسلة من الضغوط والاختبارات المتضادة التى من محصلة التفاعل والتوازن بينها خرجت النتيجة النهائية كما برزت فى معركة اكتوبر ، واقطاب هذه القوى التى تقع موزعة بينها أوربا الغربية أربعة هى : أمريكا ، الوفاق ، العرب ، اسرائيل .

فمن ناحية كانت أوربا الغربية مرتبطة تقليديا «بعلاقة خاصة» مع أمريكا فى حلف الاطلنطى ووحدة الغرب فى وجه «الخطر الشيوعى» . ومن ناحية أخرى كانت مرتبطة تقليديا «بعلاقة خاصة» أخرى مع اسرائيل نتيجة لتاريخ قديم معقد «وعقدة ذنب» حقيقة أو متوهمة . وعلى النقيض من هذه الارتباطات برز اتجاهان اوربيان حاسمان ، الاتجاه الأول سياسة أوربا الغربية المستقلة وسعيها نحو الوحدة الأوربية لتكون قوة عظمى فى وجه اخطار الحرب البادرة فى ظل الاستقطاب الثنائى سابقا ثم أخطار الوفاق الثنائى فى ظل تعدد المراكز أخيرا . لقد فرضت المتغيرات الدولية الجديدة على أوربا الغربية أن تبحث عن نفسها وعن شخصيتها المستقلة ، وأن تبحث لنفسها عن مكان جديد فى

العالم تتخلص به من التبعية والوصـاية الأمريكية الضاغطة التى تشل إرادتها ، كما تتخلص به من احتمالات الصدام أو التقارب بين القطبين النوويين العملاقين .

الاتجاه الثانى هو رغبة أوربا الغربية فى تأمين وتعميق مصالحها الحيوية المتعاظمة مع العالم العربى : اقتصادياً وبتروليا واستراتيجيا . ففوائض رءوس الأموال العربية والتجارة العربية الواسعة الامكانيات والنفوذ فى سوق المال الغربية وحضارتها أكثر من أى سلعة أخرى وأكثر من أى منطقة أخرى فى العالم تقريبا ، فضلا عن ارتباط الأمن الأوربى ارتباطا حتميا بالسلام فى الشرق الأوسط ، حيث لا سلام لأوربا بغير سلام البحر المتوسط ، ولا سلام فى البحر المتوسط بغير سلام الشرق الأوسط ، كل هذا وغيره جعل أوربا الغربية تتفتح على مصالحها الحقيقية وأين تكمن . فلم تعد تجد لها مصلحة فى معاداة العالم العربى لحساب اسرائيل ، ولا أن تتورط فى صراع يهددها بأخطار نووية .

عند هذا الحد حدث بالتدريج لقاء مصالح منطقى وحتمى بين أوربا الغربية والعالم العربى . وهو لقاء مزدوج فى الواقع من جانب كلا الطرفين : خروج كل منهما من مأزق الاستقطاب الثنائى ثم الوفاق الأعظم من بعده ، وبناء كل منهما لقوته المادية والاقتصادية الذاتية .

والواقع أن هذا اللقاء هو منطق الطبيعة وطبيعة الأشياء . فليس أقرب الى أوربا من العالم العربى جغرافيا وتاريخيا ، بل وحضاريا وبشريا ، فضلا عن التكامل الاقتصادى .

وقد انعكست آثار هذا النمط الجديد من التوازن على معركة أكتوبر بصورة مباشرة وبالغة الدلالة . فقد كان موقف دول أوربا الغربية موقفا «بتروليا» أساسا فاتخذت موقف الحياد من المعركة فى الشرق الأوسط فى وجه الضغوط الأمريكية والهيستيريا الصهيونية المألوفة . أو كما عبر كاتب فرنسى «ان الشخص العادى فى العواصم الأوربية ، بعد أن تبنى النسخة الاسرائيلية عن حقيقة مايجرى فى الشرق الأوسط طوال ست سنوات ، بدآ يتململ ويطالب بالاطلاع على نسخة مختلفة . وواضح أنه لاتوجد فى الميدان الا نسخة بديلة واحدة ، هى تلك التى كشفت عنها حرب أكتوبر بصورة حاسمة» . وكانت الايمانيتيه أقطع حين كتبت تقول « المشكلة هى آن اسرائيل تحتل وتتوسع ، وعلى أوربا أن تغطى نفقات هذا الاحتلال والتوسع . بعبارة أخرى ، إنه لكى تزدهر اسرائيل ينبغى على أوربا أن تعود الى عصر الشموع والدراجات» . لقد تغيرت بوصلة أوربا .

فرنسا ،مثلا أعلنت على لسان وزير خارجيتها أن «هناك حاجة الى أن تقرر أولا ما اذا كان العائد الى بيته الذى طرد منه معتديا . اننا لا

يمكننا أن نلوم أناسا يريدون استرجاع أراضيهم ، أو نحاول اتهامهم بالعدوان» . هذا بينما قال زعيم أحد أحزابها «يجب ألا ينسى أحد للحظة أن المصريين يحاربون فوق تراب مصرى ، وأن السوريين يحاربون فوق تراب سورى» .

أما بريطانيا فقد أعادت تأكيد اعلان هاروجيت الذى صرح به وزير خارجيتها فى ١٩٧٠ وجاء فيه بالنص : «يجب أن تنسحب اسرائيل من الاراضى المصرية والأردنية الى الخطوط التى كانت عليها قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وأن تتخلى عن احتلال هضبة الجولان فى سوريا » . وبذلك صححت تفسير قرار ٢٤٢ ، كما أعلنت حظر تصدير السلاح الى الشرق الأوسط . كذلك أعلن وزير خارجيتها أكثر من مرة أن «المناطق العازلة لا يمكنها أن تعطى اسرائيل اسا نيما» ، و«أننا فى مباحثات السلام «يجب ألا نهمل أمن العرب أيضا»» وأخيرا أنه «لايقوم سلام فى الشرق الأوسط على أساس استمرار احتلال القوات الاسرائيلية للأراضى العربية» .

ورغم تناقضات والتفافات معينة بل وانحرافات ناشزة في مواقف بعض دول غرب أوربا تجعل حيادها غير مخلص وربما مشكوكا فيه ، ورغم أن الحياد السليم نفسه ليس عدلا حين يكون بين المعتدى والمعتدى عليه ، فقد كانت أوربا الغربية الرسمية على العموم بعيدة عن روح

العداء للعرب أو الانحياز لاسرائيل . ولأول مرة منذ ربع قرن أصبحت أوربا تتحدث عن «أمن العرب» جنبا الى جنب مع «أمن اسرائيل» . أو كما يلخص كل من ميشيل جالليه وكريستوفر مييهيو على حدة ولكن في اتفاق واضح . لقد غيرت حرب أكتوبر موقف الدول الغربية وأوربا الغربية من القضية العربية وأصبح هناك ميل أكثر الى تفهمها .

ومما يستحق التسجيل هنا أن حكومة العمال الجديدة في بريطانيا - ولحزب العمال علاقات وميول صهيونية جامحة وتعهدات وثيقة ، وكثيرا ما أعلن زعماؤه بتحد سافر انحيازهم المطلق لاسرائيل برغم انها «زميلة في الاشتراكية» - هذه الحكومة سارعت فور وصولها الى الحكم فأكدت للدول العربية استمرار السياسة البريطانية السابقة والحياد تجاه الأزمة وعدم الانحياز الى اسرائيل . وذلك لاشك تحت ضغوط سلاح البترول المسلط خطره على عنقها .. بل لقد أعلنت حكومة العمال أن العلاقات مع العرب تعد أحد محاور رئيسية ثلاثة في سياستها الخارجية - المحوران الآخران هما الصداقة مع الولايات المتحدة والتفاهم مع أوربا . كذلك صرح جيمس كالاهان وزير خارجيتها أن بريطانيا ترى أنه لن تكون هناك تسوية نهائية لأزمة الشرق الأوسط «إلا اذا نصت هذه التسوية على ايجاد شخصية للشعب الفلسطيني» ،

كما أعلن أنها ترحب بالحوار بين دول السوق الأوربية والعرب حول مستقبل العلاقات الاقتصادية والتجارية بينهما .

غير أنه ليكون من تبسيط الأمور المخل أن نصور أو نتصور الموقف الأوربى ،حتى فى أحسن حالاته واحتمالاته ، مواتيا أو ملائما تماما وبلا تحفظات للقضية العربية . فعدا «الأغلبية الصامتة» التى لعلها أقرب الى اللامبالاه ، كانت هناك النواة الصلبة أو «الأقلية الصاخبة» من أصدقاء العدو فى كل الدول الأوربية وعلى جميع مستوياتها . وقليل من الاقتباسات الموجزة من الصحافة الأوربية اثناء المعركة يكفى لالقاء بعض الضوء عليها «فى تاريخ أوربا» كتبت الأوبزيرفاتير : «سيكون أكتوبر ١٩٧٣ بداية تاريخ الانهيار الكبير فى حضارة العرب» . أما الاكسبريس فقالت «تحقق الأوربيون الآن أنهم سيعلقون لسنوات عديدة الى الولايات المتحدة من الناحية العسكرية ، والي العرب من ناحية الطاقة» . هذا بينما أغلقت الفيجارو المثلث بقولها «أصبحنا (الأوربيون) مستعمرين لثلاثة أطراف : العرب ، السوفييت ، أمريكا» !

وفيما بين موقف الأغلبية والأقلية ، أثبتت دوائر الحكومات أنها عرضة ، بعد التحفظ والحذر ، للتذبذب والتلاعب الى حد أو آخر ، وهى على أية حال مرهونة بتغير الأحزاب الحاكمة . ومن هذه الزاوية نلاحظ

أنه قد حدثت عدة تغييرات شبه متعاصرة في الحكومات والأحزاب الحاكمة في عدد من الدول الأوربية بعد أكتوبر كأنها على ميعاد : مجيء حزب العمال في بريطانيا ، استقالة برانت في ألمانيا الغربية ، مجيء ديستان في فرنسا .. إلخ . ورغم أن من المحقق أن المواقف الأساسية لأوربا الغربية لم ولن تتغير في المدى القريب عما كانت عليه أثناء أكتوبر ، فلا ينبغي أن نغفل أن هناك احتمالات ببعض التحفظ ومحاولات للإمساك بالعصا من الوسط .. إلخ ، وعلى أية حال ، فعلى العرب ألا تكف عن الحوار والاقناع والضغط على أوربا الغربية ، حفاظا على موقفها ان لم يكن تطويرا له .

بين أوربا وأمريكا

هذا من ناحية أوربا ، والعرب . أما مع أمريكا فقد اتسعت الفجوة الناشئة بين أوربا الغربية والولايات المتحدة ووصلت الى حد الشرخ العميق حين رفضت الأولى أن تكون معبرا للسلاح الأمريكى الى اسرائيل أثناء المعركة مما عرض حيادها للخطر . ثم وصل الشرخ الى حد الصدع حين أعلنت أمريكا حالة التأهب النووى فى قواعدها الأوربية دون موافقة أو حتى علم الدول الأوربية ، مما عرضها هى نفسها لخطر الصدام النووى . وفى هذه الأزمة تبادلت أوربا وأمريكا الاتهامات المباشرة والقاسية . أوربا تحدثت عن «التأهب

الزائف» و«الاجراءات المسرحية الخطرة» وعن تجاهل أمريكا لها تماما في التأهب النووي «الى حد مهين» .

فرانس سوار : مثلا كتبت عن قرار التأهب النووي الذي «بدا متطرفا ، أشبه بعملية تهويش يقوم بها لاعب قمار» . والصحف البريطانية كذلك هاجمت أمريكا قائلة أنها عاملت بريطانيا «معاملة مهينة وكأن بريطانيا جمهورية للموز» (أي جمهورية تابعة لأمريكا) ، وردت سبب الخلاف الى عاملين : اهمال أمريكا التشاور مع لندن حول التأهب ، ثم الانتقادات العلنية من نيكسون وادارته للحلفاء .

وعموما فقد اتهمت الصحافة الأوربية بالاجماع الحكومة الأمريكية بأنها «أهملت اهمالا مشينا التشاور مع حلفائها قبل اعلان حالة التأهب بين قواتها داخل البلاد وفي قواعدها بالخارج» . وانتقد البعض قرار نيكسون بانه «اجراء لم يكن له مايبرره ، وتجاوز فيه حدود ما كانت تقضي به الظروف أثناء الحرب بين العرب واسرائيل» . وقد لخص معلق أوربي الموقف كله في أن «الولايات المتحدة ، فيما يبدو ، لاتستشير أوربا في أوجه تعاونها مع الاتحاد السوفييتي ، وهي لاتستشيرها الآن في تحركات مجابهتها أيضا . إن هناك شعورا متزايداً بأن الأمريكيين لن يتشاوروا - معنا حول أي شيء يفعلونه » .

ولم يكن الساسة الأوربيون أقل انتقادا أو صراحة وعنفا من الصحافة . ان الحرب - قال ميشيل جوبير وزير خارجية فرنسا - أكدت شكوك فرنسا عن سياسات الوفاق الأمريكية السوفييتية ، ولقد «أهانت» الدولتان الأعظم أوربا بتجاهلهما لها في محاولاتهما لأنها القتال .. وهما «تتجاوزان حدودهما» في سياسة توازن القوة والوفاق . أما هارولد ويلسون - في المعارضة وقتئذ - فقد اعتبر التأهب بلا تشاور « اهانة تدعو الى اقصى درجات الغضب» .

أما الأمريكيون . من جانبهم ، فقد ردوا بحدة كبيرة ومرارة أكبر ، فعلقوا على العلاقات «الهشة» التي كشفت عنها الحرب بين الأمريكيين والأوربيين «أصدقاء الرخاء» . وقالوا كذلك ان المسئولين الأوربيين يسعون الى أن يتنصلوا من السياسة الأمريكية المؤيدة لاسرائيل وأن «يطلقوا أنفسهم» عنها حفاظا على مصالحهم في استمرار تدفق البترول . وفيما بعد وصفت الحكومة الأمريكية بيان السوق الأوربية المشتركة ازاء الأزمة والذى حدد موقفها بالحياد بأنه «ينم عن الجبن والتهيب» . هذا بينما شاع عن كيسينجر قوله المقتضب للمحيطين به أنه «مشمئز» من موقف الحلفاء الأوربيين ..

ومما لاشك فيه أن الخلاف تحول الى أزمة حقيقية حادة بين الأمريكيين والأوربيين . وفيما بين الاثنين ، كتب البعض أن العلاقات

بين أمريكا وأوربا الغربية «لم تكن قط أسوأ مما عليه الآن منذ حرب السويس قبل ١٧ عاما مضت . وقد بدا .. أن أدوار عام ١٩٥٦ قد قلبت رأسا على عقب . فالولايات المتحدة تبدي نفس الازدراء الغاضب تجاه حلفائها في حلف الأطلنطي بسبب افتقارهم المزعوم الى التأييد فيما يتعلق بالشرق الاوسط على نحو ما أبداه كل من أنتوني ايدن وجي موليه تجاه الرئيس ايزنهاور أثناء حرب السويس» (روبرت ستيفنز) . مصدر آخر قال انها «أعمق خلافات خلال ٢٤ عاما من تاريخ حلف الاطلنطي» ، بينما صك بعضهم التعبير الساخر «المحيط المتجمد الأطلنطي» كناية عن صقيع البرودة الشديدة التي رانت على شاطيء المحيط ، في حين قال دبلوماسي غربي «الآن بدأت الحرب الباردة بين أوربا الغربية وأمريكا»!

وقد حاول الجانبان فيما بعد تهدئة حدة الموقف بالتدريج وان يدفعنا الشجار بطريقة دبلوماسية . فاعتبره البعض نوعا من «النزاع العائلي» داخل الأسرة الواحدة . وقيل ان امريكا عبرت عن شعورها بالندم في النهاية على عنف وخشونة لهجتها أثناء المساجلة . وقد أمكن بالفعل تجاوز الأزمة ، غير ان جذورها ظلت بلا شك هناك وبقى في النفوس كثير من المرارة وتحت الرماد بعض النار في انتظار أول مناسبة جديدة لتندلع من جديد . وقد كانت أزمة الطاقة ومعركة البترول

هى تلك المناسبة . فما أن هدأت أزمة التأهب النووى بالكاد ، حتى تفجرت أزمة البترول ، وفيها بدا التناقض بين أوربا الغربية وامريكا أعمق وأخطر لأنه تناقض مصالح حيوية ومصيرية مباشرة . وبهذا أصبح التناقض فى الواقع مزدوجا : الوفاق والبترول . وبهذا أيضا كشف الخلاف بين القارتين عن طبيعته الحقيقية ، وهى أنه صراع قوة من أجل النفوذ وتصادم مصالح رأسمالية من أجل البقاء .

وقد عبر نيكولاس كارول عن هذا بأن الوفاق بين الولايات والاتحاد أنهى دور أوربا «كوسيط» بين الطرفين ، وقضى بذلك على مطامح فرنسا القديمة بالذات فى أن تكون جسرا للتفاهم بين الشرق والغرب . بينما أضاف وليم سافير أن خوف أوربا من الاتحاد السوفييتي دفعها فى الأصل الى الولايات المتحدة ، ولكن خوفها الآن من فقد البترول أخذ يدفعها بعيدا عنها . وبهذا وذاك لم يعد حلف الاطلنطى بعد أكتوبر كما كان قبله ، وتحول «عام أوربا» الاحتفالى الذى كان يخطط له نيكسون الى «عام الشرق الأوسط» المتأزم ، ومشروع «ميثاق الأطلنطى الجديد» المتلاحم الذى كان يرسمه كيسينجر الى مشروع «شخصية أوربية جديدة» أكثر استقلالا وتباعدا .

وواقع الأمر أن أوربا الغربية اذا كانت قد اخذت تخشى من ان تفقد دور الوساطة السياسية في الوفاق بين العملاقين الذى يختزل بذلك وظيفتها ، فقد بدأت أمريكا كذلك تتوجس من أن تفقد من جانبها دور الوساطة الاقتصادية في البترول بين أوربا والعرب وأن تحتل أوربا مكانها في بترول العرب ، وباتت تعارض بكل قوة نمو العلاقات البترولية المباشرة بين حلفائها الأوربيين والعرب وتعمل بل وسيلة للحيلوة دون أوربا الغربية والعرب . لقد بدأت الحرب الاقتصادية بعد السياسية . وهكذا رفضت أوربا الغربية الانصياع لدعوة أمريكا الى مواجهة بترولية مع العرب ، ورسمت على العكس سياسة التقارب المباشر معهم.

وحين قرر مجلس السوق الأوربية المشتركة عقد مؤتمر عربى - أوربى للتعاون فى شئون الطاقة والتكنولوجيا ، كشف رد فعل أمريكا عن عمق الصدع وخطورة الصراع .فقيام تعاون مباشر بين السوق الأوربية والعرب - هكذا أعلنت المصادر الحكومية الأمريكية - «قد يؤدى الى مواجهة فى الشرق الأوسط بين أمريكا وحلفائها الأوربيين» . وبعد أن أعربت هذه المصادر عن أسفها لأن الأوربيين لم يستشيروا أمريكا قبل القرار ، الذى رأوا فيه رغبة من جانب فرنسا فى تنظيم الوحدة الأوربية ان لم يكن ضد أمريكا فعلى الأقل بعيدا عن السياسة

الأمريكية ، قالت انها «تحتفظ بحق العمل كما يفعل الأوربيون» . ثم أضافوا «أننا لا نريد مواجهة مع أوربا . لكن اذا لزم الأمر فلن يتمكن الأوربيون من منافستنا في الشرق الأوسط ، واذا حاربناهم فستكون الغلبة لنا» .

وعلى الفور رد بيير ميسمير رئيس وزراء فرنسا بأنه «لا يمكن حل مشكلات الطاقة الا بالتعاون مع كل دول الشرق الأوسط وليس بالمواجهة بين الكتل المتصارعة واهتمام فرنسا بالعالم العربى لا يرجع تاريخه الى حرب أكتوبر أو أزمة البترول ، ولكنه اهتمام اتخذ طابع الاستمرار قبل ذلك بكثير . وفرنسا على استعداد لمعاونة الدول العربية المنتجة للبترول على استغلال امكانياتها المالية لتحقيق أهداف التنمية بها» .

ذلك كان آخر ما انتهى اليه التراشق عبر الأطلنطى ، ومن الواضح تماما أن الصراع قد وصل الى نقطة أخطر بكثير مما كان يتوقع الكثيرون . وقد عبر كيسينجر أخيرا عن هذه الحقيقة بصراحة تامة فقال ان «أصدقاء آمريكا الأوربيين يشكلون لها مشكلة فى السياسة الخارجية أكثر من أعدائها . كذلك عاد فأكد أن «الخلافات القائمة بين أمريكا وأوربا حقيقية وخطيرة» ، وسوف تحتاج الى وقت وصبر لحلها . كذلك أعلن نيكسون نفسه أن أوربا لايمكن أن تجمع بين عداوتها

البادية لأمريكا وبين الاعتماد عليها فى مسائل الأمن والاستراتيجية ، او كما وصفها «ان أوربا لا تستطيع أن تتبع سياسة تعاون مع أمريكا في الأمن ، وسياسة مواجهة ضدها في الاقتصاد .. ولايمكن استمرار العلاقات الأوربية الأمريكية على آساس التعاون العسكري والمواجهة الاقتصادية» .

وعلى الفور بادر ميسمير فرد قائلا «على أوربا أن تتطور مستقلة عن شركائها» ، بينما كان جوبير أشد حسماً «على أوربا أن تستعد للاستغناء عن مظلة أمريكا الذرية اذا كانت هذه تتعارض مع كرامتها». وعن تلويح أمريكا بسحب قواتها ومظلتها الذرية من أوربا ، كتبت الموند بلا مواربة «هذا ابتزاز» . والواقع أن صراع القوة كامن في كل هذه المواقف ، أمريكا تريد ان توطد زعامتها وسيطرتها على أوربا «الآبقة» ، وأوربا تريد أن تسترد سيادتها واستقلالها عن «التبعية» الامريكية . قال بومبيدو «ان أوربا يسيطر عليها الأمريكيون ليست أوربا على الاطلاق» ، بينما رفض رئيس وزرائه ميسمير صراحة محاولات أمريكا زعامة العالم الغربي مطالبا بأن تكون أوربا الغربية على قدم المساواة مع أمريكا .

وهنا عاد نيكسون فقال ان الأوربيين اتخذوا موقفا معاديا للولايات المتحدة في بعض المسائل . ولكن سحب القوات الأمريكية من أوربا

كاجراء انتقامي أمر ينطوى على تهديد للسلام ، ويبدو الآن أن تكتيك الولايات المتحدة هو دق اسفين بين فرنسا وزميلاتها الأوربيات لعزلها وتصفية زعامتها المتحدية ، وقيل في هذا ان من المؤكد ان الدول الاوربية اذا ما خيرت بين أمريكا وفرنسا فستختار الأولى بلا تردد ، وهو ما أشار اليه جوبير بكلمة «الخيانة» .. ومن الناحية الأخرى فالمعتقد ان هذه الخلافات ستسوى بطريقة أو بأخرى تحت صيغة ما مقبولة للجميع في وقت قريب أو بعيد ، وان كانت المناقشة لاتزال سجالا عبر المحيط وفوق رأس الحلف .

نتائج المعركة

والسؤال الآن هو : الى أين ؟ ما النتائج والاحتمالات والانعكاسات وما علاقتها بالعرب والصراع العربى ضد اسرائيل ؟ ولعل أول رد هو ان هذه المواجهة الباردة (أم الساخنة؟) بين الحليفين كان من أبرز وأخطر نتائجها تعجيل اتجاهات الوحدة الأوربية واندفاع أوربا اليها بصورة حاسمة . كما قال الجنرال بوفر مثلا « .. يبغى على أوربا المتقسمة ، هذه التى استنامت الى وهم الوفاق ، أن تدرك موقفها الخطير بين الدولتين الأعظم . والنتيجة التي يجب عليها ان تستخلصها هى أن تسرع خطاها نحو الاتحاد» .

وهذا مايؤدى بنا الى حقيقة فائقة الأهمية ، هى ان الشرق الأوسط حتى منذ الخمسينات كان عاملا دقيقا لا فى السياسة الخارجية الأوربية فقط وانما في سياسة الوحدة الأوربية نفسها ، فمنذ وقت مبكر ، أدركت أوربا (هالشتاين بصفة خاصة) أن السوق الأوربية المشتركة ماكانت لتتحقق لولا أزمة السويس ١٩٥٦ التى تعارضت فيها مصالح ومواقف الأوربيين والأمريكيين . ثم ازداد ادراك الأوربيين لضرورة الوحدة مع كل حرب لاحقة بين العرب واسرائيل ، حتى ليقال ان حرب ١٩٥٦ هى التى خلقت الوحدة الأوربية وحرب ١٩٧٣ هى التى عمقتها ودعمتها الى الأبد (أنتونى سامسون) .

ومن هذه الزاوية فالواقع أيضا أن حرب أكتوبر هى التى حررت أوربا أو ساعدت على تحريرها بصورة نهائية وحاسمة من الوصاية والتبعية الأمريكية ، لأن هذا هو المعنى الحقيقى للوحدة الأوربية . كذلك يمكن أن نضيف ان حرب أكتوبر قد حررت أوربا من نازية جديدة على ضلوعها الجنوبية (اسرائيل الصهيونية) ، مثلما حررتها الحرب العالمية الثانية من قبل من نازية قديمة فى قلبها (المانيا الهتلرية) . وفى المحصلة العامة ، نرى أن دفعة الحرب العربية المنتصرة هى التى وضعت حدا أو أخر «للعلاقة الخاصة» بين أوربا وكل من أمريكا فى جانب واسرائيل فى الجانب الآخر ، وأنها هى بذلك التى

ساعدت اوربا الغربية على بلورة استقلالها الجديد ووحدتها الناشئة .
لقد جاءت حرب اكتوبر بمثابة معجل أو مفاعل وحدوى لأوربا . واذا كان البعض ، مثل بيتر شور الزعيم العمالى البريطانى ، يرى على العكس ان «السياسة العربية البترولية قد قضت على أسطورة الوحدة الأوربية» فهذا لا يعبر الا عن اتجاه ثانوى ويكاد يمثل الاستثناء لا القاعدة .

وبقدر ما تباعد الموقف الأوربى عن الأمريكى فى ١٩٧٣ ، تقارب مع الموقف العربى . وبتعبير آخر ، بينما تباعد شاطئا الأطلنطى ، تقارب شاطئا المتوسط . وحتى منذ ما بعد يونيو ازداد التدخل المطرد فى العلاقات بين أوربا الغربية والعالم العربي الى حد زالت فيه كثير من الحساسيات والعقد القديمة وبدأت معه صفحة جديدة تنبىء بمستقبل كبير .

الرئيس بومبيدو ، مثلا تحدث عن العلاقات الجغرافية والتاريخية والمصالح الاقتصادية والثقافية بين اوربا والعرب . بينما اقترح ميشيل جوبير وزير خارجية فرنسا على السوق الأوربية عقد مؤتمر يضم دول السوق والدول العربية لدراسة امكانيات التعاون بين الدول «المتقاربة جغرافيا» . وعن وحدة البحر المتوسط وشعوب شاطئيه كذلك أسهب الكثير من الكتاب الأوربيين .

وبعض المفكرين الاوربيين دعوا بصورة مجددة الى فكرة ارتباط وتعاون اوربى - عربى كوحدة متكاملة - أوربيا Eurabia كما صكوها - على غرار أورا افريقيا ، وتشمل كل مجالات الحياة ..إلخ . أما السوق المشتركة فقد سبق أن طرحت إبان الأزمة فكرة الدعوة الى مؤتمر اقتصادى مع العرب يحقق ضمان تدفق البترول العربى إلى أوربا ، ويوفر الحاجات التكنولوجية والمالية الأوربية للعرب . ثم قرر مجلس السوق أخيرا عقد «مؤتمر أوربى - عربى على مستوى وزارى لتنظيم وسائل التعاون فى شئون الطاقة والاقتصاد والتكنولوجيا والعلوم» .

وكتعبير استراتيجى جامع عن هذه العلاقات المطلوبة ، ذهب حتى فرانسوا ميتران ، زعيم الاشتراكيين الفرنسيين ذوى العلاقات التقليدية الوثيقة مع العدو الاسرائيلى ، الى أنه «اذا كان عليهم كاشتراكيين فرنسيين ان يحددوا محورين حول أوربا السياسية ، فانهما يتمثلان فى محاولة حل مسألة الآمن الجماعى مع الروسيا السوفيتية ، وتكوين حلف للبحر المتوسط مع البلاد الواقعة على شواطئه . ذلك لمحاولة ايجاد توازن مع قوى الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، لا عن طريق انشاء حلف عسكرى ، وانما عن طريق خلق قوة جديدة تنبع من وحدة العلاقات الاقتصادية والتجارية والثقافية والانسانية ،

بحيث لاتصبح القرارات التى تتخذ فى المناطق الممتدة من السويد حتى السعودية ، أى من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ، تصدر مركزيا بمكالمة تليفونية بين نيكسون وبرجنيف ، وانما تصدر عن الشعوب والدول صاحبة حق السيادة فى تقرير مصير هذه المنطقة» .

تلك كلها وجهات نظر مختلفة ، تبدأ وتنتهى بزوايا ومستويات متباينة ، وقد لاتكون جميعا خالصة لوجه العرب أو مخلصة لقضيتهم ، لكنها تتجه دائما الى تصور عالم جديد من العلاقات بين أوربا والعرب . ولقد يكون السابق لأوانه ان يتحدث أحد عن «وفاق صغير-Litte En tente » يربط بصورة ما نسبية ومخففة بين العرب وأوربا الغربية ، متعامدا على «الوفاق الأعظم» ومتوسطا بينه وموازيا له ، ولكن ليس من المستبعد أو المستكثر ان ينبثق مثل هذا المحور البازغ أو البرعم يوما ما فى المستقبل القريب أو البعيد.

افريقيا والمعركة

وقد يكون الوقت مبكرا كذلك لأن نتكلم عن وفاق آخر ، «الوفاق الأصغر» مثلا ، بين العرب وافريقيا كنتيجة للمعركة ، ولكن المعركة قد ألقت البذرة بالفعل . فلقد دشنت المعركة انقلابا كاملا فى العلاقات الافريقية - العربية والافريقية - الاسرائيلية فى آن واحد ،

ـعم الأولى بقدر ما هدم الثانية . وبذلك تحققت وحدة القارة الافريقية كما لم تتحقق من قبل ، وتلاحمت الوحدة العربية - الافريقية - مثلما لم تفعل قط . '

هكذا ، وكما تقارب شاطئا البحر المتوسط في الشمال ، تقارب أيضا ساحلا الصحراء الكبرى حتى التصقا وحتى اختفت الصحراء كفاصل أو عازل سياسي ، وبعبارة أخرى ، فكما «عبرت» العرب البحر نحو الشمال فتداخلت علاقاتها وصداقاتها مع أوربا ، عبرت أفريقيا بدورها الصحراء نحو الشمال لتتداخل هي الأخرى وتتلاحم مصيريا مع العرب . وبهذا وذاك يبرز نمط جيوبوليتيكي جديد مشترك يجمع بين الجميع له مغزاه الكبير وقد تكون له أهمية كبرى في المستقبل . ولكن فلنفصل أولا قبل ان نصل الى هذا النمط .

منذ وضعت اسرائيل قدمها في «حذاء» الاستعمار القديم الذى غادر افريقيا بعد الاستقلال ، ومنذ مدت أمريكا ذراعها لترث الدور الامبريالي في القارة ، أصبحت الساحة الافريقية مسرحا ضخما للصراع السياسي والدبلوماسي بين العرب واسرائيل . ومنذ نفذت اسرائيل الى البحر الأحمر واكتمل التسلل الصهيوني الى افريقيا ، استطاعت اسرائيل ان توطد لنفسها موطىء اقدام راسخة في بعض دولها ، اتخذت منها قواعد للمزيد من التوغل والتغلغل .

وعن طريق المساعدات المتنوعة وعدد من مشروعات التنمية والتطوير التدريب سواء زراعيا وصناعيا أو تجاريا وعسكريا ، نجحت اسرائيل لبعض الوقت والى حد معين فى ان تنمي عــلاقاتها ومصالحها في القارة . وأكثر من هذا استطاعت ان تخدع الافريقيين الى حين عن حقيقة دورها كمخلب قط للامبريالية وحصان طــرواده للاستعمار وكعميل وسمسار له من البــاطن ، فضلا عن كيانها الاستعماري ذاته الذي يكرر بكل أمانة وبكل تفصيل صورة الاستعمار الاستيطاني الأبيض الذي يعد سرطان القارة وجذامها العنصري ويطوقها من الجنوب بجبهة مثلثة في جنوب افريقيا وناميبيا وروديسيا ثم موزمبيق وأنجولا .

وقد بذلت الدول العربية جهودا ديبلوماسية وسياسية مستمرة بلا كلل من أجل كشف حقيقة اسرائيل وتعريتها أمام الافريقيين . وعبر سلسلة من الاتصالات المكثفة ، توجتها من حين الي آخر مؤتمرات الوحدة والقمة الافريقية ، نجحت الدول العربية في تحويل المد بالتدريج وفي ان تحول دون استشراء الخطر الصهيوني في القاهرة . وقد ظهرت آثار هذه الجهود بعد يونيو ، حين اخذت افريقيا تلعب دورا متناميا فى البحث عن حل للازمة . فكانت بعثة «حكماء افريقيا» وكان مؤتمر أديس أبابا الذي سجل أكبر تأييد أدبي وديبلوماسي للقضية العربية في تاريخ

العلاقات العربية - الأفريقية حيث أدان العدوان الاسرائيلي بحسم وطالب بحزم بالانسحاب .

غير أن معركة اكتوبر جاءت نقطة التحول الحاسمة بل العارمة . فقبيل المعركة كانت مجموعة من الدول الافريقية قد فطنت نهائيا الى الخطر الاسرائيلي على القارة وعلى السلام العالمي فقطعت العلاقات الدبلوماسية معها . ولكن تلك لم تكن سوى البداية التي تنتظر المعركة لتأخذ منها إشارة الانطلاق . فاذا بسلسلة متتابعة ، لن تلبث بعدوى صحية أن تحولت الى شلال منهمر ، من قطع العلاقات تترى وتتواتر من كل أركان القارة . واذا نحو ٢٩ دولة افريقية تقطع علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل في غضون شهر واحد تقريبا ، قل بمعدل دولة كل يوم ! بل لقد تصادف بالفعل أن أعلنت أكثر من دولة واحدة قطع العلاقات في يوم واحد ! لقد كان ذلك بحق «شهر أفريقيا» ، مثلما كانت سنة ١٩٦٠ هي تحريرياً «سنة افريقيا» . كأنما القارة قد تخصصت في المفاجآت السياسية بالجملة ، مركزة مكثفة في فورة عنيفة بعد طول كمون !

ولقد فقدت اسرائيل في هذه الموجة المدية الكاسحة مواقع لها كانت تحسبها لأسباب خاصة جدا منيعة وآمنة جدا ، سواء ذلك في منطقة القرن الافريقي أو في قلب القارة أو غربها . واذا كانت قد تبقت بضع

دول لم تزل على علاقاتها الديبلوماسية مع اسرائيل فتلك وحدات صغرى أساسا تعانى من أوضاع جغرافية سياسية شاذة تضعها فى تضاعيف وتحت رحمة كتلة الاستعمار المتخلف فى أقصى جنوب القارة ، لقد تم ، عمليا ، «طرد» إسرائيل من القارة السوداء .

مامعنى هذا ، وماذا بعده ؟ لقد أدركت افريقيا نهائيا ان اسرائيل هى جنوب افريقيا العرب وروديسياهم ، أو موزمبيق الشرق الأوسط وأنجولاه . أدركت انها عنصرية افريقيا السمراء ، حيث تلك الدول هى عنصرية افريقيا السوداء ، وهى مثلها عدوة افريقيا القاتلة . لقد رأت افريقيا أخيرا كيف انها محاصرة بين مثلث ضخم من العنصرية البيضاء ترتكز رءوسه على أطراف القارة الثلاثة : جنوب افريقيا وروديسيا وموزمبيق وأنجولا فى جنوب القارة ، ثم البرتغال المتروبول الاستعمارية على ضلوعها فى الشمال الغربى ، ثم أخيراً اسرائيل الصهيونية الدخيلة على ضلوعها فى الشمال الشرقى . فكان حقا على افريقيا أن تلفظ اسرائيل من بيتها الى أن تلفظ من بوابتها .

مرة أخرى ، مامعنى هذا ، وما محمولاته ؟ لقد غيرت حرب أكتوبر المنتصرة موقف افريقيا ، الذى لم يكن يخلو من شىء من تحفظ هنا وبعض من تردد هناك . غيرته مرة واحدة والى الأبد ، فاكتمل عدم انحيازها تماما ، وإكملت وحدة القارة الحتمية . واذا كان رئيس زائير

ند قال مرة «اذا كان للمرء أن يختار بين صديق وشقيق ، فإنه يختار
الشقيق» . فقد عاد بعد المعركة ليقول ان هذا كان قبل أكتوبر ، أما
الآن فاسرائيل ليست صديقا بل هى عدو .

لقد وجدت افريقيا فى النصر العربى نصرا لها ولكل العالم الثالث .
انه أول نصر عسكرى حقيقى عصرى ضخم ومباشر تسجله افريقيا بل
المتخلفون على الاستعمار «الأبيض» في التاريخ الحديث . ولهذا بلا شك
مغزاه الواضح في الصراع ضد العنصرية العالمية . ولقد عبر رئيس
زائير عن هذا بجلاء في خطابه أمام مجلس الشعب المصرى حين قال
«حين وضعتم النهاية لأسطورة التفوق العنصرى للصهيونيين ، فانكم
تكونون قد عاونتم فى التقدم بقضية الشعوب الافريقية التى تناضل
والسلاح في أيديها ضد الاستعماريين والعنصريين» . كما أضاف فى
مناسبة أخرى «لقد استطاعت مصر أن تفرض السلام على من
يتحدث عن الحرب» .

بهذه الصفة ، وبغيرها كثير ، بدت مصر فى نظر القارة وكأنها
«يابان افريقيا» ، أول دولة افريقية تهزم دولة «أوربية بيضاء» هزيمة
عسكرية ايجابية داوية ، مثلما فعلت اليابان سنة ١٩٠٥ ، وبقدر
ماشعرت افريقيا بالشرف والفخار لهذا النصر ، جاءت مبايعة للعرب
ومصر بالقيادة فى القارة والزعامة فى العالم الثالث . فطرد اسرائيل

على ذلك النحو ، الذى يكاد يرقى بشكل ما الى سحب اعتراف ، هو ايضا ترشيح بل تنصيب من جانب القارة لمصر والعرب كقلعة النضال المشترك ضد الأمبريالية وكدرع الحرية فيها .

ويعني هذا ايضاً أن كل محاولات الاستعمار للدس والوقيعة ولدق اسفين بين العرب والافريقيين قد فشلت وتحطمت على صخرة الوحدة الطبيعية بينهم ، تلك التي تستمد مقوماتها من الوحدة الجغرافية المباشرة ثم من وحدة التحرير الوطني والكفاح ضد الاستعمار والامبريالية والعنصرية («حلف المقهورين» كما دعاه البعض) . تبخرت اسطورة الصحراء كعازل بين شمال وجنوب ، بين عرب وزنوج ، بين افريقيا عربية واخرى سوداء .. الخ . تحطمت كذلك أكذوبة تجارة الرقيق (لوحظ عودة الدعاية الأمريكية الى هذه النغمة القديمة بعد المعركة - لكن دون جدوى) .

ومن الناحية الأخرى ، فان لهذا الموقف الافريقى تبعاته الكبيرة على العرب . لقد ضحت افريقيا بمصالح ومكاسب مادية لاتخلو من قيمة فى سبيل الحق العربى . ولابد لنا أن نسدد هذه الخسائر بمعدل الربح المركب ، بل أضعافا مضاعفة ، ليس فقط تعويضا ولكن ليدرك الجميع أن صداقة العرب دائما أجدى وأنفع . اننا لابد ان نتحرك بسرعة وبلا أدنى تردد لنملأ «الفراغ» الجديد فى افريقيا ، حتى يكون

الخروج» الاسرائيلى منها نهائيا بلا عودة . والعرب يملكون بلا ريب كل مقومات المساعدة ماليا وتكنولوجيا وحضاريا . ومن حسن الحظ أن موتمر القمة العربى الأخير فى الجزائر قد قنن هذه السياسة بالفعل وخطط لبنك تنمية عربى - أفريقى برأسمال كاف ، كما بدأ التنفيذ على الفور .

تلك اذن صورة افريقيا الجديدة من خلال عدسة المعركة . غير أن من المستحسن فى نهاية هذا المسح أن نضعه فى اطار مشترك مع الموقف الأوربي ليكون المنظور أوسع والرؤية أشمل . لقد تقاربت أفريقيا كثيرا من الحق العربي من الجنوب ، كما تقاربت أوربا الغربية من الشمال . وبذلك أصبحت هناك سلسلة متتابعة من ثلاث حلقات تتراص فى محور رأسى واحد من المواقف السياسية المتشابكة ولا نقول المتشابهة يحتل وسط العالم الهام ، بادئا من أوربا فى الشمال ومنتهيا بافريقيا فى الجنوب وعقدته وحلقة الوصل فيه كما هو مبرر وجوده هو العالم العربى فى وسطه . وهذا المحور النسبى يتعامد -- سنرى - على محور معسكر العدو الأفقى الذي يمتد بالعرض مابين اسرائيل وأمريكا والذى أن لنا أن ننتقل اليه .

الموقف الأمريكى

فاجأت العرب الولايات المتحدة مفاجأة صادمة بالحرب وبنتيجتها المفزعة ، ولكنها لم تفاجأ بموقف الولايات المتحدة وعدائها الرهيب .. فالولايات هى الى قريب العدو الأكبر والأصلى للقضية العربية . أما اسرائيل فمجرد يدها الضاربة فى المنطقة . وقد كان أكتوبر هزيمة وصفعة كبرى لأمريكا بالدرجة نفسها التى جاءت لاسرائيل . فلقد أثبتت فشلها فى كل خططها وادعاءاتها تقريبا : فشل مخابراتها وأجهزة تجسسها فى حساباتها وتنبؤاتها عن مدى اقدام العرب وقدرتهم على السرية وعلى المبادأة ، فشل أسلحتها فى ضمان النصر لحليفتها وصنيعتها ، فشل سياستها فى تمزيق الصف العربى وتفتيت وحدته .. إلخ .

وبوجه عام ، كان خطأ حسابات أمريكا مزدوجا مضاعفا ، فكما استبعدت - خطأ - امكان إقدام العرب على الحرب وقدرتهم على الهجوم ، استبعدت - خطأ أيضا - احتمال استخدامهم سلاح البترول او اجترائهم على رفعه فى وجهها . (عن الأولى أعلن كيسنجر شخصيا قبيل المعركة «أن القتال أمر غير محتمل الى درجة أنه ليس هناك فرصة تسمح به» ! وعن الثانية كان سيسكو قد أكد أمام الكونجرس فى الصيف الماضى «إن البلاد العربية المنتجة للبترول ، وخاصة المملكة

السعودية ودول الخليج ، لن تستخدم سلاح البترول ، وأن مصالحها الوطنية تأتي قبل تأييدها للنزاع العربي الاسرائيلي»!)

لقد سقطت كل نظريات الحل الأمريكي مع كل أسلحتها حطاما على ارض الشرق الأوسط ، تماما مثلما سقطت نظرية الأمن الاسرائيلي . ان المد الرجعي العالمي الذي تقوده امريكا والذي وصل الى قمته في يونيو ١٩٦٧ ومن بعدها زحف على العالم في موجة عاتية سواء في الشرق الأوسط أو في افريقيا أو بين دول عدم الانحياز والعالم الثالث ، هذا المد انقلب حسيرا وانحسر أخيرا الى جزر عميق على صخرة أكتوبر .

الاستراتيجية القديمة

فمنذ يونيو كانت الاستراتيجية الأمريكية في المنطقة هي تصفية الأنظمة التقدمية والمقاومة الوطنية والقومية العربية بعد ان تم ضربها وحصارها بالنكسة . وكانت سياستها في ذلك أن تفرض الاستسلام على العرب باسم السلام ، والعمل على «تركيعهم» بدعوى الحل السلمي . فلم يكن هذا الحل السلمي الا وسيلة لتسليم العرب كالثمرة الساقطة الى اسرائيل . وباختصار . كان «السلام الأمريكي» هو نفسه «السلام الاسرائيلي» وكان «الحل الأمريكي» هو بعينه «الحل الاسرائيلي» .

وفى هذا السبيل حاربت أمريكا كل الجهود الدولية لاقرار السلام القائم على العدل وتطبيق قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ ، ولأول مرة فى تاريخها تستعمل حق الفيتو عدة مرات ضد العرب . وطوال الوقت عملت على أن تحتكر وحدها حل الأزمة ، أو بالأصح حق الحل . أجهضت جهود مبعوث الأمم المتحدة يارنج ، وعوقت حتى عقمت تحركات حليفاتها الكبرى فى غرب أوربا ومحاولاتها للاسهام فى حل الأزمة ، وفوق الكل عارضت دور الاتحاد السوفييتى وسعت الى طرده من القضية «فهو اذا كان يملك ان يقدم السلاح للعرب فانها هى وحدها التى تملك أن تقدم السلام» ، بل وسعت الى «طرده» هو نفسه من الشرق الأوسط أصلا - هذا تعبير كيسنجر الذى تورط فيه قبيل الوفاق . وبهذا كله أوصلت أمريكا الحل السلمى الى طريق مسدود ، وعلقت الأزمة فى حالة مجمدة من السلام المتفجر والانفجار الكامن هى تلك التى اصطلح على تسميتها بحالة اللا حرب واللا سلم .

وخلال سنوات ست متصلة كان تكتيك الولايات المتحدة هو ان تدفع بالعرب الى «المفاوضات المباشرة» مع اسرائيل «بغير شروط مسبقة» أى بعد القبول باسقاط حتى قرار ٢٤٢ ، ثم من المفاوضات المباشرة الى الصلح النهائى ، اى الاعتراف والتنازل عن الاراضى المحتلة والوطن

السليب ... الخ . وفى الوقت نفسه أمعنت فى سياستها الداعية من المحافظة على التوازن العسكرى فى المنطقة ، أى ضمان التفوق العسكرى المطلق لاسرائيلها على العرب مجتمعين . وقد وصلت أمريكا فى هذا المجال الى حد من التصعيد لم يسبق له مثيل فى تاريخها أو تاريخ ربيبتها من قبل . فكما أعلن نيكسون بنفسه ، بلغ حجم السلاح الأمريكى الذى تدفق على اسرائيل فى ادارته وحده أكثر من كل مجموعه منذ نشأة اسرائيل وحتى بداية عهده .

وقد كان المعنى الوحيد لهذه الاستراتيجية ولهذا التكتيك هو أن أمريكا انما تخير العرب فى الحقيقة بين اختيارين : إما العبودية وإما الانتحار ، اما أن ينتحروا طواعية على مذبح اسرائيل بصما على صك التسليم ، واما أن تتولى اسرائيل بنفسها قتلهم بالسلام الأمريكى المسلط والرهيب . وكان اعتقاد امريكا الجازم والكامن وراء هذا المنطق أنه ما من اختيار ثالث أمام العرب . انها هى وحدها التى تملك أن تمنع أو تمنح – حتى حق البقاء والحياة .

بالمعركة ، وبالعبور ، بتدمير الخط ، اثبت العرب ان هناك – على العكس – ذلك الاختيار الثالث ، الاختيار العربى البحت النابع من الارادة الحرة والقوة القادرة ، أكثر من ذلك ، اثبتوا – بالبترول – انهم هم الذين يملكون أن يمنحوا أو أن يمنعوا . أبعد منه أيضا ، نجحت

المعركة فى ان تعرى بصورة نهائية وحاسمة حقيقة العلاقة غير الشرعية المشروعة المشبوهة والشوهاء بين النجمة الخماسية والنجمة السداسية ، ونجحت فى تأزيمها ووضعها فى مازق حقيقى لأول مرة ، بل ونجحت كذلك فى تأزيم موقف الولايات المتحدة فى العالم كله ، بما فى ذلك أقرب أصدقائها وحليفاتها .

فبعد مفاجأة المعركة الصادقة ثم الانتصارات العربية الباهرة ، أسفرت أمريكا عن وجهها القبيح بغير نقاب . فهددت على لسان رئيسها بامكانية التدخل العسكرى على غرار تدخلها فى لبنان والأردن من قبل . ثم على جسر من الحقد الضارى ، مدت جسرها الدموى الجوى والبحرى لتعوض وتدعم اسرائيل بالسلاح المتطور بلا حساب . دون أن يمنع هذا تدمير هذا السلاح المتطور على أرض سيناء والجولان بلا حساب أيضا . فصعدت علمية الامداد من جديد بكميات ونوعيات من مستوى جديد .. سلمته فى حقل القتال نفسه ، ومن تلك الأسلحة ما لم يسبق استعماله قط فى ميدان وما لم تحظ به حتى كبرى حليفاتها فى أوربا الغربية وما هدد الترسانة الأمريكية نفسها بالنضوب .

ولقد رأينا كيف أن أمريكا حاربت فى الحقيقة معركتين لاسرائيل خلال الحرب : الأولى بالسلاح المكدس المختزن من قبل ، وهى التى

كادت تفقدها اسرائيل ، والثانية بامداد السلاح المباشر العاجل والمحمول جوا وبحرا ، وهي وحدها التي انقذت اسرائيل من هزيمة كاملة محققة . والفارق الوحيد بين الاثنتين ان احداهما أكثر أو أقل مباشرة من الأخرى . ولقد كان موقف أمريكا في كل هذا شديد الوضوح كما كان بالغ الضراوة : ليس فقط ألا تسمح بهزيمة السلاح الأمريكي على ما اعتبرته السلاح «الروسي» ، الامر الذي يدمر هيبتها الاستراتيجية في العالم كله ، ولكن أيضا ألا تسمح بهزيمة حقيقية لعميلتها اسرائيل والا فقدت كل لعبة القوة العالمية والشرق الأوسط معها .

عزلة أكتوبر

من أجل هذه المحظورات ، كانت آمريكا على استعداد لأن تقع في أقصى المحاذير مع اصدقائها كما مع أعدائها على حد سواء . فمع اقرب وأقوى حليفاتها في غرب أوربا ، كشرت عن أنيابها الأطلنطية لأنها أخفقت في القبول بأن تحول وتحرف الحلف من هدفه الأصلي المشروع وهو الدفاع عن أوربا ضد الخطر الشيوعي الى قاعدة لعملياتها العدوانية ضد العرب ولحساب اسرائيل، وهي العمليات التي لا مصلحة لأوربا فيها. وفي هذه المواجهة تجاهلت امريكا تماما مصالح أوربا، وكذلك اليابان، البترولية التي تعتمد على العرب تماما ، حيث لاتتأثر هي

كثيرا بهذا العامل. وتضاعف الصدع بعد آن كشرت أمريكا عن أنيابها الذرية للاتحاد السوفيتي، الأمر الذى عرض آمن أوربا للخطر النووى المباشر من فوق رآسها ومن وراء ظهرها.

وقد كان مغزى هذا كله بارزا مثلما هو مروع بالنسبة للأوربيين : ان الولايات تضع آمن اسرائيل فوق أمن أوربا الغربية، وهى على استعداد لأن تعرض الآخيرة للخطر النووى لمصلحة وحساب الأولى. اسرائيل، فى كلمة آخرى، أهم عند أمريكا من أوربا. ولم يكن ذلك كشفا جديدا تماما لدى الأوربيين، فمن قبل مثلا شحنت أمريكا اسرائيل بأسلحة متطورة حجبتها عن أوربا نفسها وجحدتها اياها. ومن بعد كذلك أغدقت علي اسرائيل بقرار واحد ٢٢٠٠ مليون دولار، ومن بعدها مباشرة ٣٠٠٠ مليون أخرى، تسليحا ومنحا آو كقروض، وذلك فى الوقت الذى تهدد أوربا فيه بسحب قواتها المرابطة بها لكى توفر بضع مئات من ملايين الدولارات لا آكثر. لهذا ولغيره لم تفاجأ أوربا تماما بالتحول الأمريكى، ولكن الجديد أن الصدمة الأوربية كانت مؤثرة، وبالمثل جاءت الافاقة.

هنالك تحول الشرخ السياسى بين امريكا وحلفانها الى أخدود عميق - وكما تباعد شاطئا الأطلنطي بين آمريكا وأوربا الغربية، تباعد علي الجانب الآخر شاطئا الهادى بينها وبين اليابان. فاذا أضفنا

الموقف الافريقي الذى تباعد عن معسكر العدو، وكذلك دول عدم الانحياز، آمكننا آن نتصور العملية كلها كحركة تباعد وانفصال.شبه عالمية عن النواة الامريكية، قل مجازا عملية «زحزحة قارات Conti-nental Drift » بالمعنى الجيوبوليتيكى بدل الجيولوجي. وهى عملية تترك أمريكا بالتدريج جزيرة سياسية مطردة العزلة حتى عن الأصدقاء فضلا عن الأعداء.

فاذا نحن تذكرنا أن المعسكر الغربى أو «العالم الحر» ـ كما سمى ـ كان بعد الحرب الثانية مباشرة كالكتلة الصلبة الصماء الواحدة المندمجة بشدة وتماسك حول نواتها الأم أمريكا كأنها معا قارة اليابس كله أو آغلبه سياسيا. قل قارة بانجيا Pangea السياسية على غرار ـ مايسمى الجيولوجيون يابس الكرة الأرضية حين كان كتلة قارية واحدة ثم انفصلت بالزحزحة القارية الى القارات الحالية، نقول اذا تذكرنا هذا ثم قارنا ذاك لآدركنا كيف تعرضت الولايات المتحدة لزحزحة قارية حقيقية وكوكبية على المستوى السياسى جردتها بالتدريج من قاراتها الأطراف الى آن اكتملت العملية على يد حرب آكتوبر. لقد تمت عزلة الولايات.

واذا كان هناك من استثناء لهذه العزلة الباردة، فانما هو الاستثناء الذى يؤكد القاعدة ولا ينفيها . فمن بين الحليفات الأوربيات ، لم يكن

هناك من تعاطف مع اسرائيل سوى هولندا ، ولم يكن هناك من قدم قاعدة للجسر الأمريكي سوى البرتغال . والواقع أن محور الولايات - البرتغال - اسرائيل كان هو كل ماتبقى لها أثناء المعركة . وبهذا كان محورا أحاديا مثلما هو معزول ، يترامى (أو يترنح) في وحشة العراء بين كتلة أوربا المحيدة الى الشمال وكتلة العالم الثالث الى الجنوب .. والطريف ان الحلقة الوسطى في المحور لم تلبث أن انهارت حين قام الانقلاب في البرتغال ، ذلك الذى قد يكون ثمرة من ثمار النصر العربى في أكتوبر بطريقة غير مباشرة ، والذى يعد نذير شؤم لمصير الاستعمار الاستيطاني العنصرى الصهيوني المماثل في فلسطين .

هذا عن موقف أمريكا مع أصدقائها . أما مع الاتحاد السوفييتي فقد وصلت المواجهة الى حد التهديد بحرب نووية ، وقد كان هذا هو قمة الابتزاز النووي ، وهو أيضا ما أكد النظرية القائلة بأن بقاء اسرائيل والوجود الاسرائيلي نفسه أصبحا الآن وظيفة لهذا الابتزاز الأمريكي النووى ، وبهذا الابتزاز غير المسئول ، وبعد أن تحطمت أسطورة اسرائيل التى لاتهزم ، كانت أمريكا تحاول فيما يبدو أن تفرض على الوفاق سياسة «لا غالب ولا مغلوب» في الشرق الأوسط ، سياسة «اللا نصر واللا هزيمة» بدلا من ، وبعد ، سياسة «اللا حرب واللا سلم» التي انهارت الى غير رجعة قط . .

أما التهديد النووى فأدنى على الأرجح الى سياسة «التهويش» ، يعيد ذكرى سياسة «حافة الهاوية» التى هندسها دللز ، ويستغل الى إقصى حد وبلا خلق استراتيجية الرعب والترويع . انه ليس من المسموح به للعرب على الاطلاق - هكذا كانت تتوعد وترعد أمريكا - أن يحققوا نصرا كاملا أو حاسما على اسرائيل ، وإلا فانها الحرب النووية . أما ضد من ، فهذا أوضح من آن يذكر . وفى ظل هذا التهديد المد ادع ، تعتمد أمريكا مع اسرائيل فى الواقع العملى سياسة «الفتنمة» ، صيغة منتهى الفتنمة ، بمعنى أن تغرقها بالسلاح المتفوق والكاسح كما وكيفا ، تاركة لها هى ادارة المعركة وضامنة في تصورها ان تحقق النصر به . وهذا يفرض التصعيد المطرد والخطير على حجم الصراع وحجم القتال ... بهدف تعجيز العرب أو أصدقائهم عن اللحاق بسياسة التسلح المسعور هذا . وقد أعلنت أمريكا آخيرا جدا أنها قد تمت بالفعل تعويض اسرائيل عن جميع خسائر أكتوبر فى السلاح ، وكان ذلك فى حدود صفقة الـ ٢٢٠٠ مليون دولار التي تقررت اثناء المعركة . ثم عادت أمريكا فاعلنت عن صفقة جديدة قيمتها ٢٠٠٠ مليون دولار ، تتضمن أحدث ما فى الترسانة الأمريكية بما فى ذلك حاملات الطائرات والهليكوبتر التى تدخل صراع الشرق الأوسط لأول ومرة ، بما فى ذلك أيضا مالم يزل تحت التصميم وماسيزيد عما تطلبه اسرائيل نفسها - «الى ان تقول كفى»! ..

وتلك جميعا كانت هى اللعبة الامريكية المزدوجة التى ينبغى أن يتنبه ويتصدى لها كل أعداء الامبريالية والاستعمار. إننا منذ بدأ الصراع وإلى ما قبل أكتوبر كنا من الخوف من أمريكا فى هزيمة لإسرائيل بانتظام. والآن تريد أمريكا أن تجعلنا من خوف الحرب النووية العالمية بلا نصر على إسرائيل. وبهذا تضمن أمريكا تمييع الصراع وامتداده إلى ما لا نهاية دون حسم قاطع، ومعه تضمن بقاء إسرائيل إلى الأبد.

العلاقة الامريكية - الاسرائيلية فى عالم متغير

غير أن أمريكا كانت تخطىء حسابات الزمن وقراءة «وردة» الرياح العالمية، رياح التغير ومتغيرات العصر، وتسير ضد التيار، تيار التاريخ والمستقبل، سواء على المدى القريب أو البعيد. انها كالقوة الأعظم الأولى في العالم قد بدأت تعبر خط الزوال، أو على الاقل نقطة الأوج، بدرجة أو بأخرى. فهى من قبل قد فقدت الكثير من قوتها وسيطرتها النسبية فى العالم بالقياس إلى ما كانت عليه منذ ربع قرن بعد الحرب الثانية. فمنذ تلك القمة المطلقة على عرش القوة، أخذت الولايات تتلقى الضربات والهزائم فى أركان العالم. ومنذ هزيمة فيتنام بوجه خاص، ثم مع تغير

موازين القوى فى العالم وتعدد المراكز ، ثم أخيرا بالوفاق ، وهى فى مرحلة انحدار قوة واضحة لاشك فيها.

إن ظل أمريكا - القاتم - على العالم قد أخذ ينحسر تدريجيا، وقبضتها عليه تتراخى باطراد. ثم جاءت معركة أكتوبر آخيرا ضربة قاصمة لكل من إسرائيل وأمريكا على السواء. ولعل مما له مغزاه أن كلا منهما فقد دور رجل البوليس فى وقت واحد تقريبا: أمريكا، دور رجل البوليس العالمى، وإسرائيل ، دور رجل البوليس المحلى فى الشرق الأوسط . وليس صدفة كذلك أن عزلة الاثنتين معا فى العالم تتزايد بسرعة نادرة فى السنوات الأخيرة، حتى أصبحت أمريكا هى الحليف والصديق الوحيد تقريبا لإسرائيل. إن الحبل السري بين إسرائيل وأمريكا أصبح الشريان الوحيد الذى يربطها بمصادر القوة المادية والمعنوية، العسكرية والسياسية والاقتصادية. وإذا كان هذا هو الذى أنقذ إسرائيل من هزيمة كاملة فى سيناء والجولان، فقد زاد من تبعيتها لأمريكا إلى حد يفقدها باطراد حرية الحركة والارادة المستقلة، ويجعلها آكثر من أى وقت مضى مستعمرة ورهينة أمريكية اسما وفعلا وشكلا وموضوعا، وآخطر من ذلك يربط مصيرها ووجودها بمصير أمريكا فى عالم القوة والمصالح المتغير أبدا .

إن العلاقة الخاصة، الحميمة والمحمومة، بين الاثنتين تتعرض الآن لضغوط متغيرات دولية طاغية، وتعيش فى عالم متغير وتحت مناخ غير موات لها. فالى جانب شحوب صورتهما فى العالم، فان موازين القوة، عالميا واقليميا، تحولت وتتحول باطراد لغير صالحهما بل وضد مصالحهما المشتركة أو المنفردة، لقد بدأ مع أكتوبر وبفضله المد التقدمي والتحررى فى العالم، وارثا المد الرجعى الذى بدأ مع حرب يونيو. وقد جاء أكتوبر انتصارا لكل جبهة التحرر الوطنى والتقدمية والمعسكر الاشتراكى وأعداء الامبريالية فى العالم. ومن أبرز مؤشرات هذا التحول أن إسرائيل إنما ضربت أول ضربة حقيقية فى وقت أصبحت فيها حاميتها أمريكا أقل قدرة من أى وقت مضى على فرض إرادتها على العالم.

وعند هذه النقطة بالذات أيضا يأتى سلاح البترول العربى بكل ثقله ليضع العلاقة الإسرائيلية - الأمريكية لأول مرة أيضا فى مأزق حقيقى جدا، وليضع أمريكا أمام اختيار رهيب: أما فطامها إسرائيل من المساندة الظالمة، وأما فطامها هى نفسها من البترول العربى. وفى هذا كتب اريك رولو يقول «إن الاسرائيليين قد أفاقوا أخيرا من أحلامهم بعد معارك ٦ أكتوبر، فقد اتضح لهم مدى انعزالهم دوليا، فحتى الحليفة الأولى - أمريكا - لم تتأخر فى الوقوف ضد أطماعهم

عندما هدد العرب المصالح الأمريكية تهديدا مباشرا بعد قطع البترول عنها».

هكذا أثبتت حرب أكتوبر أن إسرائيل هي أسوأ استثمار للغرب في المنطقة، بعد أن كانت تبدو أحسن استثمار، فبعيدا جدا - وهي التي فشلت في حماية نفسها - عن أن تكون حامية للمصالح الأمريكية أو حارسة عليها في المنطقة، أصبحت هي نفسها خطرا حقيقيا على المصالح الأمريكية البترولية وغير البترولية فيها. انها لم تعد تخدم مصالح أمريكا، بل هي الآن تهدمها . وبعد أن كانت أمريكا تعد العرب حاملة البترول وإسرائيل حاميته، فرض أكتوبر معادلة جديدة مؤداها أن العربي هي حارسة البترول الحقيقية وإسرائيل هي حارقته. لقد أحدثت الحرب، نحن نخلص، انقلابا صامتا ولكنه مرني في علاقة المصالح بين أمريكا وإسرائيل، وهذا هو مأزقهم التاريخي الذي سيكون له بالقطع ما بعده.

أمريكا وسلاح البترول

ونحتاج هنا إلى نظرة فاحصة إلى حقيقة موقف أمريكا البترولي ثم انعكاس الموقف العربي عليه. أمريكا تنفرد بوضع بترولي خاص، نحسبه نقطة قوة لها في وجه الضغط العربي، ولكنه في الحقيقة نقطة ضعف. فهي وحدها من بين الدول الصناعية الغربية الكبرى التي لا

نعتمد على بترول العرب الا بنسبة محدودة نوعا. ومن هذه الحقيقة حاولت دعائيا كما رأينا أن تثبط من همة العرب وتشيع أن سلاح البترول سلاح غير فعال أو مجد.

فعند بدء المقاطعة العربية المطلقة، أعلنت أمريكا أن نسبة اعتمادها على البترول العربى لا تزيد على ٣٪، عادت فرفعتها إلى ٧٪ ، من مجموع استهلاكها القومى ، وأن من الممكن تعويضه بوسائل ومن مصادر أخرى عديدة. ثم اتضح أن هذه النسبة تصل فى الحقيقة إلى نحو ٢٠٪ كما أعلن فردريك دينت وزير التجارة الأمريكى، بينما اعترف هنرى جاكسون رئيس لجنة الشئون الداخلية بمجلس الشيوخ الأمريكى أنه «قد اتضح أن أزمة الوقود في الولايات المتحدة أسوأ مما كنا نتوقع جميعا» وستؤدى إلى أضرار «لم نكن نتصور مداها فى البداية». وبالفعل ، لم يلبث اقتصادها وصناعاتها، فضلا عن نظام حياتها اليومي وحضارتها التقليدية، أن اختلت وتخلخلت بشكل حاد وعنيف.

وإلى هذا فقد وقفت أمريكا في ساحة المحكمة وقفص الاتهام أمام العالم كله، فهي المتهم الاول في أزمة الطاقة وخفض البترول فى العالم اجمع. وعنادها ومعاداتها للحق العربى كان يطيل الأزمة ولا يعاقب إلا بقية المجتمع الدولي ولا يعنى فى النهاية إلا أنها تبيع مصالح العالم

بأسره من أجل الفتوح والغزوات الاسرائيلية والاغتصاب العدواني الصهيوني.

من هنا أصبحت أزمة الطاقة في الولايات هي أزمة المجتمع الأمريكي من الداخل، بينما أصبحت أزمتها في الخارج هي أزمة السياسة الأمريكية العالمية برمتها. وبذلك باتت الحكومة الأمريكية محاصرة ومتهمة ومدانة داخليا وخارجيا. لقد غزت أزمة الطاقة، ومعها لأول مرة أزمة الشرق الأوسط ، كل أركان وطبقات وبيوت المجتمع الأمريكي من الداخل. أصبحت أزمة الشرق الأوسط لأول مرة مشكلة أمريكية خاصة تعني كل أمريكي بعد اللامبالاة والاستخفاف إن لم يكن الانحياز والتواطؤ ، تماما كما كانت أزمة حرب فيتنام.

وتماما كأزمة فيتنام، فإنها بدأت تشطر المجتمع الأمريكي وتقسمه من الداخل وتخلق تناقضا بين سياسة الحكومة الفعلية ومصالح الدولة الحقيقية. لقد عرت أزمة الوقود الحكومة أمام الشعب، وكشفت كيف تبيعه لصالح شعب أجنبي غريب، وأن المصالح الاستراتيجية الحقة لأمريكا لا تكمن كما تزعم الحكومة مع إسرائيل والدفاع الظالم الأعمى عن اغتصابها ، وإنما هي مع المصالح والحقوق العربية تكمن.

ومن هنا فان رأيا عاما بازغا، أو حتى جنينيا لايزال، بدأ يتكون ويتكتل ضد سياسة الحكومة: بعض كبرى شركات البترول ذات المصالح المحققة فى العالم العربى، بعض الاقليات كالزنوج، وقلة من العناصر الليبرالية والمثقفين.. إلخ. على سبيل المثال منشور مدير إحدى كبرى شركات البترول الامريكية قبل المعركة، الذى حذر من ضياع المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط، وأثار ثائرة الصهيونية. مثل آخر: أحد الشيوخ الأمريكيين يعلن بعد المعركة أن أمريكا قد أصبحت «رهينة إسرائيلية» .. إلخ. حتى بارى جولدرووتر، داعية الحرب النووية فى فيتنام، صرح بأن «الشعب الأمريكي سئم حروب إسرائيل» ! وذلك كله ما باتت الحكومة تخشى أن ينتشر ويستشرى فيتحول إلى جماعة ضغط فرأى عام ساند يكرر فى النهاية قصة انشقاق المجتمع الأمريكى من الداخل أيام فيتنام. وهذا أيضا بعض السبب في أن إدارة نيكسون حاولت باستماتة أن تتحاشى توزيع البترول بالبطاقات حتى آخر لحظة كى ما تعطي المواطن الضحية شعورا كاذبا بالرخاء وعدم خطورة الأزمة.

وهو كذلك بعض السبب فى تلويح أمريكا للعرب بالتدخل العسكرى المباشر لاحتلال مناطق البترول لصالح «العالم المتحضر» . مثلا أعلن وزير الدفاع شلزينجر أن التدخل العسكرى «احتمال، وإن كان بعيدا

جدا» ، وحذر من أن «حقوق الدول فى الاستقلال والسيادة لا يجوز استخدامها بحيث نصيب العالم الصناعى فى قلبه.. فهذا خطر عليهم كما هو علينا». وحتى فولبرايت الليبرالى لم يتورع عن التهديد، حيث قال أن على العرب أن يعاملوا ثروتهم البترولية على أنها مسئولية دولية، وأن الدول الصناعية القوية قد ترد بشكل ما على سبيل الانتقام. غير أن هذه اللهجة العتيقة البالية. دبلوماسية الزوارق المسلحة أو بالأحرى دبلوماسية القراصنة، لم تفعل سوى أن أكدت الروح العنصرية أولا والعدوانية ثانيا الكامنة وراء كل السياسة الامريكية الخارجية.

أما العرب كما رأينا فلم يرتعدوا أو يرتدعوا، أعلنوا ببساطة قبولهم للتحدى وحزموا بالفعل أبارهم بالديناميت. ومن الملاحظ بعد هذا الاصرار والصمود العربى أن أمريكا عادت فخففت من لهجتها. فقد أعلن شلزينجر بعد ذلك ما نفى به ما سبق التصريح به من تهديدات واحتمالات التدخل العسكرى. كما عادت أمريكا فقبلت مرغمة حذف كلمة «الابتزاز» من حديثها عن البترول العربى!

ولما كانت أزمة الطاقة فى أمريكا قد ظلت فى مراحلها الأولية، فإنها لم تعكس قط ثقل العقاب والحرمان العربى بكامله. غير أن الوضع كان حريا بأن يختلف كثيرا وربما وصل إلى حد «الكارثة القومية» لو أن

الازمة طالت شهورا اخرى أو أكثر - وقد كان العرب أعلنوا استمرار الحظر حتى يبدأ الانسحاب الإسرائيلي أو على الاقل اعلان تعهد إسرائيل بالانسحاب الكامل مع ضمان أمريكي بالتنفيذ. وقد دأبت أمريكا على أن تروج من حين إلى حين أن العرب على وشك رفع الحظر. ولكن هذا لم يتحقق الا في مارس ١٩٧٤ بشروط العرب، وهي إعادة النظر في القرار في يونيو، الأمر الذى يعني في الحقيقة إعادة فرض الحظر إذا لم تنفذ أمريكا تعهداتها.

وفي هذا الصدد حذر فولبرايت في دراسة أعدها وفد من لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس من أن العرب قد يعودون إلى استخدام بترولهم كسلاح حتى تجاب مطالبهم ضد إسرائيل. فقد وجد الوفد فى كل دولة عربية زارها إيمانا تاما في صحة وقيمة استخدام البترول كسلاح لارغام آمريكا للضغط على إسرائيل. ذلك أن التوصل إلى الفصل بين القوات في السويس أثبت للعرب أن البترول سلاح فعال. ومن ثم يبدو من المعقول - يمضى التقرير - توقع استخدامه مرة أخرى كوسيلة للضغط على آمريكا في معالجة المشاكل السياسية الأكثر حيوية والمتعلقة بالفصل على الجبهة السورية ومستقبل القدس والشعب الفلسطيني.

ومن جانبهم ، فلقد أكد العرب حين اصدروا قرارهم شبه الاجماعى برفع الحظر أن «الذى يرفع يستطيع أن يحظر من جديد» وأن «استخدام البترول كسلاح سياسي سيكون دائما تحت تصرف العرب إذا لم يتم انسحاب إسرائيل من الأراضى العربية المحتلة». وهذا يفسر النص على إعادة النظر فى الموقف في يونيو. وإذا كان العرب قد اعتمدوا صيغة تعميمية دون تحديد أو تسمية دولة بعينها، وكانت أمريكا على لسان رئيسها قد لجأت إلى التهديد بأنها لن تخضع لأى ضغط من جانب الدول العربية ولن تقبل رفع حظر مشروط ، وحذرت من أن الرفع المؤقت أو المشروط «ستكون له أثار عكسية للاهداف التي تسعى اليها الدول العربية» فلم يكن هذا وذاك فى الحقيقة إلا لحفظ ماء وجه امريكا. ومن هذا الموقف وحده نستطيع أن نتفهم ما أعلنه نيكسون من أنه «لايعتبر رفع الحظر العربى البترولى قرارا مشروطا»، كما أكد فى الوقت نفسه «أننا نسعى إلى تحقيق سلام دائم مهما حدث للحظر».

ذلك كان الموقف حتى قريب . فاذا ما استمر الشوط إلى نهايته المفترضة فقد ترغم أمريكا على أن تضغط جديا على إسرائيل للانسحاب . لكن هذا لن يكون الا بعد صراعات قوة طاحنة داخل المجتمع الأمريكى عامة وداخل الادارة الأمريكية نفسها ثم مع الحليف

لإسرائيلي المعاكس. كما أن هذا الضغط ليس من المحتم أن يكون كاملا او مؤثرا بالضرورة. غير أنه في كل الأحوال سيؤدى إلى تخلخل في التطابق التام السابق بين وجهتي نظر أمريكا وإسرائيل، وقد يتسع مع الوقت إلى شرخ أساسى فى العلاقات بينهما (؟). وكما أن إسرائيل قد تعلمت ان الآمن ليس بالقوة، فكذلك قد تتعلم أمريكا مستقبلا أن البترول ليس باسرائيل. بل الواقع آن هذا ما حدث بالفعل، وهناك مؤشرات حقيقية على تغير فى الموقف الأمريكى، الذى ينبغى أن يكون موضوعنا التالى.

وأثناء حرب أكتوبر، بالطبع، وإلى ما بعدها لبعض الوقت، لم يكن هناك آى دليل على آن أمريكا قد غيرت أو ستغير موقفها العدائى من العرب - الا أن يكون التغيير فى اتجاه التصاعد. غير أن المفاجأة الكبيرة هي أن تغيراً محسوسا وهاماً قد حدث بعد ذلك بالفعل، لا شك بسبب الحرب نفسها ونتائجها غير المتوقعة. ولهذا يتعين علينا أن نميز في دراستنا هذه للموقف الأمريكي بين مرحلتين، وهو تمييز كان مستحيلا وغير متصور على الاطلاق منذ عام فقط بل أقل من العام. وربما كانت دورة العام من ١٩٧٣ إلى ١٩٧٤ هى الخط الفاصل بين هاتين المرحلتين بالتقريب. فأما المرحلة الأولى فهى مرحلة التطابق التام أو شبه التام بين آمريكا واسرائيل ، وأما الثانية فهى مرحلة اهتزاز

التطابق أو مرحلة الاختلاف البازغ التى ظهرت بالتدريج خلال الشهور القليلة الأخيرة.

مرحلة التطابق

فعندما قامت الحرب كان انحياز أمريكا لاسرائيل كاملا ومطلقا. فهى وإن لم تثر مسألة من الذى بدأ بالهجوم أى بالعدوان (ببساطة لانها كانت أسخف من أن تثار)، فقد حاولت إن ترغم العرب على عدم مواصلة القتال منذ أول يوم، مرة بدعوى الخوف عليهم من هزيمة ساحقة قاضية تنتظرهم على يد اسرائيل كالمعهود (كذا)، ومرة بدعوى ضبط النفس والحرص على السلام العالمى.. إلخ . ولكن الأخطر من هذا أنها، رغم بعض التردد المؤقت، اتخذت القرار المعادى باغراق اسرائيل بالسلاح المتطور والمتفوق حتى تقول هذه «كفى».

وكان الأمر المؤكد أنها تريد أن تعيد التفوق العسكرى للعدو وأن تطمس انتصار العرب بأى ثمن واجهاضه إن أمكن لصالح اسرائيل. ومن الثابت أنها دخلت المعركة بالفعل وإن يكن بصورة غير مباشرة، إلى الحد الذى دعا الرئيس السادات أن يكتب بنفسه إلى الرئيس الأسد أثناء المعركة قائلا «.. فى الأيام العشرة الأخيرة فاننى على الجبهة المصرية أحارب أمريكا بأحدث ما لديها من أسلحة».

كذلك فلقد كانت هناك عدة علامات كما حدثت بعض تطورات ومواقف فى أعقاب الحرب مباشرة لم تكن تشجع كثيرا على التفاؤل بصدد الموقف الأمريكي. فثمة مجموعة من الشيوخ الأمريكيين حرضت إسرائيل علنا على عدم الانسحاب من شبر واحد من الأراضى المحتلة(!)، بينما ذهب السناتور هنرى جاكسون الصهيونى المتعصب إلى أن «يجب عدم مكافأة العرب والروس بتنازلات لأنهم الذين بدأوا الحرب» (كذا!) . ولن نذكر هنا تلك النظرية المفرطة فى التشاؤم والتي كانت تقول أن أمريكا قد تشجع وتدفع إسرائيل إلى الحرب من جديد لتفرض وضعا عسكريا جديدا أفضل يساعد أمريكا على فرض تسوية سياسية ملائمة من وجهة نظرهما معا. ولكن يكفى أن نذكر تصريحات الرئيس نيكسون المتعددة، خاصة فى اتصالاته مع مايير، عن التزام الولايات بضمان قوة وأمن اسرائيل ورخائها ورفاهيتها.

وحتي البعض ممن يعدون أصدقاء العرب أو غير المنحازين من السياسة الأمريكيين نصح العرب بألا يتوقعوا أن يستردوا كل أرضهم المفقودة في يونيو. فمثلا صرح فولبرايت بأن العرب لا يمكنهم أن يتوقعوا استعادة كل بوصة من الأرض التى خسروها عام ١٩٦٧ فى التسوية النهائية. وبعد أن وضح للاسرائيليين أن عليهم أن يروضوا

انفسهم على حل وسط وأن الوقت لم يعد فى جانبهم، أضاف أن التعديلات فى الأراضى التى تطالب بها إسرائيل يجب ألا تكون جوهرية.

وعدا هذا فلقد كان البعض يرى فى الموقف الأمريكى من أوربا أثناء الحرب مؤشرا كافيا جدا لتحديد اتجاه آمريكا ونواياها فى الضغط على إسرائيل من آجل سلام عادل ودائم فى المنطقة. فلقد أشار هؤلاء المعقبون إلى أن أمريكا التى اصطدمت اصطداما خطيرا مع كبريات حليفاتها فى أوربا الغربية لسبب ثانوى نسبيا وهو مجرد عدم المساهمة فى نقل السلاح الأمريكى إلى إسرائيل أثناء الحرب ، لا يتوقع منها منطقيا أن تصطدم مع إسرائيل نفسها لمصلحة العرب.

لكل هذا ولغيره كثير كان الرأى الغالب بين المراقبين حتى أواخر العام الماضى تقريبا هو أن تأثير الحرب على السياسة الأمريكية فى المنطقة كان لايزال ثانويا وطفيفا، وأن أهدافها الأساسية ظلت قائمة كما هى، وهى باختصار أن إسرائيل قبل وفوق الجميع. بل لقد كان البعض لا يستبعد أن تتفق أمريكا مع إسرائيل فيما بعد على «جولة حرب جديدة، تريان أنها أصبحت قادرة عليها، لاعادة «عقارب القوة» إلى الوراء».

التغير الأمريكى واهتزاز التطابق

غير أن هناك ، فيما بدا على وجه اليقين ، تغيرا طرأ على موقف امريكا. وآن بقى أن نعرف حجمه ومداه وإلى أى حد. وإذا لم يكن هناك شك في وقوع التغيير، فكذلك لا شك البتة في سببه. «ما الذى غير موقف امريكا؟.. نحن الذين غيرنا موقف أمريكا» - كما تساءل ثم اجاب الرئيس السادات. فلا جدال آن حرب أكتوبر هى المسئولة عن هذا التغيير، ولا مجال للشك أو التشكيك فى هذا. بل لقد اعترف الرئيس الأمريكى نيكسون شخصيا بذلك حين قال «لقد كان على الولايات المتحدة - بعد حرب آكتوبر - أن تقوم بدور ايجابى بهدف التوصل إلى تسوية دائمة فى الشرق الأوسط». فلقد كان هناك دائما خطران مسلطان ومعلقان على رآس أمريكا (ومعها اسرائيل) ما لم يتم التحرك بسرعة نحو تسوية سياسية مقبولة عربيا .

الخطر الأول عودة العرب إلى الميدان ، وهذا آمر مفهوم ولا يحتاج الى تعليق، لأن توقف القتال نفسه كان ملعقاً بشرط تحقيق تلك التسوية. وفى هذا كانت أمريكا تخشى دائما تصاعد الصدام المحلى إلى مواجهة نووية مع الاتحاد السوفيتى. أما الخطر الثانى فسلاح البترول الذى ظل يعمل بلا توقف عدة شهور بعد المعركة وكان له أثره الخطير فى الحياة الأمريكية والاقتصاد الأمريكى، فضلا عن الحرج

السياسى البالغ والعزلة اللذين استشعرتهما الولايات من جراء الضغوط السياسية والمادية والمعنوية التى كانت تتعرض لها (وتبذل مثلها أيضا) كل دول العالم التى أضيرت من خفض انتاج البترول العربى.

وقد تبدى تحرك أمريكا والتحول الجنينى فى موقفها فى الاتصالات الدبلوماسية المكثفة التى قام بها كيسنجر بوجه خاص مع العرب وبالأخص مع مصر . ثم تأكد الاتجاه فى الفصل بين القوات على الجبهتين المصرية ثم السورية ودور كيسنجر فيه. ثم استمر هذا الاتجاه البازغ أو النامى الذي كشف عنه أساسا الرئيس السادات شخصيا وبنفسه فى سلسلة من الأحاديث الصحفية العالمية والخطب الجماهيرية ، نقتبس منها هنا بحسب تسلسلها الزمنى.

فأولا أوضح الرئيس أن «تغييرا جوهريا قد طرأ على السياسة الامريكية.. فعلى الرغم من أن الولايات المتحدة أمدت إسرائيل على نطاق واسع بأكثر الاسلحة والمعدات العسكرية تعقيدا وتقدما، الا أنها أدركت بسرعة خطورة العواقب الناجمة عن حرب ٦ أكتوبر ، وكانت هذه هى نقطة التحول التى أفضت بالولايات المتحدة إلى نظرة جديدة تجاه الشرق الأوسط، وإلى أن تشرع تبعا لذلك فى انتهاج سياسة تعمل من أجل السلام القائم على العدل فى المنطقة».. ثم وضح سيادته،

موجها حديثه إلى آرنو دى بورجريف مندوب النيوزويك الأمريكية، كيف ان «مجادثاتي مع الدكتور كيسينجر قد أقنعتني بأنه يرفض الفكرة السانجة التي يذهب إليها بعض الاستراتيجيين عندكم ممن ينظرون - أو كانوا ينظرون - إلى إسرائيل باعتبارها رجل البوليس الأمريكي في هذا الجزء من العالم».

وفي مناسبة أخرى صرح الرئيس بأننا «لا نريد من الولايات المتحدة أن تكون إلى جانبنا، وانما أن تكون إلى جانب العدل. وأعتقد أنهم يتغيرون، وأن كل شيء سوف يسير على ما يرام». وفي مؤتمر لاهور كان في استطاعة الرئيس أن يعلن «الآن يمكن القول أن الأمل كبير في أن تؤدى المحادثات التي تجرى حاليا حول الشرق الأوسط إلى سلام دائم». وفي مناسبة تالية انتهى الرئيس على هذا الأساس وغيره مما «لا أستطيع اليوم أن اكشف عنه» إلى أن «أمريكا اتخذت موقف المؤيد للسلام القائم على العدل والتزمت به بواسطة الدكتور كيسنجر في كل تصرفاتها حتى هذا اللحظة». ولهذا «لا يجب أن تؤخذ الأمور بنفس أسلوب ما قبل ٦ أكتوبر». ثم تساءل «هل من مصلحتنا أن نأخذ عداوة الشعب الأمريكي بعد هذا الموقف؟» «وحيث انه لم تكن هناك مشاكل بيننا (وبين أمريكا) سوى هذا الانحياز الأمريكي لإسرائيل، وإذا استطعنا أن نصل إلي تفاهم .. فلن يكون هناك ما يعكر صفو العلاقات».

وفي حديث إلى مجلة شتيرن الألمانية أكد الرئيس مرة أخرى «أن الموقف في أن أمريكا نعبر تغيرا حاسما.. ولابد أن أقول أن تغيرا كاملا عد حدث. ويقنضيني واجبي نحو أمتي أن استغل هذا الموقف الجديد. ما الذي كان عليه الحال قبلها؟ مواجهة مع أمريكا، ولم يفدنا هذا اطلاقا. وكنت دائما أقول : لابد لنا قبل إزالة التوتر مع إسرائيل، من إزالة التوتر مع الولابات المتحدة». وأخيرا وفي خطابه إلى الأمة بمناسبة ورقة أكتوبر، أعلن الرئيس أن «أمريكا ليست معنا، ولكنها لم تعد ضدنا الآن .. أمريكا واقفة في الوسط بيننا وبين اسرائيل .. لقد استطعنا تحييد أمريكا التي كانت منحازة لاسرائيل وتتبنى وجهة نظرها بالكامل».

أما من ناحية امريكا نفسها ، فقد تتابعت، أو بالدقة تصاعدت، من جانبها التصريحات والمواقف التي تشير إلى التغير عقب أكتوبر. نعم، كما عبرت التايمز بحق، «لقد جاءت لحظة الصدق بالنسبة لأمريكا في الشرق الأوسط». ولقد كان كيسنجر يردد دائما ان «أمريكا ملتزمة بالدفاع عن أمن إسرائيل وبقائها، لكنها غير ملتزمة بالدفاع عن فتوحاتها». وبعد الحرب فلقد أضاف أن أمريكا ستحجب تأييدها عن اى طرف يبدأ القتال مرة أخرى في المنطقة. وفي خطوة تالية أوضحت الولايات المتحدة انها تشعر انه يجب التوصل إلى بعض الحلول

الوسطى لتجنب اندلاع حرب جديدة فى الشرق الأوسط، وكذلك خطر مواجهة بين آمريكا وروسيا فى المنطقة.

. وأخيرا ، وليس اخرا ، صرح الرئيس نيكسون بنفسه بعد رفع حظر البترول العربى عن امريكا آن الولايات المتحدة سوف تواصل مساعيها لاقامة علاقات أفضل مع مصر والدول العربية. وكان مما قاله أن من مصلحة إسرائيل في المدى البعيد أن تكون آمريكا صديقة للدول العربية، ولو آن اقامة الصداقة بين آمريكا واحدى جارات اسرائيل لن تجعل من آمريكا عدوا لاسرائيل، التى آكد ان وشنطن مستمرة فى تاييد استقلالها وسلامة آراضيها. ثم آضاف الرئيس الأمريكى أنه لن يكون هناك سلام دائم فى الشرق الأوسط ما لم يساند الاتحاد السوفيتي جهود الولايات المتحدة. أو كما قال بالتفصيل «لا يمكن أن يكون هناك سلام دائم فى الشرق الأوسط الا إذا كانت الولايات المتحدة تعمل من أجله ، ولا يمكن آن يكون هناك دور تقوم به الولايات المتحدة الا إذا كان الاتحاد السوفيتي معها». ثم أكد فى النهاية أن النزاع العربى - الاسرائيلى سيكون كما كان دائما أحد أهم الموضوعات فى محادثات القمة المرتقبة فى موسكو خلال يونيو ١٩٧٤.

هكذا نرى بالفعل أن هناك علامات ومؤشرات على تغير الموقف الأمريكى، وإن كان من السابق لأوانه كثيرا، كما هو من المستحيل

بالطبع، أن بجزم احد بمدي وحجم ذلك التغير، وإلى أى حد يتناسب هذا مع ، أو يقصر دون ، المطلوب لفرض التسوية على الطرف الرافض. وإذا كان البعض أو الكثير منا ومن غيرنا قد تساءلوا بحق عن السبب فى هذا التغير الذى يبدو غريبا نوعا مثلما هو فجائى جدا، حيث أن «أمريكا، عدوتنا التقليدية وصديقة اسرائيل، أصبحت فجأة ولية أمر سلامنا» كما سألت الرئيس السادات الصحفية اللبنانية علياء الصلح ، فان هناك على ما يبدو مجموعة معقدة ومتشابكة من الأسباب والدوافع الاستراتيجية والتكتيكية.

بالأولى نقصد خشية أمريكا من عواقب التصاعد والتصادم النووى، وربما كذلك ضغوط الوفاق، ثم خطر البترول المسلط، وأخيرا خوفها من أن تفقد المنطقة العربية أو أصدقاءها أو مصالحها فيها نهائيا ، ورغبتها كذلك فى استعادتها بل وإن أمكن «طرد» منافسيها بها سواء من الشرق أو الغرب.

أما الأسباب التكتيكية، التى قد تبدو دخيلة وعارضة ولكنها فاعلة ومؤثرة مع ذلك، فتتمثل فى مشكلة الادارة الأمريكية الداخلية، أى أزمة ووترجيت. فالمقول أن تلهف الرئيس الأمريكى على تحقيق نصر سياسى عالمى داو فى الشرق الأوسط، على غرار ما فعل مع السوفيت ثم الصين، يمكن أن يبعد به أنظار وانتباه الأمة عن الأزمة ويغرقها به

ويعوض عنها، قد يكون من دوافع آمريكا إلى البحث الجاد عن حل لأزمة الشرق الأوسط..

فإن صح هذا، ولعله لا يخلو من صحة، لكان معناه أن العوامل التى حدت بالقيادة الأمريكية إلى موقفها «النووى» المتطرف غير المعقول أثناء المعركة، هى نفسها التى تدفعها الآن إلى الاصرار على دور رجل المطافىء. ولئن بدا فى هذا قدر أو آخر من التناقض، ولا نقول الانتهازية، مما يجعل الدور الآمريكي في المرحلة الأخيرة سلاحا ذا حدين بدرجة آو بأخرى، فذلك أمر مفهوم فى السياسة، حيث تسيطر المصالح لا الاخلاقيات وتسود.

على أن المهم ان هذا بالدقة ما يجعل البعض يتخوف من الاعتماد آكثر مما ينبغى على الدور الأمريكى، حيث قد يعجز أو يسقط فجأة داخليا لذلك السبب نفسه. ولكن كما وضح الرئيس المصرى لمجلة شتيرن ، فانه لا يعتمد على «الاله الجالس فى واشنطن»، وانما على الشعب والجيش والامة العربية يعتمد. ومن جهة أخرى فان الدوافع المحلية التكتيكية الآمريكية تعد نقطة ضعف أخرى لها ازاء الضغوط الاسرائيلية المضادة المتمثلة فى ضغوط الصهيونية الامريكية القوية النفوذ واستغلالها أزمة ووترجيت الداخلية لابتزاز الرياسة وفرض حدود

معينة على مرونتها فى السياسة الخارجية المتعلقة بمشكلة الشرق الاوسط. والملاحظ فعلا تزايد الحصار المضروب حول الرئيس الأمريكى فى قضية ووترجيت، كما يلاحظ سقوط فولبرايت فى انتخابات الكونجرس، وقد تكشف الأيام عن أصابع الصهيونية وراء هذه التطورات. غير أن هذه وأمثالها مشكلة أمريكا مع اسرائيل أو اسرائيل مع أمريكا أكثر مما هى مشكلتنا مع أمريكا.

فهرس

مقــــدمة ٥

الباب الأول
الأرض والمعركة

الفصـــــل الأول – سيناء قدس أقداس مصر ١٥

الفصـــل الثـاني – معركة التحرير الكبري ٢٧

الفصـــل الثالث – استراتيجية المعركة ٩٠

الفصـــل الرابع – المعركة السورية الكبري ١٧٠

الفصل الخامس – النصر لمن؟ ٢١١

الفصل السادس – ٦ أكتوبر والإستراتيجية العسكرية والإقليمية ٢٤٦

الباب الثانى
٦ أكتوبر فى أستراتيجية السياسة العالمية

الفصـل السابع – العرب والسادس من أكتوبر ٣٢١

الفصــل الثامن – ٦ أكتوبر والعدو الإسرائيلي ٤٠٩

الفصـل التاسع – العالم والمعركة ٤٩٦

رقم الايداع ١١٤١٦ / ٩٧

I.S.B.N

977-07-0555-1

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٥ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 703 Hilal.V.N